الأستاذ الدكتور
مصطفى السيد جبر

lisanarabs.blogspot.com

أبو العباس المبرد

والبلاغة في كتابه الكامل

مكتبة لسان العرب

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel : (202) 23900868

أبو العباس المبرد

والبلاغة في كتابه الكامل

الأستاذ الدكتور
مصطفى السيد جبر

Editions Al-Adab 1923
42 Opera square - Cairo – Egypt

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨
البريد الإلكتروني e.mail: adabook@hotmail.com

الناشر

مكتبة الآداب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جبر، مصطفى السيد

أبو العباس المبرد والبلاغة في كتابه الكامل

- مصطفى السيد جبر . القاهرة مكتبة الآداب، ٢٠٠٧.

٤٥٢ ص سم

تدمك ٤ ٩٨٨ ٢٤١ ٩٧٧

١ - البلاغة العربية

٢ - المبرد ، محمد بن يزيد بن الأكبر، (٨٢٥ - ٨٩٨)

أ - العنوان

٨١٦

عنوان الكتاب: أبو العباس المبرد
والبلاغة في كتابه الكامل

الأستاذ الدكتور: مصطفى السيد جبر

رقم الإيداع: ٢٢٥٦٩ لسنة ٢٠٠٧م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 – 241 - 988 – 4

مكتبة
لسان العرب
أعلاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

مكتبة الآداب
١٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف ١٩٠٢١٣٣٩٠-٨٦٨ —
e-mail: adabook@hotmail.com

قال ابن خلدون فى مقدمته :

«سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفن - علم الأدب - وأركانه أربعة، وهى: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى علىّ القالى. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها. وكُتب المحدَثين فى ذلك كثيرة».

مكتبة
لسان العرب
علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فكتاب «الكامل»(*) لأبى العباس محمد بن يزيد المبرِّد موسوعة من موسوعات تراثنا العربى، وله منزلته فى اللغة والأدب والبيان.

والكتاب اختيارات من روائع الأدب ولا سيما الشعر، وهذه الاختيارات تبدأ من العصر الجاهلى وإلى زمن مؤلفه، ثم شرحها وبيانها. والمبرد يطوف بقارئه من خلال تحليله للنص الأدبى على الكثير من مسائل اللغة والأدب، ودراسات القرآن الكريم والحديث الشريف، كما يورد الكثير من الأخبار والنوادر ومعارف العرب، وهو يحدثنا عنها حديث العارف البصير، وذلك بأسلوب علمى واضح، لا لبس فيه ولا غموض، وفى تواضع العلماء.

ولأبى العباس الكثير من الكتب والرسائل، ولكن منزلة «الكامل» منها واسطة العقد؛ فقد ألفه بعد النضج العلمى، وكثرة البحث والدرس ومجالسة العلماء ومناظرتهم. والكتاب حافل بالكثير من آراء العلماء إلى جانب ما أضفى عليها صاحبه من رأيه وفكره، مما جعل للكتاب أهميته فى فروع اللغة العربية ودراسات القرآن الكريم والحديث الشريف؛ فلكتاب «الكامل» أهميته فى الفكر العربى والإسلامى.

والكتاب «لمَّا ينل حظه من الدراسة المتأنية، والتى تكشف عن قيمته العلمية

(*) النسخة التى رافقتنى فى هذا البحث هى طبعة: دار الفكر العربى. وقد جاءت تسمية «محمد ابن يزيد» كتابه بـ «الكامل» فى نهاية كتابه - انظر: خاتمة هذا الكتاب.

والأدبية؛ فمسائل اللغة والأدب وغيرهما ترد متناثرة، وعلى سبيل تداعى الأفكار، وأحيانا على سبيل الاستطراد، وهذه وتلك من سمات التأليف فى ذلك العصر.

ومسائل البلاغة وقضاياها تطالع قارئ «الكامل» كثيرا، وهى مشفوعة بالتحليل والبيان، غير أنها - كما قلت — ترد متناثرة، بل ومكررة أحيانا ـ والوقوف عليها يحتاج إلى الأناة، وطول النَّفس، والتذرع بالصبر، وذلك لجمع شتاتها، وتنظيمها، ودراستها دراسة علمية، على ما آل إليه الدرس البلاغى.

وفى كتاب «الكامل» تأصيل للفكر البلاغى، وبيان لمكان النبع؛ فالبلاغة وُلدت لمحات خاطفة، وإشارات متفرقة، ثم لقيت من جهود العلماء ما جعلها تنمو وتتطور إلى أن صارت بعدُ عِلما واضح المعالم قوى البنيان.

وهكذا غدت البلاغة فى لغة الضاد صرحا شامخا؛ فهى عربية المولد والنشأة والتطور.

ومنهجنا يقوم على دراسة البلاغة فى كتاب «الكامل»، وبيان ما كان للمبرد فيها من جهود فائقة فى التحليل والبيان والمقارنة أحيانا بين النصوص، ولذا قمت بهذه الدراسة المتأنية لتكون إضافة جديدة إلى دراسات البيان العربى، ولأبين ما كان لأبى العباس فيها من جهد وابتكار، ثم ما كان له بعد من تأثر وتأثير، وذلك على ما آل إليه الحال فى دراستنا للبلاغة.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

المؤلف

* * *

القسم الأول

أبو العبَّاس المُبَرِّد وكتابه الكامل

وفيه فصلان:

الأول: ترجمة المبرد

الثانى: منهج المبرد فى كتابه الكامل

الفصل الأول

ترجمة أبى العباس المبرد

أولاً : عصر المبرد

(أ) الناحية السياسية:

قضى المبرد حياته فى العصر العبّاسى ما بين عامي: (٢١٠ – ٢١٥هـ) حيث عاصر من خلفائها[1]: (المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد)؛ فقد قضى شطراً من حياته إبان عهد ازدهار الدولة العباسية إلى أول خلافة المتوكل (ت ٢٣٢هـ) حيث كان الخلفاء على درجة عالية من الكفاءة السياسية، والإدارية، والحربية. هذا إلى ما كانوا عليه من اليقظة، وتحمُّلُ المسئولية، وغير ذلك مما ثُبّت دعائم الدولة، وزاد من عزها؛ فكان لها وللخلافة شأن أى شأن!

كما قضى المبرد الشطر الأخير من حياته في زمن ضعف الدولة، وتسلُّط الأتراك عليها؛ فسقط بذلك هيبة الخلافة، وصار الخلفاء ألعوبة فى أيديهم، فذاقوا صنوف العذاب والهوان، كما دُبرت المؤامرات، ونُهبت الأموال مما أدى إلى التفكـك، وظهور عصر الدويلات. ونذكر هنا أمرين:

أولاً: أنّ هذه الدولة «قامت باسم الدين، والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل «مروان» الذين وصفهم الداعون بما شاءوا من صفات النقص والبعد عن الدين، ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله ﷺ وهذه الأحاديث لا يعرفها رجال النقد من

---

(١) توالى على حكم الدولة من الخلفاء قبل المأمون: (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس (السّفـاح)، وأبو جعفر المنصور، ومحمد المهدى، وموسى الهادى، والرشيد، والأمين.

المحدّثين»(١).

ثانياً: كثرة ما سُفك من الدماء في سبيل قيامها؛ فقد كانت حياة السفّاح مفعمة بالقسوة والتي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً مع بقايا بني أميـة، أو مع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها»(٢). ولم تكن هذه المعاملة قاصرة على أعداء الدولة، فإن أولياءها قد نالهم منها الكثير، فقد قتل غيلة كل من أبي سلَمة الخلاّل، وأبي مُسلم الخراساني وكان لكل منهما دور بارز في تأسيس الدولة وتثبيت دعائمها.

ومضى الخلفاء على هذا الحال لا يعرفون صديقاً ولا جليساً ولا ضيفاً؛ فقد فتكوا - دون تثبُّت - بمن شاءوا ونرى هذا واضحاً فيما كتبه «إبراهيم بن محمد ابن علي» إلى أبي مسلم الخراساني، وهو: «إن استطعت ألاّ تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله» ويبلغ بهم الأمر أن نبشوا قبور خلفاء بني أميـة ليمثلوا بهم وكانوا يجدون أكثرهم حطاماً أو أعضاء متفرقة غير «هشام بن عبد الملك» فقد وُجد صحيحاً، فأُخرِج وضُرِب بالسياط، وأُحرِقَ وذُري في الريح(٣).

وظهر على مسرح الحياة السياسية في هذه الدولة عنصران كان لهما خطر كبير في مجريات الأمور:

الأول: العنصر الفارسي:

فالفرس أصحاب حضارة قديمة وتاريخ مجيد، وقد عَزّ على من أسلم منهم أن تُمتهن كرامته، ويُحرم من حقوقه في عهد بني أمية، ولذا كانوا معاول في

---

(١) الدولة العباسية، محمد الخضري بك: ٣١.

(٢) المرجع السابق: ٤٨.

(٣) انظر: المرجع السابق: ٥٠.

تقويضها، كما كانوا دعاةً مهرة، وجنوداً مخلصين، فقاموا بتضحيات نادرة فى سبيل قيام دولة بنى العبّاس. وسواء كان هذا حبًّا للعبّاسيين، أو بدافع الانتقام من بنى أمية، أو لتحقيق آمالهم فقد تمّ لهم ما أرادوا، فكان منهم القواد، والوزراء، والقضاة والولاة والحُجّـــاب، والكُتّـــاب. كان الفرس بعامة أصحاب النفوذ، فقاموا على شئون الدولة ما جَلَّ منها وما هان...

ومضوا فى نشوة الظفر يدبرون أموراً جساماً حتى روى التاريخ أنهم رضوا عن «المأمون» فغلّب «الأمين» وتطلعوا إلى أن يكون لهم الرأى فيمن توسد له الخلافة ليكون بأيديهم زمامه، فقد أراد «الفضل بن سهل» أن يُحول الخلافة عن العبّاسيين إلى العلويين، ونادوا بالعباس بن المأمون خليفة دون «المعتصم»، ولكنه أخذ البيعة من العبّاس ثم خرج العباس إلى الفرس الثائرين وقال لهم: ما هذا الحب البارد؟ لقد بايعتُ عمى، وسلمت الخلافة إليه»(1).

وظلَّ الفرس يقرّبون ما عرفوا حق الدولة، ومكانهم من الخلفاء، وإلاَّ فمن سولت له نفسه أن يُدبِّر أمراً، أو يستعلى على الخليفة، أو ينقض أمراً أبرمه فإن جزاءه معروف. ولم تكن البرامكة بأقل من أبى مسلم طموحاً، وتطلُّعاً إلى هذا الأمر، فجمعوا إليهم القلوب، واشتروا ألسنة طائفة كبيرة من الشعراء، وابتاعوا ضمائر بعض العلماء بعطايا أغدقوها عليهم إغداقاً، وصلات سخية ربما كانت أحفل مما يبذل الرشيد نفسه، لكن عين الخلافة العربية نفذت إلى نواياهم فأفسدت عليهم تدبيرهم... فكانت نكبة البرامكة».

الثانى: العنصر التركى:

لمّا ولى المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) رأى أن يعتمد على الأتراك، عسى أن يجد عندهم القوة والمنعة من الفرس، فكان حاله أشبه بمن قيل فيه:

---

(١) الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى: للدكتور: محمد كامل الفقى: ٨ باختصار.

والمستجير بعمرٍو عند كربته كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنارِ

مضى المعتصم يستكثر من غلمانهم، فألف منهم جيشاً قوياً، ولكن لما كثر إيذاؤهم للناس فى «بغداد» شكى أهلها إلى «المعتصم»؛ فبنى مدينة «سُرَّ من رأى» لتكون لهم معسكراً، وبذلك أصبحت هذه المدينة بعد فترة عاصمة للخلافة. وحدث فى خلافة المعتصم حدثان هامان: القضاء على فتنة بابك الخُرمى[1]، وقطع دابر الفتن السياسية الدينية، ثم فتح «عمُّورية» فى آسيا الصغرى»[2]. وكان أشهر قواد الأتراك: إيتاخ، وأشناس، ووصيف، وفى ذلك يقول دِعْبل:

لقـد ضـاع أمـرُ النـاس حيـث وصـيفٌ وأشـناسٌ وقـد عظـم
وهمُّـك تـركيٌّ عليه مهانـةٌ فـأنت لـه أمٌّ وأنت لـه أبُ

على هذا النحو غدا الأتراك مصدر قلق وفوضى واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم مع بعضهم فى خلاف، فكل فريق يتعصب لقائد. هذا إلى أنهم لا ينقطعون عن الدس والمؤامرات، وهم كثيروا الطمع فى الأموال وبذلك أصبحت: «دار السلام» وما حولها ليست بدار سلام.

رأى الخليفة المتوكل (٢٢٣ – ٢٤٧ هـ) أن يتخلص منهم، إلاَّ أنَّ المنتصر كان يشايعهم، فعزم المتوكل على أن يفتك بالمنتصر، ويقتل بعض قادة الأتراك، ولكن شاء الله أن يفتكوا هم به فقتلوه، واستقرت الخلافة للمنتصر.

وكان قتل «المتوكل» أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين، وكان قتله

---

(١) الخرمى: نسبة إلى طائفة من الباطنية يدينون بما يريدون، ولقبوا بذلك لإباحتهم المحرَّمات وقد ظهر خطر «بابك» فى الفساد وإخافة السبل عام ٢٠١ هـ وقد حاربه المعتصم، فانتصر عليه وبذلك قبض على «بابك» وصلب بسر من رأى عام ٢٢١ هـ. انظر محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية: ١٨٩، وما بعدها.

(٢) تاريخ الأدب العربى، الأعصر العباسية: ٣٦.

قتلا لسلطان كل خليفة بعده، وإنذارا عاما للبيت المالك: أن من أراد أن يلى الخلافة فليذعن إذعاناً تاماً للأتراك. وقد زادت شرور الأتراك، فعندما ولوا «المنتصر» (٢٤٨هـ) فرضوا عليه أن يخلع أخويه من الخلافة، فأذعن لهذا الأمر، ثم بايعوا «المستعين» (٢٤٨-٢٥٢هـ) ولكن ما لبث أن ضايقوه ثم خلعوه، فهرب إلى «بغداد» ولكنهم لحقوا به وقتلوه هناك، ولما ولوا «المعتز» (٢٥٢هـ) خلعوه فى (٢٥٥هـ) وعندما ولوا «المهتدى» (٢٥٥-٢٥٦هـ) زعم أنه قادر على التلخص منهم، ولكنه لقى على أيديهم حتفه. ثم بايعوا «المعتمد» (٢٥٦-٢٧٩هـ) ولكنه ظل فى الخلافة حتى مات[١].

وهكذا ظل الحال بالخلفاء يسير من سيء إلى أسوأ: خلع وقتل ونهب وتخريب، فكان الأتراك يُسملون[٢] عينى الخليفة ويخلعونه. فعلوا ذلك بالخليفة «القاهر» (٣٢٠-٣٢٢هـ)، و «المتقى بالله» (٣٢٩-٣٣٣هـ)، و «المستكفى» (٣٣٣-٣٣٤هـ) وبآخرين من الخلفاء.

كان الأتراك أسوأ حالا من الفرس؛ فالفرس أصحاب حضارة، ولهم تاريخ طويل. أما الأتراك فإنهم بدو ليس لديهم ثقافة ولا حضارة موروثة، بل ولا يعرفون العربية عدا النادر منهم، ولذا كانوا يخاطَبون بمترجم، فكان حالهم أشبه بالتتار فى العصر الحديث، وما جروه على بلاد الشرق من التخريب والدمار. ولعلك تعجب! فمَن الخلفاء من تهافت على الزواج من نساء الأعاجم، وكانت النتيجة أن الخلفاء العباسين منذ «الهادى» كانوا أبناء أعجميات ـ عدا الأمين ـ فإن أمه «زُبيدة بنت جعفر المنصور».

وفى عهد «المأمون» حدثت مناوشات بين المسلمين والروم الذين كانوا دائما يتربصون بالمسلمين.

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية: ٢٨٢.

(٢) سمل عينه: إذا فقأها بحديدة محماة. اللسان، الصحاح (سمل).

وفى عهد «المعتصم» انتصر المسلمون على الروم وفتحت «عمُّورية» مسقط رأس «توفيل» ملك الروم سنة ٢٢٣هـ وكان المعتصم يتصف بالشجاعة والإقدام وشدة البأس. وقد سجل أبو تمام تلك الملحمة فى قصيدته التى مطلعها:

السيف أصدق أنباءً من الكُتب ... فى حدِّه الحد بين الجد واللعبِ

ولكن الروم عادت إلى حرب المسلمين فى عهد «المتوكل»؛ فقد أغارت على مصر سنة (٢٣٨هـ) من جهة دمياط، ثم حصل صلح وفداء سنة (٢٤٦هـ).

وفى هذا العصر قامت دولة الأدارسة فى بلاد المغرب ويحكمها «محمد بن على».

(ب) الناحية الاجتماعية:

- ١ -

كان المجتمع فى هذا العصر يتكون من طبقات مختلفة:

طبقة العلويين والعباسيين وهى تعتز بقربها من رسول الله ﷺ وكان يجمعهم كرههم لبنى أمية، وتعسفهم معهم بغية الوصول إلى الحكم، وكان الخلفاء غالبا يعاملونهم معاملة أساسها الاحترام والتعاون. فالمأمون يوصى أخاه «المعتصم» آخر عهده قائلا: «وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ فأحسن صحبتَهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل محسنهم، وصلاتِهم؛ فلا تغفلْها فى كل سنة عند محلها... »[1].

وطبقة رجال الحكم من القادة والوزراء ورؤساء الدواوين... وكان منهم من يزل، فيتعرض للعزل والقتل والنهب والتشريد.

ثم طبقة الأغنياء وذوى النفوذ، وكان منهم من يتعرض لتصفية ماله، فينزل إلى طبقة الفقراء والكادحين. ويليها طبقة العلماء وهؤلاء لهم مكانتهم عند

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية: ١٨٣.

أمثالهم وتلاميذهم، وكان هناك الزهاد والوعاظ والفقهاء. وهؤلاء يجدون أنفسهم عند العوام الذين يحبونهم ويتلمسون منهم البركة. ومن أعلامهم: ابن السمّاك، وأبو العتاهية، ويزيد بن هبيرة.

وأخيراً طبقة العامة والكادحين الذين لا يجدون قوت يومهم إلا بشق الأنفس، وكانت سعادة هؤلاء أنهم بعيدون عن طمع الدولة.

-٢-

ومع أن موارد الدولة كانت تفيض بالمال إلا أن أكثره كان يذهب إلى قصور الخلفاء، ورجال الحكم. أما الشعب فكان حاله الحرمان. وكان حظ كل خليفة من الثروة والترف يفوق من قبله بدرجات، كما كان يسير على هذا المنوال أصحاب النفوذ والأغنياء.

ولما نزع الخليفة «المهتدى بالله» إلى الزهد استُغرب منه ذلك ولم يطاوعه الناس وسئموا سيرته، فثقلت وطأته عليهم... وأدى الأمر إلى قتله.

كان لهذا الترف الزائد أثره على الشعب الكادح، فانتشر الدجل والسحر والتنجيم وأشباه ذلك عند العامة والبؤساء، علهم يعرفون طرق الغنى لما يئسوا من الأسباب المعقولة، وكذلك خالطوا الأولياء وطلبوا منهم الدعوات؛ أملا فى صلاح الأحوال.

وخفّ الوازع الدينى، فظهرت الرشوة والمحسوبية لدى من بيدهم مقاليد الأمور، فكانت الوزارة لا تُنال بعلم، ولا تُدرك بفضل... وإنما ينالها من يدفع الثمن، فكان ابن عمار وزير المعتصم طحّانا، أثرى وكثر ماله. واتسع ببغداد حاله، فاستوزره الخليفة، فالتاريخ يشهد أنه لم يكن له علم ولا أدب، لكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا[1].

(١) تاريخ الأدب فى عصره الذهبى: ٢١، نقلا عن: الآداب السلطانية: ٢٢١.

وكان لكثرة الاختلاط بالأعاجم وما نشأ عنه من المصاهرة والتسرى آثار بعيدة المدى من حيث العمران والحضارة، والأخلاق والعادات والتقاليد.

فالمنصور أسس «بغداد» لتكون حاضرة الخلافة، ومظهرا لعزهم ومدنيتهم، وتفنن الخلفاء من بعده فى تعميرها وتجميلها، فبنوا القصور الشامخة، وأحاطوها بالحدائق الغناء، تتخللها الجداول الثرّة بالمياه العذبة، كما أعدوا بها المجالس الجميلة، تعلوها القباب المموهة بالذهب والفضة، واقتنوا الأحجار الكريمة، وسار المقربون منهم والأغنياء على هذا النهج، وقد كان لزيادة موارد الدولة، كما كان للبرامكة فى ذلك دور كبير. وفى الجانب الغربى بنيت قصور الخلافة، وكانت تبهر الناظرين جمالا واتساعا.

وبلغ التأثر بالموالى مداه، وذلك فى المأكل والملبس، وفى الاحتفال بالأعياد الفارسية فقد أعدت فى القصور مجالسَ للهو والغناء والشراب وشجعوا الشعراء على وصف الجوارى والمغنيات بما يخرج عن حد الاعتدال ولا يقره الشرع، ولا الخلق العربى. وكان لكثرة الجوارى فى قصور الخلفاء آثاره السيئة فقد كان ذلك مدعاة للفساد، وإن كان الكثير منهن «يعلمن أصناف العلوم كالفقه والكلام، وأنواع الفنون كالغناء والرقص والشعر حتى إنهن كن يتخذن للمباهاة والمناظرة، وقد يبلغ ثمن جارية مثل هذه مئات ألوف الدراهم أو الدنانير، وقد كان بعض هؤلاء الجوارى شاعرات»[1].

وقد كان لهذا الاختلاط بعض المحاسن؛ فإن تعدد المذاهب والآراء واختلاف طرائق الجدل والحوار قد شحذ الملكة العربية وقواها، كما كان له أثره فى صد تيارات الروم وفتح عمورية، وقد أفاد فى كثرة المصنفات والمؤلفات آثاره الطيبة فى العالم الإسلامى.

---

(١) تاريخ الأدب العربى، الأعصر الفارسية، عمر فروخ: ٣٨.

(ج) الناحية الثقافية:

-١-

ولما ضعفت الدولة العباسية، وكان عصر الدويلات، سابق بعضها الآخر فى إكرام العلماء والأدباء، فكان كل منها ينافس الأخرى، كما كان كل لإقليم يزهو بعلمائه وأدبائه، فراجت سوق العلم والمعرفة، وألفت الكتب والموسوعات مثل: البيان والتبيين، والكامل، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ويتيمة الدهر للثعالبى... إلخ، ومن ثم لم تعد «بغداد» وحدها قبلة العلم ومقصد العلماء، ولكن ظهر إلى جانبها عواصم أخرى تسابقها مثل: القاهرة، والرّى، وبخارى... إلخ.

ولم يقتصر هذا الأمر على الخلفاء والأمراء، فالأتراك الذين لا يفهمون اللغة قد جارَوْا غيرهم أملا فى الشهرة «ومن طريف ما حكى أن «بجكما» التركى كان بـ «واسط» وكان من المقربين إليه «أبو بكر الصولى» وكان «بجكم» لا يجيد العربية، فاستدعى الصولى يوما، وقال له: إن أصحاب الأخبار رفعوا إلىَّ أنى لما طلبتك من المسجد قال الناس: أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا؛ أفتراه يقرأ عليه شعرًا أو نحوه، أو يسمع من الحديث؟ - يقولون ذلك تهكما - ثم قال «بجكم»: أنا إنسان وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب أن لا يكون فى الأرض أديب ولا عالم ولا رأس فى صناعة إلا كان فى جنبي، وتحت اصطناعى، وبين يدى لا يفارقنى»(١).

وإذا كان تعدد الدويلات أضعف الدولة العباسية سياسيا فإنه أفادها علميا وثقافيا؛ ذلك أن كل دولة سابقت الأخرى فى التشجيع وحاولت أن تستأثر بالعلماء والأدباء كى ينسبوا إليه ويذيعوا مآثرها ويكونوا لسانها ومجدها ـ هذا

---

(١) ظهر الإسلام: ١/ ٥.

إلى أن الكثير من المفكرين إذا أحسوا بالظلم هجروا السياسة، واشتغلوا بالعلم ففيه الأمن والأمان.

وقد نال العنصر الفارسي الكثير من تشجيع الخلفاء فقد كان الفرس على قدر من الفصاحة والبيان، فلأسلوبهم خصائص، فهم يكثرون من الصنعة والحلى اللفظية، كما أنهم يميلون إلى الإيجاز والإختصار... يقول الخضرى عن جعفر بن يحيى: «وكان من ذوى الفصاحة، والمشهورين باللسن والبلاغة»[1] وقد تأثر بهم العرب فأكثروا من الحلى اللفظية، كما صنفوا الكثير من كتب البديعيات.

- ٢ -

وكان للترجمة فى هذا العصر نشاط كبير؛ فقد وجد المترجمون التشجيع والعطاء، ولا ننسى فى هذا الصدد جهد البرامكة وعطاءهم الذى يفوق الخيال؛ «فقد رووا أن جعفر البرمكي وزير الرشيد كان يبتاع من صحف اليونان ما يأمر التراجمة بتعريبه، ثم يعطيهم زِنَة الكتاب المترجم ذهباً».

واتسعت الترجمة فى عهد المأمون لتشمل كثيرا من فروع المعرفة، وفى مقدمتها كتب الطب والنجوم والفلسفة والطبيعيات وغير ذلك من العلوم.

أما أثر الترك فقد كان ضئيلاً، كما أنه لم ينبغ منهم إلا القليل، وفى مقدمتهم: أحمد بن طولون، والفتح بن خاقان، وحماد الجوهرى صاحب «الصحاح»، بيد أنهم رفعوا من شأن المحدثين الذين يعتمدون على الرواية والنص، كما أهانوا الشيعة وقاموا بهدم قبر الحسين بن على والدور التى حوله.

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية: ١١٣، وانظر: الكامل للمبرد: ١/ ٣٠١.

وإذا كان اللحن[1] قد عرف منذ الفتح الإسلامى فإنه كان على عهد بنى أمية قليلا، بيد أنه انتشر وزادت خطورته فى عهد الدولة العباسية فالظروف مهيأة مما سبب ضعف الملكات، ووَهَن السلائق، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، فاللحن سرى إلى العامة، وغزا الخاصة فصار سمة العصر.

فالمأمون يقول: «أتكلم مع الناس كلهم على سجيتى إلا مع «ابن الهيثم» فإنى أتحفظ إذا كلمته؛ لأنه يعرف الإعراب».

وقد قالوا: إن «أبا جعفر المنصور» لحن فى مجلس به أعرابى، فصرَّ الأعرابى أذنيه، ثم لحن الثانية، فقال الأعرابى: أفٍّ لهذا، ثم لحن ثالثة، فقال: أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر[2].

ودخل «الفراء» (ت ٢٠٧هـ) على الرشيد يوما، فتكلم بكلام لحن فيه، فقال له: أتلحنُ يا فرّاء؟! قال: يا أمير المؤمنين: إن طباع الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت.

ويذكر المبرد أن الشَّعْبى مر بقوم من الموالى يتذاكرون النحو، فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده! [3].

إزاء هذا الخطر الذى هدد الفصحى وأهلها «اضطر كثير من النحويين أن يبالغوا فى التقعير والتشدق، وأن يحرصوا جاهدين على سلامة ألسنتهم تشبها بالأعراب، مجتهدين أن ينالوا بصحة ألسنتهم الشهرة بين الناس، وردد الناس أحاديثهم فى المجالس تفكهة وترويحا، لما فيها من شذوذ على المألوف من لغة المجتمع.

---

(١) اللحن: ترك الصواب فى القراءة ونحوها، ولَحن فى كلامه: أخطأ... يقال: لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق، وللحن معان كثيرة، اللسان (لحن).

(٢) الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى: ١٢٩.

(٣) تاريخ الأدب فى عصره الذهبى: ٤٣.

ومن هؤلاء عيسى بن عُمر الثقفى، وأبو علقمة النحوى الذى مر ببعض طرق البصرة، فهاجت به دابته، فسقط فوثب عليه قوم يعضون إبهامه، ويؤذنون فى أذنه، فأفلت من أيديهم قائلا: ما لكم تكأكأتمْ علىَّ كتكأكئكم على ذِى جِنَّةٍ، افرنقعوا عنِّى»[1].

وقد بذل العلماء جهوداً كثيرة فى مقاومة اللحن؛ فألفت كتب تبين الفصيح، والدخيل، والمعرَّب، والملحون من الكلمات، ومنها: فصيح ثعلب (ت٢٩١هـ)، وأدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، ودرة الغواص للحريرى (ت٥١٦هـ)، وكان لهذه المؤلفات آثارها القيمة فى حفظ اللغة العربية لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف.

ثانياً: أبو العباس المبرد

هو[2] محمد بن يزيد عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليمان بن سعد بن عبد الله بن يزيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم، وهو ثُمالة، ثم ينتهى إلى الأسد بن الغوث، وهو الأزد؛ فهو الثمالى الأزدى البصرى[3].

وثُمالة من الأزد، وكان منزلهم قريبا من الطائف، وهم أهل رويَّة وعقول، وكان أبوه من «السُّورجيين»[4] بالبصرة، وانتمى إلى اليمن، ولذلك تزوج المبرد

---

(١) الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى: ١٣٢، وما بعدها.

(٢) انظر: ترجمته فى: أنباه الرواة ٣/ ٢٤١، وبغية الوعاة: ١/ ٢٦٩، وتاريخ بغداد: ٣/ ٣٨٠، وجمهرة أنساب العرب: ٣٧٧، وفيات الأعيان: ٣/ ١١١، والوافى بالوفيات: ٥/ ٢١٦، ومعجم الأدباء: ١٩/ ١١، وأخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض: ١٠٥.

(٣) وفيات الأعيان: ٣/ ١١١.

(٤) هم جماعة من الزنج بالبصرة، الكامل: ٧ / ٧٢.

ابنة الحفصى، وهو شريف من اليمنية.

ويُقال: إنّ المُبَرِّد لم يكن من «ثمالة»، وإنما ادعى أنه منها، وصنع أبياتاً على لسان «عبد الصمد بن المعذّل» يثبت نسبه، وتروى المصادر فى ذلك قصة[1] سيأتى الحديث عنها موخراً.

والبصريون يقولون «المُبَرِّد» بكسر الراء. قال ابن خلكان: لما صنف المازنى كتاب الألف واللام سأله المُبَرِّد عن دقيقه وعويصه؛ فأجابه بأحسن جواب؛ فقال المازنى: قُم فأنت المُبَرِّد بكسر الراء، أى المثبت للحق، فحرفه الكوفيون، وفتحوا الراء» حسداً عليه[2].

وقيل: لقب بالمبرِّد لحُسْن وجهه، يُقال: رجل مبرد ومقسّم ومحسن إذا كان حسن الوجه... ويُلقب بالمبرَّد بفتح الراء؛ لأنه كان يدرس فى البرادة.

اتصل هذا الخلاف بالمحدثين. فالشيخ الشنقيطى كان متشدداً فى كسر الراء، وكان ينشد فى ذم من فتحها:

والكسر فى راء المُبَرِّدِ واجب ... وبغير هذا ينطق الجهلاء[3]

أيًا ما كان الأمر فإن الرجل من أعلام العربية الأوائل، ومن فرسانها المعدودين، وقد قدم لها خدمات جليلة.

نشأته:

لم نقرأ فى كتب التراجم شيئاً عن نشأته سوى أنه عاش فى البصرة ثُمَّ انتقل إلى «سُرَّ من رأى» لما طلبه الخليفة «المتوكل».

والسبب أنه قرأ يوماً بحضرة وزيره الفتح بن خاقان قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ

---

(١) البلاغة لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد: ٧، ووفيات الأعيان: ٣/ ١١٢.

(٢) أنباه الرواه: ٣/ ٢٤٦، المقتضب ١٢، وثمة سبب آخر فى أنباه الرواه: ٣/ ٣٤٦.

(٣) المقتضب: ١٣، ١٤، باختصار.

﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1] بفتح همزة (أنها)، فقال الفتح: يا سيدى: إنَّها إذا جاءت بكسر الهمزة؛ فتبايعا على عشرة آلاف درهم، وقيل دينار، وتحاكما إلى يزيد بن محمد المهلبى، وكان صديقاً للمُبَرِّد، فقال: والله لا أعرف الفرق، وما رأيت أعجب من أن يكون أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم، ولا أعرف أحداً يتقدم فتىً بالبصرة يُعرف بالمُبَرِّد، فأمر المتوكل فجئ به إلى (سر من رأى) سنة ٢٤٦هـ[2].

قال المبرد: فأدخلت على الفتح بن خاقان فقال لى: يا بصرى كيف تقرأ هذا الحرف ﴿ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ بالفتح أو بالكسر؟ فقلت: «إنها» بالكسر، وهو الجيد المختار. وذلك أن أول الآية: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[3] باستئناف جواب الكلام المتقدم، قال: صدقت، وركب إلى دار أمير المؤمنين، فعرفه بقدومى، وطالبه بدفع ما تخاطرا عليه، وتبايعا فيه، فأمر بإحضارى، فحضرت، فلما وقعت عين المتوكل علىَّ قال: يا بصرى، كيف تقرأ هذه الآية ﴿ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ بالكسر أو بالفتح؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أكثر الناس يقرؤها بالفتح، فضحك، وضرب برجله اليسرى وقال: أحضر يا فتح المال، فقال: والله يا سيدى قال لى خلاف ما قال لك، فقال: دَعنى من هذا، أحضر المال، وأُخرجت فلم أصل إلى الموضع الذى كنت فيه نازلا حتى أتتنى رسل الفتح فأتيته، فقال: يا بصْرى أول

(١) الأنعام: ١٠٩.
(٢) طبقات الزبيدى: ١٠٩، وما بعدها.
(٣) سورة الأنعام: ١٠٩.

ما ابتدأتنا به الكذب! فقلت: ما كذبت، فقال: كيف؟ وقد قلت لأمير المؤمنين: إن الصواب ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ ﴾ بالفتح؟ فقلت: أيها الوزير، لم أقل هكذا، وإنما قلت: أكثر الناس يقرؤها بالفتح، وأكثرهم على خطإ، وإنما تخلصت من اللائمة، وهو أمير المؤمنين، فقال لي: أحسنت[1].

صفاته:

عُنى المبرد منذ حداثته بطلب العلم، والقراءة الجادة، فأتقن اللغة، وحفظ الكثير من أدبها، كما وعى من أخبار العرب ومعارفهم الكثير. و «كان فصيحا، بليغا، مفوّها، ثقة، إخباريا، علاّمة، صاحب نوادر وطرافة، وكان جميلا، لاسيما في صباه»[2].

قال البغدادي: «المبرد شيخ أهل النحو، وحافظ علم العربية... كان فاضلا عالما فاضلا، موثوقا به في الرواية، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر»[3].

ويقول السيرافي[4]: سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول: ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم...، وسمعت نفطويه يقول: ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه ومن أبي العباس بن فرأت.

ويقول الأزهري مفاضلا بينه وبين ثعلب: «وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بيانا، واحفظهما للشعر المحدَث، والنادرة الطريفة، والأخبار الفصيحة،

---

(١) البلاغة لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد: ١٧ نقلا عن طبقات الزبيدي: ١١٨.

(٢) بغية الوعاة: ١/ ٢٦٩.

(٣) تاريخ بغداد: ٣/ ٣٨٠.

(٤) أخبار النحويين البصريين: ١١٨، تاريخ بغداد: ٣/ ٢٨١.

وكان أعلم الناس بمذهب البصريين فى النحو ومقاييسه»[١].

وكانت مهنته التعليم إلا أنه كان لا يُعلم إلا بأجر، وعلى قدر هذا الأجر، وقد غلب عليه تدريس «الكتاب» لسيبويه، «وكان أبو العباس عظيم المكانة فى نفوس المعاصرين وغيرهم»[٢].

وبراعة المبرد فى الجدل والمناقشة تتم بإسكات خصمه، والانتصار عليه. وفى قصة لقائه الأول مع الزجاج ما يبين ذلك.

وكان المبرد ممسكا، وبدا ذلك فى حياته العامة من مأكل ومشرب وملبس وكثيرا ما كان ينشد فى مجالسه:

يـا مـن تلـبس أثوابـا يتيـهُ بهـا	تيه الملوك على بعـض المسـاكينِ
مـا غيَّر الجُلُ أخلاق الحمـير ولا	نقشُ البـرادعِ أخـلاقَ الـبراذينِ

قال أبو عبد الله المفجع: كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه يُتّهم بالكذب، فتواضعنا على مسألةٍ لا أصل لها، نسأله عنها لننظر كيف يُجيب، وكُنا قبل ذلك قد تمارينا فى عروض بيت للشاعر:

أبا مُنذر أفنيتَ فاستبقِ بعضنا [٣]

فقال بعضنا: هو من البحر الفلانى، وقال آخرون: هو من البحر الفلانى، فقطَّعناه. وتردد على أفواهنا من تقطيعه: القبعض، فقلت له: أنبئنا أيدك الله: ما القبعْض عند العرب؟ فقال المُبَرِّد: القُطن يصدّق ذلك قول أعرابى:

«كأنَّ سَنامها حشى القبعضا»

قال: فقلت لأصحابى: هو ذا. ترون الجواب والشاهد؛ إن كان صحيحاً فهو

---

(١) مقدمة: تهذيب اللغة: ٦٩.

(٢) البلاغة لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد: ٣١.

(٣) صدر بيت لطرفة. وهو فى الكامل: ٢/ ١٩٩، وعجزه:

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

عجيب، وإن كان اختلق الجواب، وعمل الشاهد فى الحال فهو عجب[1].

لم يكتف المُبَرِّد بالأخذ عن العلماء والقراءة الجادة، ولكنه وجد من انخراطه فى المجتمع، بل ومن زيارته المستشفيات ما يعود عليه بالكثير من الأخبار والنوادر، وتورد كتب التراجم فى ذلك قصة طريفة.

يقول المازنى للمُبَرِّد: «بلغنى أنك تنصرف من مجلسنا، فتصير إلى مواضع المجانين والمعالجين؛ فما معنى ذلك؟ فيقول المُبَرِّد: أعزك الله - تعالى - إنَّ لهم طرائف من الكلام قال: فأخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين؟ قال: فقلت: صِرتُ يوماً إليهم، فمررت على شيخ منهم وهو جالس على حصير قصب، فجاوزه إلى غيره، فقال: سُبحان الله – تعالى - أين السلام؟ من المجنون أنا أو أنت؟ فاستحييت منه وقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حُسن الرد، على أنا نصرف سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر؛ لأنه كان يُقال: إن للداخل على القوم دهشة. اجلس – أعزك الله تعالى». ويجلس إليه المُبَرِّد وتكون بينهما محادثة طريفة. ويستشهد المجنون على قوله بأشعار ثُمَّ يقول لصاحبه: «أتعرف القائل فى ذلك»؟:

سألنا عن ثُمالة كـل حيٍّ فقال القائلون ومَـن ثُمالة

فقلت محمد بن يزيدَ منهم فقالوا: زدتنا بهمُ جَهـالـة

فقلت: أعرفه «يقصد نفسه... ثم يقول له ناصحا «يا أبا العباس: صُن نفسك من الدخول فى هذه المواضع، فليس يتهيأ فى كل وقت أن تصادف مثلى على مثل حالتى»[2].

فالمجنون يعرف المبرد، وقد نبهه إلى تقصيره حيث لم يلق السلام، وكذا نال منه بالبيتين، ثم نصحه.

---

(١) تاريخ بغداد: ٣٨٠، وفيات الأعيان: ٣/ ١١٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ١١٧.

أخلاقه:

والأخلاق وثيقة الصلة بالصفات بيد أن الأولى في الأكثر معنوية، وهي الهدف من الرسالة المحمدية يقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقد مدحه رب العزة بتمكنه من الأخلاق، وبين سبحانه أنها بلغت معه الذروة؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

وأخلاق «المبرد» تبدو جلية في كتاب «الكامل»، فقد حوى الكثير من توجيهاته الرشيدة، وتصرفاته السديدة، كما أنه اشتمل على الكثير من النصوص الداعية إلى الخلق وسعادة الدارين، كما كان المبرد يستهجن بعض النصوص والأخبار التي لا تليق. ويتبين ذلك من الأمور الآتية:

أولاً: الثناء على الله تعالى وصفاته. يقول المبرد فيمن يتحدث عن نفسه بالضمير «نا»: «والعرب تفعل هذا، ويعد كِبراً، ولا ينبغي على حكم الإسلام أن يكون هذا مستعملاً إلا عن الله - عز وجل -؛ لأنه ذو الكبرياء، كما قال - تبارك وتعالى -: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[2]، و ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[3].

وكل صفات الله أعلى الصفات وأجلها، فما استعمل في المخلوقين على تلك الألفاظ - وإن خالفت في الحكم - فحسنٌ جميل. كقولك: فلان عالم، وفلان قادر، وفلان رحيم... إلا ما وصفنا قبل من ذكر التكبر، فإنك إذا قلت: فلان جبّار، أو متكبر كان عليه عيبا ونقصا، وذلك لمخالفة هاتين الصفتين الحق، وبعدهما من الصواب»[4].

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) سورة القدر: ١.

(٣) سورة النساء: ١٦٣.

(٤) الكامل: ١/ ٣٦٢.

وبيانًا لعظمة القرآن الكريم، وأنه يُحمل على أشرف وجوه الإعراب، يرى المبرد أن عطف ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فى الآية ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١). إنما هو على المدح. بتقدير: أعنى، أو: أذكر. ثم يقول: ومن زعم أنه أراد: ومن المقيمين الصلاة فمخطئ فى قول البصريين؛ لأنهم لا يعطفون الظاهر على المضمر المخفوض، ومن أجازه من غيرهم فعلى قبح كالضرورة، والقرآن إنما يُحمل على أشرف المذاهب»(٢) يعنى وجوه الإعراب والقراءات.

ويُشير المبرد إلى سلامة عقيدة «الأصمعى» ونفوره من المعصية والبدعة، فيذكر أنّه «كان لا ينشد ولا يفسّر ما كان فيه ذكر الأنواء؛ لقول رسول الله ﷺ: «إذا ذُكرت النجومُ فأمسكوا»؛ لأنّ الخبر فى هذا بعينه: «مُطرنا بنوءِ كذا وكذا»، وكان لا يُفسّر شعرا وافق تفسيره شيئا من القرآن»(٣).

ويقول: النوءُ عندهم: طلوعُ نجم وسقوط آخر، وكان «الأصمعى» لايُفسّر من الشعر ما فيه ذكر الأنواء، بل كان لايسمع ما فيه هجاء، أو كان فيه ذكر النجوم»(٤).

ثانيا: تعظيمه لقدر رسول الله - ﷺ - حيث يقول: «وهو القدوة والأسوة، كان فوق الرَّبْعَة وإذا مشى مع الطّوال طالهم»(٥).

وكما المبرد يتوثّق بعض الأحاديث الشريفة، ومن ذلك قوله:

«وفى الحديث أن رسول الله - ﷺ - أكرم «جرير بن عبد الله البَجَلى» لما ورد

(١) سورة النساء: ١٦٢.
(٢) الكامل: ٢/ ٩٣.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٦.
(٤) المرجع السابق: ٤/ ٦٨.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٩٤.

عليه؛ فبسط له رداءه، وعمَّمه بيده، وقال: «إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه»[1].
هكذا رواه فصحاء الحديث.

وذم المبردُ «المهلَّبَ بن أبى صفرة»؛ لوضعه فى الحديث الشريف فقال: «فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين، ويضعف من أمر الخوارج»؛ فكان حيٌّ من الأزد يقال لهم: النَّدَب إذا رأوا المهلب رائحا إليهم قالوا: قد راح المهلب ليكذب»[2].

- ومن تقدير المبرد[3] للرسول - ﷺ - أنه يؤيد من عاب على أبى نواس إضافة رسول - ﷺ - إلى غيره فى قوله:

كيف لا يُدْنِيك من أملٍ　　　مَنْ رسول الله مِن نفَـرهْ

فقد اتبعه بقوله: «وهو لَعمرى كلام مُستهجن، موضوع فى غير موضعه؛ لأن حق رسول الله - ﷺ - أن يُضاف إليه، ولا يضاف إلى غيره» ولذا فضل عليه قول حسان - ﷺ -:

وكريمُ الخال من يمنٍ　　　وكريمُ العمِّ من مُضَرهْ

بقوله: «فأضاف «مُضر» إليه؛ فهذا أجود كلام، لا يمتنع منه ممتنع»[4].

ثالثا: حبه لأصحاب رسول الله - ﷺ - والدفاع عنهم. «فهو يذكر أن «حُسن خطبة أبى بكر - ﷺ - يوم السقيفة أنه أيد القولَ العمل»[5].

ويذكر أبياتا للوليد بن عُقبة فيها اتهام لعلىٍّ بقتل «عثمان» - رضى الله عنهما - ثم يُعقب بقوله: «وهذا القول باطل. وكان عروة بن الزبير إذا ذكر مقتل

---

(١) المرجع السابق: ١/ ١٩١، الربعة: الرجل بين الطويل والقصير.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣١٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٧، ١٨.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ١٧.
(٥) المرجع السابق: ١/ ١٢.

«عثمان» يقول: كان «عليٌّ» أتقى لله من أن يقتل «عثمان»، وكان «عثمان» أتقى لله من أن يقتله «عليٌّ»[1].

رابعا: تقدير المبرد لآل البيت - رضى الله عنهم - فهو يقول: «ضحَّى بنو حرْب بالدين يوم كربلاء، وضحى بنو مروان بالمروءة يوم العقر؛ فيوم كربلاء يوم الحسين بن على بن أبى طالب وأصحابه، ويوم العقر يوم قتل يزيد بن المهلب وأصحابه»[2].

ويورد نصا لعلى بن أبى طالب - ﷺ - فى حب رسول الله - ﷺ - عندما سئل عن ذلك، قال: «ويُروى عن على بن أبى طالب - رحمه الله - أن سائلا سأله فقال: كيف كان حبُّكم لرسول الله ﷺ؟ فقال: كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ»[3].

ويلعن «خالد بن عبد الله القسْرى» لأنه لعن عليا - ﷺ - على المنبر[4].

وأورد المبرد كتاب «معاوية» إلى «على» - رضى الله عنهما - وفى آخره شعر لكعب بن جُعيل، ذكر بعضه ثم قال: «وفى آخر هذا الشعر ذم لعلىّ بن أبى طالب - ﷺ - أمسكنا عن ذكره»[5].

وذكر كتاب «على» إلى «معاوية» - رضى الله عنهما - وفيه شعر، وقبل أن يُتمه قال: «وبعد هذا ما نمسك عنه»[6].

وصنع المبرد ذلك مع بعض الرسائل؛ فقد كان يذكرها، ويختصر ما يجوز

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٨.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٣.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٢٧.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٩٢.
(٥) المرجع السابق: ١/ ٣٢٧.
(٦) المرجع السابق: ١/ ٣٣١.

ذكره منها، ثم يقول: «ونمسك عن الباقي؛ فقد قيل: الرّاوية أحد الشاتمين»[1].

وكان أبو العباس يعرف قدر العباسيين، فهو يقول في «على بن عبد الله بن العباس»: «وكان عليّ سيدا شريفا بليغا»[2].

خامسا: وفي الكامل الكثير ممن اشتهروا بالتقوى والصلاح من العُبّاد والزهاد والحكماء؛ فالمبرد يورد من أخبارهم ومأثوراتهم الكثير وهو بذلك يبصر الناس، ويدعوهم إلى الخلق والفضيلة.

- فمن ذلك رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - وأولها «أما بعد. فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة»[3]. وقول عمر بن عبد العزيز - ﷺ -: «قيّدوا النعم بالشكر، وقيّدوا العلم بالكتاب»[4].

وقول الحسن البصري: «اجعل الدنيا كالقنطرة، تجوز عليها ولا تعمرها»[5].

- وقول محمود الورّاق[6]:

تعصى الإلهَ وأنت تظهر حُبّه ... هذا محالٌ في القياسِ بديعُ

لو كان حبُّك صادقًا لأطعتهُ ... إن المُحِب لمن يُحبُّ مُطيعُ[7]

- وقول إسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية):

(١) المرجع السابق: ١/ ١١٣.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢١٧.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٣.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٣٠١.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ١٢.

(٦) من شعراء الدولة العباسية، عاش في عهد المعتصم، وفي شعره الكثير من المواعظ والنصائح والحكم.

(٧) المرجع السابق: ٢/ ٤.

يا من يعيبُ وعيبهُ متشعِّبُ ... كـم فيك من عيب وأنت تعيبُ
لِلهِ درُّكَ كيف أنت وغايـةٌ ... يدعوك ربُّك عندها فتجيبُ(1)

وغير ذلك كثير فى الكتاب(2).

سادسا: والمبرد يدعو إلى الرضا والتسليم بالقضاء والقدر؛ فيقول: «... وحق الإنسان الصبر على النوائب... إذا كانت الدنيا دار فراق، ودار بوار»(3).

سابعا: والمبرد يُوثّق الكثير من النصوص والأخبار، ويُبين حالها من الصحة أو الكذب. فمن الأمثلة أن المبرد نبه على أن الذى أرتج عليه على المنبر مرتين، فقطع الخطبة وقال: «﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾(4)، وبعد عيٍّ بيانا، وأنتم إلى أميرٍ فعّال أحوج منكم إلى أمير قوّال» إنما هو: «يزيد بن أبى سفيان»(5) أقول: وقد سها الزمخشرى فى تفسيره، فنسب ذلك إلى «عثمان» ﷺ»(6).

ومن بيان المبرد للكذب فى بعض الأخبار قوله: «وقد طعن فى قول النابغة الجعْدى:

{وأزجر الكاشِحَ العـدوَّ إذا اغْـ ... ـتابك عندى زَجْـرًا علـى إضـمِ}
زجَـرَ أبـى عُـروةَ الـسباعَ إذا ... أشْفَـقَ أنْ يَختلطـنَ بـالغَنَمِ

وذلك أن الرواية احتملت هذا البيت على أنه العباس بن عبد المطلب ـ رحمه الله ـ كان يزجر الذئاب ونحوها مما يُغير على الغنم، فيفتق مَرَارَةَ السبع فى

---

(1) المرجع السابق: ٢/ ١٠.
(2) انظر: الكامل: ١/ ١٢، ٦٣، ١١٦، ١٢٣، ٢/ ١٦٤، ١٦٦، ٤/ ١٦٢.
(3) المرجع السابق: ٤/ ١٧.
(4) سورة الطلاق: من الآية: ٧.
(5) الكامل: ٤/ ١٧.
(6) الكشاف: ٤/ ١٠٥.

جوفه...، وجملة هذا البيت: أنه وصفَ شدة صوت المذكور.

وتأويله أنه من تكاذيب الأعراب[1]. وقد درس المبرد كثيرا منها تحت عنوان «وهذا باب من تكاذيب الأعراب»[2]، وقد بينت هذا في مبحث «المبالغة».

والخلق استعداد فطرى فى الانسان إلى جانب ما يكتسبه فى محيط الأسرة وغيرها، من تقويم السلوك، وغرس الفضائل. أما التخلُّق: فهو التظاهر بالخلق الحسن، وهو مذموم، وقد جاء فى رسالة عمر فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنهما -: «ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله؛ فما ظنك بثواب غير الله - عز وجل - فى عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام»[3]. ويؤيد ذلك قول المبرد:

«ويروى أن بلالاً وفد على عمر بن عبد العزيز بخُناصِرَة فسَدِكَ - لصِق - بسارية من المسجد، فجعل يصلى إليها ويديم الصلاة، فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغيرة بن البُنْدار؛ إن يكن سِرُّ هذا كعلانية فهو رجل أهل العراق غير مدافع، فقال العلاء: أنا آتيك بخبره، فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعشاء، فقال: اشفع صلاتك فإن لى إليك حاجة، ففعل، فقال العلاء: قد عرفت حالى من أمير المؤمنين، فإن أنا أشرتُ بك على ولاية العراق فما تجعلُ لى؟ قال: لك عُمَالتى سنة، وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم، قال: فاكتب لى بذلك، قال: فارقَدَّ بلالٌ إلى منزله، فأتى بدَواة وصحيفة فكتب له بذلك. فأتى العلاءُ عمرَ بالكتاب، فلما رآه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب - وكان والى الكوفة - أما بعد: فإن بلالاً غرَّنا بالله، فكدنا نغترُّ، فسكبناه فوجدناه

---

(١) الكامل: ٢/ ١٦٥.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٩٨.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٣.

خبثًا كلّه، والسلام»[1].

بين المبرد وثعلب:

وثعلب هو: أحمد بن يحيى بن يسار الشيبانى إمام الكوفيين فى النحو واللغة، وكان له فى بغداد منزلة بين تلاميذه، فلما قدم إليها المبرد حدثت المنافسة والخصومات.

يقول الزجاج «لما قدم المبرد بغداد جئت لأناظره، وكنت أقرأ على أبى العباس ثعلب، فعزمت على إعناته، فلما باحثته ألجمنى بالحجة، وطالبنى بالعلّة، وألزمنى إلزامات لم أهتد إليها، فاستيقنت فضله، واسترجعت عقله، وأخذت فى ملازمته. وكان المبرد يحب الاجتماع بأبى العباس ثعلب للمناظرة، وثعلب يكره ذلك..؛ لأن المبرد حسن العبارة حلو الإشارة، ظاهر البيان، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمع فى محفل حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن»[2].

وبدأت هذه الخصومة بإرسال تلاميذه – ثعلب – ليفضوا حلقة المبرد فى المسجد أول قدومه بغداد، وكان المبرد منافسا قويا اقتحم على ثعلب عرينه، وكان ثعلب لا يتكلف الإعراب فى كلامه، ولذلك أقبل تلاميذ ثعلب على المبرد وبعضهم ترك الإعراب صحبته وملازمته كما فعل الزجاج[3]. ولذا سرت بينهما روح المنافسة واشتهرت حتى قيل:

نروحُ ونغدوُ لا تزاورَ بيننا ... وليس بمضروبٍ لنا يومَ موعدِ
فأبدانُنا فى بلـدةٍ والتقاؤنا ... عسيـرٌ كلُقيـا ثعلب والمـبردِ

(١) المرجع السابق: انظر: ٢/ ٥٢.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ١١٧.
(٣) كتاب المقتضب: ٢٩، باختصار وتصرف.

والعجب أن بعض الناس أذكى نار العداوة بينهما. فقد جاء رجل إلى ثعلب فقال له: يا أبا العباس: قد هجاك المبرد. فقال: بماذا؟ فأنشده:

أقسم بالمبتسم المعَذبِ ومشتكى الصَّبِّ إلى الصبِّ
لو أخذ النحوَ عن الربِّ ما زاده إلا عمى القلبِ

فقال: أنشدني من أنشده أبو عمرو بن العلاء:

يشتمُني عبد بني مِسمع فصنتُ عنه النفس والعِرْضا

وقد جاء في مدح المبرد:

وكان أمير المؤمنين إذا رَنا إليك يطيلُ الفكر بعد التعجُّبِ
وأتيتَ علما لا يحيطُ بكنهه علومُ بني الدنيا ولا علم ثعلبِ
يروحُ إليك الناس حتى كأنهم ببابك في أعلى مِنًى والمحصَّبِ[1]

وبعضهم كان من المنصفين المعتدلين حيث يقول:

أيا طالب العلْم لا تجهلنْ وعُذْ بالمبرِّد أو ثعلبِ
تجدْ عند هذين عِلم الورى فلا تكُ كالجمل الأجربِ
علوُم الخلائقِ مقرونةٌ بهذين في الشرق والمغربِ[2]

وكانت المنافسة تهدأ بينهما أحيانا، فكانا إذا تلاقيا على ظهر الطريق تساءلا وتوافقا[3].

وقد رثى ثعلب صديقه بقوله[4]:

ذهب المبردُ وانقضت أيامُهُ وليذهبن إثر المبرد ثعلبُ

---

(١) وفيات الأعيان: ٣/ ١١٩، وتاريخ بغداد: ٣/ ٣٣١.

(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٤٤١، بغية الوعاة: ١/ ٢٧١.

(٣) طبقات الزبيدي: ١٥٨.

(٤) انظر: تاريخ بغداد: ٣/ ٣٨٧، ووفيات الأعيان: ٣/ ١٢٠.

بيتٌ من الآداب أضحى نصفهُ خرباً وباقي النصف منه سيخربُ
وتزوّدوا من ثعلبٍ فبكأس ما شرب المبرد عن قريب يشربُ
أوصيكمُ أن تكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاسُ مما تكتبُ

رحمهما الله، ونفع بعلمهما، فقد أثمرت جهودهما كثيرًا.

أساتذته:

١- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ) فقد تتلمذ عليه، ونقل عنه في «الكامل» مشافهة؛ فهو يقول في غير موضع: «حدثني الجاحظ»، كما تأثر به كثيرا دون أن يشير إليه.

٢- الجَرْمي: أبو عمر صالح بن اسحاق (ت ٢٥٥هـ) قال السيرافي: ص ٨٤ «حدثنا أبو بكر السرّاج قال حدثنا أبو العبّاس محمد بن يزيد... عن الزهري» وبياناً لمنزلة الجرمي فالمُبرِّد يقول: «كان أبو عمر الجرمي أغوص على الاستخراج من المازني، وكان المازني أخذ منه».

٣- الزيادي: أبو اسحاق. إبراهيم بن سُفيان بن سُليمان.. بن زياد. وفي السيرافي ص٩٨ « حدثنا أبو العباس المبرِّد عن الزيادي قال:...» [1].

٤- السجستاني: أبو حاتم سهل بن محمد (ت ٢٥٥هـ). «قال أبو العبّاس أتيت السجستاني وأنا حدث، فرأيت بعض ما ينبغي أن تهجر حلقته له. فتركته مدة ثُمَّ صرت إليه، وعميت له بيتا دون الرشيد، وكان يُجيد استخراج المعمّى، فأجابني» [2].

٥- الرياشي: أبو الفضل، عبّاس بن الفرج مولى محمد بن سُليمان بن علي

---

(١) وانظر: معجم الأدباء: ١ \ ١٥٨.

(٢) انظر: أخبار النحويين البصريين: ١٠٣.

الهاشمي، ورياش، رجل من جُذام، وفى أنباه الرواة[1] "أن الرياشى كان يجيء إلى أبى العبّاس كثيراً، وفى الكامل روايات كثيرة عنه[2].

٦- المازنى: أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية (ت ٢٤٩هـ) وفى أخبار النحويين البصريين[3] إثبات تلمذة المبرِّد على المازنى، وقد كان فى حداثة سنه مُتصدراً فى حلقة المازنى، يقرأ عليه كتاب سيبويه[4].

وأهم تلامذته:

١- **الأخفش:** أبو الحسن على بن سُليمان بن الفضل (ت ٣١٥هـ) وفى الكامل ما يُفيد تأثره بالمبرِّد؛ فهو يقول: «قال الأخفش: سألت المبرِّد عن قولهم: «عضل والقارة، فقال: هذان حيان كانا فى نهاية العداوة لرسول الله ﷺ...»[5].

٢- **أبو بكر بن السرَّاج** (ت ٣١٦هـ): وكان من أصحاب المبرِّد، وقرأ عليه كتاب سيبويه.

٣- **الزجَّاج:** أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى (ت ٣١١هـ) وهو أقدم تلامذة المبرد. كما سبق.

٤- **ابن أبى الأزهر:** محمد بن زيد، وجاء فى طبقات الزبيدى: ١١/ ١٢٧ أنه «مستملى أبى العباس المبرد».

٥- **ابن الخيَّاط:** محمد بن أحمد بن منصور (ت ٣٢٠هـ) وقد شهد الدرس الأول من المبرِّد مع الزجَّاج وتتلمذا عليه.

وثمة أعلام أخرى: «الأصبهانى، محمد بن يعقوب بن ناصح (ت٣٤٣هـ)،

---

(١) ج: ٢ ص: ٣٦٨

(٢) الكامل: ١/ ٤، ٣٧، ٤٣، ٩٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣/ ٢٨، ١٧١، ٤/ ٢٦.

(٣) انظر ص: ٨٦، وما بعدها.

(٤) المقتضب: ١/ ٢٦ مقدمة المحقق.

(٥) الكامل: ٣/ ٣١٨.

والحكيمى، أبوعبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٣٦هـ)، وابن درستويه، أبو محمد عبد الله بن جعفر (ت ٣٤٧هـ)، وابن النحّاس (ت ٣٣٧هـ)، ونفطويه (ت ٣٢٣هـ).

أمّا ابن كسيان فإنّه «تتلمذ للمُبَرِّد وثعلب، وكان يخلط المذهبين: البصرى، والكوفى»[1].

مؤلفاته:

للمبرد الكثير من المؤلفات، وهى فى فروع اللغة والأدب وغيرهما، وأشهرها: الكامل، والمُقتضب، وبعضها رسائل، وكتبه تمتاز بغزارة العلم، والتمكُّن فى الموضوعات التى تعالجها وقد أحصاها الدكتور: رمضان عبد التوّاب[2] وأرشد إلى أماكنها وهى كثيرة نذكر أهمها: احتجاج القراء، الاختيار، أدب الجليس، أسماء الدواهى عند العرب، الاشتقاق، الإعراب، إعراب القرآن، الأنواء والأزمنة، البلاغة، التصريف، الجامع، الحث على الأدب والصدق، الحروف فى معانى القرآن إلى سورة طه، الرد على سيبويه، الروضة، الشافى، شرح شواهد كتاب سيبويه، طبقات النحويين البصريين وأخبارهم، ضرورة الشعر، المدخل إلى سيبويه، المذكر والمؤنث، المقصور والممدود.

وبعد. فهذه ترجمة موجزة لحياة ذلك العالم الكبير وما أسداه إلى اللغة العربية من عِلْمٍ غزير، وهى ستعيننا فى الكشف عن بلاغته فى كتاب «الكامل».

* * *

---

(١) كتاب المقتضب: ١/ ٣٦.

(٢) انظر: البلاغة لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد: ٤٩، ٦٨، ووفيات الأعيان: ٣/ ١٢١.

الفصل الثانى

منهج المبرد فى كتابه «الكامل»

أولا: منهج عام:

-١-

كتاب «الكامل» للمبرد هو الركن الثانى من أركان الأدب. وهو بحق موسوعة لغوية أدبية، وسجلٌ للمواعظ والنصائح والحكم،...، وقد أبان مؤلفه عن الغرض من تأليفه؛ فقال فى المقدمة: «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة».

والنيَّة فيه أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلا م غريب، أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيا، وبالله التوفيق[١].

والكتاب شامل لذلك وأكثر، فهو اختيارات أدبية[٢] معظمها من الشعر، وكان لذوق مؤلفه الأدبى، وخلقه الإسلامى أثر كبير فى انتقاء هذه الاختيارات. فأبو العباس يورد النص أولا، ثم يشرح جزئياته مبتدئا بالمعنى اللغوى، وتتداعى الأفكار؛ فيستشهد بنصوص من القرآن الكريم، والحديث

---

(١) الكامل: ١/ ٣.

(٢) كتب الاختيارات الأدبية كثيرة منها: المفضليات للمفضل الضبى، والأصمعيات للأصمعى، والحماسة للمرزوقى.

الشريف، ثم من كلام العرب شعرا ونثرا، وأحيانا يلجأ إلى معارف العرب، وهو بين هذا وذاك يورد الكثير من مسائل اللغة، وعلوم القرآن والفقه، والأخبار وغير ذلك.

وأبو العباس يهتم فى كتابه بالخلق القويم، وقد أورد فيه هذا الخبر: «قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: ثلاث من كن فيه فقد كمل إيمانه: من لم يُخرجه غضبه عن طاعة الله، ولم يستنزله رضاه إلى معصية الله، وإذا قدر عفا وكفّ»(١).

كما حفل الكتاب بالمأثور من أقوال الزهاد والحكماء وأهل الورع والتقوى «ومن ذلك قول محمود الوراق(٢):

يـا نـاظراً يرنـو بعينَـي راقِـدِ ... ومُـشاهِـداً للأمـرِ غـيرَ مُـشاهـدِ
مَنَّيـتَ نفـسك ضـلة وأبحتهـا ... طُـرُقَ الرجاءِ وهُنَّ غـيرُ قواصـدِ
تصِلُ الذنوب إلى الذنوبِ وترجى ... دَرك الجِنـانِ بهـا وفـوزَ العابـدِ
ونـسيت أنَّ الله أخـرجَ آدمـا ... منها إلى الـدنيا بـذنبٍ واحِـدِ(٣)

وقول إسماعيل بن القاسم(٤):

يـا مَنْ يَعيبُ وعيبُه مُتشعبٌ ... كم فيك من عيبٍ وأنت تعيبُ
لِلهِ دَرُّكَ كيف أنت وغـايةٌ ... يدعوك ربُّك عنـدهـا فتُجيبُ

ويقول: «وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: عِظني. فقال: اتخذ الله صاحبا، وذرِ

---

(١) المرجع السابق: ١/١١٦.

(٢) شاعر عباسى، أكثر شعره فى المواعظ والنصائح والحكم. مات فى عهد «المعتصم».

(٣) الكامل: ٢/٦.

(٤) المرجع السابق: ٢/١٠.

الناس جانبا»[1].

وفى الكتاب ثروة أدبية لتهذيب النفس، وتزكية الروح، وتقويم السلوك، فقد حفل بالكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، ومنها قوله ﷺ: «إن هذا الدين متينٌ فأوغل فيه برفق، ولا تبغض نفسك إلى عبادة ربِّك؛ فإن المنبتَّ لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى»[2]. وقوله ﷺ: «افصلوا بين حديثكم بالاستغفار»[3].

وفيه كثير من الخطب والرسائل للخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ ولعمر بن عبد العزيز، وداود بن على العباس... إلخ.

وفى «الكامل» من أخبار «من كان بينه وبين الملائكة سبب»[4]، وهم: سعد بن معاذ، وحسان بن ثابت، وحنظلة بن أبى عامر، ودِحْية الكلبى، وجرير بن عبد الله البَجَلى ـ رضى الله عنهم ـ ويقول فيه أبو العباس ومنهم جرير بن عبد الله البجلى، قال رسول الله – ﷺ –: «يَطلعُ عليكم من هذا الفجِّ خير ذى يَمَن، عليه مِسحة ملك».

وفيه الكثير من أخبار وأدب أهل الحلم، وفى مقدمتهم: أبو بكر الصديق؛ فقد روى أنَّ رجلا قال له: لأسبَّنك سبًّا يدخل معك قبرك. فقال ﷺ: معك يدخل، لا معى». ومنهم: عمرو بن العاص، والشَّعبى، والأحنف بن قيس، ومعاوية... وفيه الكثير من المواعظ للخلفاء الراشدين، ولأويس القرنى، وعمر بن عبد العزيز، والحسن البصرى، وسعيد بن المُسيِّب، وأنس بن مالك فمن ذلك قول أُويْس: «إن حقوق الله لم تترك عند مسلم درهما»[5].

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٥١.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٤٤.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٠٢.
(٤) المرجع السابق: ٤/ ١٠٠.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ١٥٦.

وفي الكامل «نصوص كثيرة لأهل الحكمة من العرب والعجم، فمنها قول أبى إدريس الخَوْلانى: «المساجد مجالس الكرام»، وقول ابن مسعود: «القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة». وفى الكتاب نصوص لاردشير بن بابك، وأنوشروان، وبُزرجُمهر؛ يقول المبرد: «وقيل لرجل من ملوك العجم: متى يكون العِلم شرا من عدمه؟ قال: إذا كثر الأدب، ونقصت القريحة»[1].

-٢-

واختيارات المبرد من الأدب العربى تحمل ـ فى أكثرها ـ هذا المضمون الإيمانى، وكان كثيرا ما يقايس بين الجاهلية والإيمان فى الأدب قبل ظهور الإسلام وبعد البعثة إلى وقته... وهذا التصور كان المبرد فيه رائدا حين تحدث عن جاهلية الفرزدق فى شعره، وأنه تاب عنها فى أخريات حياته، وقايس بين المعانى الجاهلية، والمعانى الإسلامية فى الرثاء والفخر والمدح والغزل، ودلل بالتحليل والموازنة والتعليل أن الكامل من هذه المعانى هو الذى دل على صلاح صاحبه ودعا إلى الإصلاح[2].

والفرزدق يقول فى آخر عمره حين تعلق بأستار الكعبة، وعاهد الله ألا يكذب، ولا يشتم مسلما:

ألم تـــرنى عـــاهدتُ ربِّـى وإننــى　　لَــبيْن رِتـــاجٍ قائمًـا ومَقــامِ

على حَلفةٍ لا أشتِمُ الـدهر مُـسلما　　ولا خارجًا من فِىَّ زورُ كـلامِ

ومن هذا الشعر:

أطعتُكَ يا إبليسُ تِسعين حَجة　　فلما انقضى عُمرى وتم تَمامى

---

(١) المرجع السابق: انظر: ١/ ٧٥، ١٧٥، ٢/ ٢٨٤.

(٢) علم البديع، رؤية جديدة: ٦٥، باختصار.

رجعت إلى ربّي وأيقنتُ أنني   مُلاقٍ لأيامِ المنونِ حِمامِي[1]

- ٣ -

ويبين المبرد سبب اختياره لبعض النصوص، ومن ذلك قوله: «ذكرنا هذا الشعر لجودته، لا للاحتجاج به»[2].

وقوله: «ومن حسن الشعر، وما يقرب مأخذه قول عفيس بن أرطاة الأعرجى:

عرضتُ نصيحةً منى ليحيى   فقال غششتنى والنصحُ مُرُّ

وما لى أن أكون أعيبُ يحيى   ويحيى طاهر الأثواب بَرُّ

فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه»[3]. يعنى أن هذا المعنى الحسن لم يأت فى نظم بديع يرفع من قدره.

ويقول: ومن أعجب التشبيه قول النابغة:

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ[4]

ويصف شعرا لابن مُناذر بأنه حوى «المعنى اللطيف، واللفظ الفخم الجليل، والقول المتسق النبيل» وأوله قوله:

حينَ تمت آدابُهُ وتردى   بِرداءٍ من الشبابِ جديد

ثم يقول: وقصيدته لها امتداد وطول، وإنما نُملى منها ما اخترنا من نحو ما وصفناه»[5].

---

(١) المرجع السابق: ١/ ١٢٠.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٣.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٣.
(٥) المرجع السابق: ٤/ ٦١.

وفى بيانه لمنزلة الأدب يورد قول معاوية: «اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم؛ فإن فيه مآثر أسلافكم، ومواضع إرشادكم»[1].

- ٤ -

والمبرد ينسب ما أورده من الشواهد والآراء إلى أصحابها، ومثاله قوله: «وقال أبو عبيدة فى قوله عز وجل: ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾[2]، وقال: مُعَلَّمين[3]» وسترد لذلك أمثلة كثيرة.

ومما يدل على سعة إطلاعه أنه يردد المعنى أحيانا بين العلماء، ثم يؤيد ما يراه صوابا، ومن ذلك قوله: «وقال المفسرون من أهل الفقه، وأهل اللغة فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[4] هو غسالة أهل النار، وقال النحويون: هو «فعلين» من الغسالة»[5].

ومن الأمثلة أنه أورد قول الشاعر:

تمنانى ليلقانى لقيطُ ... أعامِ لك ابنَ صعصعةَ بن سعدى

قولـه: «أعامِ لك» يريد: يا عامر؛ فرخم، وإنما يريد الحىَّ؛ تعجبا. أى لكم أعجب من تمنيه للقائى»[6].

(١) المرجع السابق: ٤/ ٦٨.

(٢) من الآية الكريمة: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا .... ﴾ آل عمران: ١٢٥.

(٣) الكامل: ١/ ٢، ومجاز القرآن: ١/ ٣.

(٤) سورة الحاقة: ٣٦، وقال أبو عبيدة: «كل جُرح غسلته فخرج منه شئ فهو غِسلين. فِعلين» مجاز القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٥) الكامل: ٢/ ١٠٩.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ٣٥٧.

وفى «الكامل» بعض القراءات القرآنية، وهى ترد تابعة لبيان معنى لغوى؛ فمن ذلك أنه قال: «قرأ بعض القراء ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾[1] فجمعهم على «إلياس»، ومن ذا قول العرب: المسامعة، والمهالبة، والمناذرة؛ فجمعهم على اسم الأب[2].

وقال: «وقد تنسب الجماعة إلى الواحد على رأى، أو دين؛ فيكون له مثل نسب الولادة... كما تقول: تميمىّ، وقيسىّ لمن ولده: تميم، وقيس. ومن قرأ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ فإنما يريد «إلياس» عليه السلام، ومن كان على دينه»[3].

وفى كتاب «الكامل» مسائل قليلة فى الفقه، وهى ترد كذلك على سبيل الاستطراد. ومنها نهى رسول الله ﷺ عن أن يبيع حاضر لباد، وكذا النهى عن تلقى الجلب[4]، كما بين أبو العبّاس الخلاف فى المراد بالقُرء وأنه الطهر، أو الحيض[5]. وذكر مسألة فى الميراث، فقال:

وروى عن بعض الفقهاء - الشَّعْبى - قال: دعانى الحجاج، فسألنى عن الفريضة المخمسَّة، وهى: أم، وجد، وأخت، وطلب إفتاء كل من الصدّيق، وعثمان، وابن مسعود، وزيد بن ثابت - رضى الله عنهم - فأفتوه. ثم قال: فما

(١) سورة الصافات: ١٣٠.

(٢) الكامل: ١/ ١٤٤.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٤. قرأ نافع وابن عامر ﴿ سلام على آلِ ياسين﴾ بهمزة مفتوحة ممدودة، ولام مكسورة. وقرأ الباقون ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ مكسورة الألف ساكنة اللام. كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد ص ٥٤٩.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٦٢.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٧٦.

قال فيها أبو تراب - يقصد علىّ بن أبى طالب - ﷺ - قال: قلت: أعطى الأم الثلث، والأخت النصف، والجد السدس. قال: فأطرق ساعة ثم رفع رأسه؛ فقال: فإنه المرء يُرغب عن قوله»[1]. أقول: ولعل الحجاج أعرض عن رأى الإمام «علىّ» لحاجة فى نفسه».

وترد مسائل اللغة فى «الكامل» تبعا لبيان معنى لغوى، ففيه من عيوب النطق: التمتمة، والفأفأة، والعُقلة، والحُبسة واللّـفف، والرُّتة،... كما ذكر بعض اللهجات العربية. وبعد أن عرّف بكل منها بإيجاز قال: «وسنفسر هذا بحججه حرفا وحرفا»[2].

أما عن النحو والصرف فإن مسائلهما ترد بكثرة حتى ليكاد «الكامل» يكون ألف لهما، وأبو العباس يستمد أكثر هذه المسائل من سيبويه، وقد يختلف معه، كما أحال فى الكثير منها على «الكتاب المقتضب»[3]، وقد عقد أبوابا موجزة لدراسة بعض المسائل، وهذه بعض الأمثلة:

١ - يذكر المبرد نصب بعض الأسماء بفعل مضمر على الاختصاص، وأن ذلك أمدح مما لو أظهر الفعل، ومما قاله: «وقوله: ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بعد قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾[4] إنما هو على هذا، وهذا أبلغ فى التعريف. وسنشرحه على حقيقة الشرح فى موضعه إن شاء الله»[5]، ثم شرحه بعد.

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٠٧ باختصار.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٢١ - ٢٢٦.

(٣) هكذا سماه المبرد فى «الكامل» وقد طبع محققا للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة باسم «كتاب المقتضب» ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٤) سورة النساء: ١٦٢.

(٥) الكامل: ١/ ١١، ٣/ ٣٣.

٢- وفى «الكامل» «باب ما يجوز منه (يَفْعَل) فى ما ماضيه (فَعَل) مفتوح العين»[١]. وقال فى موضع آخر: «والنحو يتصل ويكثر، وإنما تركنا الاستقصاء؛ لأنه موضع اختصار. وقد أتينا على جميع هذا فى «الكتاب المقتضب»[٢]، والمراد أن «الكامل» لم يؤلف للنحو، ولذا كان الاختصار.

٣- ويبين المبرد متى يصرف «حسّان» عَلَمًا، ومتى يمتنع من الصرف، كما يذكر أمثلة للتصغير[٣]، ويدرس أمثلة لألف التأنيث الممدوة، والمقصورة بين الصرف وعدمه[٤].

وفى كتاب «الكامل» دراسات تطبيقية للكثير من مسائل النقد، وهى كذلك متناثرة، ومعظمها إشارات ولكن كان لها أثر بعيد عند العلماء.

فالمبرد يقتصر أحيانا على الثناء على النص أو تفضيله على غيره، وكثيرا ما يبين ما فى النصوص من محاسن أو عيوب. فمن الأمثلة قولـه: «ومن أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ، وأبعد المعانى قوله (يقصد الفرزدق):

وما مثله فى الناس إلا مُملكًا ... أبـــو أمه حىٌّ أبوه يقاربه

والمبرد سبّاق إلى بيان ما فى نظمه من عيوب، والبيت عند المتأخرين علم على «التعقيد اللفظى». ويصل المبرد تعليقه على البيت بقوله: «وكأنه لم يقع ذلك الكلام لمن يقول:

والشيبُ ينهضُ فى الشبابِ كأنّه ... ليـلٌ يَصيحُ بجانبيهِ نهارُ

فهذا أوضح معنى وأقرب مأخذا»[٥]، فهو يتعجب ممن يقول هذا الشعر

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٤.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٠٨.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٥.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٦٥.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٢٨، ٢٩.

الواضح أن يصدر منه البيت المعقد التركيب.

وهو يصل ما سبق بقوله: «وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهدٍ يُهتضم المصيب، ولكن يُعطى كل ما يستحق...»، والمبرد بذلك يشير إلى قاعدة هامة وهي: الحيْدة في النص الأدبي بإبراز ما فيه وما عليه بصرف النظر عن بيئة صاحبه، أو تقدمه، أو حداثته، أو مكانته الاجتماعية... وهو بذلك يتفق مع ما ذكره ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في مقدمة الشعر والشعراء[١].

ويورد أبو العباس أمثلة كثيرة لشعراء مشهورين حيث تُجرى المفاضلة بينها. وهؤلاء هم: أبو قيس بن الأسلت، وكُثيِّر، وجرير، ونُصيب، والفرزدق[٢].

وفي موضع آخر يورد نقدا لكل من: عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، ونصيب، والأخطل. ومن ذلك قول الأحوص:

فإن تصلِي أصلكِ أو تعودي لهجرٍ بعد وصلِك لا أبالِي

ولهذه الأمثلة موضعها في دراسات النقد الأدبي[٣].

وكان محمد بن يزيد يجيد علم الكلام، ويقدر أهله بقدر ما حصلوا فيه وأتقنوا؛ فهو يقول: «لم أجد أحدا أعلم من المَلْوى بعلم الكلام، وكان من أصحاب إبراهيم النَّظام»[٤] وسنرى مثالاً لذلك في «المنهج المنطقي».

— ٦ —

وتكثر الإحالات في كتاب «الكامل»، وهي نوعان:

١ – الإحالة من موضع في «الكامل» على موضع سابق، ومثاله قول المبرد:

---

(١) ج١، ص: ٦٢.

(٢) الكامل: ١/ ١٨٠ – ١٨٥.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٥٥ – ١٦١.

(٤) الكامل: أول الجزء الثاني.

وقوله: «ثانى الجيد»[1] قد مرّ تفسيره فى قول الله عز وجل: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2]» [3]. وهو يعنى قوله[4]: «وثانى جيده: إنما هذا كله من الكبرياء. قال الله – عز وجل –: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾».

– **وقد تكون الإحالة إلى موضع لاحق يقول المبرد:** قال الله – عز وجل:«﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾[5]، والمعنى: أن العصبة تنوء بالمفاتح. وشرح هذا موضع آخر»[6]. ويعود المبرد إلى ذكر الآية الكريمة، ويُعلق بقوله: «والعصبة تنوء بالمفاتح. أى تستقل بها فى ثقل»[7].

– **وقد يحيل على لاحق ثم يشير إليه بعد؛** فهو يقول: «والقلب كثير فى كلام العرب، وسنذكر منه شيئا فى موضعه إن شاء الله»، ثُمَّ يقول فى موضع آخر: «... وفى القرآن «﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾. والمعنى: أن العصبة تنوء بالمفاتيح. وقد مضى تفسير هذا»[8].

٢ – الإحالة من «الكامل» إلى «المقتضب»؛ فهو فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ

---

(١) هو جزء من قول حسان بن ثابت:

أوفى الذؤابة من قوم ذوى حسب   لم تصبح اليوم نكسا ثانى الجيد

(٢) سورة الحج: ٩.

(٣) الكامل: ١ / ٢٥٠.

(٤) المرجع السابق: ١ / ١٠.

(٥) سورة القصص: ٧٦.

(٦) الكامل: ١/ ٢١٧.

(٧) المرجع السابق: ٣/ ٢٦٨.

(٨) انظر الموضعين فى الكامل: ٣/ ٣٦٠، ٣٧٣.

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] يبين المراد بالاستفهام فيقول: «إنما هو توبيخ، وليس باستفهام. وقد ذكرنا التقرير الواقع بلفظ الاستفهام فى موضعه من «الكتاب المقتضب» مستقصى»[2].

- ويستشهد المبرد بقول الشاعر:

ويومـــا توافينا بوجهٍ مقسَّمٍ كأنْ ظبيةً تعطُو إلى وارقِ السَّلَمِ

ثم يقول: «حدثنى التوزى عن أبى زيد قال: «سمعت العرب تنشد هذا البيت، فتنصب «الظبية» وترفعها وتخفضها.

قال أبو العباس: « أمّا رفعها فعلى الضمير. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾[3]. وهذا الباب قد شرحناه فى الكتاب «المقتضب» فى باب: «إن وأن» بجميع علله»[4].

٣- وأحال المبرد من «الكامل» إلى كتاب «الاختيار»، فى موضع واحد. فهو يقول: وقد شرحنا ذلك فى كتاب «الاختيار»[5] وهو غير مطبوع.

- ٧ -

والاستطراد من سمات «الكامل».

وقد عرفه ابن رشيق بقوله: هو أن يرى الشاعر أنه فى وصف شئ وهو إنما يريد غيره؛ فإن قطع أو رجع إلى ما كان. وأكثر الناس يسمون الجميع

---

(١) سورة المائدة: ١١٦.

(٢) الكامل: ١/ ٢١٣، المقتضب: ٣/ ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٠٧، وثمة إحالات أخرى فى: ١/ ٨٣، ٢١٣، ٢/ ٣١٨، ٣/ ١٠١، ٤٨١.

(٣) سورة المزمل: ٢٠.

(٤) الكامل: ١/ ٨٣، المقتضب ٢/ ٣٤١ – ٣٥١.

(٥) الكامل: ٤/ ٧٦.

استطرادا[1].

وأبو العباس كثيرا ما يصنع ذلك. فبينما هو يبين مسألة ما، تراه يستطرد بذكر مسألة أخرى، أو يورد بعض الأخبار والنوادر ثم يرجع إلى ما بدأ به. وهو كثيرا ما ينبه على ذلك.

ولعل سبب الاستطراد: هو تزاحم الأفكار فى ذهن المبرد، ورغبته فى تزويد القارئ بقدر كبير منها عند هذه المسألة، ومعلومٌ أنَّ المبرد معلِّم، فله تلاميذ يتلقون عنه فى البصرة. هذا، إلى أن التدوين فى العلوم الإسلامية والعربية كان لا يزال فى المراحل الأولى؛ فالقارئ بحاجة إلى هذا الاهتمام.

وفوائد الاستطراد هى:

١ - الترويح عن النفس، وإزالة الملل. ومثاله أنه افتتح بابا بقوله: «باب: قال أبو العباس: وهذا باب اشترطنا أن نخرج فيه من حزْن إلى سهل ومن جدٍّ إلى هزْل؛ ليستريح القارئ، ويدفع عن مستمعه الملال، ونحن ذاكرون ذلك إن شاء الله»[2].

وافتتح بابا آخر فقال: «باب: قال أبو العباس: نذكر فى هذا الباب من كل شئ شيئا؛ ليكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفى الملل لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشئ من الهزْل؛ ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس»، ومما أورده فى هذا المقام قول ابن مسعود - رحمه الله: «القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان؛ فابتغُوا لها طرائفَ الحِكمة»[3].

فالمبرد يراعى الحالة النفسية للقارئ، فيلجأ إلى الترويح عنه ببعض الأخبار التى تعينه على متابعة القراءة والتحصيل.

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٢/ ٣٩.

(٢) الكامل: ٣/ ٣.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٨٥.

ويقول في موضع آخر: «هذا الباب من منتخل طريف الشعر، ثم انصرف إلى غرضه بذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون»[1].

٢ – إدراك الفرصة السانحة؛ فالغاية هنا هي الإفادة. فالمبرد يورد في «باب التشبيه» مثالاً لأبي الهندي ثم يستطرد بذكر غلبة الشراب على الشاعر، ويورد طرفا من أخباره وهو سكران، ثم يتبع هذا بقوله: «ثم نرجع إلى التشبيه، وربما عرض الشئ للشاعر والمقصود غيره؛ فيذكر للفائدة تقع فيه، ثم يُعاد إلى أصل الباب»[2].

وإتماما للفائدة في «باب التشبيه» رأيت أن أورد فيه أمثلة[3] من الاستطراد؛ لأنها تتعلق به.

والمبرد كثيرا ما يتحدث عن شئ ما، وقبل أن يتمه يوضح شيئا آخر، ثم يرجع إلى ما بدأ به وهو ينبه على ذلك، والأمثلة هنا كثيرة منها:

أنه افتتح بابا للأقوال الحكيمة: ٢/ ٢٨٥، ثم تكلم عن «الكناية» وأضربها: ٢/ ٢٩٠. ويقول في ص ٢٩٥ «ثم نعود إلى الباب» أي: إلى الأقوال الحكيمة.

ويعقد بابا للتشبيه: ٣/ ٣٢، وقبل أن يتمه يتكلم عن النسْء ص١١٤. ويتناول بعض المسائل النحوية ص ١١٨، ثم يقول: ص ١١٩ «عاد القول إلى التشبيه».

١ – وعقد بابا للخوارج ٣/ ١٦٣، وفي أثنائه ص ٣٠١ يقول: هذا باب «فَعَل»، ويقول في ص ٣٠٦ «عاد القول إلى الخوارج»، وبعد أن ينتهي من هذا الباب فإنه يكاد يعتذر عن طوله؛ فيقول:

«وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج، ولكن ربما اتصل الشئ

(١) المرجع السابق: ٤/ ١٢٥.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٤.

(٣) انظر ص: ١٤٨.

بالشيء. والحديث ذو شجون...، ونحن راجعون - إن شاء الله - إلى ما ابتدأ له هذا الكتاب، فإن مرَّ من أخبار الخوارج شيء مر كما مر غيره»[1].

ومن الاستطراد أن المبرد يتكلم عن مسألة فى الفقه: ٣/ ١٦٥، وهى «أن من أصاب صيدا وهو مُحرِم فعليه كفارة»، ثم يقول: «والشيء بالشيء يذكر»، ويعرض لمسألة أخرى هى «كفارة صيد المُحْرِم» ص ١٦٦.

هذه أمثلة لاستطراد المؤلف، وهو كثيرا ما يفعل ذلك.

* * *

والمبرد يرجع كثيرا إلى أهل العلم، ويعتد بآرائهم فى اللغة والتفسير والفقه والرواية... كما ينبه على ما يراه صوابا أو يرجحه، وهو كذلك ينقد ما يراه مخالفا؛ ولذا فهو يوثق الكثير من النصوص والأخبار وأصحابها، كما يُحكِّم منهج العرب كثيرا. وإليك بعض الأمثلة:

يقول المبرد: «والسُّرى لا يكون إلا سير الليل. قال الله عز وجل: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾[2] من قولك: سَرَيْتُ وهى اللغة القرشية. وقد جاءت هذه اللغة فى القرآن. قال الله - عز وجل: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[3] »[4].

وفى تفسير معنى «الدين» يقول: «وقال المفسرون فى قوله عز وجل: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[5]. قالوا: يوم الجزاء والحساب. ومن أمثال العرب «كما تدين تدان». وأنشد أبو عبيدة:

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٤١٤.

(٢) سورة الحجر: ٦٥.

(٣) سورة الفجر: ٤.

(٤) الكامل: ١/ ١٠٤.

(٥) سورة الفاتحة: ٤.

واعلـمْ أن ملككَ زائـلٌ   واعلم بأنَّ كما تدينُ تدان»[1]

«والقياس عند المبرد حجة على الرواية الضعيفة، فقد روى قول جرير وإنشاد أهل الكوفة له، وهو قوله:

تمرُّون الديارَ ولم تعُوجوا   كـلامُكمُ عليَّ إذاً حرامُ

ثم قال ورواية بعضهم له: «أتـمضون الديار» فليس بشيء. والسماع الصحيح، والقياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الشاذة»[2].

ويقول في موضع آخر: «والقياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة»[3].

وفي تفسير «النوء» يقول المبرد: «النَّوْءُ» عندهم: طلوع نجم، وسقوط آخر... ويروى عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا». يعني: أمر الأنواء. لم يختلف في ذلك المفسرون»[4].

والمراد بالتفسير عند المبرد: بيان المعنى سواء كان لغة، أو فقها، أو معنى أدبيا...إلخ. فهذه أمثلة لغوية ونحوية.

وفي تفسير كلمة «باء» يقول: «وقال المفسرون في قول الله عز وجل: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾[5] أي: يجتمعا عليك؛ فتحملها»[6].

وفي بيان المبرد لمعنى:هيم» يقول: «الهيمُ: العطاش. يكون الواحد منَ هيم:

---

(١) الكامل: ١/ ٣٢٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٤.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٥٥.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٦٨.

(٥) سورة المائدة: ٢٩.

(٦) الكامل: ٢/ ٢٣٢.

الهَيْمَ»... وقال بعض المفسرين في قول الله عز وجل: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾[1] قال: هي الإبل العطاش... وقال بعض المفسرين: الهيم: رمالٌ. واحدتها: هَيْماءُ، يا فتى»[2].

ويقول: «اللِّواءُ ممدود إذا أردت به: لواء الأمير...فأما «اللوى» من الرمل فمقصور. قال امرؤ القيس:

«بِسقْط اللِّوى بين الدَّخول فحوملِ»

كذا يرويه الأصمعي. وهذه أصح الروايات»[3].

ومن توثيق المبرد للرواية أنه يروى بيت ابن نُمير الثقفي:

أشاقتك الظعائنُ يوم بانُوا | بذى الرِّى الجميل من الأثاثِ

ويتبعه بقوله:

«... وقوله: «بذى الزى الجميل من الأثاث»

هى الرواية الصحيحة... وقد قيل: بذى الرِّى الجميل»[4].

ويقول «وقال أبو العباس: وكان بلال[5] - يقصد: بلال بن أبى بُردة- داهيةً لقِنًا أديبا. ويقال: أن ذا الرُّمة لما أنشده:

سمعتُ الناس ينتجعون غيثًا | فقلتُ لصيدحَ: انتجعى بلالا

فلما سمع قوله: «فقلتُ لصيدَح انتجعى بلالا»

---

(١) سورة الواقعة: ٥٥.

(٢) الكامل: ٢/ ١٥٣، وانظر مثالا آخر لتفسير كلمة «عُراء»: ١/ ٢٧٦.

(٣) المرجع السابق: ٢٥٠.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٣٩.

(٥) هو بلال بن أبى بردة، يقول فيه أبو العباس: «وكان خالد بن صفوان يدخل على بلال بن أبى بُردة يحدثه، فيلحن. فلما كثر ذلك على بلال قال له: أتحدثنى أحاديث الخلفاء، وتلحن لحن السقَّاءات...» الكامل: ٢/ ٤٢.

قال: يا غلام مُرْ لها بقتٍّ ونوى. أراد: أن ذا الرمة لا يحسن المدح. ثم يقول: قولـه: «سمعت الناسُ ينتجعون» حكاية. والمعنى إذا حقق إنما هو: سمعت هذه اللفظة... ومثل هذا فى الكلام: قرأتُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إنما حكيت ما قرأت»[1]، والمراد: أن المنقول على الحكاية يظل على حاله، ويعرب بحركاتٍ مُقدرة على الحكاية.

ومن توثيقه للرواية قوله[2]: «وذكر أهل العلم»، وقوله: «وقال أهل المعرفة...».

وأبو العباس ينوه بمنزلة أهل العلم، ومن ذلك أنه يقول فى الخليفة الأموى: «وكان عبد الملك من أكثر الناس علما، وأبرعِهم أدبا، وأحسنِهم فى شبيبتهم ديانة»[3] كما أشاد بـ «عمران بن حِطان» الخارجى فى اتساع معارفه وثقافته»[4].

ومن ذلك تنبيهه على خطإ بعض الرواة؛ فهو يقول فى بيان «أوْشاب»: الإشابة ُ: جماعة تدخلُ فى قوم، وليست منهم. وإنما هو مأخوذ من الأمر الأشيبِ. أى: المختلط. ويزعم بعض الرواة أن أصله فارسيٌ أعرب. يقال بالفارسية: وقع القومُ فى آشوب أى: فى اختلاط ثم تصرَّف: تأشَّب النبتُ؛ فصنع منه فعل » ثم يقول: وتزعم الرواة... »[5].

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٥٣، وانظر مثالا آخر للحكاية ١/ ٣٨٣.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٦٥، ٢/ ٨٥.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢٣٤.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٢٦٢.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ٦٠، ٦١.

وكتاب «الكامل» من أهم المراجع لدراسة «الخوارج»، فقد عقد بابا سماه «باب من أخبار الخوارج»[١] وذكر فيه أن «أول من حكم بين الصفين رجل من بني يشكُر بن وائل»[٢] كما ذكر فرقهم[٣]، وسبب تسميتهم بذلك وهي: الحرورية، والأزارقة، والصُّفرية والإباضية...، ويذكر من أعلامهم: عبد الله بن وهب، وعبيد الله بن زياد، وقطرى بن الفجاءة، ونافع بن الأزرق[٤].

يقول المبرد: «وكان نافع شجاعا، مقدّما في فقه الخوارج، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كثيرة. وسنذكر جملة منها في هذا الكتاب إن شاء الله»[٥].

وقال: في «باب من أبواب الخوارج». «وكان نافع بن الأزرق ينتجع عبدالله بن العباس؛ فيسأله. فله عنه مسائل من القرآن وغيره. قد رجع إليه في تفسيرها، فقبله وانتحله، ثم غلبت عليه الشقوة، ونحن ذاكرون منها صدرا إن شاء الله»[٦]. ثم شرع في ذكر بعض هذه

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٦٣.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٨٨.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٦٧، ١٨١ ٢٣٠.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٦٤، ١٦٧، ١٨٤، ٣٧٦، ٢٨٦.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ١٨٤.

(٦) المرجع السابق: ٣ / ٢٢٢. يقول الدكتور محمد رجب البيومي: «كانت مناقشة نافع بن الأزرق مما أذيع واشتهر، وقد نقلها السيوطي على طولها في «الإتقان»، وهي من أبلغ الدلالة على أن نفرا من خلص العرب في العصر الأول كانوا يقفون عند بعض الألفاظ القرآنية. وإن كنت أرى أن ما نقله السيوطي « قد لُفق، وزيد عليه على مرّ العصور؛ إذ ليس من المعقول أن يسأل نافع عن نحو مائة وخمس وثمانين كلمة في مجلس واحد ليجيبه ابن عباس بمائة وخمس وثمانين بيتا من الشعر، تحفظ لفورها، ويرويها الحاضرون سماعا، دون نسيان» البيان القرآني: ١٢٠. وقد درست هذه المسائل كاملة الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها « الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق ». الجزء الثاني ص ٢٨٧، وما بعدها.

المسائل...»[1].

ويعود إلى منهجه فيقول: «وأخبار الخوارج طويلة، وليس كتابنا هذا مفردا لهم، ولكنّا نذكرمن أمورهم ما فيه معنى وأدب أو شعر مستطرف أو كلام من خُطبة»[2]، وقد ذكرنا ما فيه الكفاية.

وفى الكتاب تعريفات موجزة لبعض الأعلام[3] مثل: نافع بن الأزرق، وواصل بن عطاء[4]، وكعب بن أمامة، وابن سُعدى... إلخ.

وأعود فأقول: إن منهج كتاب «الكامل» مزيج من كلّ ما سبق وذلك من أجل تحليل النص تحليلا وافيا وإبراز مضمونه.

– ٢ –

ثانيًا: منهج بلاغي:

أما منهجه فى البلاغه فإن مسائلها وقضاياها متناثرة، وهى ترد تابعة لبيان المعنى اللغوى أو المعنى المراد من النص، أو لمعنى آخر اقتضاه المقام. هذا إذا استثنينا «باب التشبيه»[5].

وهذا المنهج يتكون من المنهج الأدبى، والمنطقى، والتعليمى، غير أن الكتاب بعامة يغلب عليه «المنهج الأدبى» وسأبين ذلك.

أولا: المنهج الأدبى: هو يمتاز بالإكثار من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها، والإقلال من البحث فى التعاريف والقواعد والأقسام، ويعتمد على الذوق

(١) الكامل: ٣/ ٢٢٢، ٢٣٠.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٤٤.
(٣) انظر: الكامل: ٣/ ١٩٢، ١/ ٢٠٣.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٩٢، ١٩٣.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ٣٢ – ١٥٤.

الفنى وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام، وسلامة النظر المنطقى. وهذا المنهج نجده أيضا فى «كتاب الصناعتين»[1] وفى «أسرار البلاغة»، وفى «المثل السائر».

وكان المبرد فى طليعة المبتكرين لهذا المنهج، فقد عُنى بضرب الأمثلة الكثيرة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن مأثور كلام العرب. وفى هذا المنهج تربية للذوق الأدبى، والحس البلاغى.

ثانيا: المنهج المنطقى: وهو يعتمد على الجدل والمناقشة والتحديد اللفظى، والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المقررة، والإقلال من الشواهد الأدبية، وعدم العناية بالناحية الفنية فى خصائص التراكيب، وتقدير المعانى الأدبية، وهو لا يهتم بالنظر إلى معانى الجمال وقضايا الذوق. ويبدو هذا المنهج فى «نقد الشعر» لقدامة[2]، و «مفتاح العلوم» للسكاكى، و «نهاية الإيجاز» للإمام الرازى.

وأقول: نادرا ما يلجأ «المبرد» إلى المنهج المنطقى، ولكنه يمزجه بذوقه الأدبى، وحسه البيانى؛ فيبدو فى أسلوبه سحر التعبير وبراعة التصوير، وفن القول؛ ففى بيانه للتشبيه فى قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطيرَ رطبًا ويابسًا ... لدى وكرها العُنَّابُ والحشَفُ البالى

يقول: «فإن اعترض معترض؛ فقال: فهلا فصَّل؛ فقال: كأنه رطبا العُنَّاب، وكأنه يابس الحشف؟ قيل له: العربى الفصيح الفطن اللقِن يرمى بالقول مفهوما، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيًّا. قال الله ـ جل وعز ـ وله المثل الأعلى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[3] علما

---

(١) مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب: ١٢٢ باختصار، للأستاذ / أمين الخولى.

(٢) المرجع السابق: ١٢٠ باختصار.

(٣) سورة القصص: ٧٣.

بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون، ووقت الاكتساب»[1].

فى هذا الجواب إشارة إلى فن بلاغى آخر وهو «اللف والنشر» وعدّ هذا من ذكاء الشاعر. وهذه الافتراضات من سمات المنهج الفلسفى، بيد أنّ هذا قليل فى «الكامل». وهذا المنهج ناشئ من انتشار الترجمة. وتعدد الثقافات فى هذا العصر.

ثالثاً: وأما المنهج اللغوى فإنه يتمثل فى شرح المفردات؛ فالمبرد يبدأ شرح النص ببيان المعنى اللغوى للكلمة، وكثيرا ما يذكر أصلها، وما طرأ عليها من تغيير بالزيادة أو النقص، أو القلب، أو الاشتقاق، أو التصغير أو النسب... كما يذكر موقعها الإعرابى، وهو يؤيد ذلك بالكثير من الأمثله، وأحيانًا بالرجوع إلى كلام العرب.

وهذا المنهج أفاد فى بيان خفة الكلمة وثقلها وبيان عيوبها من التنافر، والغرابة، ومخالفة الوضع مما كان له بعد الأثر فى مراعاة سلامة التراكيب، وجودة النظم.

رابعاً: ويبدو المنهج التعليمى فى التتبع لجزئيات النص الأدبى، وفى إعادة بعض الأمثلة وشرحها، وكذا فى الإشارة إلى أنه ذكر ذلك، أو سيذكره فى موضع لاحق. وكان أبو العباس يبرُّ بما وعد[2].

وإذا أردت الشاهد فاقرأ بيانه للالتفات فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[3]، وكذا بيانه للمجاز العقلى فى قوله تعالى:

(١) الكامل: ٣/ ٣٢.

(٢) الكامل: ٢/ ٥٦، ٣/ ٢٢.

(٣) سورة يونس: ٢٢، والكامل: ٢/ ٥٦، ٣/ ٢٢.

﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[١].

ومن الأمثلة استعمال المبرد لبعض ألفاظ المعلمين، وفى ذلك بيان لأهمية المسألة، وحث على الانتباه كقوله: «اعلم» و «افهم»، و «يافتى». ومثاله قوله: «وقليل هذا يدل على جميع هذا الباب، فافهم»[٢].

وهو يعلق على كلمة «اليمانى» بقوله: «أجود النسب إلى اليمن: يمنىٌّ. ويجوز «يمانى» بتخفيف الياء، وهو حسن. وهو أكثر الكلام... ويجوز «يمانىّ»؛ فاعلم»[٣].

وكثر فى «الكامل» قول «المبرد»: «يا فتى» وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾[٤]، ومثاله أن المبرد يبين الفرق بين إسناد الفعل على الحقيقة وعلى المجاز؛ فيقول: «وتقول سقاك الله الغيثَ، ثم يجوز أن تجعل الفعل

---

(١) سورة سبأ:٣٣، والكامل: ١/ ١٣٥، ٣/ ٤١٠.

(٢) الكامل: ١/ ٢٩٤.

(٣) المرجع السابق: ٣ / ٢٠٩، وانظر: ٢/ ١٠٨. أقول: والمنهج التعليمى يبدو كثيرا فى كتب التراث. فالشيخ عبد القاهر وهو يبين مزية تعريف الرأس باللام وهى إفادة الشمول فى قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم: ٤) يتبع هذا بقوله: ولو قيل: واشتعل رأسى، فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن، فاعرفه» دلائل الإعجاز: ١٠١. ويقول فى ص: ١٦٢: «فاعلمه».

ويبين سعد الدين سبب الفصل فى قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ (سورة طه: ١٢٠) بأن جملة: «قال يا آدم» وقعت بيانا للجملة قبلها. ثم قال: «ولا يجوز أن يقال: إنه من باب عطف البيان للفعل؛ لأنا إذا قطعنا النظر عن الفاعل. أعنى: «الشيطان» لم يكن «قال» بيانا وتوضيحا لـ «وسوس»؛ فاعرفه». المطول: ٤٤٥. ويقول فى المختصر ٢/ ٢٩٨ ط.الحلبى: «فاعلمه».

وتترد جملة «فافهم» كثيرا فى كتاب «الطبقات الكبرى» للشعرانى (ت ٩٧٣هـ) مكتبة الآداب. انظر ص: ٤٨٨،٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٣.

(٤) سورة الكهف:٦٠.

للغيث، فتقول، سقاك الغيثُ يا فتى»[1].

ونجد هذا كثيرا فى «المقتضب» ومن ذلك قوله: «هذا أبوه؛ فاعلم»؛ «وقوله: «هذه سنون؛ فاعلم» كما يكرر ذلك فى غير موضع[2].

وأقول: إن منهج المبرد فى بلاغة «الكامل» مزيج من هذه المناهج غير أن «المنهج الأدبى» هو السائد، وهذا ما جعل الكتاب مدرسة للفكر العربى الإسلامى.

وكتاب «الكامل» صورة صادقة لما انطبع فى نفس المبرد من معارف، وما تثقف به من ثقافات لغوية، ونحوية، وأدبية[3].

والكتاب حافل ببعض الطرائف[4] للترويح عن القارئ وتجديد نشاطه، وإلمامه ببعض العادات والطبائع لدى بعض الناس. غير أنها متناثرة، والوقوف عليها يحتاج إلى جهدٍ فى تجميع شتاتها، والعكوف على دراستها.

- ومعظم النصوص مقطوعات من الشعر ثم من الخطب والحكم والأمثال، وقليلا ما تذكر القصيدة الطويلة[5]، وكذلك شأن الخطب[6]. وقد يورد أبو العباس البيتين أو الأبيات المفردة دون شرح[7].

فمن الأمثلة قوله: وأنشد منشد من الأبيات المتفردة بأنفسها:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادَكَ الهوى ... إلى بعض مـا فيه عليك مقالُ

وأكثر الاختيارات من أدب الجاهليين والإسلاميين، ثم من أدب المحدثين

---

(١) الكامل: ١/ ٣١٨، وانظر: ١/ ٤، ١٨.

(٢) انظر: كتاب المقتضب: ١/ ١٧٥، ١٨٤، ١٨٧، ٣/ ٣٣٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٥٨. مقدمة المحقق رحمه الله تعالى.

(٤) الكامل: ١/ ٣١٢، ٣/ ٩٥.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٣٢.

(٦) انظر: خطبة على بن أبى طالب فى الحثّ على الجهاد: ١/ ٢٠.

(٧) الكامل: ٢/ ٧.

وبخاصة الشعر.

ومن الأمثلة قوله: «وهذا باب طريف من أشعار المحدثين» ويذكر أشعارا فى المراثى لمطيع بن إياس، وأبو عبد الرحمن العُتْبى، ويعقوب بن الربيع وغيرهم»[1] كما استحسن المبرد قصيدة لإسحاق بن خلف البهرانى[2] وشرحها، وأولها قوله:

وللكُرْدِ منكَ إذا زرتهم ... بكيدك يومٌ كيوم الجمل

وأخيراً: فكتاب «الكامل» درة من درر البيان، وله منزلته فى اللغة العربية.

* * *

(١) المرجع السابق: ٤/ ٩٢ - ٩٩.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٩.

القسم الثاني

البلاغة في كتاب الكامل

الباب الأول

علم المعانى

وفيه:

الأول: المفاهيم البلاغية

الثانى: مباحث علم المعانى

الفصل الأول
المفاهيم البلاغية
المبحث الأول
الفصاحة

قال ابن فارس (ت٣٩٥ هـ): «الفاء والصاد والحاء، أصل يدل على خلوص فى شئ، ونقاء من الشَّوب، من ذلك: اللسان الفصيح الطليق، والأصل أفصَحَ اللبن: سكنتْ رغوته، وأفصح الرجلُ: تكلم بالعربية، وفصح: جادت لغته حتى لا يلحن»(١).

وقال الراغب (ت ٥٠٤هـ): «الفصْحُ: خلوُّ الشيء مما يشوبه، وأصله من اللبن، يُقال: فصُحَ اللَّبن وأفْصَحَ فهو مُفْصِح: إذا تعرَّى من الرغوة وقد روى: «وتحت الرَّغوة اللبنُ الفصيح»

ومنه استعير: فصح الرجل، جادتْ لغته، وأفصح: تكلم بالعربية، وقيل: الفصيح: الذى ينطق، والأعجمى: الذى لا ينطق، قال - تعالى -: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾(٢) وعن هذا استعير أفصح الصبحُ: إذا بدا ضوؤه»(٣).

فالمادة يدور معناها حول: الصفاء والنقاء والخلوص من العيوب سواء كان ذلك فى الأمور الحسية أو المعنوية.

والمبرد أشار إلى تعريف الفصاحة فى اللغة، واستشهد بالمأثور من كلام الفصحاء، كما ذمّ العِيّ والفهاهة، وأفاض فى عيوب النطق، وقد أفاد من هذه الأمثلة بعد علماء البيان.

---

(١) مقاييس اللغة: (فصح).

(٢) سورة القصص: ٣٤.

(٣) المفردات فى غريب القرآن(فصح).

ومن ذلك قوله: وقال نضْلة السّلمى – فى يوم غول[1]، وكان ذا نجدة وبأس:

ألم تسلِ الفوارس يوم غول ... بنضْلة وهو موتورٌ مشيحُ

....

ولم يخشْوا مصالتـــهُ عليهم ... وتحت الرغوةِ اللبن الفصيحُ

ثم يقول: قوله:

«وتحت الرّغوة اللبنُ الفصيحُ»

يقول: إذا رأيت الرغوة – وهو ما يرغو كالجلدة فى أعلى اللبن – لم تدر ما تحتها، فربّما صادفت اللبن الصريح إذا كشفتها، أى أنهم رأونى فازدرونى لدمامتى، فلما كشفوا عنى وجدوا غير ما رأوا. والصريح: المحض الخالص. من ذلك قولهم: عربى صريح، أى خالص، ومولى صريح»[2].

وأورد بيتين أثنى على قائلهما بالفصاحة، وعلمه بجواهر الكلام أحسن مخرج وهما:

فمن يكُ لم يغْرض فإنى وناقتى ... بحجرٍ إلى أهلِ الحِمى غرِضَانِ

تحِنُّ فتُبدِى ما بها من صَبَابةٍ ... وأخفى الذى لولا الآسى لقضانِى

يريد: لقضى علىّ»[3].

فالشاعر وناقته إلى أهل الحمى غرضان، وهى لا تستطيع كتمان الصبابة مع أنه يُخفيها، ولولا الأسى لهلك، فتراه جمع بينه وبينها فى كونهما غرضين: وفى سيطرة الصبابة، ولكن مع الفرق، فالناقة تُبدى. والشاعر يخفى. فالمعنى يحتاج إلى فكر وتأمل، فالشاعر ذو علم بجواهر الكلام.

---

(١) الغول: ماء للضباب فيه نخل وعيون. الكامل: ١/ ٨٨ (هامش).

(٢) الكامل: ١/ ٩٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٢.

ويُفضّل المبرد بعض الشواهد لسلامتها من العيوب فيقول:

وبما يفضل لتخلصه من التكلُّف، وسلامته من التزيُّد، وبعده من الاستعانة قول أبى حية النميرى:

رمتْنى وسِترُ الله بينى وبينها عشيةَ آرامِ الكُناسِ رميمُ

ألا رب يوم لو رمتنى رميتُها ولكن عهدى بالنضال قديمُ

... فهذا كلام واضح.

هذا المثال بريء من عيوب: التكلُّف، وزيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة، ومن الاستعانة، وسنبين كلاً منها:

١ - **فأما الاستعانة** فقد بيّنها بقوله: «أن يُدخل فى الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليُصحح به نظما، أو وزنا إن كان فى شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان فى كلام منثور كنحو ما تسمعه فى كثير من كلام العامة قولهم: ألستَ تسمع؟ أفهمت؟ أين أنت؟ وما أشبه هذا، وربما تشاغل بفتل إصبعه، ومسِّ لحيته، وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح، وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء فى شعر:

مليءٌ ببهْرٍ والتفاتٍ وسَعْلة ومسحة عُثْنون[1] وفتلِ الأصابعِ

وقال رجل من الخوارج يصف خطيباً منهم بالجُبْن، وأنه مُجيد، لولا أنّ الرعب أذهله:

نحنح زيدٌ وسَعل لمّا رأى وقع الأسـلْ

ويلُمّـه إذا ارتجل ثُمّ أطـالَ واحتفـلْ»[2]

فالغرض من الاستعانة: محاولة المتكلم، صرف انتباه السامع إلى أن تسعفه الذاكرة بالكلام، وتكون بالعبث باللحية أو الإصبع أو التنحنح أو سؤال

---

(١) العثنون: بضم العين: اللحية، أو بعض أجزائها. اللسان (عثن).

(٢) الكامل: ١/ ٣٠.

البعض.. إلخ.

والمبرد يستمد من الجاحظ[1] في هذا الموضع ويتأثر به.

٢- **ومما عابه المبرد: التزيُّد**: وهو زيادة اللفظ على المعنى، وما دام أنه عيب فإنه يكون لغير فائدة. وهذا ما عناه المتأخرون بالتطويل، والحشو[2].

٣- **فأمَّا التكلُّف فإنه معيب** عند علماء النقد والبلاغة، وذلك أن المُتكلِّف همه اللفظ ولو معيباً، أو يُكثِر من المحسنات ويُبالِغ فيها على حساب المعنى.

وأما الطبع، فهو جريان المتكلم على طبعه وسجيته، دون مبالغة تكون على حساب المعنى.

وليس معنى هذا أننا نرفض الصنعة والتجويد، ولكن نرفض المبالغة في الصنعة التي تؤدي إلى التعقيد، أو الإكثار من المحسنات، والتي تجعل المعنى يضل في سراديبها.

والدليل على ذلك أن «زهيراً» كان يعكف على تجويد شعره، وتنقيحه وتهذيبه. يقول الجاحظ: «من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكُث عنده حولاً كريتاً، وزمناً طويلاً، يُردد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله، ويُقلِّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوَّله الله – تعالى – من نعمته، وكانوا يُسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلدات، والمنقحات، والمحكمات ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً»[3].

ومظاهر التكلُّف كثيرة :

قال أبو العباس: «وقد يضطر الشاعر المفلق، والخطيب المصقع، والكاتب

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٢، ٢٥.

(٢) الإيضاح: ٣/ ١١٣.

(٣) البيان والتبيين: ٢/ ٩.

البليغ، فيقع فى كلام أحدهم المعنى المستغلق، واللفظ المستكره، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام على عواره، وسترتا من شينه – وإن شاء قائل أن يقول « بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر، ومجاورته له أشهر كان ذلك له، ولكن يغتفر السيء للحسن، والبعيد للقريب»[1].

فالمراد بالمعنى المستغلق: الشديد الغموض، إما لأن المتكلم تعرض لمسألة علمية بعيدة عن ثقافته وإدراكه، أو خُوطِبَ فى بحث علمى لا يعرف عنه إلا القليل، فيتكلم بكلام لا يفيد؛ فيُحَمِّل عبارته من التعقيد أو السجع أو الجناس مما يجعل كلامه ثقيلا، ولا يحفل المتلقى بكلامه.

والمراد باللفظ المستكره: القلق فى مكانه، إما لأنه غريب وحشى كلفظ «تكأكأتم»، أو لأنه مؤلَّف من حروف متقاربة المخارج مثل كلمة «الهُعْخُع».

والمبرد يُنَبِّه على أن من اللفظ ما هو معيب. ولكن إذا ورد أثناء كلام حسن غطى على عواره، وستر من شينه، فيغتفر ذلك.

وثمة عيوب تبعد الكلام وصاحبه عن الفصاحة، وهى:

الرُّتة: تعذُّرُ الكلام – وأنها تكون غريزة، ويُقال: إنها تكثُر فى الأشراف[2] وأما الغمغمة: فقد تكون من الكلام وغيره؛ لأنه صوت لا يفهم تقطيع حروفه[3].

والتَّمتمـة: التردُّد فى التاء، والفأفأة: التردُّد فى الفاء، والعقلة: التواء اللسان عند إرادة الكلام، والحُبسة: تعذُّر الكلام عند إرادته، واللَّفف: إدخال حرف فى حرف، والرتة: كالرتج تمنع أول الكلام فإذا جاء منه شئ اتصل، والغمغمة: أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع الحروف، والطُّمطمـة: أن يكون الكلام

(١) الكامل: ١/ ٧٢.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٢٠، ٢٢٣.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٢٣.

مشبها لكلام العجم.

واللُّكنة: أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية، واللثغة: أن يعدل بحرف إلى حرف، والغُنَّة: أن يشرب الحرف صوت الخيشوم. قال الشاعر:

وقد تعتريه عُقلةٌ فى لسانه ... إذا هزَّ نصل السيْفَ غيرَ قريبِ[1]

وقال «ابن المقفع»: إذا كَثُرَ تقليب اللسان رقت جوانبه، ولانت عذبته. وقال العتابى: إذا حبُس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف.

ويتابع المبرد القول عن عيوب النطق وأهله فيقول:

«قال معاوية يوما: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السِّماط[2] فقال: قومٌ تباعدوا عن فراتية العراق، وتيامنوا عن كشكة تميم،...، ليس فيهم غمغمة قُضاعة، ولا طمْطانية حمير. فقال له معاوية: من أولئك؟ فقال: قومى يا أمير المؤمنين. فقال له معاوية: من أنت؟ قال: أنا رجل من «جرْم». قال الأصمعى: وجرم من فصحاء الناس.

ويذكر المبرد من كان يجرى على لسانه اللكنة[3] فمنهم صُهيب صاحب رسول الله - ﷺ - وعبد بنى الحسحاس كان يرتضخ لكنة حبشية ويقول: وكان عبيد الله بن زياد يرتضخ لكنه فارسية، وإنما أتته من قِبَل أمه شيرويْه الأسوارى.

ومما يدخل فى عيوب الكلام اللَّحن - وهو ناشئٌ من ضعف الملكات بسبب الاختلاط، ونقل العاصمة إلى فارس وغيرها... وكان للموالى فى ذلك دخل كبير، ولذا كان ذوو اليسار يحضرون لأبنائهم مَن يُعلمهم الأدب ليستقيم

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٢٢١، وانظر: ٢/ ٢٠، ٤/ ١٢٧.

(٢) السماط: سماط القوم: صفهم، ويقال: قام حوله سماطين أى صفين، وكل صف من الرجال سماط. اللسان: (سمط).

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٢٥، اللكنة: عُجمةٌ فى اللسان وعِىٌّ.

لسانهم – قول المتنجع لرجل من الأشراف: ما علّمت ولدك؟ قال: الفرائض. فقال: ذلك علم الموالى – لا أبا لك! – علّمهم الرجز، فإنه يهرت أشداقهم، ومن ذلك قول الشعبي ومرَّ بقومٍ يتذاكرون النحو، فقال:

«لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده»[1]

هذا الخطر على اللغة والأدب «كان قليلاً حتى أواخر العصر الأموى فإنَّ الوهن لم يكن قد تطرق إلى الملكات، والسلائق لم تكن قد فسدت، والعرب فى هذا العصر كانوا قريبى عهد بالجاهلية وصيانتها من العجمة التى طمَّ فيما بعد سيلها؛ فإنهم ترفعوا بعد عن الأعاجم... وتأففوا من اللحن، واستسقطوا اللحانين، وعدوا اللحن عاراً لا يُمحى، ولا تزول سوءته حتى قال عبد الملك بن مروان: شيبتنى ارتقاء المنابر، وتوقع اللحن وعد الأمويون السلامة من اللحن شرفاً عظيماً»[2].

كان بنو أمية غيورين على اللغة والعروبة وكانوا يُحاربون اللحن بشتى الصور. فقد جاء فى الكامل[3] أن الحجاج قصده فى الكوفة عبد الرحمن بن أم الحكم فى عددٍ كبير «من الفقهاء وغيرهم من الموالى، فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والأدب، ويخلطهم بأهل القرى والأنباط، فقال: إنَّما الموالى علوج[4] وإنما أتى بهم من القرى؛ فقراهم أولى بهم، فأمر بتسييرهم من الأمصار، وإقرار العرب بها، وأمر أن ينقش على يد كل إنسان منهم اسم قريته، وطالت ولايته، فتوالد القوم هناك وخبثت لغات أولادهم، وفسدت طبائعهم، فلمَّا قام سُليمان بن عبد الملك أخرج من كان فى سجن الحجاج من المظلومين،

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٦١، يهرت أشداقهم: يعودها على الكلام.

(٢) الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى: ١٢٧.

(٣) ج٢: ص ٩٦.

(٤) العلج: الواحد من كفار العجم، والجمع: علوج. مختار الصحاح (علج).

فيقال: إنه خرج فى يوم واحد ثمانين ألفا، ورد المنقوشين فرجعوا فى صورة الأنباط»[1].

والمبرد – فيما قرأت – أول من أشار إلى أن الفصاحة وصف للفظ، فقد أورد مقطوعة لرجل من تميم فى الهجاء، ومنها:

إنَّ الذين يسوغُ فى أعناقِهم   زادٌ يمَـن عليهم للئـامُ

ثم يُعقِّب بقوله: وهذا كلامٌ فصيح جداً.

قولـه: يسوغ فى أعناقهم «يريد: حلوقهم؛ لأنَّ العنق يحيط بالحلق ويشبه هذا الاتساع فى الفصاحة، لا فى المعنى.

تُقريهمُ لهذميات نقدُ بها   ما كان خاط عليهم كل زرَّادِ

لأن الخياطة تضم خرق القميص، والسرد يضم حلق الدرع، فضربه مثلا، فجعله خياطة»[2]. ويُفهم من البيت الأول: المجاز المرسل، ومن الثانى: الاستعارة[3]، فالمبرد جعل نقل الكلمة من المعنى الحقيقى إلى المجازى اتساعا فى اللفظ، لا فى المعنى، فالفصاحة وصف للفظ لا المعنى، وإن كان مِثل هذا لم يتكرر فى كتابه. وهو ما عُرِفَ بعدُ بالتعقيد اللفظى.

يقول: «ومن أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ وأبعد المعانى قوله:

وما مثله فى الناس إلاَّ مملَّكا   أبـو أمه حىٌّ أبوه يقاربه

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المُغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهو خال هشام بن عبد الملك فقال:

وما مثله فى الناس إلاَّ مملَّكا

يعنى بالمملك هشاما، أبو أم ذلك المملك أبو هذا الممدوح، ولو كان هذا

---

(١) النبط والأنباط: هم سكان العراق وأربابها. اللسان، ومختار الصحاح: (نبط).

(٢) الكامل: ١/ ٥٨.

(٣) انظر: ص ٢٧٠.

الكلام على وجهه لكان قبيحا، وكان يكون إذا وُضِعَ الكلام في موضعه أن يقول: وما مثله في الناس حي يقاربه إلاَّ مملك أبو أم هذا المملك أبو هذا الممدوح. فدلَّ على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد، وهجَّنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير»[1].

بهذا النقد والتحليل المسهب أوفى المبرد على الغاية، ولم يترك قولاً لمستزيد، والبيت علم على «التعقيد اللفظي». وقد كان للمبرد في ذلك قصب السبق؛ فكل من جاء بعده تأثر به فنقل عبارته أو اختصرها وأشار إليها وقد كان لثقافة المبرد النحوية أثر في بيان مراد الشاعر ونقد البيت.

* * *

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٨.

المبحث الثاني

البـــلاغة

قال الراغب: «البلُوغ والبلاغ: الإنتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانا أو زمانا أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر عنه بالمشارفة عليه ما إن لم ينته إليه، فمن الانتهاء: بلغ أشده، وبلغ أربعين»(١).

وقال الزمخشري: «بلُغ الرجل بلاغة فهو بليغ، وهذا قولٌ بليغ، وتبالغَ في كلامه: تعاطى البلاغة وليس من أهلها، وما هو ببليغ ولكن يتبالغ»(٢).

فالمادة تدور حول معنى: الوصول والانتهاء إلى الغاية، حسية كانت أو معنوية. وعلى ضوء المعنى اللُّغوى كان المعنى الاصطلاحى.

فالخطيب (ت ٧٣٩هـ) عرَّف بلاغة الكلام بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، كما عرف بلاغة المتكلم بأنها: ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ(٣) وبين أنه يجب مراعاة الأحوال، فلكل مقام ما يناسب من الكلام.

وللمبرد رسالة وجيزة سماها: «البلاغة»(٤)، وهو في بدايتها يُبيِّن أن البلاغة في تخيُّر الألفاظ وحذف الفضول، ومراعاة الملاءمة بين اللفظ والمعنى، مع حُسْن النظم، وأنه لو تيسر ذلك في الكلام المنثور، والمنظوم لفضل الثاني وقائله؛ لأنَّ المنظوم لا بد فيه من الوزن والتقفية، ومن ثَمَّ فإنه يحتاج إلى الحيلة والمعاناة. ويذكر أن لجزالة اللفظ، وفخامته قيمة بلاغية، ويُطبِّق ذلك على بعض الأمثلة.

---

(١) المفردات: (بلغ).

(٢) الأساس: (بلغ).

(٣) الإيضاح: ١/ ٢٦- ٣١.

(٤) البلاغة لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد: ٨١، تحقيق د/ رمضان عبد التواب.

ويُبيِّن المبرد فى «الكامل»[1] أن المتمكن من سلامة الحروف يُحْسِن مخارج الكلام وهو يفضُل على من لم يستطع ذلك، وإن أجاد، قال: «وخطب الجُمَحى وكان منـزوع إحدى الثَّنيتين، وكان يُصَفِّر إذا تكلم، فأجاد الخطبة... فرد عليه «زيد بن على بن الحسين» كلاماً جيداً، إلاَّ أنَّه فضله بتمكن الحروف، وحُسْن مخارج الكلام، فقال «عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر» يذكر ذلك:

صحَّت مخارجُها وتمّ عديدُها فله بـذاك مـزيةٌ لا تُنكرُ

والبليغ عنده: من يكون طليق اللسان، يتحدث على سجيته دون عناء أو غموض ويفاد هذا من قوله: «وكان خالد بن صفوان يقول: لا تكون بليغاً حتى تكلم أمتك السوداء فى الليلة الظلماء فى الحاجة المهمة بما تتكلم به فى نادى قومك، فإنما اللسان عضو إذا مرنته مرن، وإذا أهملته خار»[2].

وقال: حُدِّثت أنَّ صبرة بن شيْمان الحُدَّانى دخل على معاوية والوفود عنده فتكلموا فأكثروا، فقام «صبرة» فقال: يا أمير المؤمنين إناحىٌّ فِعال، ولسنا بحىٍّ مقال، ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم، فقال: صدقت[3].

لم يُعلِّق المبرد على الخبر، ويفاد منه أن «صبرة» راعى المقام، فأوجز، فقد تكلمت الوفود وأكثرت، ومعلوم أنَّ الرؤساء ومن وكل إليهم أمور الناس يؤثرون الإيجاز، ويرونه فضيلة.

وقد أثنى الأصمعى (ت ٢١٣هـ) على أعرابى خطب فبلغ فى إيجاز[4].

وأورد قول الحُطَيْئة لعمر بن الخطَّاب وإن كان لم يُعلِّق عليه:

---

(١) الكامل: ج٣، ص١٩٥، وقد تأثر صاحبه بالجاحظ فى البيان والتبيين: ١/ ٥٨.

(٢) الكامل: ٢/ ٢٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٩٧.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ١٠٨.

تحنَّن عليَّ هداك المليكُ   فإنَّ لكلِّ مقامٍ مقالا[1]

ويقول فى موضع آخر: قال ثُمامة بن أشرس النُّميرى: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحي والمأمون[2].

والبليغ من يُراعى حال السامعين، فيُخاطبهم على قدر عقولهم: «وقيل للعتَّابى: ما أقرب البلاغة؟ قال: ألا يؤتى السامع من سوء إفهام القائل، ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع»[3].

فالبلاغة عند المُبَرِّد تعنى: تخير الألفاظ والملاءمة بينها وبين المعانى مع حُسْن النظم، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.

والبليغ هو المُتمكِّن من سلامة الحروف ومخارجها، وهو يتكلم على سجيته، مع طلاقة اللسان، والمطابقة لحال السامعين دون عناء.

* * *

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٩٩.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٠١.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ١٢٧.

المبحث الثالث

النظـم

قال الزمخشري[1]: «نظَمت الدُّر، ونظَّمتُه، ودرٌّ منظوم ومنظَّم... ومن المجاز: نظم الكلام، هذا نظمٌ حسن، وانتظم كلامه وأمره».

وجاء في لسان العرب[2]: «النظم: التأليف... والتنظيم مثله، ومنه نظمتُ الشعر ونظَّمتُه، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر أوضمت بعضه إلى بعض فقد نظمته». فالمعنى اللُّغوي للنظم: ضم الشيء على نسقٍ خاص سواء في المحسوسات، أو المعقولات.

وقد جاء في مواضع من «الكامل» حديث طيب عن «النظم»، فقد ضرب له المبرد الأمثلة الكثيرة وحلَّلها، وقارن كثيرا بين نظم ونظم، وبيَّن مَزيَّة أحدهما على الآخر، هو الإمام عبد القاهر الذي أقام هذه القضية على النحو حيث يقول: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه ، وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَت لك فلا تخل بشيء منها»[3].

فليس النظم عنده: ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق[4] وإنما النظم الذي يتوخى فيه آثار المعاني ، وترتبها في النفس ، مع تعلق وارتباط بين أجزاء الكلام. فالنظم عند عبد القاهر مبني على التعلق والترابط بين الكلم، ثم بين

---

(١) الأساس: (بلغ).

(٢) مادة: (نظم).

(٣) دلائل الاعجاز: ٨١.

(٤) المرجع السابق: ٤٩.

الجمل والعبارات[1].

وقد استفاد عبد القاهر فى نظرية النظم كثيرا من نظرات النحاة الذين سبقوه حين كان النحو أوسع أفقا ، وأكثر خصبا من النحو فى صورته الأخيرة ، فقد أكثر من النقل عنهم ، والإستشهاد بآرائهم والبناء على أصولهم...، وحديثه عن لطائف «إنَّ» ومواقعها فى التراكيب اعتمد فيه على جواب أبى العباس المبرد للفيلسوف الكِندى[2].

وقد كان للمبرد هنا آراء لها أهميتها:

١ - فقد أشار إلى أنَّ صاحب النظم بحاجة إلى اليقظة ، فيضم الإلف إلى إلفه؛ ليكون التناسب فى الكلام؛ فقد نقل عن الجاحظ أمثلة لتكون معيارا لكل من النظم الجيد ، والنظم الردئ ومنها قوله: «وخبرت أن عُمر بن لَـجَأ قال لإبن عم له: أنا أشعر منك قال له: وكيف؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه. وأنشد عمرو بن بحر:

وشِعْرٌ كبعَرِ الكَبْشِ فرَّقَ بينه لسانٌ دَعِىٌّ فى القَرِيضِ دَخيل

وبعر الكبش يقع متفرقا[3].

فقد ضَربَ شعر «عمر بن لجأ» مثالا للنظم الجيد؛ لتلاؤمه وذلك ناشئ عن الأناة والرَّوية ، كما ضَرب شعر ابن عمه مثالا للنظم الردئ ، ولذا شبهه ببعر الكبش؛ لأنه يقع مفرقا، كيفما اتفق.

٢- وأرانا أبو العباس[4] ثمرة كل من النظم الجيد، والردئ عندما أورد قول

---

(١) انظر: دلائل الاعجاز: ٥٥.

(٢) نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الحديث: ١٣.

(٣) الكامل: ٢/ ١٦٠، والبيان والتبيين: ١/ ١١٥.

(٤) الكامل: ٢/ ١٠.

دعبل الخزاعي:

ساقضى ببيتٍ يحمَدُ الناسُ أمرَه ... ويكثر من أهل الروايةِ حاملُه

يموت رديءُ الشعر من قبل أهلِه ... وجيدُه يبقى وإن مات قائلُه

٣- وضرب أمثلة كثيرة للنظم الجيد ، إلا أن هذا النظم عنده درجات. فهو يقول:

«... فمن ألفاظ العرب البيِّنة القريبة المُفهِمَة ، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف قول الحطيئة:

وذاكَ فتًى إن تأته في صنيعةٍ ... إلى مالِه لا تأته بشفيعِ[1]

ويقول: «وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد يخلى شعره مما تقدم من الأخبار والآثار؛ فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقُ أخفى سرقة. فقوله:

«وأنت اليوم أوعظُ منك حيا»[2]

إنما أخذه من قول المُوبَذ لقُباذ الملك حين مات ، فإنه قال في ذلك الوقت: «كان الملك أمس أنطقَ منه اليوم ، وهو اليوم أوعظُ منه بالأمس».

فالنظم بهذه الألفاظ السهلة يجعل من يسمع البيت لا يشك في أنه من ابتكار الشاعر ، وكأن لا أخذ ، ولا سرقة.

وذكر المبرد نموذجا من شعر ابن ميادة استحسنه؛ لصحة معناه ، وجزالة لفظه ، وكثرة تردد ضربه من المعاني بين الناس[3].

وضرب مثالا للتشبيه المُفرِط وبيَّن أنه خرج في كلام جيد، ثم جعل لجودة ألفاظه، وحسن رصفه ، واستواء نظمه في غاية ما يستحسن وهو قول النابغه

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٢٩.

(٢) صدر البيت: «وكانتْ في حياتك لي عظاتٌ». المرجع السابق: ٢/ ١١. والمؤبذ: قاضي قضاتهم.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٥.

فى حصن بن حُذيفه الفزارى، وأوله:

يقولون حصنٌ ثمّ تأبى نفوسُهُم وكيف بحصنٍ والجبالُ جُنوحُ

وقال المبرد: ومما يستحسن لفظه ، ويستغرب معناه ، ويحمد اختصاره قول أعرابى من بنى كلاب:

فمن يك لم يغْرِض فإنى وناقتى بحَجْرٍ إلى أهـلِ الحِمَى غَرِضَانِ

تحِنُّ فتُبدى ما بهـا من صَبَابَةٍ وأخفى الـذى لـولاهُ الأسى لقضـانى

يريد: لقضى علىَّ، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجواهر الكلام أحسن مخرج»[1].

«وأورد مقطوعة شعرية وصفها بأنها من سهل الشعر وحسنه»[2] وبين ما فيها من بعض مسائل البلاغة، كما أورد مقطوعة أخرى نعتها بأنها «من حَسَن الشعر ، وما يقرب مأخذه، ومنها قوله:

عَرَضتُ نصيحةً منّى ليحيى فقال: غششْتِنى والنُّصح مـرُّ

وما بى أن أكونَ أعيبُ يحيى ويحيَى طـاهـرُ الأثوابِ بَـرُّ

وعقب بقوله: «فهذا كلام ليس فيه فضل عن معناه»[3].

* * *

وقد أبان أبو العباس عن منزلة القصد والصدق فى المنطق، كما ذم التكلف، وترك ما لا يلزم فى النظم، وذلك عندما روى قول النبى ﷺ: «الا أخبركُم بأحبّكُم إلىّ، وأقربكُم منِى مجالسَ يوم القيامة؟ أحاسِنكم أخلاقًا، المُوطَّئون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلَفون، ألا أخبرُكُم بأبغضِكم إلىّ، وأبعدِكم منّى مجالسَ

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٢، وانظر ص : ٦٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٤١.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٣.

يومَ القيامة؟ الثرثـارون المُتـفَيْهقون».

ومما جاء في بيانه ﷺ: «الثَّرثارون: يعني الذين يكثرون الكلام تكلفا وتجاوزا، وخروجا عن الحق، وأصل هذه اللفظة من العين الوْاسعة من عيون الماء. يقال: عينٌ ثرثارة. وكان يقال لنهر بعينه: الثرثار...، وقوله ﷺ: المتفيهقون. «إنما هو بمنزلة قوله: الثرثارُون، توكيدا له»[1].

فالنظم الجيد عند أبي العباس يكون باختيار الألفاظ المشاكلة لجودة المعاني، مع استواء النظم والاختصار ومراعاة الحال، والنظم عنده درجات.

وقد كان لهذا المفهوم صدى عند الشيخ عبد القاهر ومن جاء بعده من علماء البلاغة.

* * *

(١) المرجع السابق: ١/ ٤ – ٦. وقد درست هذا الحديث في «مبحث الكناية».

الفصل الثاني

مباحث علم المعاني

المبحث الأول

الإسناد الخبري

الخبر: قولٌ يحتمل الصدق والكذب لذاته، أي لذات الخبر، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر، مثل: الماء عذبٌ، ولم يحضر محمد. فهذان خبران لكل منهما نسبة كلامية، فإن طابقت النسبة الخارجية كان الخبر صادقاً، ووصف قائله بالصدق، وإن لم تطابق وصف الخبر بالكذب، كما يوصف قائله بذلك.

وللخبر غرضان: فإن قُصد إفادة المخاطب الحكم مثل: محمد حاضر فهو يسمى: إفادة الخبر. وإن قصد إعلام المخاطب بالحكم الذي يعلمه مثل: أنت ناجح، فهو يسمى لازم فائدة الخبر[1].

وقد تنبه المبرد إلى تنوع الخبر؛ فقد ورد[2] في غير الكامل أنه أجاب الكندى عن قوله: إني أجد في كلام العرب حشواً. يقولون: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم. والمعنى واحد، بأن قال: بل المعاني مختلفة؛ فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر.

وقد فتح المبرد بهذه الملاحظة للبلاغيين فصلاً من فصول علم المعاني أطلقوا عليه «أضرب الخبر» وسموا الخبر الأول في سؤال الكندي وإجابة المبرد:

---

(١) الإيضاح: ١/ ٤٢، وما بعدها باختصار، المفتاح: ١٦٦.

(٢) الإيضاح: ١/ ٤٦.

ابتدائياً، والثاني طلبياً، والثالث إنكارياً[1].

وقد يفاد من الخبر بمعونة الحال أغراض أخرى وسأبين ما جاء منها في كتاب «الكامل»:

١ - قال الحسن البصري ﷺ في ختام دعائه لعلي كرم الله وجهه: «لم يزل أمير المؤمنين عليٌّ – رحمه الله – يتعرفه النصر، ويساعده الظفر حتى حكَّم[2] فلم تحكّم والحق معك؟ ألا تمضى قدُما – لا أبالك – وأنت على الحق؟ ثم يقول:

«قال أبو العباس: وهذه كلمة فيها جفاء، والعرب تستعملها عند الحث على أخذ الحق والإغراء، وربما استعملتها الجفاة من الأعراب عند المسألة والطلب، فيقول القائل للأمير والخليفة: «انظر في أمر رعيتك لا أبالك»[3].

قوله: «لا أبالك» جملة خبرية منفية، وهي توهم الدعاء، أو إهانة المخاطب، ولكنها جرت على ألسنة العرب وقصد منها معان كثيرة مثل الحث على أخذ الحق، والإغراء على فعل الشيء نحو: افعل الخير لا أبالك، وتستعمل في المسألة والطلب.

٢ - وقال المبرد وهو يتحدث عن الاستفهام الإنكاري: ومن كلام العرب: أتميميا مرة وقيسيًا أخرى! وكذلك إن لم تستفهم وأخبرت قلت: تميميًا مرة – علم الله – وقيسياً أخرى، أي تنتقل[4].

فقوله: «كذلك... قلت: تميمياً مرة – علم الله، وقيسياً أخرى». خبر، الغرض منه الإنكار على المخاطب؛ حيث لا يستقر على مبدأ، أو قبيلة ينتمى إليها.

٣- وقد يراد بالخبر المدح، أو الذم.

---

(١) انظر: المفتاح: ١٧١، والإيضاح: ١/ ٤٦.

(٢) يشير إلى ما كان من التحكيم بين: على ومعاوية، رضى الله عنهما.

(٣) الكامل: ٣/ ٢١٥.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٧٤.

قال المبرد: «والمختار من الشعر الأول قوله: يقصد: «كُثيِّرًا».

من النُّفر البيض الذين إذا اعْتَزَوْا   وهاب الرجالُ حلْقة البابِ قعْقَعُوا

يخبر بجلالتهم، ومعرفتهم بأقدارهم، وثقتهم بأن مثلهم لا يرد.

وقد قال جرير للتيم خلاف هذا، وهو قوله:

قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم   نُتفتْ شواربُهم على الأبوابِ[1]

فالغرض من الأول المدح، ومن الثاني الذم، لا مجرد الإخبار.

* * *

(١) المرجع السابق: ١/ ١٨٢.

المبحث الثاني

المجاز العقلي (*)

المجاز بعامة متفرع عن الحقيقة، وهو إما بالنقل، أي نقل الكلمة من معناها الحقيقي إلى آخر مجازي كلفظ «أسد» يراد به الرجل الشجاع، أو بالإسناد، وهو المراد هنا، وذلك أن كل كلمة لها على الحقيقة مدلولها اللغوي، ولكن الإسناد شيءٌ يحصل بقصد المتكلم، دون واضع اللغة، فإذا كان هذا الإسناد إلى غير ما هو له كان المجاز عقليا.

وقد عرفه الخطيب بأنه: إسناد الفعل، أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له بتأول»(1) واعترض عليه بأنه لا يشمل الإسناد في الجمل الإسمية كما فى قول الخنساء: «فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ، كما لا يدخل فيه الإسناد المنفي في نحو: ما نام ليلى(2).

وعرفه عبد القاهر بأنه: «كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول، فهي مجاز، ومثاله فعل الربيع»(3). فهو أعم من تعريف الخطيب.

والمراد بقول الخطيب: «ما فى معناه»: المشتق في نحو قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي

(*) ذكره السكاكي في علم البيان، وأورده الخطيب في علم المعاني ولكل رأيه، وقد درسته ضمن مباحث المعاني متابعاً الخطيب ومن بعده، ناظراً إلى نوع الإسناد، وهذا الخلاف لا يخرج المجاز عن مفهومه.

(1) الإيضاح: ١/ ٥٦، والمطول: ٥٤.

(2) المطول: ٥٦.

(3) أسرار البلاغة: ٣٠٦.

عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾[1]" إذ المعنى: راضٍ صاحبُها، ونحو طريق سائر، بمعنى سائر روّاده.

ولابد في المجاز بنوعيه من: العلاقة، والقرينة الصارفة عن إرادة المعنى الحقيقي. وأنواع العلاقات كثيرة: في مقدمتها إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل، كما في «عيشة راضية»، وإسناده إلى المصدر، نحو: جدّ جَدُّه.

وقد أدرك العرب بأذواقهم هذا النوع من المجاز ورأوا فيه ضروباً من السحر، فتكلموا به.

وجاء عصر التدوين فتناوله كل من: سيبويه (ت ٢١٠هـ) والجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وابن قتيبه (ت ٢٧٦هـ)، والمبرد (ت ٢٨٥هـ)، وابن جنى (ت ٣٩٢هـ) إلخ بتوضيح معالمه، وشرح نصوصه، وبيان الفرق بينه وبين الحقيقة، بَيْدَ أنهم لم يهتدوا إلى تسميته، وبيان الفروق الدقيقه بينه وبين المجاز اللغوى، فقد كان الفضل في ذلك بعد للإمام عبد القاهر.

* * *

ومن يقرأ آراء المبرد المتناثره في «الكامل» وتحليلاته للنصوص، واستشهاده بأقوال العرب واعتماده في ذلك على ذوقه وعمق ثقافته النحوية، فإنه يدرك جهده في المجاز العقلي، كما يدرك مدى ما أفاد منه الإمام عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) ومن بعده، فقد اعتمدوا الكثير من نصوصه وتحليلاته الواسعة[2].

كان هذا شأن المبرد في المجاز العقلى، ولذا فإن قول الدكتور عبد القادر حسين: «... وهو في كل ذلك يقتفي آثار سيبويه ويسلك سبيله، وينقل أقواله».

---

(١) سورة القارعة: ٧.

(٢) انظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢٠٧، والمؤلف يقصد بقوله: في كل ذلك: المجاز العقلي، والاستعارة، والتنويع.

قول فيه مبالغة، وذلك أن التأثر والتأثير طبيعة الإنسان، فإذا كان المبرد قد رجع إلى سيبويه وتأثر به، فإن أمثلته الكثيرة وتحليلاته الواسعة، وافتراضه أحياناً لبعض وجوه الإعراب وبناء القاعدة البلاغية عليها تجعل إمام البصريين غير مردد، ولا ناقل لأقوال سيبويه، وإنما هو متأثر به فقط.

وقد أورد المبرد أمثلة كثيرة للمجاز العقلي، كما قرن بعض أمثلته بأمثلة الحقيقة مع أن المسند واحد لبيان الفرق في الإسناد، كما نبه أحياناً على القرينة والعلاقة. وسأورد لذلك الأمثلة التالية:

قال: «تقول: سقاك اللهُ الغيثَ، ثم يجوز أن تجعل الفعل للغيث، فتقول: سقاك الغيثُ يا فتى، وقال علقمة بن عَبدة:

سقاك يمانٍ ذو حبيٍّ وعارضٌ   تروحُ به جُنح العشيِّ جَنوبُ[1]

أسند السقي إلى الله - سبحانه - على الحقيقة، ثم أسنده إلى الغيث على المجاز، والقرينة حالية.

وفي بيت علقمة أسند الفعل «سقى» إلى محذوف تقديره: مطرٌ على المجاز؛ لأنه سبب السقيا، والشطر الثاني دليل المحذوف.

قال المبرد : وقال عنترة:

فما أوْهي مِراسُ الحرب رُكني   ولكـن مـا تقدّم من زماني

ومن أمثال العرب[2] إذا طال عمر الرجل أن يقولوا: «لقد أكل عليه الدهرُ وشرب» إنما يريدون: أنه أكل وشرب دهراً طويلاً، قال الجَعْدي:

«أكل الدهرُ عليه وشرب»[3]

والعرب تقول: نهارُك صائمٌ، وليلك قائم. أي أنت قائم في هذا، وصائمٌ في

---

(١) الكامل: ١/٣١٨.

(٢) مجمع الأمثال: ١/٦٩.

(٣) صدره: «كم رأينا من أناسٍ هلكوا»

ذاك، كما قال الله ﷻ: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[(١)].

والمعنى -والله أعلم- بل مكركم في الليل والنهار، وقال جرير:

لقد لُمْتِنا يا أمّ غَيْلان في السُّرى ونِمتِ وماليلُ المطيِّ بنائِمِ[(٢)]

يريد عنترة أن ممارسته الحرب لم تُضعفه، ولكن أضعفه تقدم الزمن، فالعلاقة في الأولى السببية، وفي الثانية الزمانية.

وبيّن المبرد نوع الإسناد في المثل، فالدهر لا يأكل ولا يشرب، إذ لا روح فيه. وكذلك النهار لا يصوم، والليل لا يقوم، وإنما الذي يفعل ذلك الإنسان.

وفي بيت جرير أسند «نائم» إلى الضمير المستتر والذى هو فى المعنى عائد على «ليل المطى» والمراد أهله، وكذا أسند «مكر» إلى «الليل» والعلاقة هنا الإضافية؛ إذ المكر: الحيلةُ والخديعة، بغية الوصول إلى المطلوب، والليل لا يتأتى منه ذلك.

ولو قيل: مكر الناس، أو مكر الظالمين في الليل والنهار كان الإسناد حقيقة. قال الفراء (ت ٢٠٧هـ): وإنما المعنى: بل مكركم بالليل والنهار، وقد يجوز أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارك صائمٌ، وليلك قائمٌ، ثم تُضيف إلى الليل والنهار، وهو في المعنى للآدميين، كما تقول: نام ليلُك، وعزم الأمرُ... فهذا مما يعرف معناه»[(٣)].

ويورد المبرد مقطوعة لزيد بن حبناء ومنها قوله:

فليس بمُهدٍ من يكون نهارهُ جِلادا ويُمسي ليله غيرَ نائم

ثم يقول: «قوله: من يكون نهاره جِلادا، ويمسى ليله غير نائم». يريد: يمسى وهو في ليله، ويكون هو في نهاره، ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على

(١) سورة سبأ: ٣٣.

(٢) الكامل: ١/ ٢١٨.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٢٦٣، وانظر: تأويل مشكل القرآن: ٢١٠، والكشاف: ٣/ ٢٩١.

السَّعة... ولو قال: من يكون نهاره يُجالدُ جلاداً، ويمسى ليلهُ غير نائم، كان جيداً، وذلك أنه أراد: من يكون نهاره يُجالد جِلاداً، كما تقول: إنما أنتَ سيراً، وإنما أنت ضرباً، تريد: تسير سيراً، وتضرب ضرباً، فأضمر؛ لعلم المخاطب أنه لا يكون هو سيراً.

ولو رفعه على أن يجعل الجلاد في وضع المُجالد على قوله: أنت سيرٌ. أي أنت جائرٌ، كما قالت الخنساء:

«فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ»

وفي القرآن: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾[1] أي: غائرا... ولو قال: ويمسى ليله غير نائم، لجاز، ويصير اسمه في «يمسي»، ويجعل «ليله» إبتداء، و«غير نائم» خبره على السَّعة التي ذكرناه[2].

وقد نقلت هذا النص على طوله؛ لأنه اشتمل على أكثر من مثال، واحتمالات للإعراب، يتبعهما بعض أسرار النظم، وهذا شأن المبرد. فإنه لا ينسى ثقافته اللغوية والنحوية وما توحى به من أسرار ولطائف بيانية. والمبرد ذكر جملتين وسأبينهما.

الجملة الأولى: «من يكون نهاره جِلادًا»

بيَّن المعنى أولا بأن نهاره يُجالد جلادا. فالمجاز فى إسناد «يجالد» إلى ضميره المستتر العائد على «نهاره»، وفيه كذلك إيجاز بالحذف. ولو رفع فقيل: نهاره جلادٌ. أى مجالدٌ، كان المجاز فى جملة اسمية، كما فى قول الخنساء، وفى الآية الكريمة.

الجملة الثانية: «ويمسى ليلهُ غيرَ نائم»

«ليله غير نائم» جملة اسمية فى محل نصب خبر يمسى، والمجاز فى إسناد «نائم»

---

(١) الآية الأخيرة من سورة الملك.

(٢) الكامل: ٣/ ٤٠٩ – ٤١١.

المنفى إلى ضميره العائد على الليل. وذلك على السَّعة أى المجاز كما قال.

ومن إسناد الفعل إلى المصدر ما حكاه المبرد بقوله:

«ويقال[1]: «سَرى همِّى وهمُّ المرءِ يسرى»

السُّرى: السير ليلاً، وقد أسند «يسرى» إلى ضميره العائد على «الهمّ». والهم لا يتأتى منه ذلك.

ومن الإسناد إلى المكان قول أبي العباس: «وتقول: بنوُ فلان يطؤهم الطريقُ. تريد أهل الطريق، فحذفت «أهل» فرفعت: «الطريق»؛ لأنه في موضع مرفوع» فإسناد الفعل: إلى الطريق مجاز، إذ الفعل لا يتأتى إلا من رواده.

ويشير المبرد إلى علاقة السببية بقوله: «قال الفرزدق:

سقتْها خُروقٌ في المسامع لم تكن عِلاطاً ولا مخبوطةً في الملاغمِ

يقول: «علم أرباب الماء لِمن هي؛ فسقاها ما سمعوه من ذكر أصحابها، لعزهم ومنعهم، ولم تحتج أن «تكون بها سِمة. والعِلاط: وسْم في العنق، والخِياط في الوجه[2].

فأبو العباس ذكر أمثلة كثيرة للمجاز العقلى، وبيَّنها، كما أشار إلى العلاقات والقرينة، ووضع الحقيقة بجوار المجاز؛ ليتبين الفرق بينهما وأشار إلى المجاز بقوله: «على السَّعة» وقد أفاد الإمام عبد القاهر والخطيب وغيرهما من هذه الدراسات، فنظموها وصنفوها فى كتبهم.

* * *

(١) الكامل: ١/ ١٩٤، انظر: المطول: ٥٧.

(٢) الكامل: ٢/ ٧٣.

المبحث الثالث

التقديم والتأخير

كان الحديث عن التقديم والتأخير مقتضباً، وخالياً من ذكر الدواعي والأسرار؛ فقد كان العلماء قبل عبد القاهر يكتفون ببيان المقدم والمؤخر، وأحياناً يقولون: إن التقديم للعناية والاهتمام؛ فسيبويه يضرب مثالاً لتقدم المفعول على فاعله. ثم يقول: «هو عربي جيد، كأنهم يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم»(١).

وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) يورد له الأمثلة في «تأويل مشكل القرآن»(٢)، ويكتفي ببيان المقدم والمؤخر، وعلى هذا المنهج سار ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في كتابه: «الصاحبي»(٣). ويقول الشيخ عبد القاهر: «وأعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام»(٤) ثم ذكر مقولة سيبويه.

ولم يكن صنيع المبرد بعيداً عن هؤلاء العلماء، غير أنه انتفع بثقافته النحوية فجاء تعليقه على الأمثلة طويلاً، ومفيداً، وسنبين ذلك.

وروى المبرد أبياتا للصلتان العبدى ومنها قوله(٥):

فملَّتنا أننا المسلِمُون ... على دين صدِّيقِنا والنبيِّ

ثم قال: «قوله: على دين صديقنا والنبي».

---

(١) الكتاب: ١/ ١٤.

(٢) ص ٢٠٧، وما بعدها.

(٣) ص ٢٠٨، وما بعدها.

(٤) دلائل الإعجاز: ١٠٧.

(٥) الكامل: ٣/ ١٨٤.

العرب تفعل هذا، ثم ذكر أمثلة للعطف بالواو دون ذكر معنى بلاغى، ثم عاد فذكر هذه الأمثلة فى موضع آخر[1] مع بيان الفرق بين بعض حروف العطف، قال: «... إن العرب إذا كان العطف بالواو قدمت وأخرت، قال الله تبارك وتعالي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[2] وقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[3]. قال: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[4]. ولو كان بـ «ثم» أو بـ «الفاء» لم يصلح إلا تقديم المقدم ثم يليه واحد فواحد»[5].

قدم في هذه الآيات: الكافر على المؤمن، كما قدم الجن على الإنس، ولا يخفي أفضلية الثاني منهما، كما قدم السجود على الركوع مع أن الترتيب في الفعل يكون بالعكس، والذي جوز ذلك هو العطف بالواو. ومعلوم أنها لمطلق الجمع بخلاف «الفاء» أو «ثم»، فإنه يجب معهما مراعاة الترتيب. قال السيوطي (ت ٩١١هـ)[6]: «واو العطف، وهي لمطلق الجمع، فتعطف الشئ علي مصاحبه نحو: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[7] وعلى سابقه نحو: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾[8]...والشئ ومرادفه: ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[9].

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٨٥.
(٢) سورة التغابن: ٢.
(٣) سورة الرحمن: ٣٣.
(٤) سورة آل عمران: ٤٣.
(٥) الكامل: ٢/ ١٨.
(٦) الإتقان: ٢/ ٢٥٦.
(٧) سورة العنكبوت: ١٥.
(٨) سورة الحديد: ٢٦.
(٩) سورة البقرة: ١٥٧

وفي التحرير والتنوير[1] أن تقديم الكافر في الآية الأولى لأنه هو المقصود بالكلام تعريضاً وتصريحاً.

وروى أبو العباس قول مَحكان السَّعدي:

ولستُ وإن كانتْ إليَّ حبيبةً ... بباكٍ على الدنيا إذا ما تولَّتِ

ثم قال: «إنما هو تقديم وتأخير، أراد: ولست بباك على الدنيا وإن كانت إليَّ حبيبةً، ولولا هذا التقدير لم يجز أن يضمر قبل الذكر. ومثله.

إن تَلْقَ يوماً على علاَّته هرِماً ... تلق السماحةَ منه والندَّى خلُقاً

وكذلك قول حسان:

قد ثكلتْ أمه من كنتُ واحِدَهُ ... أو كان منتشبًا في بُرْثُنِ الأسدِ

يقول من كنت واحدة قد ثكلت أمه»[2].

التقديم والتأخير في البيت بين جملتي: ولست بباك على الدنيا، وإن كانت إلى حبيبة، وبينهما ارتباط في المعنى، ارتباط المسبب بالسبب، وذلك أن حب الشئ يستدعى البكاء عليه عند زواله أو توقع ذلك، فهما كالجملة الواحدة... وتقدير التقديم والتأخير هو الذي جوز جعل اسم كان ضميراً مستتراً فيها، وعائداً على «الدنيا»، وذلك أن مرجع الضمير وإن كان مؤخراً في الذكر إلا أن رتبته التقديم؛ فلذا جاز الإضمار. ومن المعلوم: أن عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ممنوع[3].

ويروى المبرد مقطوعة لعروة بن الورد، ومنها قوله:

وإن بعدُوا لا يأمنون اقترابهُ ... تشوف أهلِ الغـائب المنتظـرِ

فذلك إن يلق المنيــةَ يلْقهَـا ... حميداً وإن يستغْنِ يوما فأجدرِ

---

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ٢٦٢.

(٢) الكامل: ١/ ٢٠٠.

(٣) انظر: الإيضاح: ١/ ١٨، و المطول: ٢٠.

الضمير في: «وإن بعدوا» للفقراء، لأنه كان يهتم بهم.

يقول المبرد: وقوله: «وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه» على التقديم والتأخير. أراد: لا يأمنون اقترابه وإن بعدوا، وهذا حسن في الإعراب إذا كان الفعل الأول في المجازاة ماضياً، كما قال زهير.

وإن أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حرمُ

فإن كان الفعل الأول مجزوماً لم يجز رفع الثاني إلا ضرورة، فسيبويه يذهب إلى أنه على التقديم والتأخير، وهو عندي على إرادة الفاء... فمن ذلك قوله:

يا أقرعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ إنك إن يُصرعْ أخوكَ تُصرعُ

أراد سيبويه، إنك تصرع إن يصرع أخوك، وهو عندي على قوله: إن يصرعْ أخوك فأنت تصرعُ يا فتى»[1].

التقديم في بيت عروة هو: «وإن بعدوا» وهي جملة شرطية وقعت حالاً وفعلها ماض، وهذا جائز، وحسن أن يكون فعل المجازاة مرفوعاً إذا كان فعل الشرط ماضياً، كما سبق في بيت زهير. وقد استرسل المبرد في هذه المسألة نحويا؛ لأن الكتاب في اللغة والأدب وفيما ذكرناه كفاية.

وتقديم المفعول جائز عند أمن اللبس، والمبرد يبين ذلك عند بيان اتصال الفعل باللام، فهو يورد قول أبي النجم:

«سَبِّي الحماةَ وابهتي عليها»

ثم يقول: «إنما يريد ابهتيها، فوضع «ابهتي» في موضع: اكذبي، فمن ثم وصلها بـ «على».

والذي يستعمل في صلة الفعل اللام؛ لأنها لام الإضافة، تقول: لزيد ضربت، ولعمرو أكرمت، والمعنى: عمراً أكرمت، وإنما تقديره: إكرامي لعمرو، وضربي لزيد، فأجري الفعل مجرى المصدر، وأحسن ما يكون ذلك إذا تقدم

---

(١) الكامل: ١/ ١٣٣.

المفعول؛ لأن الفعل إنما يجيء وقد عملت اللام كما قال جل وعز: ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[1] وإن أخر المفعول فهو عربي حسن. والقرآن محيط بجميع اللغات الفصيحة.

والنحويون يقولون في قوله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾[2]. إنما هو ردفكم»[3] فقد بين أن تقديم المفعول في «اللغة عربي حسن» يعني جائز مع أن الأصل التأخير، والفعل المتعدي قد يتصل باللام فالجار والمجرور في محل المفعول معنى.

* * *

(١) سورة يوسف: ٤٣.

(٢) سورة النمل: ٧٢.

(٣) الكامل: ٣/ ٩٧.

المبحث الرابع

الحـــذف

الحذف من أدق طرق التعبير، يدرك منزلته من أوتي حظاً من البيان، وكان من ذوي البصر بصناعة الكلام، فالإمام عبد القاهر (٤٧١ت هـ) يقول فيه: «وهو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة أو تجدك أنطق مايكون إذا لم تنطق، وأتم ما يكون بياناً إذا لم تُبن»[1] فللحذف سحره ومكانته في البلاغة.

والحذف يتوقف على أمرين: القرينة الدالة على المحذوف، والغرض المرجح للحذف. والحذف عند البلاغين يتناول كلاً من: المسند إليه، والمسند ومتعلقات الفعل، وهذا عدا الحرف، أو الحرفين من الكلمة كما أثر عن القدماء.

وسنبين ما تناثر من هذه الأنواع في كتاب «الكامل».

١ - **حذف الحرف**: قال المبرد: «يجوز في الشعر حذف ألف الاستفهام؛ لأن (أم) التي جاءت بعدها تدل عليها». ومما استشهد به قول الشاعر:

لعمرُك ما أدري وإن كنتُ داريا   بسبعٍ رمين الجمر أم بثمـانِ

يريد: أبسبع»[2].

والشاهد: حذف همزة الاستفهام، ودليل الحذف (أم) المعادلة، إذ هي تقع في حيز الاستفهام المراد به: التصور، وهو طلب إدراك المفرد، وهو في البيت: سبع، وثمان.

(١) دلائل الإعجاز: ١٤٦.

(٢) الكامل: ٣/ ١٧٧.

ويقول في موضع آخر: «قال ﷻ: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ ﴾[1]. أي: من قومه[2]. ويذكر المبرد عن سيبويه أن هذه هي طريقة العرب فيقول: «ومن العرب من يقول: «اللهِ لأفعلن» وذلك أنه أراد حرف الجر، وإياه نوى؛ فجاز حيث كثر في كلامهم، وحذفوه تخفيفاً، وهم ينوونه»[3].

ولكن المبرد لا يوافقه في «المقتضب» على ذلك، فهو يقول: واعلم أن من العرب من يقول: «اللهِ» يريد الواو، فيحذفها، وليس هذا بجيد في القياس، ولا معروف في اللغة، ولا جاز عند كثير من النحويين، وإنما ذكرناه لأنه شيء قد قيل، وليس بجائز عندي؛ لأن حرف الجر لا يحذف، ولا يعمل إلا بعوض»[4].

ولما كان «الكامل» قد ألف بعد «المقتضب» فإن المبرد يرى بعدُ هذا الحذف من البلاغة، ويضرب له الأمثلة والشواهد الكثيرة، فهو يقول: «ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب:

فمن يكُ لـم يغْرِض فإني وناقتي   بحُجرٍ إلى أهـلِ الحِمى غَرِضـــانِ
تحنُّ فتبدي مـا بها مـــن صَبابةٍ   وأُخفي الذي لولا الأسى لقضاني

يريد: لقضى عليّ، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجواهر الكلام أحسن مخرج قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾[5] والمعنى إذا كالوا لَهم، أو وزنوا لَهم... ومن ذلك قول الفرزدق:

ومنّا الذي اختير الرجال سماحةً   وجودا إذا هبَّ الرياحُ الزعازعُ

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٥.
(٢) وانظر: التبيان للعُكبري: ١/ ٢٨٦، وأنوار التنزيل: ١/ ٣٧١.
(٣) الكتاب: ٢/ ١٤٤.
(٤) المقتضب: ٢/ ٣٣٦.
(٥) سورة المطففين: ٣.

أي من الرجال، فهذا من الكلام الفصيح»[1].

ففي هذا الحذف إيجاز، ومعنى بعيد يحتاج إلى التأمل والنظر فهو من البلاغة.

٢- **حذف الفاعل**: يذكر المبرد مقطوعة مطلعها:

لاح سحابٌ فرأينا برقَه ... ثم تدانى فسمِعنا صعقَه

ثم يعلق بقوله: «لاح سحاب» إنما معناه: ألاحه اللهُ، فالفاعل كالمذكور؛ لأن المعنى عليه، و نظيره قوله ﷻ: ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾[2] ولم يذكر الشمس، وكذلك: ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾[3] «ولم يذكر الأرض»[4].

وحذف الفاعل من الآيتين يدل عليه السياق. وقدره المبرد[5]:

٣- **حذف الفعل**: قال المبرد: «تقول: ضرباً زيداً.. الأمر لا يكون إلا بفعل، فكان الفعل فيه أقوى «فلذلك أضمرته، ودل المصدر على الفعل المضمر، قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾[6]. فكان في موضع، اضربوا حتى كأن القائل قال: فاضربوا، ألا ترى أنه ذكر بعده الفعل محضاً – صريحاً – في قوله: ﴿ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾»[7].

فقد ذكر المبرد الفعل المحذوف، ونص على دليل الحذف، وهو أن الأمر لا

---

(١) الكامل: ١/ ١٣٢.

(٢) سورة ص: ٣٢.

(٣) سورة فاطر: الآية الأخيرة، وأولها قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ ..﴾.

(٤) الكامل: ٢/ ٢٨٢.

(٥) انظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٨٢، بديع القرآن: ١٨، تفسير أبي السعود: ٤/ ٥٧٦.

(٦) سورة محمد: ٤، وتمامها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ....﴾.

(٧) الكامل: ١/ ١٨٦.

يكون إلا بفعل؛ يدل عليه بالمصدر كما دل عليه بالفعل المذكور: «أثخن».

ومن ذكر الفعل، وحذفه ما جاء في قول المبرد: «لو» لا يليها إلا الفعل مضمراً، أو مظهراً؛ لأنها تشارك حروف الجزاء في ابتداء الفعل وجوابه، تقول: لو جئتني لأعطيتك، فهذا هو ظهور الفعل، وإضماره قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ ﴾[1] والمعنى – والله أعلم – لو تملكون أنتم فهذا الذي رفع «أنتم»، ولما أضمر ظهر بعده ما يفسره، ومثله:

ولو غيرَ أخوالي أرادوا نقيصتي   جعلتُ لهم فوق العرانين ميْسما[2]

الأداة «لو» مختصة بالدخول على الفعل، فإذا لم يوجد كان مقدراً، فالضمير «أنتم» فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، فحذف ثم أبدل من الضمير المتصل وهو واو الجماعة: الضمير المنفصل، إذ الأصل: لو تملكون تملكون، فدليل الحذف وجود المفسِّر.

والغرض منه الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ، وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر[3].

٤ – حذف المبتدأ: ذكر المبرد قول عمران بن حِطّان:

وما منهما إلا يُسَرُّ بنسبةٍ   تُقرّبنى منه وإن كان ذا نفرِ

ثم قال: معناه: وما منهما واحد، فحذف لعلم المخاطب، قال ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾[4]. وإن من أحد. ومعنى «إن» معنى «ما» قال الشاعر:

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٠.

(٢) الكامل: ٢/ ٢٧٨.

(٣) من أسرار البلاغة في القرآن: ٥٨.

(٤) سورة النساء: ١٥٩.

ومـــا الدهرُ إلا تارتانِ فمنهما أموتُ وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ

يريد: فمنهما تارة»[1].

تقدير المبتدأ: واحد، في البيت، وهو في الآية الكريمة: أحد، وذلك أن الجار والمجرور في كليهما خبر مقدم، وهو يحتاج إلى مبتدأ. قال أبو حيان في الآية الكريمة: «إنْ» هنا نافية، والمخبر عنه محذوف، قامت صفة مقامه، التقدير: وما أحد من أهل الكتاب»[2].

٥- حذف الخبر: قال المبرد: قال الله ﷻ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾[3] أي ذلك بلاغ»[4].

ومن حذف المبتدأ، أو الخبر قوله ﷻ: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾[5] يكون رفعه على ضربين. أحدهما: أمرنا طاعة، وقول معروف، والوجه الآخر: طاعة وقول معروف أمثل[6].

وأورد أبو العباس مثالين متواليين للحذف. الأول من قبيل حذف الخبر، والثاني من حذف المبتدأ، قال: وأما قوله: حكمُك مسمَّطاً»[7] فإعرابه: لك حكمُك مسمطا، واستعمل هذا الحذف استخفافاً، لعلم السامع بما يريد القائل: كقولك: الهلالُ والله، أي هذا الهلال. وأغنى عن قوله: هذا. القصد، والإشارة[8].

(١) من أسرار البلاغة في القرآن: ٣/ ١٧٩.

(٢) البحر المحيط: ٤/ ٣٩٢، انظر: التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٢٠٠، أنوار التنزيل: ١/ ٢٥٥.

(٣) سورة الاحقاف: الآية الأخيرة.

(٤) الكامل: ٢/ ٥٧.

(٥) سورة محمد: ٢١.

(٦) الكامل: ٢/ ٥٧.

(٧) هو من أمثال العرب. المرسل الذي لا يرد، اللسان (سمط).

(٨) الكامل: ٢/ ٩٢.

فقد أشار إلى المحذوف، وقرينته، وسر الحذف، وهو قوله: «استخفافا».

٦- حذف المفعول: كما في قوله تعالى ﷻ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[١] يقول المبرد: المعنى إذا كالوالهم، أو وزنوالهم، ألا ترى أن أول الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾[٢] فهؤلاء أخذوا منهم ثم أعطوهم»[٣]. المحذوف هنا ضمير الغائبين.

قال أبو البقاء: في «هم» وجهان؛ أحدهما: هو ضمير مفعول متصل، والتقدير: كالوالهم، وقيل: هذا الفعل يتعدى بنفسه تارة، وبالحرف أخرى، والمفعول هنا محذوف: أي كالوهم الطعام»[٤].

ومن حذف المفعول الأول ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾[٥] يقول «مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف، ومعناه يخوفكم من أوليائه»[٦] التقدير على هذا: يخوفكم شرَّ أوليائه.

٧- حذف المضاف: يقول المبرد في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[٧] «نصب لأنه كان: واسأل أهل القرية، وتقول: بنو فلان بطؤهمُ الطريقُ. تريد أهل الطريق، فخذفت، أهل» فرفعت «الطريق»؛ لأنه في موضع مرفوع»[٨].

---

(١) سورة المطففين: ٣.

(٢) هي آية مستقلة، سورة المطففين: ٢.

(٣) الكامل: ١/ ٣٢.

(٤) التبيان: ٢/ ٢٨٣، انظر: أنوار التنزيل: ٢/ ٥٤٥.

(٥) سورة آل عمران: ١٧٥.

(٦) الكامل: ٤/ ١٢٧.

(٧) سورة يوسف: ٨٢.

(٨) الكامل: ١/ ١٥١.

قال ابن فارس: من سنن العرب الحذف، والاختصار... ومنه في كتاب الله جل ثناؤه ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أراد: أهلها»[1].

ومنه ما جاء في قول كُثَيِّر عندما حبس محمد بن الحنفية في سجن عارم:

تخبِّـر مَـنْ لاقيت أنـك عـائـذٌ بل العائذُ المحبوس في سجْن عارمِ

وَصِيُّ النبي المصطفي وابنُ عمه وفكّـاك أعنـاق وقـاضي المغــارمِ

قال المبرد: «أراد: ابن وصيِّ النبي، والعرب تقيم المضاف إليه في هذا الباب مقام المضاف»[2].

٨- **حذف المضاف إليه:** كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[3].

قدر المحذوف بقوله: «المعنى –والله أعلم– بل مكركم في الليل والنهار»[4].

وقد يتردد الحذف بين المضاف، والمضاف إليه كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾[5] يقول المبرد: «... فجائز أن يكون المعنى: برُّ من آمن، وجائز أن يكون لكن ذا البر من آمن بالله. والمعنى يؤول إلى شئ واحد»[6].

فعلى التقدير الأول الحذف للمضاف، وعلى الثاني المضاف إليه.

٩- **حذف الموصوف:** حكى المبرد عن العرب أنواع الرياح، وأنها تكون نعوتاً فقال: يقول أكثر العرب: «هذه ريحُ جنوب، وريح شمال، وريح دَبُور، فتجعل جنوبا وشمالاً، ودبوراً وسائر الرياح نعوتاً قال الأعشى:

---

(١) الصاحبي: ٣٣٧، الإيضاح: ٢/ ١٠٧.

(٢) الكامل: ٣/ ٢٠٤.

(٣) سورة سبأ: ٣٣.

(٤) الكامل: ١/ ٢١٨.

(٥) سورة البقرة: ١٧٧.

(٦) الكامل: ١/ ٢٨٧.

لها زَجلٌ[1] كحفيفِ الحصا　　　تصادفَ بالليل ريحاً دَبُورا[2]

في قول العرب أضيفت الموصوفات إلى صفاتها، وفى البيت وصفت الريح بالدبور. ثم قال: «ويقال في أكثر العرب: هبّت جنوباً، وهبت شمالاً، فيستغني عن ذكر الريح. وهذا ما يؤكد أنها نعوت؛ لأن الحال إنما بابها أن تقع فيما يكون وصفاً. قال جرير:

هبَّت شمالا فذكرى ما ذكرتهُمُ　　　عند الصَّفاة إلى شرقيِ حُورانا[3]

فالمبرد ذكر أنواعا كثيرة للحذف، كما بين القرينة وسر الحذف، وذكر منهج العرب فى ذلك.

١٠- حذف الجملة: ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾[4]، قدر المحذوف بقوله: فيقال لهم، كما قدره في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[5]، بقوله: أي: ويقولون[6].

وتحذف الجملة مع «لولا» التي يفاد منها التحضيض. يقول المبرد: «لولا» التي تقع في معنى: «هلّا» للتحضيض ومن ذلك قوله: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾[7]، أي: هلاّ، وقوله ﷻ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ

(١) شواهد العيني على شرح الأشموني: ٤/ ٥١، معاني الحروف للرماني: ١٢٣.
(٢) الزَّجل بفتح الجيم: اللعب، والجلبة، ورفع الصوت، وخص به التطريب. اللسان (زجل).
(٣) الكامل: ٣/ ٦٠.
(٤) سورة آل عمران: ١٠٦.
(٥) سورة الزمر: ٣.
(٦) الكامل: ١/ ٣٧٨.
(٧) سورة النور: ١٢.

ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ﴾[1]، فهذه لا يليها إلا الفعل؛ لأنها للأمر والتحضيض مظهراً، أو مضمرا.

فقد تعددت صور الحذف مع ذكر السر البلاغي ودليل الحذف أحياناً، وذلك مع كثرة الأمثلة وبيانها.

* * *

(١) سورة المائدة: ٦٣.

المبحث الخامس

صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

عرفنا أن الحال هي: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يورد كلامه على خصوصية ما كالتأكيد، أو التقديم والتأخير، والذكر والحذف...، وهو ما يسمى: إيراد الكلام على مقتضى الظاهر.

أما إيراده على خلاف ذلك فإنه يكون باعتبار أمر آخر غير ما يبدو من ظاهر حال المخاطب. مثل: تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لسبب من الأسباب، أو التعبير بالمظهر عن المضمر، أو عكسه، أو يراعي الالتفات من الخطاب إلى الغيبة مثلاً... إلخ. وقد ورد من هذه الصور في الكامل: الالتفات، والقلب، والأسلوب الحكيم، والتغليب. وسنبين ذلك:

أولاً: الالتفات

وهو مأخوذ من التفات الإنسان من يمينه إلى شماله ومن شماله إلى يمينه، وعرفه الجمهور بأنه: التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنها بطريق آخر منها[1] بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه السامع، ولابد من هذا القيد ليخرج نحو قولنا: أنا زيد، وأنت عمرو[2].

والمراد بالطرق الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة.

وبيّن السكاكي منزلته بقوله: «والعرب يستكثرون منه، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان أدخل في القلوب عند السامع، وأحسن تطرية

---

(١) الإيضاح: ١/ ١٥٢.

(٢) شرح السعد: ٢/ ٤٦٥.

لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك... »[١].

والمبرد يبين الالتفات ونوعه في مواضع من كتابه، فقد أورد مقطوعة للأعشى يمدح هوذة بن عليّ، ويذم الحارث بن وعلة ومنها قوله:

أتيتُ حُرَيثاً زائراً عن جنابةٍ ... فكان حُرَيثٌ عن عطائي جامداً

....

تضيَّفْتهُ يوماً فقرَّب مجلسي ... وأصفدني على الزمانةِ قائداً

وأمتعني على العَشا بوليدةٍ ... فأُبتُ بخيرٍ منك يا هوذةَ حامدًا

حُرَيثا. تصغير الحارث، تقليلاً له، تصغير ترخيم، وهو أن يصغر الاسم بعد حذف زوائده، عن جنابة: عن غربة وبعد. يقول المبرد: «وأما قوله:

وأمتعني على العشا بوليدة ... فأُبتُ بخيرٍ منك يا هوْذةَ حامدا

فإنه كان يتحدث عنه – يقصد: هوذة – ثم أقبل عليه يخاطبه. والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٢]. كانت المخاطبة للأمة ثم صرفت إلى النبي ﷺ إخباراً عنهم، وقال عنترة:

شطَّتْ مزارُ العاشقين فأصبحتْ ... عَسِرًا عليَّ طِلابُك ابنةَ مَخْرَمِ

فكان يحدث عنها ثم خاطبها، ومثل ذلك قول جرير:

وترى العوازل يبتدرْنَ ملامتي ... فإذا أردْنَ سوى هواكِ عُصينَا

وقال الآخر:

فِدًى لكِ والدي وسَراة قومي ... ومالي إنه منه أتاني

وهذا كثير جداً»[٣].

---

(١) مفتاح العلوم: ١٩٩.

(٢) سورة يونس: ٢٢.

(٣) الكامل: ٣/ ٢٢، وما بعدها.

وقد نقلت هذا النص- على طوله- لأبين أن المبرد يورد الأمثلة الكثيرة ويجتهد - ما أمكن - في توضيح القواعد. ويلاحظ أنه لم يرد في الآية الكريمة ذكر للنبي ﷺ، ولا لضميره حتى يقول المبرد: «كانت المخاطبة للأمة، ثم صرفت إلى النبي ﷺ إخباراً عنهم» فالخطاب موجه إلى الأمة أولاً، ثم كان الاخبار عنهم بطريق الغيبة في: «وجرين بهم» ولذا عرض نفسه لنقد المرصفي رحمه الله. فهو يقول:

«وهذا هذيان من أبي العباس وغفلة عن سياق الآية، وإنما الخطاب فيها للناس، لا للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾[1] ثم صرف ذلك الخطاب إلى الغيبة، فقال «وجرين بهم» كأنه يريد أن يؤكد حالهم لمن بعدهم، فيستنكروه ويستقبحوه»[2].

قال الزمخشري مبيناً سر الالتفات ونوعه في هذه الآية «فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة. كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح»[3].

والالتفات فى بيت عنترة من الغيبة إلى الخطاب. قال ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ): «الزائرون: الأعداء يزأرون عليه من أجلها، وأصله من زئير الأسد... يعني شطت «عبلة» مزار العاشقين، أي: بعدت من مزارهم، واسم «أصبحت» مضمر فيه، ولفظ «عسر» خبر «أصبحت» والطِّلاب: مرتفع بمعنى عسير.

---

(١) رغبة الأمل من كتاب الكامل: ٤/ ١٨٧، وتحرير التحبير: ٢/ ١٢٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣١، انظر: أنوار التنزيل ١/ ٤٤٤ ا لصاحبي ٣٥٦، المصباح في المعاني والبيان والبديع ٣٤، تحرير التحبير ٢/ ١٢٤.

(٣) الكشاف: ٢/ ٢٣١، وانظر: الصاحبي: ٣٥٦، وتحرير التحبير:٢/ ١٢٤.

فإن قال قائل: كيف قال: «حلّت بأرض الزائرين» — رواية ثانية للبيت- فذكرها غائبة، ثم قال: «طلابك ابنة مخرم» فخاطبها؟ قيل له: العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة»[1].

وأورد مقطوعة[2] لذي الرمة يمدح بلالا منها قوله:

تقول عجوزٌ مدرجي متروّحا | على بيتها من عندِ أهلي وغاديا
أذو زوجةٍ بالمصر أم ذُو خصومة | أراك لها بالبصرةِ العام ثاويا
فقلت لها: لا، إن أهلي لجيرة | لأكثبةِ الدَّهنا جميعًا وماليا
وما كنتُ مذْ أبصرتِني في خصومةٍ | أراجعُ فيها يا ابنة الخيرِ قاضيا
ولكنِي أقبلتُ من جانبي قسا | أزور فتى نجدٍ كريمًا يمانيا
من ال أبي مُوسي تري القوم حوله | كأنهم الكيرْوان أبْصرْنَ بازيا

مدرجي: مروري. قسا: موضع من بلاد بني تميم، الدَّهنا: من بلاد بني تميم. وقال أبو العباس: وقوله:

من آل أبي موسى تري القوم حوله

فقال: «ترى» ولم يقل: ترين، وكانت المخاطبة أولا لامرأة، ألا تراه يقول:

وما كنت مذ أبصرتني في خصومة | أراجع فيها يا ابنة الخير قاضيا

ثم حول المخاطبة إلى رجل. قال جرير:

ما للمنازل لا تُجيب حزينا | أصممْنَ أم قدم المدى فَبلينا
وترى العوازل يبتدرن ملامتي | وإذا أردن سوى هواكِ عصيناً

قال أولاً: الرجل ثم قال: سوى هواكِ».

وأقول: إن صرف الخطاب عن المرأة إلى الرجل، وعكسه لا يخرج عن كونه

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال: ٢٩٩، وانظر: مجاز القرآن ١/ ٢٣، وعروس الأفراح ١/ ٤٧١.
(٢) الكامل: ٢/ ٥٤ – ٥٥.

خطاباً، فلا يكون التفاتا؛ لأن طريق التعبير بين: التكلم، والخطاب، والغيبة لم يختلف، أما إذا عدل بالكلام من الخطاب إلى التكلم. فإنه يكون التفاتا.

ويعود المبرد لبيان أن الالتفات ليس غريباً عن العرب فيورد الآية الكريمة، وتعليقه عليها، فيقول: «والعرب تفعل ذلك قال ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾. فكأن التقدير – والله أعلم- كان للناس ثم حولت المخاطبة إلى النبي ﷺ....»[1].

فالمبرد ذكر في الكامل شواهد كثيرة للالتفات مع البيان والشرح، وكانت آية سورة يونس ٢٢، علم الالتفات حيث رجع إليها كثيراً ووضح على ضوئها هذه الصورة البلاغية.

كما ذكر أن هذه طريقة العرب في كلامها، ولذا لم يكن غريباً عليهم وروده في القرآن الكريم.

ثانياً: القلب

وهو أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكان الأول على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر[2]. وهو جائز عند المبرد، للاختصار، وبشرط أمن اللبس، وقد ذكر له الأمثلة ووضحها فمن ذلك قوله:

«وقال الحارث بن خالد المخزومي:

فرَّ عبدُ العزيز لمّا رأى الا ... يُطال بالسَّفحِ نازلُوا قطرَياً

ويروى:

فرَّ عبدُ العزيز إذ راءَ عيسى ... وابنَ داودَ نـازلاً قطريـا

ثم يقول: قوله «إذ راء عيسى» الأصل: رأي، ولكنه قلب، فقدم الألف وآخر

---

(١) الكامل: ٢/ ٥٦.

(٢) مواهب الفتاح: ١/ ٤٨٦.

الهمزة.. والقلب كثير في كلام العرب، وسنذكر منه شيئاً في موضعه إن شاء الله[1].

وأقول: القلب بين «راء» و «رأى» لغوي، وموضعه علم الصرف.

وقال في موضع آخر «وقال المفسرون والنحويون في قول الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2]. أي لشديد من أجل حب الخير والخير هنا: المال من قوله تعالي: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾[3]، وقوله: «لشديد» أي: لبخيل. والتقدير – والله أعلم– إنه لبخيل من أجل حبه للمال»[4].

ويقول: «﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾[5]. أي لم يقرب من رؤيتها وإيضاحه: لم يرها، ولم يكد»[6]، والمبرد متأثر بأبي عبيدة حيث علق بقوله: «خرج مخرج: لم يرها ولم يكد»[7] فأبو عبيدة «يرى نفى المقاربة مرة، والرؤية مرة أخرى»[8]. وهو أبلغ فى نفى الرؤية كما ذهب عبد القاهر[9]. ذلك أن جملة جواب الشرط منفية، ولذا قدرها أبو عبيدة فى المعنى بجملتين. ومعلوم أنه إذا نفي مقاربة الشيء فقد نفي الشيء من أصله، فيكون أبلغ من نفيه.

وأورد أبو العباس بيت النمر بن تولب:

---

(١) الكامل: ٣/ ٣٦٠.

(٢) سورة العاديات: ٨.

(٣) سورة البقرة: ١٨٠.

(٤) الكامل: ٣/ ٣٦٠.

(٥) سورة النور: ٤٠.

(٦) الكامل: ١/ ١٩٥.

(٧) مجاز القرآن: ٢/ ٦٧.

(٨) صور من تطور البيان العربي: ١٢٠.

(٩) دلائل الإعجاز: ٢٧٥، وانظر: الكشاف: ٣/ ٦٣.

يودُ الفتىَ بعد اعتدالٍ وصحةٍ ينوءُ إذا رامَ القيام ويحملُ

ثم قال: قوله: «ينوء إذا رام القيام» يقول: ينهض في تثاقل. قال الله تعالى: ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾[1]. والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتح، ولشرح هذا موضع آخر»[2].

ويعود إلى هذه الآية، ويبين ما فيها من القلب فيقول:

«وقال الفرزدق ونزل به ذئب فأضافه:

وأطلسَ عسَّالٍ وما كان صاحبا رفعْتُ لِناري موهنا فأتاني

ويذكر المقطوعة ثم يقول:

قوله: «رفعتُ لناري» من المقلوب، إنما أراد: رفعت له ناري، والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب؛ للاختصار. قال ﷻ: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ والعصبة تنوء بالمفاتيح، أي تستقل بها في ثقل. ومن كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتُها، والمعنى: لتنوء بعجيزتها»[3].

ويعود المبرد إلى الآية مرة أخرى ويذكر نفس الكلام ثم يقول «وقد مضى تفسير هذا»[4].

وبعد: فقول المبرد: «والقلب كثير في كلام العرب» ثم بإيراده الأمثلة الكثيرة يدل على أنه جائز، غير أن قوله: «والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب؛ للاختصار» لا يسلم له، فقد جعل الاختصار غرضا للقلب، وهذا مالم يقل به

---

(١) سورة القصص: ٧٦.

(٢) الكامل: ١/ ٢١٧.

(٣) الكامل: ١/ ٣٦٩.

(٤) الكامل: ٣/ ٣٧٣.

أحد؛ إذ الكلام المقلوب لا اختصار فيه، وقد أثر عن سيبويه أنه لسعة الكلام.

قال: «أما قوله أدخل فُوه الحجرَ، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد أدخل فاه الحجرَ، كما قال: أدخلت في رأسي القلنسوة، والجيد: أدخلت في القلنسوة رأسي، قال الشاعر:

ترى الثَّور فيها مدخلُ الظل رأسه وسائره بادٍ إلى الشمس أجمعُ[1]

ومع هذا فسيبويه يرد القلب، ويرى أنه بعيد عن الجودة.

آراء العلماء في القلب البلاغي:

أولاً: الجواز: قال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) والعرب تريد الشيء فتحول إلى الشيء من سببه، يقولون: اعرض الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض... ويقولون أدخلت القلنسوة في رأسي وإنما أدخلت رأسك في القلنسوة، وكذلك الخف،ومن هذا الجنس في القرآن ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ ما إن العصبة لتنوء بالمفاتيح أي تثقلها»[2].

والقاضي الجرجاني (ت ٣٣٦هـ) يرى ما رآه المبرد فيقول عن القلب: «وهو كثير في شعرالعرب، ومنه قول الأعشى:

وكل كُمَيْتٍ كأن السليطَ حيث وارى الأديمُ الشّعارا

يريد: حيث وارى الشعارُ الأديمَ، فقلب الكلام... »[3]. فالقاضي أجاز القلب، وأيد رأيه بالأدلة ووضح رأيه.

ثانياً: المنع: فابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) يورد للقلب أمثلة كثيرة ثم يقول: وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ

---

(١) الكتاب: ١/ ٩٢.

(٢) مجاز القرآن: ١/ ٦٣.

(٣) الوساطة: ٤٦٩.

﴿ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[1] إلى مثل هذا في القلب ويقول: «وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم، وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي تنهض بها وهي مثقلة...».

وتمكينًا لرأيه يقول: «وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله ﷻ لو لم يجد له مذهباً؛ لأن الشعراء تقلب اللفظ، وتزيل الكلام على الغلط، أو على طريق الضرورة للقافية، أو لاستقامة وزن البيت»[2].

فالآمدي (ت ٣٧٠هـ) تصدى لمنع القلب – ولا سيما في القرآن الكريم – بكل سبيل، ومن ثم فهو لا يجيزه للمتأخرين؛ لأنه إنما ورد في كلام العرب على السهو أو الخطأ، فلا ينبغي للمتأخر أن يتبعهم في ذلك[3].

ثم يدافع عن الأمثلة التي قيل إنها من القلب في الكتاب العزيز؛ فيقول: «فإن قيل: فقد جاء القلب في القرآن، ولا يجوز أن يقال: إن ذلك على سبيل السهو، ولا الضرورة؛ لأن كلام الله ﷻ يتعالى عن ذلك وهو قوله: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح. أي تنهض بثقلها، وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[4]. وإنما هو تدلى فدنا... قيل: هذا ليس بقلب؛ وإنما هو صحيح مستقيم إنما أراد الله – تعالى اسمه –: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: تميلها من ثقلها، ذكر ذلك الفراء وغيره، وقالوا: إنما المعنى لَتنوءُ العصبة... فهذا كله سائغ حسن.

(١) سورة البقرة: ١٧١.

(٢) تأويل مشكل القرآن: ٢٠٠.

(٣) الموازنة: ١/ ٢١٧، باختصار.

(٤) سورة النجم: ٨.

ولكن القلب القبيح لا يجوز في الشعر، ولا يجوز مثله في القرآن، وهو ما جاء في كلامهم على سبيل الغلط... كقول الفرزدق يصف ذئباً:

وأطلسَ عسّالٍ وما كان صاحبا رفعتُ لناري موهنًا فأتاني

وإنما أراد: رفعها للذئب، أنشده المبرد وقال: القلب جائز، للاختصار إذا لم يدخل لبس، كأنه يجيز ذلك للمتقدمين، دون المتأخرين، وماعلمت أحد قال: «للاختصار» غيره.

فلو قال لإصلاح الوزن، أو للضرورة كما قال غيره كان ذلك أشبه، ويجوز أن يكون الفرزدق فى هذا البيت سها، أو اضطر لاصلاح الوزن، وأبو تمام وغيره من المتأخرين لا يسوغون له هذا»[1].

أرأيت كيف دافع الآمدي عن رأيه ورصد كل دليل لمنع القلب، بل ولجأ إلى التأويل بما يتفق مع النظم في الآيات التي يستشهد بها العلماء، بيد أنه اضطر بعدُ إلى الاعتراف بالقلب إذا كان ثمة تقارب في المعنى بين المعنى المقلوب، وغير المقلوب، فهو يقول:

«وقال الحطيئة:

فلما خشيتُ الهون والعيرُ ممسكٌ على رغمه ما أمسكَ الحبلَ حافرُه

قالوا: وكان الوجه أن يقول: ما أمسك الحافر حبلَه، وكلاهما متقاربان، ولأن الحبلَ إذا أمسك الحافرَ فإن الحافر أيضاً قد شُغل».

وأرجح أن منشأ الخلاف ما ذهب إليه سيبويه من وصفه المقلوب بالرداءة، فهو يقول: «وأما قوله: أدخل فوهُ الحجر، فهذا جرى على سَعة الكلام، والجيد: أدخل فاه الحجر، كما قال: أدخلت القلنسوة في رأسي والجيد: أدخلت في القلنسوة رأسي... فوجه الكلام فيه هذا كراهية «الانفصال»[2]. وكان لهذا

---

(١) الموازنة: ١/ ٢١٨.

(٢) انظر: الكتاب: ١/ ١٨.

الكلام صداه بعد عند العلماء. ولسيبويه منزلته في اللغة، وأثره في البيان.

ثالثاً: والذي عليه جمهور العلماء: أن القلب إن تضمن اعتباراً لطيفًا، ومغزى طريفًا قُبل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[1]؛ إذ الأصل: ويوم تعرض النار على الذين كفروا؛ لأن المعروض عليه يكون ذا إدراك واختيار، لهذا اعتبر القلب في الآية لتصحيح المعنى. ووجه الاعتبار اللطيف هنا: الإشارة إلى أن النار متصرفة فيهم كالمتاع، يتصرف فيه مالكه.

وإن لم يتضمن ذلك رد؛ لأنه خروج عن مقتضى الظاهر من غير نكتة يعتد بها، كما في قول القاطمي:

فلما أن جَرى سمنٌ عليها ... كما طيَّنت بالفِدن السِّياعاً

... كان مقتضى الظاهر: كما طينت الفِدن بالسياع، فقلب الكلام، دون اعتبار لطيف يسوغه.

وقد أجمل الخطيب (ت ٧٣٩هـ) هذا الخلاف فقال: «رده مطلقًا قوم، وقبله مطلقًا قوم منهم السكاكي (ت ٦٢٦هـ) والحق: أنه إن تضمن اعتباراً لطيفًا قُبل، وإلا رُد»[2].

فالقلب من فنون البلاغة، وله سحره وأثره في كلام العرب؛ ولكن بشرط عدم اللبس، ولكن لا نقول به في القرآن الكريم؛ لأنه يمكن حمل معنى النصوص التي قيل فيها بالقلب على معان تتفق مع المعنى والسياق القرآني[3].

---

(١) سورة الأحقاف: ٢٠، ٣٤.

(٢) الايضاح: ١/ ١٦٥، وانظر: المطول: ١٣٨

(٣) انظر: القلب البلاغي في القرآن بين المجيزين والمانعين، للمؤلف ط دار الحسين الإسلامية.

ثالثاً: الأسلوب الحكيم

وهو: تلقى المخاطب بغير ما يترقب؛ بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها على أنه الأولى بحاله، أو المهم له[1].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2].

فقد سألوا الرسول ﷺ عن بيان ما ينفقون، فأجيبوا ببيان هذه المصارف، تنبيها على أن المهم هو السؤال عنها؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها، وكل ما فيه خير فهو صالح للإنفاق[3].

* * *

وفي الكامل أمثلة كثيرة لهذا اللون البلاغي، غير أن المبرد لم يهتد إلى تسميته، ولم يشرح أمثلته؛ فهو يقول: ويروى أن ضيفاً نزل بالحطيئة وهو يرعى غنمًا له، وفي يده عصا، فقال الضيف، يا راعي الغنم ما عندك؟ فأومأ إليه الحطيئة بعصاه وقال: عجراءُ من سلَم، فقال الرجل: إني ضيف، فقال الحطيئة، للضيفان، أعددته[4] ومعنى: عجراء من سلم: عصا من شجرة العِضاة وفيها عُقد؛ ليكون ألمها شديدا.

وقال عثمان بن عفان ﷺ لعامر بن قيس العنبري ورآه ظاهر الأعرابية: يا

---

(١) الإيضاح: ١/ ١٦٠، والمطول: ١٣٥.

(٢) البقرة: ٢١٥.

(٣) المطول: ١٣٦.

(٤) الكامل: ٣/ ١٥٨.

أعرابي أين ربك؟ فقال: بالمرصاد[1] فقد أجابه بغير ما يترقب، تنبيها على أنه الأولى بالقصد والحفظ.

ويروى عن الأصمعي قوله: هجم عليَّ شهر رمضان وأنا بمكة؛ فخرجت إلى الطائف لأصوم بها، هربا من حر مكة، فلقيني أعرابي فقلت له: أين تريد؟ فقال: أريد هذا البلد المبارك لأصوم هذا الشهر المبارك فيه، فقلت له: أما تخاف الحر؟ فقال: من الحر أفِرُّ». أي: أنني أرجو بالصوم على هذه الحال أن أفر من حر جهنم.

وهذا الكلام نظير كلام الربيع بن خيثم، فإن رجلاً قال له وقد صلى ليلة حتى أصبح: أتعبْت نفسك، فقال راحتَها أطلب، إن أفرَه العبيد أكيسُهم[2].

فقد أشفق الرجل على الربيع من التعب، ولكن الربيع يطلب بهذا التعب راحة نفسه في الآخرة.

فقد أجيب السائل في هذه الأمثلة بغير ما يتوقع، لغرض من الأغراض كالتنبية إلى ما هو مهم، لصرف الهمة إلى الله، أو لتوجيه همة السائل إلى الأفضل ثواباً... إلخ.

فليس الغرض بالأسلوب الحكيم التعمية والإيهام، ولكن لفت مُجْرَى كلام السائل أو المخاطب إلى غرض أهم، يتفق والمقام.

رابعاً: التغليب

وهو إعطاء أحد المصطحبين، أو المتشاكلين حكم الآخر بجعله موافقاً له، وإجراء المختلفين مجرى المتفقين، وهو يجري في أنواع من المعاني وأساليب من

(١) المرجع السابق: ١/ ٩٧. وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ١٤).

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٠٢.

الكلام كثيرة[1] فقد يغلِّب المخاطب على الغائب، والمذكر على المؤنث، والعاقل على غير العاقل، والمفرد على المركب. وهكذا.

ومن أمثلته قول المبرد في إحدى النساء: «وكانت من المجتهدات من الخوارج ولو قلت: من المجتهدين، وأنت تعني امرأة كان أفصح؛ لأنك تريد رجالاً ونساء هي أحدهم، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[2]، وقال جل ثناؤه: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[3].

فقد عدت[4] «مريم» رضي الله عنها ضمن الذكور بطريق التغليب، إشعاراً بأن لها ما للقانتين من صلاح الدين، وصلاح التقوى، فطاعتها لم تقل شأناً عن طاعتهم[5]. والمراد بالعجوز في الآية الثانية: امرأة «لوط» ﵇؛ فقد كانت امرأة سوء، راضية بفعل القوم، فلحقها من الموت والعذاب ما لحقهم؛ فقوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ بجمع المذكر السالم إشعاراً بأنها منهم وهي في العذاب معهم[6] والله أعلم.

وذكر المبرد قول الفرزدق:

ومِنّا الـذي أعطـى يديـه رهينـةً لغازي معَدٍّ يومَ ضَـرْبِ الجمـاجمِ
عـشيّةَ سـال المِربـدان كلاهُمـا عجاجةَ موتٍ بالـسيوفِ الـصوارمِ

(١) عروس الأفراح: ٢/ ٥١، والبرهان: ٣/ ٣٠٢.

(٢) سورة التحريم: ١٢.

(٣) سورة الشعراء: ١٧١.

(٤) الكامل: ٣/ ٢٤٧.

(٥) انظر: عروس الأفراح: ٢/ ٥١، أنوار التنزيل: ٢/ ٤٨٨.

(٦) انظر: أنوار التنزيل: ٢/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٦٩.

ثم قال: «قوله: عشية سال المربدان كلاهما. يريد: المربد[1]، وما يليه مما جرى مجراه. والعرب تفعل هذا في الشيئين إذا جريا في باب واحد، قال الفرزدق:

أخذنا بآفاق السماءِ عليكمُ لنا قمرَاها والنجومُ الطوالعُ

يريد: الشمس، القمر؛ لأنهما قد اجتمعا في قولك: «النيّران»، وغلب الاسم المذكر، وإنما يؤثر في مثل هذا الخفة، وقالوا: «العمران» لأبي بكر، وعمر فإن قال قائل، إنما هو عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، لم يصب، لأن أهل الجمل نادوا بعلي بن أبي طالب - رحمة الله عليه -: أعطنا سنة العُمرين.

فإن قال قائل: فلم لم يقولوا: أبوى بكر، وأبو بكر أفضلهما؟ فلأن عمر اسم مفرد، وإنما طلبوا الخفة.

وأنشد التوزي عن أبي عبيدة لجرير:

وما لتغلِب إن عدُّوا مساعيهم نجُم يضيء ولا شمّس ولا قمرُ
ماكان يُرضي رسول الله فعلهمُ والعُمرين: أبو بكرٍ ولا عُمَرُ

هكذا أنشدنيه، وقال آخر:

قدني من نصر الخُبيْبيْنِ قدني

يريد: عبد الله، ومصعباً ابني الزبير، وإنما أبو خبيب: عبد الله، وقرأ بعض القراء: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾[2] فجمعهم على لفظ «إلياس». ومن ذا قول العرب: المسامعة، والمهالبة، والمناذرة؛ فجمعهم على اسم الأب»[3].

فقد استشهد المبرد بالقرآن الكريم، وقال: والعرب تفعل هذا في الشيئين إذا

(١) المربد، بكسر الميم، وفتح الباء، كل شيء حبست به الإبل والغنم، وبه سمي مربد البصرة، والمربد: فضاء واسع وراء البيوت يرتفق به. اللسان (ربد).
(٢) سورة الصافات: ١٣٠.
(٣) الكامل: ٢/ ١٤٣.

جريا في باب واحد»، فقد غلب المبرد على مصاحبه، ولذا ثنى بالألف والنون، وبين أن المراد بقول الفرزدق «قمراها»: الشمس والقمر، وبالعمرين: أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - .

وأما قراءة: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ فهي على تغليب «إلياس» - على آله - عليهم السلام -، ولذا جمع لفظ «إلياس» جمع مذكر سالم ليشملهم. قال أبو حيان: «قرأ زيد بن علي ونافع وابن عامر» «على آل ياسين» وزعموا أن آل مفصولة في المصحف، وياسين اسم لإلياس... وقرأ باقي السبعة على «إلياسين» بهمزة مكسورة أي: إلياسين جمع المنسوبين إلى «إلياس» معه، فسلم عليهم ، وهذا يدل على أن قومه من كان اتبعه على الدين، وكل واحد ممن نسب إليه كأنه «إلياس» فلما جمعت خففت فيه، وحرف العلة الذي للجمع فحذفت لالتقائهما كما قالوا: الأشعرُون والخبيبون والمهَلبون»[1].

فالمبرد بيَّن التغليب بالأمثلة والشرح وكان كلامه شافياً، وفي التغليب إيثار: خفة اللفظ. وكذا الإفراد على التركيب، وفيه إيجاز واختصار، وتنويه بمن غلب اسمه، وكذلك معنى النسب، فيقال المناذرة بتغليب النعمان بن المنذر على سائر قومه رجالاً ونساء، ولا يخفي أن النسب هنا غير قياسي كما هو موضح في علم الصرف.

***

---

(١) البحر المحيط: المجلد السابع: ٣٧٣، وانظر: كتاب السبعة في القراءات: ٥٤٩، وانظر: الكامل: ٣/ ٣٠٥.

المبحث السادس
الإنشـــاء

أولاً: الاستفهام:

وهو أحد مباحث الإنشاء الطلبي[1] وقد عنى العلماء بهذه المباحث وبحثوا عن أسرارها البلاغية. والاستفهام مصدر استفهم، السين والتاء للطلب، والفهم: معرفتك الشيء بالقلب، فهِم فهماً وفهَامة: عِلمه، وفهمتُ الشيء عَقلتُه وعرفتُه، وسأل أن يفهمه[2].

قال الزركشي (ت ٧٩٤هـ) «وهو طلب خبر ما ليس عندك»[3] أي طلب تصوره وإدراكه، أو طلب التصديق بين طرفي النسبة. وكثيراً ما يراد بالاستفهام معان بلاغية تُفاد من الحال، ويعين عليها سياق الكلام وأدواته: الهمزة، وهي أم الباب، وهل، ما، من، أي، كم، كيف، أين، أنّى، متى، أيان.

وإذا كان السؤال عن المفرد فالمراد منه: التصور، ويجيء في حيزه «أم» المعادلة، أما إذا كان عن النسبة بين طرفي الجملة فإنه يكون تصديقاً ومثال التصور: أمحمد حضر أم علي؟ أعلي أم محمد، وأعندك أم عند زيد. والإجابة تكون بتحديد المسئول عنه؛ فيقال فى الأول: محمد، وفى الثانى: عندى. ومثال التصديق: أعليٌّ يخلص النصيحة؟ والإجابة: «نعم» أو «لا».

---

(١) ينقسم الكلام إلى: إنشاء وخبر، وهذا هو الراجح عند العلماء، والإنشاء ينقسم إلى: طلبي: وهو ما يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب. وغير طلبي: وهو ما ليس كذلك، وغايته: تأثر المخاطب به، ومشاركته في وجدانه مثل: صيغ المدح والذم، وصيغ التعجب... إلخ.

(٢) اللسان: (فهم).

(٣) البرهان: ٢/ ٣٢٦، انظر: الإتقان: ٣/ ٢٣٤.

وقد تعرض المبرد لأساليب الاستفهام في «الكامل» من خلال شرحه لبعض النصوص، كما بيّن لها كثيراً من الأغراض البلاغية. فقد ذكر كتاب «عليّ» إلى «معاوية» – رضي الله عنهما – وقد جاء فيه»: وبعد، فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمية وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه».

ثم قال: «وأما قوله: «فما أنت وعثمان»؟. فالرفع فيه الوجه؛ لأنه عطف اسماً ظاهراً على اسم مضمر منفصل، وأجراه مُجراه، وليس ها هنا فعل فيحمل على المفعول، فكأنه قال: فما أنت وما عثمان؟ هذا تقديره في العربية، ومعناه: لست منه في شيء»[1].

فالغرض هنا: التقليل والتحقير، وذلك أن علياً ﷺ يقلل من أمر «معاوية» ويبين له أن أمر «عثمان» لا يعنيه، فهناك من يهتمون بدم عثمان ويطالبون به.

ومن أدوات الاستفهام «هل» وهي لطلب التصديق، أي طلب إدراك النسبة بين طرفي الجملة في نحو: هل بدأ الشهر العربي؟ الإجابة بـ «نعم» أو بـ «لا». وقد بين السكاكي (ت ٦٢٦هـ) أن «هلاّ، ألاّ، لولا، لوما» مأخوذة من: هل، لو، بالتركيب مع: «لا»، و «ما» المزيدتين، وأنه يتولد منهما معنى التنديم في الماضي، والتحضيض في المضارع نحو: هلاّ حضرت فاستفدت، ولولا تتقي الله[2].

والمبرد بعد أن ذكر أن حروف المجازاة إنما تقع لما لم يقع نحو إن جئتني أعطيك. فهذا لم يقع، وإن كان لفظ الماضي لما أحدثته فيه «إن».

قال[3]: «ولها موضع آخر تكون فيه على غير هذا المعنى وهي «لولا» التي

---

(١) الكامل: ١/ ٣٣٣.

(٢) مفتاح العلوم: ٣٠٧، باختصار.

(٣) المرجع السابق والموضع.

تقع في معنى «هلّا» للتحضيض، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾[1] اي: هلاَّ، وقال الله ﷻ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ ﴾[2]؛ فهذا لا يليها إلا الفعل؛ لأنها للأمر والتحضيض»[3].

كما أورد قول الشاعر:

أفي الولائم أولاداً لواحدةٍ وفى المحافِل أولاداً لِعَلاَّتِ

ثم قال: «العلاَّت، سميت بذلك لأن الواحدة تعل بعد صاحبتها، وهو من العلل: الشرب الثاني – أي يختلفون ويتحولون في هذه الحالات.

ومن كلام العرب: أتميمياً مرة وقيسيًّا أخرى؟... أى أتنتقل؟ ومن ثم قال له زُفر بن الحارث أزديًا مرة، وأوزاعياً أخرى»[4]. المعنى على الإنكار، فالشاعر ينكر عليهم عدم الاستقرار والثبات على حالة واحدة في الولائم: والمحافل، كما ينكر في المثال الثاني على شخص انتسابه مرة إلى «تميم» وأخرى إلى «قيس» إذ الأولى أن يعرف الشخص قبيلته، وينتسب إليها دائماً.

ويقول: «ومن كلام العرب: أتفعل كل هذا بُخلاً؟ وذاك أنه رآه يفعل شيئاً أنكره؛ فقال أتفعل هذا بخلا؟»[5]. والمعنى الإنكار، أى: ما ينبغي أن تفعل كل هذا، والإنكار معناه: النفي فهو في الماضي على معنى: ما كان ينبغي ولا يصح، وفي المضارع بمعنى: ما ينبغى، أو يصح هذا.

---

(١) سورة النور: ١٢.

(٢) سورة المائدة: ٦٣.

(٣) الكامل: ١/ ٢٧٨.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٧٤.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٠٥.

ويجوز حذف أداة الاستفهام إذا دل عليها دليل؛ لأنه يجعل المحذوف كالمذكور، «ويجوز حذف ألف الاستفهام؛ لأن «أم» التي جاءت بعدها تدل عليها. قال ابن ربيعة:

لعمركَ ما أدري وإن كنتُ داريا بسبعٍ رمَيْن الجمر أم بثمانِ

يريد: أبسبع»[1]. فوجود «أم» دليل على أن الاستفهام فى المفرد.

ويقول في موضع آخر: «وقال أهل المعرفة في قول الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[2]، إنما تسأل تبكيتا لمن فعل ذلك بها، كما قال الله تعالى: ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3] »[4].

الغرض تبكيت مَن وأدها فى الدنيا دون ذنب، وهذا على حد قولهم[5]: «إياكِ أعنى واسمعى يا جاره» والتبكيت فيه تقرير بالفعل.

والمبرد يعني بقوله: «وقال أهل المعرفة...» أبو عبيدة، وأمثاله من العلماء. فقد جاء في مجاز القرآن[6] في معنى الآية الكريمة: «هذا باب تفهيم وليس باستفهام، وإنما يراد به النهي عن ذلك ويتهدد به، وقد علم قائله إن كان ذلك أم لم يكن، وقال جرير:

ألستُمْ خيْرَ مَنْ ركبَ المطايا وأندَى العالمينَ بطونَ راحِ

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٧٧.

(٢) سورة التكوير: ٨، ٩.

(٣) سورة المائدة: وأول الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ...﴾.

(٤) الكامل: ٢/ ٢٣٤.

(٥) من أمثال العرب. ويُضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا غيره. مجمع الأمثال: ١/ ٨٠.

(٦) مجاز القرآن: جـ١ ص١٨٣، وانظر: معانى الحروف للرُّمّاني: ٣٣.

ولم يستفهم، ولو كان استفهاماً ماأعطاه «عبد الملك» مائة من الإبل برعاتها».

والزمخشري ينقل عن المبرد، فيقول: «فإن قلت: ما معنى سؤال الموءودة عن ذنبها؟ وهلّا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟ قلت: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها، نحو التبكيت في قوله لعيسى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾»(1).

ويعود المبرد إلى الاستشهاد بهذه الآية في موضع آخر، فقد أورد مقطوعة لعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب ومطلعها:

رأيتُ فضيلا كان شيئاً ملفّفاً   فكشّفه التميحصُ حتى بدَاليا

أأنت أخي ما لم تكن لي حاجةٌ   فإن عرضتْ أيقنتُ أن لا أخاليا

ثم قال: «وقوله: «أأنت أخي ما لم تكن لي حاجة» تقرير، وليس باستفهام ولكن معناه: أني قد بلوتك تظهر الإخاء فإن بدت لي حاجة لم أر من إخائك نفعاً. قال الله عز وجل: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، إنما هو توبيخ، وليس باستفهام، وهو جل وعز العالم بأن عيسى لم يقله، وقد ذكرنا التقرير الواقع بلفظ الاستفهام في موضعه من كتاب «المقتضب»(2)

---

(1) الكشاف: ١/ ٢٢٢، انظر: أنوار التنزيل: ١/ ٥٤٧، ومختصر المعاني للتفتازاني: ٢/ ٢٩٨. ط. الحلبي.

(2) من مواضع الاستفهام في «المقتضب»:٣/ ٢٩٢، ٣٠٧،٣٩٨. وقد درس فيه الاستفهام وأدواته، واختصاص الهمزة بالكثير من المزايا. والشأن في المستفهم أن يكون غير عالم. أما إذا كان عالما بالمضمون فإن حروف الاستفهام تكون للتوبيخ والتقرير كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾. (الزمر: ٦٠) وكما في البيت:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

كما يُفاد منها: التعجب والإنكار كما في قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (الصافات: ١٦، ١٧)، وكما في المثالين أقعودا وقد سار الناس، «أطربا وأنت قِنَّسْرِيٌّ» ، فالإنكار فيهما على معنى ما كان ينبغي أن تقوم وقد قعد=

مستقصى، ونذكر منه جملة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى».

فالمبرد يورد الكثير من أساليب الاستفهام، ويبين المراد منها، كما يجعل من الآراء النحوية وسيلة للتعرف على ما تيسر من الأغراض، وهي:

١ - التقرير وما يوحى به من التوبيخ، والتبكيت.

٢ - الإنكار ويتضمن التوبيخ.　　٣ - التحقير.

٤ - التعجب.　　٥ - التحضيض.

وبيّن جواز حذف أداة الاستفهام إذا دل دليل، كما يبين أحياناً قرينة الحذف.

ثانياً: النهي

النهي: هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وصيغته: المضارع الواقع بعد «لا» الناهية مثل: لا تهمل. وقد يخرج النهي عن معناه إلى معان أخرى تفاد من الحال، كالدعاء، والتمني، والتوبيخ... إلخ.

وقد أورد أبو العباس في «الكامل» قول عبد الله بن رواحة الأنصاري لما أمَّرهُ رسول الله ﷺ بعد زيد وجعفر على جيش مؤتة، وهو:

إذا بلَّغتِني وحملتِ رحْلي　　مسيرة أربعٍ بعد الحساءِ

فشأنك فانعمي وخلاكِ ذمّ　　ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

الخطاب في «بلغتني وحملت» للناقة.

قال المبرد: «وقوله: «ولا أرجع إلى أهلي ورائي» مجزوم؛ لأنه دعاء فقوله: «لا» يعني الجازمة، ومعناه: اللهم لا أرجع، كما تقول: زيد لا تغفر له، فهذا الدعاء ينجزم بما ينجزم به الأمر والنهي كما تقول: زيد لِيقم، وزيد لا يبرح»[1].

= الناس. وما كان يصح أن تطرب وأنت كبير السن- وقد تأثر المبرد هنا بسيبويه في «الكتاب» ونقل أكثر بيانه للأمثلة.

(١) الكامل: ١/ ١٢٩.

والغرض من قوله: «ولا أرجع» الدعاء، والمعنى: اللهم لا أرجع. والفعل مجزوم بـ «لا» الناهية، وقد ورد ذلك في القرآن كثيرًا فالله تعالي يوجه عباده بالدعاء قال سبحانه ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[1].

ثالثاً: النداء

هو طلب الإقبال بحرف من حروف النداء وهي: الهمزة، آ، أى، يا، أيا، هيا. وقد يخرج النداء عن هذا المعنى إلى معان أخرى تفاد من المقام.

وقد جاء في الكامل: «وكان العلاء بن مطرف السعدي بن عم «عمرو القنا»، وكان يحب أن يلقاه في تلك الحروب - حروب الخوارج - مبارزة، فلحقه «عمرو القنا» وهو منهزم، فضحك عمرو وقال متمثلاً:

تمنَّانِي ليلقاني لقيــطٌ ... أعامِ لك ابن صعصعةَ بن سعدِ

ثم صاح به: انجُ أبا المصَدِّي! وكان عمرو القنا يكني أيضاً: أبا المصدي. وقوله: «أعام لك» يريد يا عامر، فرخم، وإنما يريد: الحيُّ، تعجباً، أي: لكَم أعجب ممن تمنيه للقائي!. وهذا البيت وضعه سيبويه في باب النداء الذي معناه: التعجب.

وشبيه به قول الصلتان العبدي:

فيا شاعرا، لا شاعر اليوم مثلهُ ... جرير ولكن في كليبٍ تواضعُ

على معنى قوله: فلله درُّه شاعراً[2].

فالغرض من: أعام لك، وفياشاعرا: التعجب، بمعونة الحال والعام. وهذا بالقياس على المثل: «لله درُّه»[3] وهى صيغة تعجب غير قياسية.

---

(١) سورة البقرة: الآية الأخيرة.

(٢) الكامل: ٣/ ٢٥٧.

(٣) أى: خيره وعطاؤه، وما يؤخذ منه. هذا هو الأصل، ثم يقال لكل متعجب منه. مجمع الأمثال: ٣/ ١١١.

المبحث السابع

الفصل والوصل

وهو من أهم مباحث علم المعاني. عرف فضله علماء اللغة والبيان فأشادوا به، ونبهوا على مزيته، ووجوب مراعاته في البليغ الكلام.

فأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يقول في «البيان والتبيين»: «وقيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، ولكن هل الفرس تنبهوا إلى معرفة الفصل والوصل في حين غفل عنه العرب في الجاهلية؟ الجواب: كلاً؛ لأن العرب آنذاك طبعوا على الفصاحة وهم أهل الذوق والبيان، وبلغتهم نزل القرآن، فصار مراعاة الفصل والوصل عندهم طبعاً وذوقاً قبل أن يكون قواعد وعلما.

فأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) يعقد في «كتاب الصناعتين» بابا في ذكر المقطع والقول في الفصل والوصل ويصدره بقول الفارسي السابق، ثم يقول عن أحد خطباء الجاهلية البلغاء: «وكان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول: افصلوا بين كل منقض معنى، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض».

وكان ما جمع أبو هلال من مأثورات ثروة بلاغية تهدى الكاتب، وتعين الدارس، وترشد إلى القواعد[1]، ويعد باب باب الفصل والوصل من أدق أبواب البلاغة لما يقتضيه من معارف فى اللغة، وقد أشاد البلاغيون والأدباء بأهمية هذا الباب، وعدوه عماد البلاغة[2].

---

(١) دراسات فى علم المعانى: ١٨ للمؤلف.

(٢) بلاغة التراكيب. دراسة فى علم المعانى: ١٦٣.

والوصل عند علماء البلاغة هو: عطف بعض الجمل على بعض بالواو خاصة. والفصل: ترك هذا العطف. والتقييد ببعض الجمل ليشمل المفردات، وما في حكمها: «الجمل التي لها محل من الإعراب»؛ لأنها تؤول بالمفرد. وكان للجمل التي لا محل لها من الإعراب نصيب كبير من عناية الباحثين، وذلك أن الوصل أو الفصل معها يحتاج إلى تأمل وعناية أكثر من غيرها.

وسنبين ما ورد في كتابه «الكامل» بخصوص هذا المبحث.

أولاً: الوصل:

بيّن المبرد طريقة العرب في العطف بقوله: «إن العرب إذا كان العطف بالواو قدمت وأخرت، قال الله تبارك وتعالي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[1]، وقال: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[3] ولو كان بـ «ثم» أو بـ «الفاء» لم يصلح إلا تقديم المقدم ثم الذي يليه واحداً فواحداً»[4].

والمعنى أنه لا يجب عند العطف بالواو مراعاة الترتيب؛ لأنها لمطلق الجمع بخلاف العطف بالفاء أو ثم؛ لأن الأولى للترتيب والتعقيب، والثانية للترتيب والتراخي.

وهذا ماعناه علماء البلاغة من أن الواو تفيد، التشريك في الحكم، فتحتاج إلى شيء آخر هو «الجامع» أما العطف بالفاء أو بـ «ثم» مثلاً فلا يلزمها هذا لجامع؛ لأن كلاً منهما يفيد مع «التشريك في الحكم» شيئاً آخر، وفي هذا غناء

---

(١) سورة التغابن: ٢.

(٢) سورة الرحمن: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران: ٤٣. وأولها: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى ...﴾.

(٤) الكامل: ٢/ ١٨.

عن «الجامع».

وروى المبرد حديث بنات ذي الإصبع العداواني ثم قال: وقولها: «تشفى بها النّيب والجزر» فإنما عطفت أحدهما على الآخر؛ لأن من الإبل ما يكون جزوراً للنحر لا غير[1]. فهذه المغايرة اقتضت العطف بالواو.

ويفهم من كلامه في موضع آخر أن مراعاة الإعراب بين المتعاطفين أساسه التناسب في النوع، أو العامل فقد ذكر كتاب «عليّ» إلى «معاوية» - رضى الله عنهما - ثم قال: «وأما قوله: «فما أنت وعثمان! إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه...» ثم يعلق بقوله: وأما قوله: «فما أنت وعثمان» فالرفع فيه الوجه؛ لأنه عطف اسماً ظاهراً على اسم مضمر منفصل وأجراه مجراه، وليس ها هنا فعل، فيحمل على المفعول فكأنه قال: فما أنت وما عثمان! هذا تقريره في العربية ومعناه: لست منه في شيء.

ولو قلت ما شأنك وزيداً لاختير النصب؛ لأن «زيداً» لا يلتبس بالشأن؛ لأن المعطوف على الشيء أبدا في مثل حاله. ولو قلت: ما شأنكُ شأنُ زيد لرفعت؛ لأن الشأن يعطف على الشيء»[2].

وما قاله المبرد من جواز العطف في هذه الافتراضات يتفق مع ما رآه العلماء من أن العطف يقتضي المناسبة، فقد أشار إلى «الجامع» عند الوصل بالواو.

ثانياً: الفصل:

ذكر المبرد قول الشاعر:

بني أسدٍ إن تقتلوني تحاربوا   تميماً إذا الحربُ العوان اشمعلّتِ

ثم قال: قوله «إذا الحرب العوان» وهي التي تكون بعد حرب قد كانت

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٤٩.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٣٣.

قبلها... وقول الله ﷻ: ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ هو تمام الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[1] والفارض هاهنا المسنة، والبكر: الصغير»[2].

الفصل بين «عوان» وما قبلها لاختلاف المعنى فبينهما «كمال الانقطاع»، ومن صوره أن لا يكون ثمة جامع كقولنا: العلم مفيد، حضر أخي. ومارآه المبرد من الفصل يعد من هذه الصورة.

٢- وذكر المبرد قول الأعشى[3]:

لعمرك ما أشبهت وعْلة في الندي   شمـائلهُ ولا أبـاهُ مُجـالِداً

ثم قال: «إنه جعل «شمائله» بدلا من «وعلة» والتقدير: ما أشبهت شمائلُ وعلة» ويتبعه بقوله:

والبدل على أربعة أضرب:

- فواحد منها أن يبدل أحد الاسمين من الآخر إذا رجعا إلى واحد ولا نبالي. أمعرفتين كانا، أم معرفة ونكرة، وتقول: مررت بأخيك زيدٍ؛ لأن «زيداً» هو الأخ وكذلك: مررت برجل عبد الله، فهذا واحد.

- وآخر: أن يبدل بعض الشيء منه، نحو: ضربت زيداً رأسه، لما قلت: ضربت زيداً، أردت أن تبين موضع الضرب منه.

فمثال الأول قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ

---

(١) سورة البقرة: ٦٨.

(٢) الكامل: ١/ ١٩٩.

(٣) الكامل: ٣/ ١٥. والبيت من مقطوعة في مدح «هوذة بن علي»، والتعريض بالحارث بن وعلة.

(٤) سورة الفاتحة: ٦، ٧.

ٱللَّهِ ﴾[1]، و ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾[2].

ومثال البدل الثاني قوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[3]، «مَنْ» في موضع خفض؛ لأنها بدل من «الناس» ومثله إلا أنه أعيد حرف الخفض: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾[4].

– والبدل الثالث مثل ما ذكرنا في البيت أبدل «شمائله» منه، وهي غيره، لاشتمال المعنى عليها، ونظير ذلك، أسألك عن زيد أمره؛ لأن السؤال عن الأمر... ونظير ذلك من القرآن ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾[5]؛ لأن المسألة إنما كانت عن القتال هل يكون في الشهر الحرام؟...

– ويدل رابع لا يكون مثله في القرآن ولا في الشعر، وهو أن يغلط المتكلم؛ فيستدرك غلطه، أو ينسى فيذكر؛ فيرجع إلى حقيقة ما يقصد له. ومن ذلك قولك: مررت بالمسجد دارِ زيد، أراد أن يقول: مررت بدار زيد، فإما أنه نسي، وإما غلط فاستدرك؛ فوضع الذي قصد له في موضع الذي غلط فيه»[6].

وقال المبرد: في موضع آخر: «قال الله – عز ذكره – : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ثم فسر فقال: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾[7]،

---

(١) سورة الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة العلق: ١٥، ١٦.

(٣) سورة آل عمران: ٩٧.

(٤) سورة الأعراف: ٧٥.

(٥) سورة البقرة: ٢١٧.

(٦) الكامل: ٣/ ١٧.

(٧) سورة الفرقان: ٦٨، ٦٩.

فجزم «يضاعف» لأنه بدل قوله ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾؛ إذ كان إياه في المعنى»[1].

ذكر المبرد في هذين النصين أنواع البدل، وذكر أن بدل الغلط ليس له وجود في القرآن الكريم، ولا في الشعر؛ لأن سببه النسيان أو الغلط. فقد بين أبو العباس الداعي إلى الفصل بين البدل والمبدل منه في بعض الأمثلة، وما رآه لا يبعد عن آراء المفسرين، وعلماء البلاغة.

فالزمخشري يقول في آيتي الفاتحة: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بدل من ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وهو في حكم تكرير العامل، كأنه قيل: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾. أهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، كما قال: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ ﴾[2].

فإن قلت: ما فائدة البدل؟ وهلا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الصراط المستقيم بيانه. وتفسيره: صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده[3]. وقال في آية آل عمران: «ذكر «الناس» ثم أبدل عنه ﴿ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾[4].

أما آيتي «العلق» فإن «ناصية» بدل من «الناصية». وتنكيرها لاعتبار الجنس،

---

(١) الكامل: ٣/ ٣١.

(٢) سورة الأعراف: ٧٥، وأولها: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ ....﴾ يقول أبو البقاء: قوله: «صراط الله» بدل من «صراط مستقيم» بدل المعرفة من النكرة. والله أعلم. التبيان: ٢/ ٢٢٦.

(٣) الكشاف: ١/ ٦٨.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٤٤٨.

أي هي من جنس ناصية كاذبة[1].

ولما كان البدل عين المبدل منه أو كعينه؛ لأنه جزؤه، أو مشتملاً عليه كان الفصل. ويمتنع العطف؛ لأنه دليل التغاير في الذوات أو الصفات.

وروى المبرد مقطوعة للقتال الكلابي، أولها:

أنـا ابنُ أسماءَ أعمـامي لهـا وأبي ... إذا ترامىَ بنُـو الأموان بالعـارِ

لا أرضع الـدهرَ إلا ثـدْيَ واضحةٍ ... لِواضح الخدِّ يحمي حوْزةَ الجارِ

ثم قال: «واضحة» أي: خالصة في نسبهَا، وليست بأمة، وهذا توكيد لبيته الأول[2]. والتوكيد من دواعي الفصل، وهو من صور «كمال الاتصال».

فأبو العباس بين طريقة العرب في الوصل والفصل، وبين من خلال تحليله للنصوص حالهما في المفردات والجمل، وأشار إلى ما عرف بعدُ بالجامع عند إرادة الوصل، وأمثلته دائرة بين ما عرف بـ «كمال الانقطاع بلا إيهام» و «كمال الاتصال» و «التوسط بين الكمالين».

* * *

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٥٠.

(٢) الكامل: ١/ ٥٤، وانظر مثالاً لتوكيد المفرد في: ١/ ٢٩٢.

المبحث الثامن

الإيجاز والاطناب والمساواة

الإيجاز هو: تأدية المعنى بلفظ ناقص عنه، وافٍ به. **والإطناب** هو: تأدية المعنى المراد بلفظ زائد عليه الفائدة.

وأما المساواة: فهي تأدية أصل المعنى بلفظ مساوٍ له.

قال أبو هلال: وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز، والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله: كأن ألفاظَه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض[1].

وفي كتاب «الكامل» نظرات وآراء لذوي الرأي في هذا المبحث وإليك بيانها.

أولاً: الإيجاز:

وهو نوعان:

١ - إيجاز قَصر. ٢ - إيجاز حذف.

الأول: إيجاز القصر، وهو أن تتضمن الألفاظ القليلة معان كثيرة، دون حذف شيء من التركيب[2]، ويسمى: «إيجاز البلاغة» وفي الكامل منه الكثير.

يقول المبرد: «وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركُم بأحبِّكم إليَّ وأقربكم منِّي مجالس يوم القيامة؟ أحاسنُكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. ألا أخبركم بأبغضِكم إلَيّ وأبعدكم منِّي مجالس يوم القيامة؟ الثَّرثارُون، المتفيهقُون» [3].

وأثناء شرحه يورد قول الرسول ﷺ لجرير بن عبد الله البجَلي: «يا جرير: إذا

---

(١) كتاب الصناعتين: ١٨٠.

(٢) نفس المرجع والموضع.

(٣) الكامل: ١/ ٤.

قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف»[1]. وهو يعنى بذلك الصدق والقصد فى المنطق.

ويورد من النصوص ما يكشف عن فضل الإيجاز ويقول: «ومما يؤثر من هذه الآداب ويُقدَّم قول عمر بن الخطاب ﷺ في أول خطبة خطبها. حدثني العتبي قال: لم أر أقلّ منها في اللفظ، ولا أكثر في المعنى. حمد الله وأثنى عليه، وهو أهله، وصلى على نبيه محمد ﷺ ثم قال: أيها الناس، إنه والله ما فيكُم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوى حتى آخذ الحق منه»[2].

كما روى المبرد رسالة عمر ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى في القضاء وقال عنها: «وهي التى جمع فيها جُمل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماما، ولا يجد مُحق عنها معدِلا، ولا ظالم عن حدودها محيصا، وهى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك. أما بعدُ، فإن القضاء فريضة محكمة...».

فقوله: «وهي التي جمع فيها جمل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام» هو مفهوم إيجاز القصر: لفظ قليل، ومعنى كثير.

وقال المبرد: و «قيل: خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره» وقال: «ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد إختصاره قول أعرابي:... فأخرجه لفصاحته، وعلمه بجواهر الكلام أحسن مخرج»[3].

وقال: «من كلام العرب الاختصار المفهم، «والإطناب المفخم، وقد يقع

(١) الكامل: ١/ ٦.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٢، وانظر: نصاً آخر في اختصار التشبيه: ٣/ ٣٢.

الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوى الألباب عن كشفه، كما قيل: لمحة دالة»[1].

وأورد قول جعفر بن يحيى: «رفع قوم إليه شكيَّة عاملهم، فوقَّع في قصتهم: يا هذا. قد كثر شاكوك، وقلَّ حامدوك، فإما اعتدلْت وإما اعتزلْت... وقال جعفر بن يحيى لكُتّابه: إن قدرتم أن تكون كتُبكم كلها توقيعاتٍ فافعلُوا»[2].

قوله: «كثر شاكوك، وقلَّ حامدوك». عبارة تغنى عن عد الشاكين مع كثرتهم، وعد الحامدين وقلتهم وقوله: «فإما اعتدلت»، وإما اعتزلت. معناها إما اعتدلت في معاملات الناس معك من أقول وأفعال، وإما اعتزلت عملنا، كما يحث جعفر كُتّابه - ما أمكن - بإيثار الإيجاز، فتكون كتبهم مختصرة كالتوقيعات، وهي تعليقات من يهمهم الأمر على الكتب أو المكاتبات عند رفعها إليهم، لإبداء الرأي فيها وهي تكون غاية في الإيجاز.

ومن أمثلته: «إذا قلت: أما زيد فمنطلق. مهما يكن من شيء فزيدٌ منطلق، وكذلك: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[3] إنما هي: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم»[4]. وهذا من إيجاز القَصر؛ لأنه أريد بكل من الآية الكريمة والمثال معنى أكثر من اللفظ؛ فكلمة: أما «حرف بسيط فيه معنى الشرط والتفصيل والتوكيد، أما الشرط فبدليل لزوم الفاء بعدها... »[5].

وفي تفسير التحرير والتنوير[6]: «الفاء الأولى فصيحة» و «أما» تفيد شرطاً مقدراً تقديره: مهما يكن من شيء. فكان مُفادها مشعراً بشرط آخر مقدر هو

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٨.

(٢) الكامل: ١/ ٣٠١.

(٣) سورة الضحى: ٩.

(٤) الكامل: ١/ ٢٨٨.

(٥) شرح الأشموني: ٤/ ٤٤ مطبوع مع (حاشية الصبان).

(٦) ج٣٠، ص٤٥١.

الذي اجتلبت لأجله فاء الفصيحة، وتقدير نظم الكلام: إذا كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك. وبين له الشكر بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ إلخ... ولما كانت «أما» بمعنى مهما يكن من شيء قرن جوابها بالفاء، و «اليتيم» مفعول لفعل ﴿ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ وقدم للاهتمام بشأنه».

ومن الإيجاز الاستفهامُ بكلمة: «مهْيَم»؟ فهي حرف استفهام، معناه: ما الخبر؟ وما الأمر؟ فهو دال على ذلك محذوف الخبر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى بعبد الرحمن بن عوف درع خلوق – طيب – فقال: «مهيم»؟ فقال تزوجتُ يا رسول الله، فقال: أولِمْ ولو بشاة»[1]. فقولهم: «مهيم» اختصار لجملة اسمية هي: ما الخبر. وهو من إيجَاز القصر.

الثاني: إيجاز الحذف:

وهو أن تكون زيادة المعنى راجعة إلى حذف شيء من التركيب. والمحذوف إما: جزء جملة، أو جملة فأكثر، وقد بين ذلك المبرد في مبحث «الحذف» فلا داعي للتكرار.

ثانياً: الإطناب:

وللإطناب مواطنه، كما أن للإيجاز مواضعه، ولكل موقعه من البلاغة فالجاحظ يبين منهج العرب في الخطابة بقوله: «جميع خطب العرب من أهل المدَر والوبر والحضر على ضربين: منها الطوال، ومنها القصير، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه»[2].

وجاء في نقد النثر[3] قول جعفر بن يحيى: «إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز

(١) الكامل: ٣/ ٣٥٦.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٧.

(٣) ص: ٤٧.

تقصيراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذراً». هذا منهج العرب في القول.
وقد أشار إليه المبرد بقوله: «من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم»[1]. وقد نبه علماء البلاغة على أن زيادة اللفظ لابد أن تكون لفائدة.

وللإطناب صور كثيرة مثل: البيان بعد الإبهام، والتوشيح، والاعتراض... إلخ.

فمن البيان بعد الإبهام قول المبرد في قول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾[2] وهو تمام الكلام، ثم استأنف، فقال: ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾، والفارض: المسنة، والبكر: الصغيرة». وصفت البقرة أولا بأنها «لا فارض ولا بكر» وفي هذا نوع من الإبهام، ثم وضح وبين بأنها «عوان» فتم المراد من الوصف؛ فهذا من «البيان بعد الإبهام».

وفائدته: التعريض بغباوة بني إسرائيل، واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالاً لإعادة السؤال[3].

فمحمد بن يزيد المبرد عُني بالإيجاز، وإيراد ما أُثِر فيه عن العلماء، كما أورد له الكثير من الأمثلة؛ فهو يميل إلى الإيجاز، والاختصار، وأما الاطناب فلم أجد له سوى صورة البيان بعد الإبهام.

* * *

---

(١) الكامل: ١/ ٢٧.

(٢) سورة البقرة: ٦٨، وأول الآية: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ...﴾.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٥٥٥ بتصرف.

الباب الثاني

مباحث علم البيان

وفيه أربعة فصول:

الأول: التشبيه

الثاني: المجاز اللغوي

الثالث: الكناية

الرابع: المبرد بين التأثر والتأثير

لمحة عن تطور مصطلح «بيـان»:

يقول الرازي: البيان: الفصاحة واللَّسَن، وفي الحديث: «إن من البيان لسِحْرًا»[1]، وفلانٌ أبْيَنُ من فُلان أي أفصح منه، وأوضح كلامًا، وبَانَ الشيءُ يبينُ بياناً، فهو بيِّن»[2].

وقال ابن منظور: «البيان: ما بُيِّن به الشيءُ من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بياناً: اتضح فهو بيِّن... وقوله - ﷻ -: ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[3] يريد: النساء. أي الأنثى، ولا تكاد تستوفي الحجة ولا تبين»[4].

فمادة: (بـ ي ن) يدور معناها في اللغة حول الظهور والإفصاح والبيان عما في الضمير بأي نوع من الدلالة.

هذا العموم والاتساع في مفهوم المادة نجده عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) حيث يقول: «البيان: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل... فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[5].

وحصر الجاحظ الدلالات في خمسة أشياء[6] هي: «اللفظ، والإشارة، والعَقْد، والخط، والنِّصبة، وهي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف».

(١) رواه أبو داود في سننه: ٤/ ٣٠٢.

(٢) مختار الصحاح: (ب ي ن).

(٣) سورة الزخرف: ١٨.

(٤) اللسان: (ب ي ن).

(٥) البيان والتبيين: ١/ ٦٧.

(٦) المرجع السابق: ١/ ٧٦ - ٨١.

ونسرع الخطا إلى الإمام عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) فتراه يجعل «البيان» مرادفاً للبلاغة حيث يقول: «... ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنًى من علم البيان»[1]. وهو يجعل الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة مصطلحات دالة على معنى واحد أو متقارب وهذا المعنى هو: الإيضاح والكشف عما في النفس من المعاني والأفكار[2].

وعلى يد أبي يعقوب السكاكي (ت ٦٨٦هـ)، وبدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) قسمت أبواب البلاغة إلى ثلاثة علوم هي: المعاني، البيان، والبديع. وسار على ذلك الخطيب القزويني (ت ٧٨٠هـ) ومن بعده إلى الآن.

فعلم البيان: هو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[3]. والمراد: أن المعنى الواحد كالشجاعة يمكن التعبير عنه بطرق تختلف في وضوح الدلالة عليه.

فمثلاً نقول بطريق التشبيه: محمد كالأسد شجاعة، ومحمد كالأسد، ومحمد أسد. فهذه الأمثلة تدل على الشجاعة، ولكن الأول أوضحها؛ لاشتماله على أركان التشبيه، ويليه المثال الثاني حيث صرح فيه بأداة التشبيه، وأما الثالث فهو أقل وضوحاً، إذ لم يصرح فيه بالأداة أو بوجه الشبه.

وأبواب علم البيان هي: التشبيه، والمجاز اللغوي، والكناية.

وستبين ذلك كما جاء في كتاب «الكامل».

* * *

(١) دلائل الإعجاز: ٥٠.

(٢) المرجع السابق: ٣٤، ٤٣.

(٣) الإيضاح: ٣/٣.

الفصل الأول
التشبيـــه

تمهيد

-١-

التشبيه فن من فنون البيان، له سحره في الأسلوب، ومنزلته في التأثير، وهو وسيلة الكاتب المُبدع، والشاعر المفلق، والخطيب النّابه، والدأعي إلى الله على بصيرة، ومن مزاياه أنه يعقد الصلات بين المحسوس والمعقول، ويربط الغائب بالشاهد، ويقرب البعيد، ويوضح الخفي، ويقوي الحجة، ويزيل الشك، وهو من أقوى طرق البيان في الدفاع عن الحق، وإبطال مزاعم الخصم.

والتشبيه يكاد يكون فطريًا؛ فهو يجري على ألسنة الناس، فما من متكلم إلا وهو ضارب فيه بسهم، قلّ ذلك أو كثر.

والتشبيه باب واسع؛ فله مباحثه المتعددة، وصوره الكثيرة، ومدار جودته: صحة المعنى، واختيار اللفظ، ودقة التصوير، ومراعاة الحال والمقام، ومن ثم تحسن مواقع التشبيه؛ فتستريح له النفس، ويأنس به القلب.

يقول أبو هلال: (ت٣٩٥هـ): «والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه. وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان»[١].

فالأدب الجاهلي حافل بالتشبيهات على اختلاف صورها، وكثرة أغراضها؛ فقد صوّر الجاهليون بالتشبيه ألواناً شتى من مظاهر حياتهم، وما تعارفوا عليه

---

(١) الصناعتين: ٢٤٩.

من أخلاقهم وعاداتهم، ومظاهر بيئاتهم، وبلادهم.

وفي عصر صدر الإسلام كان لتشبيهات القرآن الكريم، والحديث الشريف أثر كبير في الدعوة إلى التوحيد، والتنفير من الشرك وكبائر الإثم، وكذا في الحث على التراحم والإخاء وبذل المال، والحض على الجهاد في سبيل الله.

وجاء عصر التدوين فألف أبو عبيدة «معمر بن المثنى» (ت ٢١٠هـ) كتاب: «مجاز القرآن». ويقال: إن سبب تأليفه[١]: سؤال أبي عبيدة عن مسألة تتعلق بالتشبيه في القرآن الكريم وإن كان لم يشر إليه في هذا الكتاب.

وكلمة «مجاز» عنده تعني: طريق المعنى أيًا كان؛ ولذا فإن أبا عبيدة لا يتعدى المعنى اللغوي من ذكر كلمة «تشبيه»، «أو تمثيل» ففي قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[٢]، يقول: «كناية وتشبيه»، وقليلاً ما يشير إلى طرفي التشبيه؛ فهو يقول في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٣]. «العروة الوثقى» شبه بالعُرى التي يتمسك بها.

وأما أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت ٢٠٧هـ) فإنه خطا بالتشبيه خطوات؛ فقد تعرض لطرفيه، كما بيَّن التشبيه المتعدد، ووجه الشبه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[٤] قال: «أراد بالوردة: الفرس، والورد تكون في الربيع إلى الصفرة أمْيَلَ، فإذا اشتد البردُ كانت وردية حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت إلى الغبرة أميل، فشُبِّه تلُّون السماء بتلون الوردة في اختلاف ألوانها، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدُّهن في اختلاف ألوانه، ويقال:

---

(١) معجم الأدباء: ٦/ ١٦٧، ونزهة الألباء: ٤٢

(٢) سورة البقرة: ٢٢٣، ومجاز القرآن: ١/ ٧٣

(٣) سورة البقرة: ٢٥٦، مجاز القرآن: ١/ ٧٩.

(٤) سورة الرحمن: ٣٧.

إن الدّهان: الأديم الأحمر». فقد شبهت السماء بالوردة في التلوُّن، ثم شبهت الوردة بالدُّهن أو الدهان، ثم أخذ «الفراء» يبين أحوال الوردة التي تشبه مع أحوال السماء، وبيّن وجه الشبه في التشبيهين»(١).

ويجيء أبو عثمان، عمرو بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فيؤلف «البيان والتبيين» و «الحيوان» وفي الكتاب الأول يتناول التشبيه بدراسة أوسع، فقد بين أن «الإيجاز» من أهم مقاصد التشبيه، وعقد بابا سماه «باب من الشعر فيه تشبيه الشيء بالشيء» وبدأه بمثالين للتشبيه من الشعر أحدهما بالأداة «مثل» والآخر بالأداة «الكاف». وفي قول الرسول ﷺ «النّاسُ كلهم سواءٌ كأسنانِ المُشط» أشار إلى طرفي التشبيه، وأن المشبه به يكون أعرف بوجه الشبه من المشبه.

وبين الجاحظ كذلك أنه يشبه بالشيء الواحد في أمور عدة: «فالغصن مرة يشبه به النضارة وكثرة البريق، ومرة يجعل قضيبًا يشبه به في العُري، وفقدان النضّارة، وثالثة في اللين والتثني، كما أشار إلى التشبيه المقلوب عند قول بشر بن أبي حازم:

لله دَرُّ بني الْحَـــــذّاء مـنْ نَفَـرٍ   وكلُّ جـارٍ على جيرانِه كَلِبُ

إذاَ غَدَوْا وعِصيُّ الطَّلْحِ أرجُلُهم   كما تُنَصَّبُ وسْطَ البيعة الصُّلُبُ

فَعِصيُّ الطلح مشهور بالاعوجاج؛ فيشبه بها في هذا المعنى، لكونها أعرف به.

وتناول الجاحظ في كتاب «الحيوان» مسائل بيانية كثيرة، كما ردَّ على المشككين والطاعنين بفساد التشبيه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾(٢) فقد بين أن المراد: رسم صورة

---

(١) صورة من تطور البيان العربي: ٥٨ بتصرف، ومعاني القرآن: ٣/ ١١٧.

(٢) سورة الصافات: ٦٤، ٦٥، ٢٥، وما بعدها.

منكرة للإخافة والتقريع، وأن هذا جارٍ على نهج كلام العرب.

فقد أشار هؤلاء العلماء إلى المعنى اللغوي للتشبيه، وإلى أركانه، وأنه قد يجئ متعدداً، ومقلوبا، وأن الشأن في المشبه به أن يكون أعرف بوجه الشبه من المشبه، وأن «الإيجاز» من مقاصد التشبيه.

ووقفت جهود العلماء عند هذا الحد، فلم يذكر للتشبيه تعريف بياني، ولم توضح له أقسام وأغراض، ولم تدرس له أمثلة تفي بالدراسة البيانية التي تبين أهميته وأسراره، ومكانه في البيان العربي.

وسنرى دراسات «المبرد» المتأنية للتشبيه، وجهوده في هذا اللون البلاغي، وما كان له من آثار هامة عند من بعده من العلماء.

-٢-

والتشبيه في كتاب «الكامل» بحر لا ساحل له؛ فقد كان لإمام البصريين - على تقدم زمنه- أثر بالغ في التقدم العلمي بمسيرة التشبيه؛ فهو أول من عقد له في «الكامل» باباً مستقلاً أورد فيه ما يربو على المائة مثال، هذا إلى أمثلة كثيرة وردت مبثوثة فى كتابه، وهي تتردد في اختيارات «المبرد» الأدبية، أو التي أوردها على سبيل الاستطراد لشرح معنى لغوى، أو توضيح لمعنى بيانى...، وقد أولى «المبرد» أكثرها من جهده بالتحليل الكاشف عن مدلولاتها البيانية، وضم الإلف منها إلى إلفه، والنظير إلى نظيره، وكذا نقده لبعض التشبيهات بأسلوب علمي تحليلي، لا غموض فيه ولا التواء.

والمبرد يصدُر في هذا عن علم بلغة العرب وأدبها، كما أنه يرجع كثيراً إلى أهل العلم، وإلى منهج العرب في كلامهم، وكان لحسّه البلاغي النقدي أثر كبير في هذا المبحث.

ودراسة المبرد للتشبيه ثروة بلاغية نقدية، أفاد منها كثير ممن جاء بعده من علماء البيان والتفسير وغيرهم، وإن أمثلته للتشبيه قد دار منها قدر كبير في كتب

التراث وأدت تلك الأمثلة بالتالي دورها في إمداد البلاغة بشواهد كان لها أثر بالغ في الخيال والتصوير، وتتضح معالم منهج المبرد في التشبيه في العناصر الآتية:

١- ورود الأمثلة:

ترد أمثلة التشبيه في اختيارات «المبرد»، فهو عندما يتبعها بالشرح والتحليل فإنه يبين ما فيها من أساليب التشبيه ويدرسها، وكثيراً ما يرى أن بعض معانيها اللغوية في حاجة إلي بيان؛ فيورد على سبيل الاستطراد مثالاً أو أكثر من التشبيه، ويشرح منها ما يراه.

أما في «باب التشبيه» فإن «المبرد» يورد أمثلته على سبيل الأصالة، ويتبع أكثرها بالتحليل اللغوي والبياني، وكثيراً ما يستطرد بإيراد أمثلة، أخرى ثم يشرحها.

وهو في كلا الحالين كثيراً ما يبين أركان التشبيه، أو بعضها، أو يشير إلى الغرض والمناسبة، أو يبين منزلة بعض التشبيهات من حيث التصوير البياني.

٢- الاستطراد:

ذكرت في «منهج المبرد» معنى الاستطراد، والغرض منه، وعرضت له هنا لوجود أمثلة تتعلق به، في التشبيه، وأقول:

عرض المبرد لأنواع الرياح، وأسمائها، واستشهد بقول الفرزدق:

مُستقبلين شَمال الشَّام تَضربُنا ... بحاصب كنَديفِ القُطْن منثورُ

ثم استطرد بذكر جماعات عن إجابة أهل السَّفه تُبلاء، وعياً، وعجزا، وأورد في هذا كثيرا من أخبار أهل الحلم، ثم أتبع هذا بقوله: «ثم نرجع إلى التشبيه المصيب»[1].

ويورد أبو العباس تشبيهًا للإفراط في السرعة، ثم يستطرد بذكر أمثلة أخرى

(١) الكامل: ٣/ ٥٧ - ٨٩.

للإفراط في غير التشبيه»[1]. وموضع هذه الأمثلة «المبالغة» من «علم البديع».

وأورد في موضع آخر تشبيها لكُثَيِّر، ثم استطرد؛ بذكر بعض النباتات وصفاتها، وكذا استعمال «ذِي»، و «ذِهْ» عند النحويين، وأتبع هذا بقوله «عاد القول إلى التشبيه»، وقال بعد: «ثم نعود إلى التشبيه»[2].

من هذا أيضا قوله: «قال أبو العباس: والشيء بالشيء يذكر وإن كان دونه...» وإيراده شعرا في الوعظ، وحديثا لرسول الله ﷺ، ثم يتبع هذا بقوله: «ثم نرجع إلى التشبيه»[3].

٣- الخلط بين بعض المسائل البلاغية:

(أ) جرى المبرد على نهج أبي عبيدة، فلم يفرق بين التشبيه والتمثيل، ولذا عدَّ قول امرئ القيس:

كأنَّ عيُونَ الوحْشِ حوْلَ خبائِنا   وأرْحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يثقَّبِ

من التمثيل العجيب[4]. والتشبيه فى البيت لا يخرج عن تشبيه مفرد مقيد بآخر مقيد، وتقييد طرفي التشبيه أو أحدهما لا يجعله من التمثيل.

وقد بين الإمام عبد القاهر أن مدار التركيب على اجتماع شيئين أو أكثر في اعتبار المتكلم حتى تتكون هيئة، وأن انتزاع وجه التشبيه من بعضها يخل بالتشبيه[5]، ولا تركيب في قول امرئ القيس هذا، كما بين عبد القاهر الفرق بين التشبيه والتمثيل بقوله: «أعلم أن التشبيه عام، والتمثيل أخص منه؛ فكل تمثيل

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٠٧، ١٠٨.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١١٥، ١٢٠، ٢٢٩.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٢٧، ١٢٨.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٣.

(٥) أسرار البلاغة: ١/ ٢١٠ وما بعده.

تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا»[1].

فصنيع «المبرد» هذا لا يخرج عن المعنى اللغوي، للتشبيه: واللغة تساعده؛ يقول ابن منظور (ت٧١١هـ): «... ومَثَّل الشيءَ بالشيء: سوَّاه وشبَّهَهُ، وجعله مِثلَهُ، وعلى مثاله»[2].

(ب) وأورد أبو العباس قول الشاعر:

«إنَّ الدِّيْنَ يَسوُغُ في أحلاقِهِمْ»

وأتبعه بقوله: «وإنما كان ينبغي أن يكون في أَحلُقِهِمْ، كقولك، فَلْس، وأفلُس، وما أشبهه ولكنه شبه باب «فَعْل» بباب «فَعَل»، كما قالوا: زَنْدٌ، وأزْنادٌ، وفرْخٌ وأفْراخٌ.... ففعلوا هذا تشبيها بباب «فَعلَ»، كما شبهُّوا فعَلاً بفعل في الجمع»[3].

فالمراد: تشبيه بعض صيغ المفردات عند الجمع بصيغ أخرى في الوزن. وقد استعمل التشبيه هنا في عقد الصلات بين صيغ المفردات، فكلامه يميل أكثر إلى القواعد الصرفية لا البلاغية.

(جـ) وقرن المبرد المشاكلة بالمشابهة في قوله: «ويتصل بهذا الباب ذكر من رغب عن إرث رجل لا يشاكله وولاية رجل لا يشابهه...»[4] فالمراد بالمشاكلة هنا: المعنى اللغوى لا البلاغي.

(د) وأورد أبو العباس للتشبيه المفرط[5] قول عمران بن حِطَّان:

فهناك مِجْزاةُ بنُ ثَوْ ... رِ كان أشْجَعَ من أُسَامَةْ

ثم ذكر قول أبي الطَّمحان القيْني:

(١) المرجع السابق: ١/ ١٩٨

(٢) لسان العرب: (مثل).

(٣) الكامل: ١/ ٦٠، وانظر منه: ٣١٨

(٤) الكامل: ٣/ ٨٢

(٥) المرجع السابق: ٣/ ١٢٩

أضاءتْ لَهم أحسابُهُم ووُجوهُهم دُجَى الليل حتَّى نظَّم الجزْعَ ثاقِبهْ

وقول رجل يختال في مشيته: «... أمشي الخَيْزلَي، ويُدفِئُني حسَبي».

ومعلوم أنّ إضاءة الأحساب وإدفاءها من المجاز على سبيل الإستعارة التصريحية التبيعة، أو المكنية، لا التشبيه.

هذا تصور لمنهج المبرد في التشبيه، وهي لاتقلل من جهوده الكثيرة وبما أسداه من خدمات جليلة إلى البيان العربي.

* * *

المبحث الأول

مسائل وقضايا في التشبيه

في دراسات المبرد للتشبيه قضايا ومسائل هامة، وأكثرها بعيد عن دراستنا المنهجية فى البلاغة. لهذا رأيت أن أعطيها قدرا من الدراسة المتأنية في هذا الفصل، وهذه المسائل والقضايا هى:

أولاً: حد التشبيه:

الحدُّ: قول دال على ماهية الشئ[1]. وهو التعريف الذي يحدِّد ماهية المفاهيم، أو المصطلحات العلمية.

وحد التشبيه: هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بأداة[2]. والمراد بالأمر الأول: المشبه، وبالثاني: المشبه به، وبالمعنى: وجه الشبه، وبالأداة: أداة التشبيه مثل: الكاف في نحو: محمد كالبدر، هذا ما رآه علماء البلاغة.

ولكن محمد بن يزيد عنى بحد التشبيه: ما عُرف بعدُ عند علماء البلاغة بـ «وجه الشبه». فهو يقول: «واعلم أن للتشبيه حداً، فالأشياء تشابه من وجوه، وتباين من وجوه، فإنما يُنظر إلى التشبيه من أين وقع، فإذا شبه بالشمس فإنما يراد: الضياء والرونق، ولا يراد: العظم والإحراق، قال الله ﷻ: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[3] والعرب تشبه النساء ببيض النعام، تريد: نقاءه، ورقة لونه».

ويورد أبو العباس هنا أمثلة كثيرة ويختمها بقوله: «والعرب تشبه المرأة بالشمس، والقد، والغُصن، والكثيب، والغزال، والبقرة الوحشية، والسحابة

---

(١) التعريفات، للسيد الشريف الجرجاني: ٧٣

(٢) الإيضاح: ٣/٦، والمطول: ٣١٠

(٣) سورة الصافات: ٤٩

البيضاء، والدُّرَّة. وإنما نقصد من كل شيء إلى شيء»[1]. فقوله: «وإنما نقصد من كل شيء إلى شيء» هو ما عناه العلماء بعد بوجه الشبه؛ إذ لو كان التشابه بين الطرفين من كل وجه لكانا شيئا واحداً؛ يقول أبو هلال (ت ٣٩٥ هـ): «ولو أشبه الشيءُ الشيءَ من جميع جوانبه لكان هو هو. وهذا لا يصح من أجل هذه الغيرية»[2].

ويقول البطليوسي[3]: «إن المشبه بالشيء إنما يشبه به في بعض معانيه» فالمبرد عُني بحد التشبيه ما عرف بعدُ، بوجه الشبه. ولكن كان لأمثلته الكثيرة أثر واضح في بلاغة التشبيه.

ثانيا: منهج العرب في التشبيه:

كثرت أساليب التشبيه في كلام العرب، وفاض بها أدبهم؛ فقد ردَّدُوا النظر في الطبيعة المحيطة بهم واستوحوا معانيها، فاتخذوا منها مادة خصبة وأصولا يجب أن تراعي عند التشبيه. فالطبيعة شاخصة أمامهم، حيَّة في وجدانهم بكل ما تحوي من سهول وجبال، وأشجار ونبات، وطير وحيوان، وكذا ما يعتورها من تتابع الفصول، واختلاف مهب الرياح وما ينشأ عن ذلك من تجدد مظاهرها، وتغير أصولها... ومن ثم غدا التشبيه بهذه الأشياء سُنناً جارية على ألسنتهم.

يقول ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ): «واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدرك عيانها، ومرت به

---

(١) الكامل: ٣ / ٥٢ – ٥٤.

(٢) الصناعتين: ٢٤٥.

(٣) هو أبو عبد الله بن محمد بن السِّيد، ولد في «بطليوسَ» سنة ٤٤٤هـ وإليها نُسب، و«بطليوسى» مدينة كبيرة تقع غربي الأندلس. ومن مصنفاته: الانتصار ممن عدل عن الاستبصار، وشرح الموطأ، والمسائل والأجوبة، والاقتضاب وغير ذلك كثير. توفي (ت ٥٢١هـ).

تجاربها وهم أهل وبر. صحونهم البوادي، وسقوفهم السماء؛ فليس تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها. وفى كل واحد منها فى فصول الزمان على اختلاف، من شتاء، وربيع، وصيف، وخريف، من ماء وهواء، ونار وجبل ونبات... فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسُّها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها فى رخائها وشدتها، ورضاها وغضبها... فشبَّهت الشئ بمثله تشبيها صادقا على ما ذهبت إليه من معانيها التي أرادتها»(١).

فهذه الصور استقرت فى مخيلة العرب، فحاكوها فى أشعارهم. وهكذا بدت مهارة العرب فى التصوير والقياس؛ فغدت الكلمات وكأنها صورا تُرى وتتحرك، وإن كان لم يسلم بعضها من النقد.

– ويقول المبرد: «والعرب تشبه النساء ببيض النعام: تريد نقاءه ونعمة لونه. قال الراعي:

كأنَّ بيْض نَعامٍ فى ملاَحِفِها ... إذاَ اجْتلاَهُنَّ قيظٌ ليلةٌ ومِدُ

وقال جرير:

ما استَوصفَ الناسُ من شيءٍ يروقُهُمُ ... إلا رأوْا أمَّ نوحٍ فوْق ما وَصَفُوا

كـأنها مُـزنةٌ غـراءُ رائحـةٌ ... أودُرَّةٌ ما يُـواري لونهـا الـصَّدفُ

المزنة: السحابة البيضاء، وجمعها: مُزْن. قال الله جل وعز: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾(٢). فالمرأة تشبه بالسحابة؛ لتهاديها وسهولة

(١) عيار الشعر: ١٠، ١١.

(٢) قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾. الواقعة ٦٨، ٦٩.

مرّها...»[1]. وقال: والمرأة تُشبَّه ببيضة النعامة، كما تشبه بالدُّرة. قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[2][3].

– وقال في موضع آخر: «وقد وقع على ألسنة الناس من التشبيه المستحسن عندهم، وعن أصل أخذوه: أن شبهوا عين المرأة، والرجل بعين الظبي، أو البقرة الوحشية، والأنف بحدّ السيف، والفم بالخاتم، والشّعر بالعناقيد، والعنق بإبريق فضة... فهذا كلام جاري على الألسُن». ويقول: «وعين الإنسان مشبهة بعين الظبي والبقرة في كلامهم المنثور وشعرهم المنظوم من جاري ما تكلمت به العرب، وكثر في أشعارها. قال الشاعر:

فعَيْناكِ عيناها وجِيدُك جيدها ... ولكنَّ عَظْمَ السّاق منكِ دَقيقُ

... ويقال للخطيب: كأنَّ لسانَه مبرد. فهذا الجاري في الكلام كما يقال للطويل: «كأنه رمح»، ويقال للمهتز للكرم: «كأنه غُصنٌ تحت بارحٍ»[4]. وقد أورد «المبرد» في هذا المقام الكثير من الأمثلة:

– ومن منهج العرب: الإيماء إلى التشبيه. بمعنى إيراده مختصراً وعلى غير الصور المعهودة، ومن ثمَّ فإنه يحتاج إلى فكر، وفضل تأمل. يقول المبرد: «والعرب تختصر التشبيه، وربما أومأت إليه إيماء. قال أحد الرُّجّاز:

بِتْنا بحسّان ومعْزاهُ تئِطّ ... ما زلْتُ أسْعَى بينهم وألْتَبِطْ

حتى إذا جنّ الظّلامُ واختلطْ ... جاءُوا بمذْقٍ هل رأيتَ الذّئبَ قَطْ

يقول: في لون الذئب. واللبن إذا جُهد وخُلط بالماء ضرب إلى الغُبرة. وأنشد الأصمعي:

---

(١) الكامل: ٣ / ٥٢، ٥٣.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٤٨، ٤٩).

(٣) الكامل: ٣ / ١٣٣.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٣٢، ١٣٤.

وتشربه محضاً وتُسقي عيالها　　　سَجَاجاً كأقراب الثعالبِ أوْرَقَا

السجاج: الرقيق المذوق. والقُربان: الجنبان، والواحد: قُرب» والجمع: أقراب[1]. فالمراد: تشبيه اللبن المختلط بالماء في الغبرة والكدورة بلون الذئب.

قال ابن رشيق: «إنما أشار إلى تشبيه لونه؛ لأن الماء غلب عليه؛ فصار كلون الذهب»[2].

---

(١) الكامل: ٣/ ١٤٩. ويستشهد النحويون بقوله «جاءُوا بمذقٍ هَلْ رأيتَ الذِّئبَ قطْ» على أن جملة الاستفهام الواقعة بعد «مذق» إنشائية، ولكنها مؤولةٌ بالخبرية؛ إذ التقدير: مقول فيه: هل رأيت الذئب قط. وهذا على الحكاية، ومن ثم صلُحت أن تكون نعتا لـ «مذق» وهو نكرة متوغلة في الإبهام. شرح المفصل٣/ ٥٣، بتصرف، وحاشية الصبان على الأشموني: ٣/ ٦٤.

(٢) العمدة: ١/ ٣٠٣. وأقول: إذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقول المبرد كثيرا. فإن هذا الرجز قد سئل به قري اللبن، بيد أن السائل تعالم، فأخفق من حيث رأى أنه أحسن؛ إذ لم يراع القاعدةَ النحوية. وذلك أنه أجاز هذا الرجز بشعر... ثم بُين له خطؤه، وقد جري هذا على النحو التالي:

ففي بلاد «شنقيط» – موريتانيا – حاليا، وهي موطن الشيخ الإمام محمد الأمين المختار بن عبدالقادر الشنقيطى المولود سنة ١٣٢٥هـ وهو مؤلف «أضواء البيان في تفسير القرآن الكريم». ففى هذه البلاد – آنذاك – كانت توجد نهضة علمية فى مجتمعاتها القبلية وكانت مجالس العلم فيها جامعات بدوية متنقلة فى ربوع الصحراء حيث يرحل إليها طلباً للغيث والكلأ، وكان شعارها: «لا دين لمن لا علم له» وكان تعليم الأطفال يبدأ بحفظ القرآن الكريم، وتجويده، ثم بعلوم الدين.

وأما مجالس العلم فتسمي: «محاضر»، وشيخ المحضرة: رجلٌ وهب نفسه ووقته وراحته للعلم وطلابه وهذا شبيه بما عرف فى الأزهر قديما بلقب «مجاور». وهذه المحاضر كانت تستقبل كل من يَرد إليها من جميع المستويات، دون نظر إلى سنّ، أو ثقافة، أو طبقة اجتماعية؛ فأبوابها مفتوحة للجميع، دون استثناء، وأما الدراسة فقد كان يحدث أحياناً خلالها مناقشات، أو مناظرات، وأحيانا طرائف وألغاز علمية، أو مساجلات ونقائض أدبية.

ومن ذلك أنه قدم أحد الشعراء على محضرة الشيخ: « يحظية بن عبد الودود»، وقال رجزاً ضمَّنه طلب قِري «اللّبن». فقال:

هل تعرِبُوا لي يا تلاميذَ الْخُلطْ　　　حتّي إذا جَنّ الظلاَم واختلطْ =

ثالثا: كثرة التشبيه فى كلام العرب:

يذكر أبو العباس هذه الكثرة فى غير موضع من كتابه فيقول: «والتشبيه جار كثيرا فى كلام العرب حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد»[1]. ويقول: «والشبيه – كما ذكرنا – من أكثر كلام الناس»[2].

ويقول: «والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا آخر له، وإنما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شئ من المعاني»[3].

وكأني بأبي العباس – فى هذه العبارة – يعتذر عن إيراد تشبيهات أكثر مما

= جاءُوا بمذْق هَل رأيتَ الذّئب قَطْ

فقام أحد الحاضرين على الفوْر، وحلب ناقة، وقدّم له لبنها، وهو يقول:

يـامـنْ نأي مَزَارُ داره وشَـط   أَبْشِرْ إذا جَنَّ الظّلام واختلطْ

بنزْل ليـس بـراءة مـن قَـرَطْ   فإنـنا لِرحْـل طـارقٍ محــــط

وحذْفُها للجزم والنصب فقط

فنبهه إلى أن حذف النون من « تعربوا » خطأ؛ لأن الأفعال الخمسة تنصب وتجزم بحذفها وما في زجره ذلك. يقول ابن مالك فى الخلاصة:

وحذفها للجزم والنصب سِمة   كلمْ تكونِي لتَرُومي مظلمة

فغضب الضيف وقال: أَألحَنُ وأنا، وأنا... ثم أنشد:

قريضى لآلٍ فى نُحورِ الأوانسِ   فكيف يُري أضحُوكةً فى المجالسِ

زمامُ المعاني في يـــدي أقودُهـاً   واصْطادُها بالفكْرِ بيْن الحنادِسِ

فرد عليه الطالب بقوله:

ولم أكُ مُرتاعاً لشعرٍ تقولُهُ   لأني فيه فارسٌ وابنُ فـارسِ

ودارتْ المساجلات بينهما وقتاً طويلاً. وفيما ذكرناه كفاية. «عقود الجمان من أضواء البيان» إعداد وتجميع: عبد الله بن محمد بن بابا الشنقيطي». ص (هـ – ك) باختصار وتصرف، ط. الرياض.

(١) الكامل: ٣/ ١٣٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٥٢.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٥٢.

ذكره فى «باب التشبيه» مع أنه أطال وأجاد؛ فأمثلته تتوالي وتتتابع مع جودة فى الاختيار، وتناسق فى النظم، ومهارة فى البيان. هذا، إلى الأمثلة الأخرى المتناثرة فى الكتاب وما صحبها من تحليل وبيان.

رابعا: نقد بعض التشبيهات:

للمبرد ذوق بلاغي، وحس مرهف، وخبرة واسعة بلغة العرب وأدبها، وبمنهجهم فى التشبيه... ولذا حكي عن العلماء نقدا لبعض الأمثلة، كما نقد بعضاً آخر. كما سنبينه.

(أ) يقول المبرد: وأنشد بشّار قول كُثيرّ:

ألاَ إنما ليْلي عصاً خيزُرانةٍ   إذاَ غَمزُوها بالأكفّ تلينْ

قال: فقال: لله أبو صخر! جعلها عصاً، ثم يعتذر لها. والله لو جعلها عصا من مخّ، أو زبد لكان قد هجنها بالعصا. ألا قال كما قلت:

وبيـضاءُ المحـاجر مـنْ معَـدٍّ   كأنَّ حديثَها قِطَـعُ الجِنَـان[1]

إذا قامـتْ لـسُبْحتهاَ تثنـت   كـأنَّ عِظامَهـا مـن خيـزُران

والخيزرانة: «كل غصن ليّن يتثنى»[2]. ووجه النقد أن تشبيه ليلي بالعصا غير لائق فى هذا المقام[3] ولذا فضل عليه قول بشار السابق:

(ب) ويقول المبرد: « وقد عاب الناس قول كثيِّر:

فما روضةٌ بالحزْن طيبةُ الثرَي   يمجُّ النَّـدى جثجاثُهَا وعَـرارُهـا

بمُنخرقٍ من بطـنِ وادٍ كأنما   تلاقَتْ بـه عطَّـارةٌ وتـجارهـا

بأطيب من أرْدان عزة مـوْهنًا   وقد أوْقدَتْ بالمنزل الرَّطبِ نارَهَا

(١) رواية ديوانه: ٤/ ٢٢٠.

(٢) الكامل ٣ / ١١٤.

(٣) انظر: الخصائص: ٣/ ٢٨١، والموشح: ٢٠٥

وحكي الزبيريوُن أن امرأة [1] مدينية عرضت لكُثيِّر فقالت:

أأنت القائل هذين البيتين؟ قال: نعم. قالت: فضّ الله فاك! أرأيت لو أن زنجية بخرت أردانها بمندَلٍ أما كانت تطيب! ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس[2].

ألم ترياني كلما جئتُ طارقًا وجدتُ بها طيباً وإنْ لم تطَيب

قوله: «جثجاثها وعرارها» الجثجاث: رَيحانة طيبة الريح بَرية من أحرار البقل... والمندل: العود»[3].

ووجه المفاضلة: أن الحسُن فى قول كثيِّر عرضي، يزول بزوال سببه من إحراق العود الرطب ونحوه. أما فى قول امرئ القيس فإنه ذاتي، لا يتغير، حصل الطِّيب أم لا؛ ولذا فضل على قول «كُثيِّر».

(ج) ومن الأمثلة ما أنشد أبو النجم العِجلى مخاطبًا «هشام بن عبد الملك» يصف مغيب الشمس، فهو يشبهها بعين الأحول، ولم يترو الزاجر، فغاب عنه ما فى عين الخليفة من الحَوَل؛ فعيب عليه مع ما فى التشبيه من دقة الوصف. وذلك أنه لا يخاطب بهذا القول الملوك...؛ ولذا كان جزاؤه الطرد. يقول المبرد:

وحدِّثت فى إسناد متصل أن أبا النجم العجلي أنشد هشاماً:

«والشّمسُ قد صارتْ كعَيْنِ الأحْول»

لما ذهب به الرَّوي عن الفكر فى «عين هشام»، فأغضبه؛ فأمر بطرده، فطرد. شبهت الشمس عند ميلها للغروب بعين الأحول فى هذه الحال.

(١) هذه القصة فى الشعر والشعراء: ٥٠٨، والمحاسن والأضداد: ١٣٩، والمرأة هي: قطام الخارجية صاحبة عبد الرحمن بن مُلجم – لعنه الله– والقاتل للإمام «علىّ» كرم الله وجهه.

(٢) ديوانه: ٤١. أى هى طيبة النشر «الأفواه» (همش).

(٣) الكامل: ٣/ ١١٥ – ١١٧.

-٢-

- ونقد المبرد الملاحدة الذين اعترضوا على التشبيه في قوله تعالي: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾(١) حيث وصفهم بالجهل في التأويل(٢).

ثم بين المراد بقوله: «وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية؛ فقال: إنما يمثل الغائب بالحاضر، و «رءوس الشياطين» لم نرها؛ فكيف يقع التمثيل بها؟ وهؤلاء في هذا القول كما قال الله - جل وعز-: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾(٣).

وهذه الآية قد جاء تفسيرها على ضربين: أحدهما: أن شجرا يُقال له: الأسْتَن، منكر الصُّور. يقال لثمره: رءوس الشياطين، وهو الذي ذكره النابغة في قوله:

---

(١) قال الله تعالي في الحديث عن شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾. (الصافات ٦٤ - ٦٦).

(٢) التأويل: صرف معني الآية بوجه تحتمله، ويكون موافقا لما قبله، ملائما لما بعده، واشتقاقه من الأول، وهو الرجوع. فيكون التأويل: بيان الشيء الذي يرجع إليه معني الآية، ومقصودها...

والفرق بين التفسير، والتأويل: أن التفسير هو البحث عن سبب نزول الآية والخوض في بيان موضع الكلمة من حيث اللغة: والتأويل: هو التفحُّص عن أسرار الآيات، والكلمات وتعيين أحد احتمالات الآية، وهذا إنما يكون في الآيات المحتملة لوجوه مختلفة نحو ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠). بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١ / ٧٨ باختصار.

(٣) سورة يونس: ٣٩

«تحيدُ من أسْتنٍ سُودٍ أسافِلهُ»[1]

وزعم الأصمعي أن هذا الشجر يُسمى: الصَّوم[2].

والقول الآخر وهو الذي يسبق إلى القلب: أن الله – جل وعز ذكره – شنَّع صورة الشياطين في قلوب العباد و كان ذلك أبلغ من المعاينة. ثم مثَّل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس»[3]. فالمراد – والله أعلم – تشبيه ثمرة شجرة الزقوم برؤوس الشياطين في البشاعة، وقبح المنظر تنفيرًا من الشرك، وبيانًا لعاقبة أهله.

ووجه الاعتراض: أن المعهود في كلام العرب أن المشبه به يكون أعرف وأشهر بوجه الشبه من المشبه، وطرفا التشبيه غير معهودين في الآية الكريمة!.

والمبرد حكي هنا تفسيرين:

الأول: أن المشبه به: حسِّي موجود، فقد فسر الطلع بثمر شجرة الإسْتن، واستشهد عليه بقول النابغة السابق.

---

(١) صدر بيت للنابغة بديوانه: ٦٥ قال:

فانشقَّ عنها عمودُ الصبح جافلةً ... عَدْوَ النَّحُوص تخافُ القانِصَ اللَّحِماَ

تحيدُ عن أسْتنٍ سُودٍ أسافِلُه ... مشْيَ الإماءِ الغَــوادي تَحمِلُ الحُزَمَا

الحديث عن ناقته والمراد: انكشف عمود الصبح عنها، وهي مسرعة. النحوص: الأتان التي لا لبن لها، ولا حمل بها. شبه ناقته بها في قوتها وسرعتها، وشدة سيرها. القانص: الصائد ومعنى «تحيد عن أستن»: أي تعدل الناقة أو النَّحوص عن شجر الأستن، وهو شجر أسودُ واحدتها: أستنة. وقيل: ثمرة يقال لها: رءوس الشياطين. شبه الأستن في سود أسافله، وطوله بإماء سود يحملن الحُزما. وخص الإماء بهذا الوصف لأنهن إذا كان عليهن الحزم مددن أيديهن؛ فكان أطولَ لهن. (هامش) الصفحة باختصار.

(٢) قال أبوحيان: «وقيل: هو شجرة يقال لها الصَّوم. البحر المحيط، المجلد السابع: ٣٦٣، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز: ٤/ ٤٧٥.، وقال ابن كثير في تفسيره. المجلد السابع: ١٧، وقيل: جنس من النبات طَلْعُهُ في غاية الفحاشة» وانظر: العمدة: ١/ ٢٨٨.

(٣) الكامل: ٣/ ٣٩.

والثاني: أنه تخييلي لا وجود له، ورجحه المبرد بأنه الذي يسبق إلى القلب؛ إذ هو المعروف من التشبيه بالشياطين.

وأقول: إن المسلمين ابتلوا في كل زمان ومكان بالمشككين، والمضللين. وهم إما جهلة مغرورون، أو أدعياء علم مكابرون، أو أعداء حاقدون. وأغلب هؤلاء ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾[1] أو ممن ينطبق عليه قوله تعالي: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ ﴾[2]. وقد ردَّ الجاحظ على هؤلاء وشدد النكير عليهم في غير موضع من كتاب «الحيوان» ومما قاله:

«وليس أن الناس رأوا شيطانًا قط على صورة، ولكن لما كان الله – تعالي– قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، واستسماجه، وكراهيته، وأجري على ألسنة جميعهم ضرب المثل والتقريع بالإضافة إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن «رءوس الشياطين» نبات ينبت باليمن»[3].

ويفاد من تأويل العلماء في هذا المعني الأوجه التالية:

الأول: المشبه به إما تخييلي[4]، أو وهمي[5] لا وجود لهما في الواقع، والمراد رسم صورة منكرة منفرة للمشبه؛ ليتحقق الغرض وهو الوعيد. وهذا مألوف في كلام العرب.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨.

(٢) سورة فصلت الآية: ٥.

(٣) الحيوان: ٤ / ٣٩، وانظر منه: ٦/ ٢١٢.

(٤) التشبيه التخييلي: هو المعدوم الذي فرض مجتمعًا من أمور كل واحد منها مما يدرك بالحس، دون الصورة المركبة، إذ لا وجود لها. وهو نوع من الحسي انظر، المطول: ٣١٢.

(٥) والوهمي: ما لا يدرك بشيء من الحواس مع أنه لو أدرك لم يدرك إلاَّ بها، وهو نوع من التشبيه العقلي كما في هذه الآية الكريمة. وهذا ما آل إليه الدرس البلاغي. الإيضاح ٣/ ١٦، والمطول: ٣١٢. والمبرد جعل التشبيه الوهمي فرعًا من التخييلي.

الثاني: المشبه به حسيّ له وجود، وهو: شجر الأستن المسمي ثمره: «رءوس الشياطين»، أو هو: جبال قبيحة المنظر، أو حيات لها رءوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات وأخبثها، أو ما ادعاه بعض العرب من رؤيتهم الشياطين والغيلان... إلخ.

ورجح العلماء القول الأول لما يفيده من المبالغة في التخويف والتنفير من الشرك، ولأنه جار على نهج كلام العرب في هذا المقام.

وأورد هنا بعض تأويلات العلماء:

أولاً: ذكر الفراء (ت ٢٠٧هـ) أن في العربية ثلاثة أوجه: أحدها: أن تشبيه «طلعها» في قبحه برءوس الشياطين؛ لأنها موصوفة بالقبح، وإن كانت لا ترى... والآخر: أن العرب تسمي بعض الحيات شيطانا، وهو حية ذو عرف... ويقال: إنه نبت قبيح يسمي برءوس الشياطين. والأوجه الثلاثة تذهب إلى معنى واحد في القبح[1].

ثانياً: يقول الزمخشري: «شبه – الطلع – برءوس الشياطين دلالة على تناهيه كأنه وجه شيطان... وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدروا هوله، وهذا تشبيه تخييلي وقيل: رأس الشيطان حيّة عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جداً وقيل: إن شجراً يقال له: الأستن خشناً، منتنًا، مرًّا، منكر الصورة يسمى ثمره رءوس الشياطين»[2].

ثالثاً: يقول ابن ناقيا البغدادي[3]: قال ابن عباس: كان لأهل مكة جبال

(١) معاني القرآن: ٢ / ٣٨٧.

(٢) الكشاف: ٣/ ٣٤٢.

(٣) هو أبو القاسم عبد الله أو عبد الباقي بن مهران بن الحسين بن داود بن ناقيا (ت ٤١٠ – ٤٨٥هـ) «ولد ببلدة تطل على نهر دجلة ببغداد وكان له إلمام بالفارسية، وغيرها. وشرح الفصيح» الأعلام: ٣/ ١٤٧.

قبيحة المنظر[1]، وكانوا يسمونها: رءوس الشياطين؛ لقبحها إذا نظروا إليها؛ فشبه لهم ثمر الزقوم فى المنظر بتلك الجبال، ويجوز حمل ذلك على مذهب العرب فى تسميتهم كل ما يستعظمونه شيطاناً، وتسميتهم بالشياطين على سبيل التهويل، وهذا وجه حسن مأثور[2].

رابعاً: وقال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): «وقيل: شبه بما اشتهر فى النفوس من كراهة رءوس الشياطين وقبحها وإن كانت غير مرئية، ولذلك يصورون الشيطان فى أقبح الصور، وإذا رأوا أشعث منتفش العشر قالوا: كأنه وجه شيطان، وكأن رأسه رأس شيطان... وكما شبه امرؤ القيس، المسنونة الزرق بأنياب الغول... في قوله[3]:

«ومسنونةٌ زرْق كأنياب أغوال»

وإن كان لم يشاهد تلك الأنياب، وهذا كله تشبيه تخييلى[4].

خامساً: وذكر ابن كثير ثلاثة أقوال بدأها بقوله:

«وإنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، ثم رجح هذا بقوله: «والأول أقوى وأولى، والله أعلم»[5].

---

(١) لعل عوامل التعرية، ومرور الزمن، واختلاف درجة الصلابة، فى أجزاء الجبل سبب تلك الرؤس. وقد رأيت أمام «ميناء مدينة ضباء» بالسعودية على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر جبلاً ذا رءوس طويلة، مختلفة الارتفاع، مدببة الشكل كأنها أسنة الرماح، ولعل هذا الجبل يوضح صورة تلك الجبال.

(٢) الجمان فى تشبيهات القرآن: ٢٣٨.

(٣) صدره: «أيقتلُنِى والمشرفى مُضاجِعِى» وهو بديوانه: ٣٣.

(٤) البحر المحيط: المجلد السابع: ٣٦٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، المجلد السابع: ١٧.

وبعد، فحمل التشبيه فى الآية على أنه تخييلى، أو وهمى أولى من الحسى، ولذا وصفه المبرد بأنه «الذى يسبق إلى القلب» ورجحه ابن رشيق بقوله: «والأجود الأعرف أنه شبه الطلع بما لا يشك أنه منكر قبيح... »[1].

ووصفه الزمخشرى بقوله: «وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يُقدِّرُوا هوله».

ولكن هذا لا يمنع من التشبيه الحسى؛ فهو «وجه مأثور» كما قال ابن ناقيا غير أنه رأى مرجوح.

وشاهده ما رواه المبرد من قول أبى النَّجم فى ابنته «ظلامة» أمام «هشام بن عبد الملك».

كأن ظلاّمة أخت بنى شيْبان ... يتيمــــةٌ ووالــــداهـــا حـــيَّان

العنقُ منهــا عُطـل والأذنـان ... ولــيس فـــى الــرِّج إلا خيطـــان

وقصّةٌ قــد شيَّطتها النّيــران ... فهى التى يــذعــر منهـا الـشيطـان

... أفلا تراه قال: «فهى التى يذعر منها الشيطان»

وإن لم يره؛ لما قُرر فى القلوب من نكارة الشيطان وشناعته[2].

وشاهد آخر هو قوله: «وزعم أهل اللغة أن كل متمرد من جنٍّ أوإنس أو سبع، أو حية يُقال له: شيطان. وأن قولهم: تشيطن إنما معناه: تخبّث وتنكرّ. وقد قال الله – عز وجل –: ﴿ شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾[3]»[4].

---

(١) العمدة: ١/ ٢٤٦.

(٢) الكامل: ٣/ ٩٥، والشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٧. معنى عطل: ليس عليها حَلىٌ.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١١٢.

(٤) الكامل: ٣/ ٩٦.

وأقول: هذا ليس بزعم فقد جاء في لسان العرب[1]: «والشيطان: حيَّة له عرف، والشاطن: الخبيث... والشيطان معروفٌ، وكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدَّواب شيطان. قال جرير:

أيام يعدونني الشيطان من غزلٍ وهُنَّ يَهْوينني إذ كنتُ شيطانًا

ومما يتصل بالتشبيه في هذه الآية الكريمة: إلحاق «المبرِّد» الصور المتوهمة بالمحسوسات، والمراد بها: «تلك الصور التي تنطبع في النفس عن طرق التوهم، وليس لها تشكل، ولا ظهور في عالم المحسوسات مادامت صورتها في الوهم قد استقرت، وأصبح المتوهم لها يراها بخياله مجسدة، ذات أشكال، وألوان، وأصوات، وحركات تماماً كما يرى الرائي الأشياء مجسدة في عالم الحس بأشكالها، وألوانها، وأصواتها، وحركاتها[2].

فالمبرد يرجح التأويل بالتخييل في الآية الكريمة، ويرى أنه أبلغ في التنفير من التمثيل بما يرى ويُشاهد.

والمتأخرون من علماء البلاغة ألحقوا الصور الوهمية بالتشبيه العقلي؛ لأنها تدرك بالوجدان. يقول التفتازاني (ت ٧٩٢هـ): والمراد بالعقلي: ما لا يكون هو ولا مادته مدركاً بإحدى الحواس الخمس الظاهرة؛ «فدخل فيه الوهمي» الذي لا يكون للحس مدخل فيه؛ لكونه غير منتزع عنه. بخلاف الخيالي؛ فإنه منتزع عنه[3].

ونقد المبرد مقطوعة للحسن بن هانئ في صفة الخمر أولها قوله:

فإذا ما لمستها فَهَباءٌ تمنعُ اللمسَ ما يبيحُ العيُونا

---

(١) مادة: (شطن).

(٢) المبرد واضع النواة الأولى لمباحث التشبيه: ٢٣٩. بحث بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض لأستاذنا الدكتور: أحمد محمد الحجار؛ والمقال عن «باب التشبيه» فقط.

(٣) المطول: ٣١٣.

ثم أتبعها بقوله: «فهذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين»[1].

وأورد مثالين[2] فى تشبيه الضلوع، وهيئة انحنائها، ولكنه فضل أحدهما على الأخر، فقد أورد أولاً قول الشماخ:

فقربتُ مُبْرَاة تخالُ ضُلُوعَها　　　من الماسخيّاتِ القِسيّ الموتّرا

ثم فضل عليه قول الرّاعى النميرى؛ فقال: وأحسن ما قيل فى صفة الضلوع، واشتباكها قول الراعى:

وكأنما انْتُطحتْ على أثباجِهَا　　　فُدُرٌ بِشَابَةَ قد يَمَمْنَ وُعُولا

غير أن أبا العباس لم يعلّل سبب هذا التفضيل، فكان حكمه تابعاً من الذوق، وبعيداً عن الدراسة الجادة التى يصدر عنها الرأى الذى يؤيده الدليل.

خامساً: ذوق المبرد البلاغى:

وللذوق أثره فى الاهتداء إلى الأسرار البلاغية، والقيم الجمالية فى تقويم النص والحكم عليه. وعماد الذوق الموهبة وكثرة الدُّربة والمدارسة. والمعتبر ذوق العالم المتخصص الذى يُدرك ما فى النص من مزايا وخصوصيات، أو يلحظ ما فيه من مثالب وهنات.

يقول الجاحظ: «إن الكتب لا تحيى الموتى، ولا تحوّل الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف»[3].

---

(١) الكامل: ٣/ ٤٧.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤١.

(٣) الحيوان: ١/ ٣٠.

ويقول ابن خلدون[1]: «اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان. ومعناها: حصول ملكة البلاغة للسان... وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرره على السمع، أو التفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل معرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان؛ فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها».

وكان لذوق محمد بن يزيد أثر واضح في اختياراته الأدبية، ثم في دراسة ما حوته من أساليب التشبيه، وكذلك ما أورده من أمثلته على سبيل الاستطراد، كما يتبين من الأمثلة الآتية:

يذكر المبرد أول «باب التشبيه»[2] «أن أحسن ما جاء فيه بإجماع الرواه قول امرئ القيس:

كأن قلُوبَ الطَّير رطبًا ويابسًا　　　لدَى وكْرِها العُنابُ والحشفُ البالِي

وذلك لما حوى من فضيلة الإيجاز. حيث شبَّه الشاعر شيئاً في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين.

ويعلق على بيت امرئ القيس:

إذا ما الثُّريَّا فى السَّماء تعرَّضَتْ　　　تعرُّضَ أثناءِ الوِشَاح المفَصَّلِ

بقوله: «وقد أكثروا في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ»[3].

وجودة الشعر عند المبرد غاية، ولذا فإنه يستشهد[4] بشعر شاعر لجودة شعره، لا للاحتجاج به.

---

(١) مقدمته: ٥٢٨، ط الشعب.

(٢) الكامل: ٣/ ٣٢.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢٢.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٩.

وهو يستحسن قول بنت ذى الإصبع العدوانى فى الضأن: «وصمٌ لا يسمحْن»، ويعلق عليه بأنه «طريف من كلام العرب»[١]. أى أنه جار على نهج كلامهم فى الحذف، وللإيجاز منزلته فى البيان العربى.

وحاسة المبرد البيانية تجعله يدرك الخصوصيات التى بها تتفاوت درجات التشبيه، ومن ذلك قوله[٢]: ومن التشبيه القاصد الصحيح، وقوله: «ومن التشبيه الحسن الذى نستطرفه»، وقوله: «فهذا مقارب جداً».

ويورد أبو العباس فى موضع واحد تشبيهات[٣] متتالية لبعض أصوات الحيوان والطير والجماد لتبين جهات الاتفاق والاختلاف بينها وذلك من خلال دراسته التحليلية التطبيقية المقارنة فى «باب التشبيه».

وهو يعيب النظم الردئ ويستشهد بقول الشاعر[٤]:

وشِعرٍ كبعر الكبْشِن فرّق بينَهُ لِسَانٌ دعِيٌّ فى القرِيضِ دَخيلُ

والمعنى على تشبيه هذا النظم ببعر الكبش فى التفرق وعدم التلاؤم وهو تشبيه مستوحى من البيئة، وتتجلى فيه إصابة التشبيه، والأمثلة فى هذا المقام كثيرة».

فدراسة أبى العباس لأساليب التشبيه تدل على ذكاءٍ وفطنةٍ لمواقع الحسن والإصابة، وكذا لمواضع العيب والنقد، وهو فى هذا يتوخى منهج العرب؛ فهو «يصف التشبيه بالحسن فلا تجد فى نفسك – إذا أنصفت – ميلاً إلى مخالفته، ويصفه بالغرابة فلا تلبث أن تدرك موضع الغرابة فيه... »[٥] وهكذا. غير أنى

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٤٩.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٣٠، ١٤٢، ١٥٣.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١١٩.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ١٦١.

(٥) المبرد واضع النواة الأولى لمباحث التشبيه: ٢٤٠.

سأورد بعض الملحوظات الخاصة بمبحث التشبيه، ولكنها لا تقلل شيئاً من جهود عالمنا الكبير.

سادساً: مآخذ على المبرد:

دراسات المبرد للتشبيه فى «الكامل» هى محاولات جادة لخدمة البيان العربى. وقد كان لهذه الدراسات أثرها البعيد فى كتب التراث. وثمة بعض المآخذ وكلها جدُّ قليلة إذا قُورنت بهذا العمل البيانى الكبير:

أولاً: يبين المبرد معنى «تخدَّد» وأن أصله: التشقق[1]، ويراد به: التحول فى الجسم. ثم يؤيد ذلك بقول الشاعر:

يـا مـنْ لـشيخ قـــد تخـدَّد لحمـهُ ... أفنـى ثــلاثَ عمــائم ألوانـا

سـوداءَ حا لكـة وســحْق مُفَـوَّفٍ ... وأجـدَّ لونـاً بعـد ذاك هجانـا

ثم يقول: قوله: «أفنى ثلاثَ عمائم ألواناً»

يعنى أن شعره كان أسود، ثم حدث فيه شيب مع السواد؛ فذلك قوله: «مفوف»، والتفويف: التنقيش، وإنما أُخذ من الفُوف، وهى النكتة البيضاء التى تحدث فى أظفار الأحداث. وسميت بذلك لشبهـها بشجرة يقال لها: الفُوفة. وجمعها: فُوف.

قال المرصفى[2]: قوله: «لشبهها بشجرة»: هذا شئ غريب. كيف تشبه النكتة

---

(١) وذلك فى قول الشاعر:

لـو أنَّ سلمى أبصرت تخدُّدى ... ودقَّةً فى عظم سـاقى ويَـدى

وبعْـدَ أهلى وجفـاء عُـودى ... عَضّتْ من الوجْد بأطراف اليد

قوله: «أبصرت تخدُّدى» يريد: ما حدث فى جسمه من النحول، وأصل الخدّ: ما شققته فى الأرض» الكامل: ١/ ٢٠٣.

(٢) هو الشيخ سيد بن على المرصفي. من كبار العلماء بالأزهر، وتولى تدريس اللغة العربية فيه إلى أن نالت منه الشيخوخة، فاعتكف فى منزلـه، وأقبل عليه الطلاب؛ فكان يعقد لهم حلقات=

البيضاء بشجرة! على أن أهل اللغة لم تعرف شجرة اسمها: الفُوفة، وليته قال: لشبهها بالفوفة من النواة. وقد فسرها الجوهرى قال: هى الحبة البيضاء فى باطن النواة التى تنبت منها النخلة»[1].

وإذا رجعنا إلى لسان العرب ألفيناه يردد معنى «فوف» بين البياض الذى يكون فى أظفار الأحداث كما قال المبرد. وكذا ما نقله المرصفى عن الجوهرى من أنها: الحبة البيضاء فى باطن النواة التى تنبت منها النخلة، أو القشرة الرقيقة تكون على النواة، وهى القطمير، أو ضرب من برود اليمن، أو الزهر. شبه بالفوف من الثياب تنسجُهُ الدَّبُوْر إذا مرَّتْ به»[2]. فما قاله المرصفى صحيح؛ إذ لم يرد من معانى الفُوفة: الشجرة. فالمبرد شبه بما لا وجود له. فالتشبيه مردود.

ثانياً: ومما استحسنه من أشعار المولَّدين مقطوعة[3] لإسحاق بن خلف البهرانى يخاطب بها «على بن عيسى» المعروف بالقِمِّى، ومنها قوله:

وقَد كشَّرتْ عنْ شبا نابها عرُوسُ المنيَّةِ بين الشُّعَلْ
وجَاءت تهَادَى وأبنَاؤها كـأنَّ عليهمْ شرُوق الطَّفل

وقال فى الشرح: قوله: «كأنَّ عليهم شرُوقُ الطَّفل»

يريد: تألق الحديد. كأنه شمس طالعة عليهم، وإن لم تكن شمس، وأحسن من هذا. قول سلامة بن جندل[4]:

= التدريس إلى أن توفى (١٣٤٩هـ - ١٩٣١م) وأهم مؤلفاته: «رغبة الآمل من كتاب الكامل». الأعلام: ٣/ ١٤٧.

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل: ٢/ ١٦٤.

(٢) اللسان: (فوف)، الصحاح: (فوف).

(٣) الكامل: ٢ / ١٩ - ٢١ يقال: أتيته طفلاً. أى عسياً، وذلك بعدما تدنو الشمس للغروب، وأتيته طفلاً، وذلك بعد طلوع الشمس. اللسان: (طفل).

(٤) جاء فى الشعر والشعراء: ١/ ٢٦٣ ترجمة الأعشى: «وما سبق إليه، فأخذ منه قوله: =

كأنَّ النَّعامَ باضَ فوْق رءُوسِهمْ　　　وأعينُهم تحت الحديدِ جَوَاحمُ

فهذا التشبيه مصيب».

بيَّن المبرد المراد بقول «إسحاق بن خلف» وفضّل عليه قول «سلامة بن جندل»، ولكن لم يسلم ذلك له. فأما على بن حمزة[1] فقد اتفق مع المبرد فى وصف تشبيه «سلامة بن جندل» بالإصابة، ولكنه فضل تشبيه «إسحاق بن خلف بن على البهرانى» فهو يقول فى المبرد:

«وقد أساء فى هذا القول – يقصد المفاضلة – إنما شبه «سلامة» بيض الحديد وحده ببيض النعام؛ فأصاب التشبيه، وهذا البهرانى شبه تألق البيض والدروع ولمعان السيوف والحجف بالشمس. وهذا ما لا يقاومه بريق بيض النعام، فضلاً عن أن يُربى عليه[2]».

= كأنَّ نعام الدَّوِّ باضَ عليهمْ　　　إذا ريعَ يوماً للصريخ المتدِّدِ

وقال سلامة بن جندل وهو جاهلى:

كأنَّ نعام الدَّو باضَ عليهمْ　　　بنَهْى القِذاف أو بنَهْىِ مُخفّقِ

وقال زيد الخيل وهو جاهلى «إسلامى»:

كأنَّ نعام الدَّ وباض عليهمْ　　　وأعينُهم تحتَ الحديد خَوَازرُ

الدَّو: الفلاة الواسعة. المتدِّد: اسم مفعول. معناه: المبالغ فى النداء من التنديد، وهو رفع الصوت. خوازر: جمع خزر، وهو ضيق العين. وربما يتصنعه الناظر ليحدد النظر.

وأما رواية المبرد لبيت «سلامة» فقد وردت هكذا بملحقات ديوان الشاعر: ٧٢ وهو بيت مفرد. ومعنى جواحم: شديدة الإحمرار. وقد ورد من قصيدة بديوانه: ١٣٨، وفى الأصمعيات: ١٣٤، ونقد الشعر: ١٢٨ موافق لرواية الشعر والشعراء، والنهى: الموضع الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه، وقيل: هو الغديرفى لغة أهل نجد، القذاف، ومخفق: موضعان. الأصمعيات (هامش الصفحة).

(١) هو على بن حمزة الكسائى إمام أهل الكوفة فى النحو والقراءة، وأستاذ الفرّاء كان يحث على تعلم النحو (ت ٣٧٥هـ) معجم الشعراء: ٢٨٤.

(٢) التنبيه على أغاليط الرواة: ١٢٨.

وتعقب الأستاذ «المرصفي» المبرّد حيث علق على قوله: «وأحسن من هذا إلخ»؛ فقال: «هذا إنما يحسن لو كان الشاعران تواردا[1] على معنى واحد، وليس هنا كذلك؛ فإن إسحاق بن خلف إنما شبه – كما قال أبو العباس – تألق الحديد وهو الدروع والبيض وسائر السلاح بالشمس حين بزوغها وانتشار ضوئها.

وسلامة بن جندل إنما شبه بيض الحديد وحده ببيض النعام فى الشكل، وهيئة الاستدارة؛ فكلاهما مصيب فيما قصد من التشبيه»[2].

فالشاعران لم يتواردا على معنى واحد فيكونْ بينهما مفاضلة، ولكن سلك كل منهما طريقاً يخالف الآخر. فإسحاق شبَّه تألق الحديد بصورة الشمس وقت الشروق، وهو تشبيه صورة بصورة، و «سلامة» شبَّه بيض الحديد ببيض النعام من حيث الشكل والاستدارة، وهو تشبيه ذات بذات. فلم يتواردا على معنى، وكُل أجاد فى الغرض الذى رمى إليه، ولذا حكم «المرصفى» لهما بالإصابة.

وتتمة لهذه المسألة أورد تفضيل تشبيه «سلامة بن جندل» على تشبيه «لبيد بن ربيعة» فى قوله: «قرِدْمانيا وتُركاً كالبَصَل»

يصف كتيبة حربية.

يقول ابن السِّيد البطليوسى (ت٥٢١هـ): «اختلف فى القردمانى؛ فقيل: هى دروع... وقيل هى قِسِيٌّ كانت تعمل وترفع فى خزائن الملوك، وشعر لبيد هذا يشهد بأنها الدروع... والتُّرك: البيض. وشبهها بالبصل البّرى فى استدارتها

---

(١) المواردة هى: توارد الشاعرين المتعاصرين اللذين تجمعهما طبقة واحدة على معنى واحد إما مجرداً، أو ببعض ألفاظه أو بأكثرها أو كلها. فإن كان أحدهما أقدم، أو طبقته أرفع حكم له على صاحبه بالسبق.

وقد رأيت من يجعل اتفاق الشاعرين من طبقتين مختلفتين فى عصرين متباينين إذا تقارب ما بينهما بعض التقارب فى الأمرين، أو فى القوة والقدرة تواردا. تحرير التحبير: ٤٠٠، وانظر: العمدة: ٢/ ٢٨٩، وكفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب: ١٣٩.

(٢) رغبة الآمل: ٤/ ١٢٩.

وبياضها. وأحسن من هذا قول سلامة بن جندل[1]: «البيت» وذلك لما فى التقارب بين كل من بيض الحديد، وبيض النعام من حيث الشكل والاستدارة».

ثالثاً: كان الأولى بالمبرد أن يجمع فى «باب التشبيه» التشبيهات التى تتفق فى صفة ما، أوفى ضرب من أضربه فى موضع واحد، ولكننا نجد التشبيهات فى هذا الباب متناثرة يداخل بعضها بعضا بصرف النظر عن اتفاقها فى ذلك.

وأورد مثالاً لهذا بالتشبيه العجيب، فهو يرد فى مواضع[2] كثيرة من هذا الباب؛ ولذا فإن دراسة مسألة ما، أو صورة من صور التشبيه لا يُنال إلا بعد جهد ومشقة.

رابعاً: أورد أبو العباس قول أبى العتاهية يمدح الرشيد[3]:

تُساس من السماء بكل فضل ... وأنتَ به تسُوس كما تُساسُ

كأن الخلق رُكِبَ فيــه رُوحٌ ... له جَسدٌ وأنت عليـــه راسُ

ووصفه بالحسن. ولكن نقده الدكتور أحمد الحجار بقوله: «ما وجدنا فى النفس طواعية لمشاركة أبى العباس فى حسن هذا التشبيه».

وليس كلامنا فى صواب المعنى، وإصابة القصد. فالمعنى صحيح، متداول بين العامة والخاصة، ولكن فى الصورة التى أبرز فيها أبو العتاهية الرشيد، فقد أوقفنا منه ومن رعيته أمام هيكل عظمى فى متحف صحّى يركب ويحل، وينصب الجسد بلا رأس، ثم توضع فوقه الرأس لإكمال صورة الهيكل. وهذه الصورة فى رأينا الخاص يمكن أن تروق السامع فى مجالس القص والوعظ.

---

(١) الاقتضاب: ٣/ ٣١٢.

(٢) انظر: الكامل: ٣/ ٣٣، ٣٤، ٤١، ١٣٤.

(٣) الكامل: ٣/ ١٤٩. والبيتان بديوان أبى العتاهية: ٢٣٣. وجاء فيه: حبس الرشيدُ أبا العتاهية لتزهده وانقطاعه عن مجالسه، وتركه المنادمة؛ فكتب أبو العتاهية شعراً يسترضيه؛ فلما قرأه الرشيد قال: قولوا له: لا بأس عليك، فكتب إليه أبو العتاهية خمسة أبيات منها هذان البيتان.

ولكنها فى مجال الشعر، وجودة الفن، وجمال التشبيه لا تروق»[1].

فالمآخذ قليلة، وهى إذا قورنت بهذا العمل البيانى الكبير الذى أسداه إلى العربية إمام النحاة فى عصره عرف فضل الرجل، وجهوده المثمرة فى البيان العربى.

* * *

(١) المبرد واضع النواة الأولى لمباحث التشبيه: ٢٤١.

المبحث الثاني

تشبيهات لم توضع تحت وصفٍ أو ضربٍ من أضرُب التشبيه

مدخل:

كان محمد بن يزيد المبرد تجاه أمثلة التشبيه موقفان:

الأول: تشبيهات لم يضعها تحت وصف من الأوصاف التي رددها في كتابه مثل: التشبيه الحسن، والجيد، والمحمود، أو تحت ضرب مما سماه «أضرب التشبيه» مثل: «التشبيه المعيب» و «التشبيه المقارب». ولعل المبرد ترك أمثلة هذا النوع ليُعمل القارئ فيها فكره فيهتدي إلى ما تضمنته من تصوير وبيان للمعنى وقد تداولت كتب النقد والبلاغة الكثير من أمثلة هذا النوع ولاسيما تشبيهات القرآن الكريم.

الثاني: تشبيهات وضعها المبرد تحت وصف أو ضرب من «أضرب التشبيه».

وتتردد أمثلة هذين النوعين في كلام المبرد على غير نظام وترتيب. وهذا عدا أمثلة «أضرب التشبيه» فإنها ترد في «بابه» مشفوعةً بالتحليل والبيان.

وسأبين في هذا الفصل تشبيهات النوع الأول:

يقول المبرد: «إذا شبه الوجه بالشمس والقمر فإنما يراد به الضياء والرونق، ولا يراد به العظم والإحراق. قال الله- جل وعز-: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[1].

والعرب تشبه النساء ببيض النعام. تريد: رونقه. ورقة لونه. قال الراعي[2]:

---

(١) سورة الصافات: الآية: ٤٩.

(٢) ديوانه: ٥٥، وهو من قصيدة يمدح فيها عبد الملك، ويشكو السُّعاة. والبيت الذي قبله: =

كأنَّ بِيْضَ نعام في ملاحِفِها   إذا اجتلاهُنَّ قيظٌ ليلُهُ وَمِدُ

وقيل للأوسية – وهي امرأة حكيمة في العرب – بحضرة عمر بن الخطاب – رحمه الله-: أي منظر أحسن؟ فقالت[1]: قصورٌ بيضٌ في حدائق خُضرٍ؛ فأنشد عمر بن الخطاب لعديِّ بن زيد[2]:

كدُمى العاجِ في المحاريبِ أو كالـ   بيْض في الرَّوْضِ زهرةُ مستنيرُ

وقال آخر:

كـالبِيْضِ في الأداحـيِّ   فالحُـسْنُ حُسْنٌ والنَّعيمُ نَعِيمُ

وقال جرير[3]:

ما استوصف النَّاسُ من شيءٍ يَـروقُهُمُ   إلا رأوا أمَّ نُوحٍ فـوق مـا وصـفُوا

كـــأنها مُزْنـــةٌ غَـــــرَّاء رائحـــةٌ   أو دُرَّةٌ مايُواري ضـوءَها الـصَّدَفُ

المزنة: السحابة البيضاء خاصة، وجمعها: مُزْن قال الله – جل وعز-: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾[4] فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها، وسهولة مرِّها. قال الأعشى[5]:

= وفي الخِيام إذا ألقتْ مراسيها   حورُ العينِ لإخوانِ الصِّبى صيدُ

(١) هذه الرواية في البيان والتبيين: ١ /٤٥، وهو في كتاب: الجمان في تشبيهات القرآن: ٢٣٤ «وكذلك قالت الأوسية:

أحسنُ الأشياء في القصُور الـ   بيض في الحدائق الخُضْر

(٢) هو عدي بن زيد بن حماد بن أيوب العبادي. والعلماء لا يرون شعره حجة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٢٥. والبيت للشاعر في عيون الأخبار: ١/ ٣٠٦، والجمان: ٢٣٤.

(٣) ديوانه: ٣٨٦ وفيه: «أم عمرو» بدل: «أم نوح» و «واضحة» بدل: «رائحة»، والبيتان من قصيدة في مدح الملك، وهجاء آل المهلب، وانظر: غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: ١٩.

(٤) سورة الواقعة: ٦٩.

(٥) ديوانه: ١٠٥.

كأنَّ مِشيتَها من بَيْتِ جارَتِها   مَرُّ السَّحابةِ لا رَيثٌ ولا عَجِلُ

الريث: الإبطاء فهذا ما تلحق العين منها. فأما الخفة فهى كأسرع مارّ. وإن خفى ذلك على البصر. قال الله – جل وعز –: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(1) وقال الله – جل وعز –: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾(2) وقال – تبارك وتعالى –: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾(3) والمكنون: المصون. يُقال كننت الشيء إذا صُنته، وأكننته: إذا أخفيته فهذا المعروف... »(4).

وقال المبرد فى موضع آخر وأنشد ابن عائشة لبعض القرشيين:

وقفوا ثلاثَ بمِنًى بمنزل غِبْطة   وهُم عَلى غَرضٍ هُنالك ما هُمُ

متجاورين بغير دارِ إقامةٍ   لو قد أجدَّ تفرُّقٌ لم يندمُوا(5)

ولهن بالبيتِ العَتيقِ لُبانةٌ   والركن يعرفُهُنَّ لو يتكلَّمُ

لو كان حَيًّا قبلهُنَّ ظعائنا   حيَّا الحطيمُ وُجوهَهن وزمزمُ

وكأنهن وقد صدرْنَ لواغباً   بيْضٌ بأفنية المقامِ مُرَكَّمُ

---

(1) سورة النمل: الآية: ٨٨.

(2) سورة الرحمن: الآية: ٥٨.

(3) قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾. الواقعة: ٢٢، ٢٣.

(4) الكامل: ٣/ ٥٢ – ٥٥.

(5) هذا البيت من الوصف المتناقض. يقول أبو هلال: «قال: لبثوا فى دار غبطة، ثم قال: «لو رحلوا لم يندموا» الصناعتين: ١١٨. فالصحيح أنهم يندمون عند الرحيل مادامت دار غبطة. ويقول الدكتور أحمد بدوى: «بمنزل غبطة: يعنى: طواف الوداع وهو آخر أركان الحج، وبعده يجد الحجيج فى التفرق، والعودة إلى بلادهم. وهذا معنى «لو أجدّ تفرق: بإسناد الفعل «أجد» إلى «تفرق» والمراد: أهله على المجاز العقلى. وهو يعنى: أيام التشريق الثلاثة» فاليوم الأول منه يوم القر؛ لأن الحجاج يقرون فيه بمنى. ثم يكون النفْر فى اليومين التاليين. وحذف التاء من «ثلاث» لأنه أراد: الليالى. أسس النقد الأدبى عند العرب: ٢٤٢.

اللاغب: المعْيي. قال الله -عز وجل-: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[1]. والمركم: الذي بعضه على بعض[2]. والمرأة تشبه ببيض النعامة، كما تشبه بالدرة قال الله -عز وجل-: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[3]. والمكنون: المصون. والمُكن: المستو يقال: أكننتُ السر. قال الله -عز وجل-: ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[4]... وقال أبو دهبل[5]، وأكثر الناس يرويه لعبد الرحمن بن حسان:

وهي زهراءُ مثل لؤلؤة الغـ ـواصِ ميزتْ من جوهرٍ مكنونِ

وقال ابن الرقيات:

واضحٌ لونُها كبيضةِ أدحيٍّ ولها في النساء خلْقٌ عميم[6]

العميم: التام. والأدحى: موضع بيض النعامة خاصة[7].

أورد أبو العباس في هذين الموضعين فيضا من الأمثلة، وهي على تنوعها يؤيد بعضها بعضا في المعنى. وقد يظن القارئ الكريم أنني أطلت في النقل، ولكن لما كان الغرض: الكشف عن بلاغة التشبيه في الكامل؛ فقد رأيت للأمانة العلمية أن أنقل هذا من الموضعين؛ لأنهما حافلان بالأمثلة مع الشرح اللغوي والبياني، وكذا لأضم من الأمثلة النظير من التشبيه إلى نظيره فيتضح المعنى، ويتبين منهج العرب في هذا المقام.

---

(١) سورة ق: آية: ٣٨.

(٢) المركم: جمعك شيئا فوق شيء حتى تجعله ركاما مركوما كركام الرمل. اللسان (ركم).

(٣) سورة الصافات. الآية: ٤٩.

(٤) سورة البقرة: الآية: ٢٣٥.

(٥) روى البيت للشاعر في تفسير القرآن العظيم. المجلد السابع: ١٧. ولعبد الرحمن بن حسان في الشعر والشعراء: ١/ ٤٨٤.

(٦) هو بيت مفرد. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ١٩٣.

(٧) الكامل: ١/ ٢٩٥.

وسأبين هذه الأمثلة بادئا بآيات القرن الكريم؛ لأن معظمها يدور حول معنى واحد من حيث التشبيه وسره الجمالي.

١ - قال الله تعالى في الحديث عن نعيم الجنة: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾. فمن صفات الحور العين: أنهن قاصرات الطرف على أزواجهن، واسعات الأعين، مستترات عن الناس، وعمّا يقلل من جمالهن.

وذكر أبو العباس[1] أن منهج العرب تشبيه النساء ببيض النعام، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: «تريد رونقه، ورقة لونه» واستشهد عليه من كلام العرب. وفسر «عين» بقوله: «إنما هو جمع عيْناء، وهي الواسعة العين»[2]. وقال في موضع آخر: «والعين: جمع عيناء. يعني: البقرة الوحشية، وبها شبهت المرأة؛ فقيل: «حور عين»[3].

يقول الزمخشري: «شبههن ببيض النعام المكنون في الأداحي، وبها تشبه العرب النساء، وتسميهن: بيضات الخدور»[4].

١ - قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ شبه الحور العين باللؤلؤ بقيد كونه مكنوناً، فلهذا القيد دخل فى تحقيق الشبه من التلألؤ والصفاء والحسن. يقول ابن ناقيا (ت ٤٨٥هـ): «كأمثال الدُّرّ يخرج من صدفه وكنّه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال، وإنما عنى بقوله: ﴿ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أى: أن صفاءهن، وتلألؤهن كصفاء الدر، وتلألئه؛ فاللؤلؤ فيه

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٨٣.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٩٨، وانظر: مجاز القرآن ٢/ ١٧٠.

(٣) الكشاف: ٣/ ٣٤٠.

(٤) ج٤ ص٢٢٩، وانظر: الصناعتين: ٢٥٢، والطراز: ١/ ٢٦٧، والجمان: ٣٣٤.

الصفاء والهدوء والنقاء، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان ويحرص عليها.

٢- وقال تعالي: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ المراد[١] تشبيه الحور العين بالياقوت في إملاسه، وشفوفه، وبالمرجان في إملاسه، وجمال منظره. قال ابن ناقيا: أي هن في صفاء الياقوت وحسنه.

وقال قوم: إن المرجان: صغار اللؤلؤ. ولا يصح ما قالوا؛ لأن المرجان جنس آخر، وهو أحمر اللون، ينشأ في قرار البحر، متشجِّرًا. ويخرج بالكلاليب قال الله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[٢] ولو كان كما ذكروا لم يكن في هذا التكرير فائدة»[٣] وهو رأي له وجاهته وفائدته؛ فالواو تفيد المغايرة والاتصاف بكل منهما، ولكل رأي فائدةٌ غير الأخرى.

فهذه الآيات الكريمة تبين بعض صفات الحور العين، وهي صفات فائقة في الحسن والجمال، ولكل تشبيه أثره في توضيح تلك الصورة البيانية؛ « فليس في الياقوت والمرجان، واللؤلؤ المكنون لونٌ فحسب، وإنما هو لونٌ صافٍ حيّ، فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار تُصان ويُحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص. وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة، واشتد الارتباط. أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون – فضلاً عن نقاء اللون – فهي الرونق، والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما»[٤].

وأعود إلى الأبيات التي وردت في هذا المقام. فالراعي يقول:

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٣٤، والبحر المحيط. المجلد الثامن: ١٩٨.

(٢) الجمان: ٢٩٣، ٢٩٤.

(٣) من بلاغة القرآن: ١٩٣ وانظر. البيان في ضوء أساليب القرآن: ٤٠.

(٤) اللحاف، والمِلْحفُ والملحفةُ: اللباس الذى فوق سائر اللباس من دثار البرد. اللسان: (لحف). ومدٌ: شديد الحر. والبيت في نقد النثر: ٥٨.

كأنَّ بَيْضَ نَعَامٍ فى مَلاَحفِها إذا اجتَلاهُنَّ قَيْظٌ ليلُه وَمِدُ[1]

فهو يشبه النساء إذا برزن من خدورهن فى الملاحف فى الليل الشديد الحر ببيض النعام فى الرونق والبهاء.

وأما عديٌّ بن زيد فإنه يشبههن بما علق فى مخيلته كثيرًا فى بيئة «الحيرة» من رؤية الدُّمى فى البِيَع والأديرة، فهذه الدمى يبالغ فى صنعها وتحسينها؛ ولذا قال: «كدُمَى العاج فى المحاريب». وفى البيت تشبيه آخر يرد بعد قليل.

ويرينا ابن ناقيا البغدادي فضل تشبيهات القرآن على غيرها عند دراسته لآيتي الصافات (٤٨، ٤٩) فيقول: «وجاء فى التفسير أنه – تعالى – وصفهن بقصور الطرف على أزواجهن، وشبههن بالبيض لحسنه فى صفائه ورونقه. وقد تناقل الشعراء هذا التشبيه؛ فقال العبادي:

كدُمى العاجِ فى المحاريب أو كالـ بَيْضِ فى الروض زهرُهُ مُستنير

وقد استحسن هذا البيت جماعة من أصحاب المعاني، وذكروا فيه أنه شبه ألوان الثياب التي عليهن بألوان نوْر الرياض وزهره، وحُمرته، وصُفرته. وجعل البيض فى الروض ليكون أحسن له. وكذلك قالت الأوسية:

أحسنُ الأشياءِ القُصُـورُ الـ ـبيضُ فى الحدائِقِ الخُضْر

إلا أنه لم يوصف البيض فى هذا الباب بأحسن، ولا أجمع لمعاني الوصف مما نطق به التنزيل؛ فإن لفظه: «مكنون» متضمنة معنى السلامة والخلوص من جميع العوارض التى تنقص وتشين بياضه، وتكشف بهاءه... وهذه الجملة زيادة على ما ذكره الشاعر؛ لأن نساء الجنة يستغنين عن الوصف الذي أشار بالتشبيه؛ إذا كانت الجنة أنضر من الروض حسنًا، وأبهى منظرا.

وعلى إكثار الشعراء من تشبيه النساء بالبيض ووصفه بما يدل على حال المشبه به فما أتوا ببلاغة تشبيه القرآن، ولا قدروا على نقل لفظه من هذا المكان،

---

(١) انظر: غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات: مقدمة التحقيق: ٢٠.

وقد أطالوا وأقصروا وأصدروا... »[١].

وأما جرير فقد بالغ فى وصف زوجته؛ فهى عنده فوق الوصف. حيث شبهها بالسحابة البيضاء، وبالدرَّة المتلألئة التي لا يوارى ضوءَها الصدفُ.

والأعشى يشبه «مِشية هريرة» بمرِّ السحابة فى السهولة واللين مع السرعة فيقول:

كأنَّ مِشيتَها مِنْ بيْتِ جارَتِها مَرُّ السَّحابةِ لاريثٌ ولا عَجِلُ

ولذا علق المبرد بقوله: «فأما الخفة فهى كأسرع مار» وقال فى موضع آخر: «فالمرأة تشبه بالسحابة؛ لتهاديها، وسهولة مرِّها»[٢]. وبين التهادي بقوله: «يهدى بعضها بعضاً فى مشيتها، ومشية البقرة تستحسن»[٣].

وينقل المبرد عن بعض العلماء نقداً للأعشى فى هذا البيت حيث «جعلها خرَّاجة ولأجة» ثم يفضِّل عليه قولَ الآخر[٤]:

---

(١) الجمان فى تشبيهات القرآن: ٢٣٤.

(٢) الكامل: ٣/ ٥٣.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٣.

(٤) نسب إلى أبى قيس بن الأسلت فى عيون الأخبار: ٣/ ٢٥، وانظر نقده الموشح: ١/ ٥٥، وفى معاهد التنصيص: ٢/ ٢٧. يقول العباسي: «وعين الهيثم بن عديّ قال: «كنا جلوسًا عند صالح ابن حسَّان فقال لنا: أنشدونى بيتاً خِفراً فى امرأة خفرة؛ فقلنا: قول حاتم:

يُضيءُ بها البيتَ الظَّليلَ خصاصَهُ إذا هى يومًا حاولتْ أن تبسَّما

فقال لنا: هذه من الأصنام. أريد أحسن من هذا؛ فقلنا: قول الأعشى:

كأنَّ مشيتها من بيت جارَتها مرُّ السحابة لا ريثٌ ولا عَجِلُ

فقال: هذه خرَّاجة ولأجة، كثيرة الاختلاف، فقلنا: ما عندنا شيء، فقال: قول أبى القيس بن الأسلت:

ويُكْرِمُها جاراتُها فيزُرْنها وتعتلُّ عن إتيانهنَّ فتُعذَرُ

وليس لها أن تستهين بجارةٍ ولكنها منهن تحيا وتخفَرُ

ويكرمُها جاراتُها فَيَزُرْنها وتُعْتَلُّ عن إتيانهنَّ فَتُعْذَرُ

وأرى أن بيت الأعشى لا يفيد أكثر من وصف مشيتها فى هذه الحال، دون تعرض للمبالغة فى الخروج، ولا داعى لما حكاه العباس بأنها: «كثيرة الاختلاف».

وأما قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(١). فهو فى سياق الحديث عن أهوال يوم القيامة. والآية التي قبلها قوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾(٢).

قال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) جملة حالية، أي: تحسبها فى رأى العين ثابتة مقيمة فى أماكنها وهي سائرة. وتشبيه مرورها بمرِّ السحاب. قيل فى كونها تمرُّ مرًّا حثيثاً كما يمرُّ السَّحاب. وهكذا الأجرام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها، كما قال النابغة الجعدى فى صفة جيش:

بأرْعَنَ مثل الطَّود تحسِبُ أنَّهم وُقُوف لحاجٍ والركاب تُهمْلِجُ

وقيل: شبه مرورها بمر السحاب فى كونها تسير سيراً وسطا كما قال الأعشى: (كأن مشيتها...) البيت. وحسبان الرائي الجبال جامدة مع مرورها. قيل: لهول ذلك اليوم؛ فليس له ثبوتُ ذهنٍ فى الفكر فى ذلك اليوم حتى يتحقق كونها ليست بجامدة»(٣).

وأما بيت ابن عائشة الأخير ففيه تشبيه هؤلاء النسوة عند النَّفْر من «منى»

(١) سورة النمل: الآية: ٨٨.

(٢) سورة النمل: الآية: ٨٧.

(٣) البحر المحيط، المجلد السابع: ١٠٠، وانظر: الكشاف: ٣/ ٦٢، وحاشية الشهاب: ٧/ ٦٠.

وهن متعبات بالبيض المتراكم بعضه إلى بعض.

وعجيبٌ أمر هذا الشاعر؛ فقد بلغ من غوايته أن يتتبع هؤلاء النساء فى المناسك وفى أيام التشريق المباركة التي ينسى فيها المرء نفسه وأهله ووطنه؛ فهو جادٌّ فى العبادة والدعاء، يرجو عفو رب غفور، ويؤمل رضاه ورحمته. ألم يكن لهذا الشاعر وأمثاله فى ضيوف الرحمن عظة، ودعوة إلى الله تجعله يتوب، وإلى حضرة المولى يثوب؟!.

أقول: وما أمر «عمر بن أبى ربيعة» عن صاحبه هذا ببعيد. فمن التشبيهات التي أوردها له المبرد(١) قوله:

أبصـرتُهـا ليلـــةً ونسوتُهـا   يمشين بين المقام والحِجْـــر
يرفُلن فى الربط والمُرُوط كما   تمشي سـواكِـنُ البـقـــر

فلم يراع حرمة الأماكن المقدسة، وقد استشهد المبرد بهذين البيتين عندما أورد قول ابن أبى ربيعة:

أبرزُوها مِثْل المهـــاةِ تَهـادَى   بين خَمْسٍ كواعـبٍ أتْـرابِ
دُميةٌ عند راهـبٍ ذي اجتهادٍ   صَوَّرُوها فى جانِبِ المحرابِ

فقد شبهها أولاً بالمهاة، ولطالما فُتن العرب بجمال عين المهاة أولاً، وبنصاعة لونها ثانيا. ثم شبهها بدُمية الراهب. وكأنه يعني تمثال العذراء الذى يقيمه النصارى على جنبات المذبح، وهو المقصود بكلمة المحراب(٢).

والتشبيه الثاني من التشبيه المؤكد. أى: هي دمية. وهو فى المعنى كقول «عدي بن زيد» السابق.

ويورد أبو العباس قول عمر بن أبى ربيعة(٣):

---

(١) الكامل: ٢/ ٥٦، والبيتان بديوانه: ١٦٨.

(٢) البلاغة فى ثوبها الجديد. علم المعانى: ١٦.

(٣) الكامل: ١/ ٣٢٢، والبيت بديوان الشاعر: ٣٠، وانظر: رغبة الأمل: ٣/ ١٦٢.

قُلتْ إذ أقبلتْ وزُهرٌ تهادى كنعاجِ المَلا تَعسَّفْنَ رملا

شبه هؤلاء النسوة ببقر الوحوش. يتركن الجَلَد من الأرض، ويمشين فى الرمال؛ فتغرز قوائمهن؛ فلا يقدرن على الإسراع[1].

ويورد[2] مقطوعة لقيس بن معاذ، ومنها قوله:

فأصبحتُ من لَيْلى الغَدَاةَ كناظرٍ معَ الصبُحِ فى أعقابِ نجمٍ مُغرِّبِ

يقول المرصفى[3]: «شبه حاله مع ليلى وهي نازحة بحال الناظر إلى ذلك النجم البعيد المنال» فوجه الشبه: اليأس وبعد المنال، والتشبيه مصيب لتطابق الوصف فى الحالتين.

ويورد قول الراجز:

يا حبَّذا القمْرَاءُ واللَّيل السَّاجْ وطُرقٌ مثلُ مُلاءِ النَّسَّاج [4]

شبه خيوط الطرق وقد سطع نور القمر عليها بخيوط ملاءة بيضاء قد نسجت[5]. ووجه الشبه: اجتماع خطوط مستطيلة لامعة على سطح شئ آخر.

وفى بيان معنى « فهق » يقول أبو العباس: «فَهِق» الغَدير إذا امتلأ فلم يكن فيه موضع مزيد. قال الأعشى:

نَفَى الذَّمَّ عن آل المُحلِّقِ جَفْنَةٌ كجابيةِ الشيْخِ العِراقيِّ تَفْهَقُ

كذا ينشده أهل البصرة، وتأويله عندهم: أن العراقي إذا تمكن من الماء ملأ جابيته؛ لأنه حضرى، فلا يعرف مواقع الماء ولا محالة. قال أبو العباس:

---

(١) رغبة الآمل: ٣/ ١٦٢.

(٢) الكامل: ١/ ٢٩٣ والبيت بديوان الشاعر: ٧٩.

(٣) رغبة الآمل: ٣ / ١٦٢.

(٤) الكامل: ١/ ٢٨٣.

(٥) رغبة الآمل: ٣/ ٢٠٣.

وسمعت أعربية تنشد: «كجابية الشيح»[1] تريد: النهر الذي يجرى على جابيته؛ فماؤها لا ينقطع؛ لأن النهر يمده»[2]

فالمراد: تشبيه الجفنة التي يقدم فيها الطعام فى السعة والامتلاء بالحوض الذي يملأ بالماء للإبل، أو تشبيهها فى الامتلاء والتواصل بجابية النهر الذي لا ينقطع مدده. وهو من التشبيهات الحسية.

ومنها ما أورده المبرد من قول طرفه يصف ناقته:

كقنطرة الرُّوميِّ أقسم ربُّها لَتكتَنفًا حتى تُشَادَ بقَرمَدِ

يقول: «قوله: حتى تشاد: يقول: تطلى، وكل شئ طَلَيْت به البناء من جصّ أو جيّار فهو المشيَّد. والقرمد: المطلىُّ أيضا»[3]. تشبيه الناقة: بقنطرة الرومي فى الضخامة والصلابة. وشبيه بهذا البيت قول الأعشى يصف ناقته:

مَرِحتْ حُرّةٌ كقنطرة الرُّو مى تفرى الهَجيرَ بالإرقـالِ

قال شارح ديوانه[4]: «مرحت: نشطت. قنطرة الروميّ: برج من بناء الروم. يشبه ناقته به فى الضخامة. الإرقال: ضرب من العدْو.

ومن صفة هذه الناقة ما أورده المبرد[5] من قصيدة الأعشى:

عنتريس تعدو إذا حرّك السَّوْ ط كعـدْوِ المُصَلْصِلِ الجوَّال

شبه عدو ناقته بعدو الحمار الوحشي، شديد الصوت كثير الجولان.

وحاسة المبرد البلاغية، وإدراكه لما تشترك فيه بعض التشبيهات من صفات يكون لها دخل فى وجه الشبه تجعل المبرد يورد هذه التشبيهات متعاقبة، يوازر

---

(١) وهي رواية ديوانه: ٢٧٥، واللسان: (فهق).

(٢) الكامل: ١/ ٥، ٣/ ٨٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٩٨، وانظر: رغبة الأمل: ٣٢٩.

(٤) ص: ٥٧ (هامش).

(٥) الكامل: ٣/ ١٠٠.

بعضها بعضا، وهو بذلك يرينا منهج العرب فى رسم صور مجتمعة لنماذج مختلفة مما حفل به أدبنا العربى من روائع التشبيهات الحسية ومن وحى الطبيعة العربية. فالمبرد يقول: «عاد القول إلى التشبيه» أنشدتني أم الهيثم فى صفة جمل:

كأنَّ صـوْتَ نابـهِ بنابـه   صَرِيُر خُطَّـافٍ عـلى كُلاَّبِـه

أرادت: الصريف، وهو أن يَحُكَّ أحد نابين بالآخر. وقوله:

«صريرُ خُطافٍ على كلاَّبه»

فالخطاف ما تدور عليه البكْرة. والكُلَّاب: ما وليه[1]... وقد قال النابغة[2]:

مقذوفةٌ بدخيسِ النَّحضِ بازِلُها   له صريفٌ صريفَ القعْوِ بالْمسَدِ

القعو: ما تدور عليه البكَرة إذا كان من خشب. فإن كان من حديد فهو خُطاف.. وقوله: «مقذوفة» يقول: مرمية باللحم. والدَّخيس: الذي رَكِبَ بعضهُ بعضاً. والنَّحض: اللَّحم، وبازلها: نابها، ومعني: بزَلَ وفطر واحد وهو: أن ينشق النآب. قال ذو الرمَّة[3]:

كـــأنَّ على أنيابها كُلَّ سُدفةٍ   صياحَ الْبوازِى مِنْ صريفِ اللَّوائِكِ

يقول: مما تلُوكه»[4]

---

(١) الكلاب: كل ما أوثق به شئ لأنه يعقله كما يعقل الكلب من عقله. اللسان (كلب).

(٢) ديوانه: ١٦ وهو من قصيدة مطلعها:

يادار ميَّة بالعلياء فالسَّند   أقْوتْ وطال عليْها سالِفُ الأمدِ

وبيت الشاهد له تعلق بما قبله وهو:

فَعدِّ عما ترى إذ لا ارْتجاع لهُ   وَانْمِ القتود على عَيْرانه أُجُد

القتُود: عيدان الرحل، والعيْرانة: ناقة تشبه العير فى القوة والنشاط.الأُجُد: الموثقة الخَلْق. النحض: اللحم المكتنز. المسد: الحبْل. وقيل: القعو: البكرة بعينها.

(٣) ديوانه ٣/ ١٧١٩، والضمير فى «أنيابها» يعود على قوله: خُوصا فى البيت الذي قبله وهو:

الحناُ بها خُوصاً يَرى النَّصُّ بُدنها   وألصق منها باقيات العرائك

(٤) الكامل: ٣/ ١١٩.

١- شبه الشاعر الأول صوت احتكاك أحد نابي البعير بالآخر بصوت احتكاك البكرة فى الخطّاف فى حدّة الصوت وتتابعه.

٢- وشبه النابغة[١] صوت أنياب الناقة بصوت احتكاك البكرة بالحبل. وذلك أن «صريف القعو» منصوب على تقدير المصدر كأنه قال: بازلُها يصرَف صريفاً مثل صريف الْقعْوِ. والرفع على تقدير: له صريفُ القعو». فهو من التشبيه البليغ بحذف الأداة، ووجه الشبه، للمبالغة.

وقد عيب هذا التشبيه لمخالفة ما عليه العرب في كلامها. قال المرزباني (ت٣٨٤ هـ): «... سمعت الأصمعي يقول: قرأت على أبي عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني؛ فلما بلغت قوله:

مقذوفة بدخيس النحض... البيت

قال لي: ما أضرَّ عليه في ناقته ما وصف! فقلت له: وكيف؟ قال: لأن صريف الفحول من النشاط، وصريف الإناث من العياء والضجر. كذا تكلمت العرب»[٢]. فالنابغة ذم الناقة من حيث أراد مدحها.

- وأما ذو الرُّمة فقد شبه صوت أنياب ناقته عند إعادة مضغ الطعام آخر الليل بصياح البوازي. وهو تشبيه يحتاج إلى قدر من التأمل لأن فيه نوعًا من التفصيل «وذلك أنك إذا أرهفت أذنك لسماع صوت أنياب النياق فى هدأة السَّحرَ سمعت أصواتًا ذات جرسٍ خاص، ونغمة معينة حادة صافية، متداخلة. وقد أرهف الشاعر أذنيه حين سمع ذلك منها؛ فوعاه وتمثله، فلما أراد أن يصفه وصفاً دقيقا مصيبا استمد مما أمدته به أذناه صوتًا شبيهًا تمامًا فى حدّته وصفائه وتداخله، وهو صوت البوازى حين تصيح.

وقد أبرز هذا التشبيه حاسة ذى الرُّمة فى التقاط الأصوات، والتفريق بين

---

(١) ديوانه: ١٧ (هامش).

(٢) الموشح، مآخذ العلماء على الشعراء: ١/ ٤٣، ودراسات فى نقد الأدب العربى: ١١٤.

مصادرها وأنواعها، وتقاربها أو تباعدها؛ ولذا فضل تشبيهه على تشبيه امرئ القيس فى وصف صوت الحجارة الرقيقة حين تنحيها أرجل الناقة عند السير النشيط، فقد قال:

كأنَّ صليلَ المروحين تشذُّهُ صَليل زُيوفٍ ينتقدْن بِعبقرا[1]

ومن التشبيه بالمحسوس ما جاء فى قول المبرد: وقد قال العجاج[2]:

كأنَّ فى فِيهِ إذا ما شحَجَا عُوداً دُوَيْن اللُّهوات مُولجاً

هذا يصف العير الوحش الذي قد أسنَّ. تراه لا يشتد نهيقه، وكأنه يعالجه علاجاً... فأما قول عنترة[3]:

بركتْ على ماءِ الرِّداع كأنما بركتْ على قَصبٍ أجشَّ مُهضَّمِ

فإنما شبه بالزمير. وأراد: القصب الذى يُزْمرُ به. قال الأصمعي: هَو الذي يقال له بالفارسية «ناى». قال الراعى[4]:

زَجِلُ الحِدَاءِ كأنَّ فى حيزُومه قصباً ومُقْنِعةَ الحِنين عَجــولا

المقنعَ الرافع رأسه فى هذا الموضع».

فالعجاج شبه صوت العير الوحشي كبير السن عندما يشحج، كأنه يخرج من عود وضع دون لهواته فى ضعف الصوت وتقطيعه. وأما عنترة فإنه شبَّه أنين النّاقة من تعبها بصوت المزامير. وقيل: شبه صوت تكسر الطين اليابس عند ما بركت عليه بصوت تكسُّر القصب؛ لأنه ينكسر تحتها.

---

(١) بيان التشبيه: ٣٦٣، والكامل: ٣/ ١٠٦.

(٢) ديوانه. وبعد البيت قوله: «رعى بها مرْج ربيعٍ مُمرجاً».

(٣) بيان التشبيه: ٣٦٣، وانظر: ديوان امرئ القيس: ٦٤، والكامل: ٣/ ١٠٦.

(٤) ديوانه: ٢٢١، الزَّجل اللعب، والجلبة، ورفع الصوت، وخص به التطريب. وأنشد سيبويه:

له زجلٌ كأنهُ صوتُ حادٍ إذا طلبت الوسيقةَ أو زميرُ

اللسان (زجل).

وأعاد المبرد فى موضع آخر بيت الراعي، وأتبعه بقوله: «الزَّجل: اختلاط الصوت الذي لصوته تطريب، والحيزوم: الصدر، و «قصبًا» يعني: زِمارا. شبه صوت الحادي بالمزمار، ومُقتعة: يعني: ناقة»[1].

ومن التشبيه بالطول، وعظم الجسم ما جاء فى قول المبرد: «والعرب تمدح بالطول، وتضع من القصر؛ فلا يذكره إلا مُحتج عن نفسه ولا يمدح به غيره. قال عنترة:

بَطَل كأنَّ ثيابه فى سرْحةٍ يُحذى نعال السِّبْتِ ليس بتَوْأَمِ[2]

يعني هذا البطل مستوي الخلقة، مديد القامة. كأن ثيابه ألبست شجرة عظيمة. ومن مبالغات الشاعر فى الوصف أن هذا البطل لم يولد معه توأم يزاحمه فى الرضاعة. و «فى» هنا بمعني «على» يقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «وجاز ذلك من حيث كان معلومًا أن ثيابه لا تكون فى داخل سرحة؛ لأن السرْحة لا تنشق؛ فتستودع الثياب ولا غيرها وهي بحالة سرحة»[3].

ويقول البطليوسي (ت ٥٢١هـ): «السَّرحةُ: شجر فيه طول وإشراف وأراد: أنه طويل الجسم؛ فكأن ثيابه على سرحة من طوله. وقوله: «يُحذى نعال السِّبت» يريد أنه من الملوك؛ فهو يلبس النعال السِّبتية، وهى المدبوغة، بالقرظ وهم يتمدحون بجودة النِّعال كما يتمدحون بجودة الملابس، ولذلك قال النابغة:

---

(١) الكامل: ٤/ ٥٤.

(٢) الكامل: ٤/ ٤٩، والبيت من معلقة بديوانه: ٢٧ النعال السبتية: وهى المدبوغة بالقرظ. قال أبو عبيد: وإنما ذكرت السبتية لأن أكثرهم فى الجاهلية كان يلبسها غير مسبوغة إلا أهل السَّعة منهم والشرف كانوا يشترونها من اليمن. غريب الحديث: ٤/ ٢٥٩، وانظر. شرح القصائد السبع الطوال: ٣٢٥، وشرح القصائد العشر: ٢٠٦.

(٣) الخصائص: ٢/ ٣١٢.

رِقَاقُ النِّعالِ طيبٌ حُجزَاتهُم (1)

وفى البيت أيضا الكناية عن الترف. يقول ابن منظور: «مدحه بأربع خصال كرام. إحداها: أنه جعله بطلا. أي: شجاعا. الثانية: أنه جعله طويلا شبهه بالسرحة. الثالثة: أنه جعله تام الخلقناميًا؛ لأن التوأم يكون أنقص خلقا، وقوة، وعقلاً، وُخلُقاً»(2).

ويستطرد المبرد فى «باب التشبيه» فيذكر أنواع الرياح، وأماكن هبوبها، ويورد لذلك أمثلة من التشبيهات. فيقول:

«إذا أتت من قبل الشام فهي شمال. وقال الفرزدق:

مستقبلين شَمال الشّام تضربُنا ... بحاصبٍ كنديف القطنِ منثورُ

وهى تقابل الجنوب... وإذا جاءت من دُبُر البيت الحرام فهى الدبور، وهى تهب بشدة قال الأعشى:

لها زجلٌ كحفيفِ الحصا ... دِ صادف باللّيلِ رِيْحاً دَبُوراً

جعل الفرزدق الحصباء التي ترميهم بها ريح الشمال شبيهة بنديف القطن المنثور فى الخفة، والكثرة، والانتشار.

والأعشى وصف كتيبة حربية تتحرك فى جلَبة؛ فيسمع للدروع فيها صوت مثل ما يحصد من الزرع إذا مرّت عليه الريح الشديدة.

ولدقة التشبيه لاحظ الشاعر فى المشبه به «حفيف الحصاد» بعض القيود: ريح دبور، تعصف بالليل الساكن؛ فيسمع لذلك صوت وجلبة.

ويتعرض المبرد لريح «الصَّبا»؛ فيذكر أنها: القَبول، وبعضهم يجعله للجنوب، ويذكر أن العرب، يتمدحون بالإطعام فى المشتاة، وشدة الزمان كما قال طرفة:

نحنُ فى المشتاةِ ندْعو الجفَلَى ... لا ترى الآدبَ فينا ينتقِرُ

(1) الاقتضاب: 3/ 339.

(2) لسان العرب: (سبت).

الجفلى: العامة، والنّقرى: الخاصة، والآدب[1]: صاحب المأدبة. يقال: مأدَبة، ومأدُبة للدعوة. وفى الحديث: «إنّ القرآن مأدُبة الله»[2].

قال أهل العلم: معناه: مدعاةُ الله، وليس من الأدب. وأكثر المفسرين قالوا القول الأول، وكلاهما فى العربية جائز، ويدل على القول الأول قول رسول

---

(١) قال أبو عبيد: ٤/ ١٠٧: «يقال: مأدُبة، ومأدَبة، فمن قال: مأدُبة أراد به: الصنيع يصنعه الإنسان؛ فيدعو إليه الناس، وروى فى هذا بيت طرفة. قال: «وأما من قال: مادبة فإنه يذهب به إلى الأدب يجعله مفْعلة من ذلك. والتفسير الأول أعجب إلىّ». فقد رجح فى: «مادبة» ضم الدال، ووافقه ابن منظور. قال: «المشهور فى المأدُبة ضم الدال، وأجاز بعضهم الفتح» ثم روى قول أبى عبيد بإيجاز اللسان (أدب).

(٢) رواه الدارمي فى سننه فى كتاب «فضائل القرآن»: ٢/ ٤٢٩ بلفظ «حدثنا سهل بن حماد ثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن أبى الأحوص قال: كان عبد الله يقول: «إنّ هذاَ القُرآن مأدُبةُ الله؛ فمنْ دَخلَ فيه فهُو آمن» وروى فى غريب الحديث لأبي عبيد الهروى: ٤/ ١٠٧» إن هذا القرآن مأدُبة الله» وهي رواية اللسان عن ابن مسعود: (أدب).

والحديث فى مسند أحمد: ٤/ ٢٥ برواية حدثنا عبد الله حدثني أبى ثنا سويد بن عمرو وعبد الصمد قالا: ثنا مهدى ثنا غيلان عن مطرّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه أنه وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر قال: فأتيناه، فسلّمنا عليه؛ فقلنا: أنت وليُّنا، وأنت سيّدنا، وأنت أطول علينا قال يونس: وأنت أطول علينا طَوْلاً، وأنت أفضلنا علينا فضلا، وأنت الجفنة الغراءُ. فقال: قولوا قولكم، ولا يستهوينّكم».

وهو فى النهاية: ١/ ٣٠ بزيادة: «فى الأرض». وفى: ١/ ٢٨٠ بلفظ أنه قيل له: أنت كذا، وأنت كذا، وأنت الجفنة الغرّاء » ونقل ابن منظور فى لسان العرب (جفن) رواية ابن الأثير، وصدرها بقوله: «الجفنة: الرجل الكريم».

وفى الفائق: «١/ ٣٠ عن ابن مسعود: بلفظ «إنّ هذا القرآن مأدُبة الله؛ فتعلموُا منْ مادبة الله».
وفى: ١/ ٢١٩ مختصرا، عن عبد الله بن الشخير مع ذكر المناسبة، وبلفظ «وأنت سيدنا» بدل: «أنت وليُّنا»، وبلفظ: «ولا يستجْرينكُم» بدل: «ولا يَسجرنّكمْ».

وأخيرًا؛ فإن رواية المبرد: «وأنا الجفنة الغراء» وقد أثبت الرواية الصحيحة، عملا بمبادئ التحقيق تجاه القرآن الكريم، والحديث الشريف، وفرق كبير بين المراد بكل من: «أنا» و «أنت» هنا.

الله ﷺ: «وأنت الجفنة الغراء». أي: التي يجتمع الناس عليها، ويُدعَونَ إليها»[1].

فتفسير «مأدُبة» بأنها «الصنيع» يراد بها المعنى الحسي كالوكيرة – طعام يتخذ عند الفراغ من البنيان، والوليمة[2]؛ فالحديث الشريف من التشبيه المؤكد والمعنى أنه «شبه القرآن بصنيعٍ صنعه الله للناس لهم فيه خير ومنافع، ثم دعاهم إليه»[3] ووجه الشبه: المنفعة المتحققة فى كلٍّ.

وأما «مأدَبة» بفتح الدَّال فهى مصدر ميمي بزنة «مفْعلة» ويكون المعنى – أن القرآن مصدر الأدب للبشرية. وهو معنى حسي. وكذلك الحديث الشريف الثاني: «وأنتَ الجفْنةُ الغراء» من التشبيه البليغ؛ للاقتصار على طرفى التشبيه، فيكون المراد: أن هؤلاء شبهوه ﷺ بالجفنة الغراء وهي البيضاء من الدسم، نعتًا له بأنه مضياف، مطعام. أو أرادوا: أنت ذو الجفنة»[4] هذا ما قاله الزمخشرى.

وأقول: إن تفسير الجفنة الغرآء بما ذكره فى الوجه الأول يذهب إلى معنى حسي، وفى النفس منه شيء، ولو قيل: «ذو الجفنة الغراء» فى الإقبال عليه، أملاً فى الخير كان أولى وأحسن؛ فيكون وجه الشبه حسيًّا فى الجفنة، معنويا فى رسول الله ﷺ وشريعته الغراء. أما الوجه الثاني: فهو على حذف مضاف، وهو يليق بالرسول ﷺ.

ويورد أبو العباس مقطوعة لجميل، ويبدؤها بقوله:

وَمَاصائبٌ من نَابلٍ قذفَتْ بـهِ ... يـدٌ ومُمَرُّ العُقـدتين وثيـقُ

له من خوافي النَّسر حُمٌّ نظائرٌ ... ونصلٌ كنصْلِ الزاعبيِّ فَتيقُ

ثم يقول: «وقوله: «ممر العقدتين» يعني: وترا، والمُمرُّ: الشديد الفتل، وقوله: «من

---

(١) الكامل ٣/ ٥٩ – ٦٠.

(٢) الفائق: ١/ ٣١ بتصرف.

(٣) غريب الحديث: ٤/ ١٠٧.

(٤) الفائق: ١ / ٢١٩.

خوافي النسر حمّ نظائر» يريد: رأس السّهم. والحمّ السُّود، وذلك من أخلصه وأجوده... وقوله: «كنصل الزاعبي» شبه نصل السّهم بنصل الرمح الزاعبيّ، وهو منسَوب إلى رجل من الخزرج يقال له: «زاعب» كان يعمل الأسنة. هذا قول قوم.

وأما الأصمعي فكان يقول: الزّاعبيّ الذى إذا هُزّ فكأنّ كعُوبه يجرى بعضها فى بعض؛ لِلينه، وتثنيه... وقوله: «فنيق» يعني: حاذاً رقيقا»[1]. فقد بين المبرد طرفى التشبيه، وأشار إلي وجه الشبه

ويقول المبرد: «وقال الشماخ فى صفة الفرس:

مُفجُ الْحوامِى عن نسُورٍ كأنّها نوى القَسْبِ ثرّتْ عن جرِيمِ مُلجْلَجِ

قوله: «مفج الحوامي» يريد: مفرق الحوامي. فالحوامي: نواحي الحوافر، والنسور واحدها: نُسر، وهى نكتة فى داخل الحافر، ويحمد الفرس إذا صلب ذلك منه، ولذلك شبه بنوي القَسبْ. و «ثرّت»: سقطت، والجريم: المصروم، والملجلج: الذي قد لجلج مضغا فى الفم ثم قذف؛ لصلابته. وقوله: مفج: ليس يريد الذي هو شديد التفرقة، ولكن الانفصال عن النّسر فإنه إن اتسع أسفله فذلك الرّحح[2]، وهو مذموم فى الخيل. وكذلك إن ضاق وصغُر قيل له: مَصْطر. وكان عيباً قبيحاً. قال حميد الأرْقط[3]:

لا رححَ فيها ولا اصطرارٌ ولم يقلّبْ أرضَها البَيطارُ

ويروى: ولم يقلم. وتأويل ذلك: أن حوافرها لا تتشعث، فيقلّمهُا البيطار، لأنها إذا كانت كذلك ذهب منها شيء بعد شيء؛ فمحقها.

---

(١) الكامل: ١/ ٦٨، ٦٩.

(٢) قيل: الرَّحح: انبساط فى رقة.. والمصروف: المقبض، وكلاهما عيب. اللسان (رحح).

(٣) روي الرجز له فى الاقتضاب. القسم الثاني: ٧١، والقسم الثالث: ٦٣، والمخصص: ٦/ ١٥٠.

البيطار: بطَر الشيء يبطره بطرا: شقه، والبيطار، والمبيْطر: معالج الدّوابّ اللسان. (بطر) باختصار.

وقال علقمة بن عَبَدَة[1]:

سُلاَّءة كعصَا النَّهدِىِّ غُلَّ بها ذو فيئَةٍ مِن نوى قُرّانَ معجومُ

شبهها بالشوكة من شوْك النخل؛ لأن الفرس الأنثى يُحْمد منها أن يدِقّ صدرُها، وينخرط فى امتلاء إلى مؤخرها. والحمام يحمد منهن أن يعرض الصدر ثم ينخرط إلى ذنبه ضمورا؛ فيقال فى وصفه: كأنه جَلَم[2]. وقوله: «كعصا النهدى» يريد: فى الصلابة. وقوله: «ذو فيئة من نوى قُران» يقول: ذو رجعة. يقول: مضغته الإبل، فلم تكسر. ومعجوم: ممضوغ»[3].

فالشمَّاخ يشبه النُّسور التي بين الحوامى فى شدة الصلابة، بنوى القسب. وعوف بن الخرِع وصف تجويف حافر الفرس بأن هيئته كهيئة القَعب فى الصغر. وشبه علقمة فرسه فى دقة صدرها، وعظم عجزها بشوكة النخل ألصق بها نُسورٌ صلاب كصلابة نوى «قُران». وبين وجه الشبه بقوله: «يريد: فى الصلابة».

والمبرد هدانا بتحليله الواسع لبيت الشماخ إلى أركان التشبيه والغرض منه، ثم استطرد بذكر أمثلة لبيان بعض المفردات، وأرشدنا إلى ما بها من التشبيهات، كما أرانا بالتشبيه الفرق بين هيكل الفرس الأنثى، والحمام.

---

(١) البيت من قصيدة طويلة. وقبله:

وقد أقودُ أمام الحيِّ سلْهبةً يهْدى بها نسبٌ فى الحيِّ معلُومُ

سلهبة: فرس طويلة. النهدى: رجلٌ من نهد: قبيلة من أهل نجد، وعيدان نجد أصلب العيدان وأعتقها. غلّ بها: ألصق بها نسُورٌ صلاب كصلابة النوى الذي وصف. قُران: قرية باليمامة، وكان نواها أصلب النوى. ديوانه: ٧٣، ومجالس ثعلب: ٢/ ٧٢، ٧٣.

(٢) الجَلَم: هو الذي يُجزُّ به الشعر. والجلَمان: شفرتاه، وهكذا يقال مثنى كالمقص، والمقصَّين. اللسان (جلم) وانظر: الاقتضاب: ٢/ ٢٣٤. فيكون ثمة شبه فى الشكل بين كل من الحمام، والجلم.

(٣) الكامل: ٣/ ١١٠ – ١١٢.

وروى المبرد حديث بنات ذى الإصبع العدْوانى عن أزواجهن؛ فقال: «... ثم زار الرابعة؛ فقال لها: كيف رأيتِ زوجك؟ فقالت: شرُّ زوج، يكرم نفسه، ويهين عرسه. فقال لها: فما مالكم؟ قالت: شر مال. الضأن. قال لها: وما هن: قالت: جُوفٌ لا يشبعْن، وهيمٌ لا يُنقعن، وصُمٌّ لا يسمعْنَ، وأمرُ مُغْوِيتهن يتبعْن...»[1].

ثم شرح ذلك فقال: «وقولها: «جوْف لا يشبعن» تقول: عِظام الأجواف، و«هِيم لا ينقعن» الهيم: العطاش. يكون الواحد من هيم: أهيم. ويقال فى هذا المعنى: هيْمان...، وقولها: «وصمّ لا يسمعْن» طريف من كلام العرب. وذلك أنه يقال لكل صحيح البصر ولا يعمل فكره: أعمى، وإنما يراد به أنه قد حل محل من لا يبصر ألبتة؛ إذ لم يعمل بصره، وكذلك يقال للسميع الذي لا يقبل: أصم. قال الله – جل ذكره –: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾[2] كما قال – جل ثناؤه – ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[3] وكذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾[4]. وقوله – عز وجل – ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾[5]»[6].

فى هذا النص أمثلة – من التشبيه المؤكد أو البليغ، وقد اقتصر فيها على ذكر المشبه به، وأما المشبه فقد حذف للدليل؛ والمحذوف فى «حكم المذكور وهذا الحذف مألوف بل وكثير فى كلام العرب، فللإيجاز الحذف منزلته فى البيان»[7].

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٤٩.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٨.

(٣) سورة محمد: الآية: ٢٤.

(٤) سورة النمل: الآية: ٨٠.

(٥) سورة البقرة: آية: ١٧١.

(٦) الكامل: ٢/ ١٥٠ – ١٥٣.

(٧) انظر: دلائل الإعجاز: «القول فى الحذف»: ١٤٦.

هذا إلى ما فى هذه التشبيهات من المبالغة. ولذا قال المبرد وقولها: «وصمٌّ لا يسمعن» طريفٌ من كلام العرب.

والعلَم فى هذا قوله – تعالى – فى ذم المنافقين: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ بتقدير: همْ. فقد تقدم فى الآيات السابقة الإخبار عن خداعهم، وإفسادهم فى الأرض، واشترائهم الضلالة بالهدى فخسروا[1]، وقد قالت بنت ذِي الإصبع فى الضأن: «جوفٌ لا يشبعْن، وهيمٌ لا ينقعْن، وصمٌّ لا يسمعن» وهذه الأمثلة أيضا من التشبيه البليغ.

والمبرد – على تقدم زمنه – وُفّق فى الاهتداء إلى أن هذه الأمثلة من التشبيه البليغ، لا من الاستعارة؛ كما فعل غيره[2] وقد انتفع به من جاء بعده وفى مقدمتهم الإمام عبد القاهر.

وقد بين القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) الفرق بينهما – فى الوساطة»[3].

---

(١) اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ سورة البقرة: (٨–١٨).

(٢) فمن الذين خلطوا التشبيه البليغ بالاستعارة: ابن قتيبة فقد مثل لها فى تأويل مشكل القرآن: ١٢٩ بقوله تعالى: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾. سورة إبراهيم ٤٣، والرُّمانى فى رسالته: «النكت فى إعجاز القرآن»: ٨٥ حيث قال: «والفرق بين الاستعارة والتشبيه أن ما كان من التشبيه بأداة التشبيه فى الكلام فهو على أصله... وليس كذلك الاستعارة وفرق بينهما كثير من العلماء منهم أبو هلال العسكري فى الصناعتين: ٢٥٥ حيث قال: «وقد يكون التشبيه بغير أداة ومثل بقول امرئ القيس:

له أيطلا ظبْى وساقا نعامةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ وإرْخاءُ سرْحان وتقْريبُ تتفُلِ

وابن سنان الخفاجي فى سر الفصاحة: ٢٣٧ – ٢٤٣، وابن رشيق القيروانى فى العمدة: ١/ ٢٩٤، وانظر أسرار البلاغة: ٢/ ٩، والإيضاح: ٣/ ٧، والمطول: ٣١١.

(٣) ص: ٤١.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ فقد ورد فى بيان الأدلة على طباع المنافقين، فالكفر كله ملة واحدة. وللمفسرين فى هذا التشبيه تأويلات كثيرة أظهرها جعله مركبا، فيكون المعنى – والله أعلم – «ومثل داعيهم[1] إلى الإيمان فى أنهم لا يسمعون من الداعى إلا جرْس النغمة، ودويّ الصوت من غير إلقاء أذهان، ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء الناطق، ونداءه الذي هو تصويت بها، وزجر لها، ولا تفقه شيئا آخر، ولا تعي كما يعى العقلاء...

وقيل معناه: ومثلهم فى دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع...». وبعد أن ذكر هذا أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) وضح المراد الناعق فى الوجه الثاني بأنه: «الصائح فى جوف الجبال؛ فيجيبه فيها صوت يقال له: الصدّى. يجيبه، ولا ينفعه»[2] والله أعلم.

ومن الأمثلة ما ورد فى قول أبى العباس: «وقد يقال للشيء الذي لا خير فيه: هذا غُثاءٌ. أى قد صار كذلك الذي وصفناه»[3].

وفى تعليقه على قول الشاعر:

وتحت نُحورِ الخيلِ حرشفُ رَجْلَةٍ　　　تُتَــاحُ لحبَّاتِ القُلُوبِ نِبالُها

فيقول: «الحرْشف: نبات يكثر فى البادية، وإنما شبه النّبل به فى الكثرة. والرجلة: الرجالة، وتتاح: تقدر»[4].

---

(١) الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٤٨١، وانظر تفسير أبى السعود: ١/ ١٩٠، وحاشية الشهاب: ٢/ ٢٦٧.

(٣) وهو يشير إلى قوله: الغثاء: ما يبس من البقل حتى يصير حطاما، وينتهي فى اليُبس، فيسودّ؛ فيقال له: غُثاء وهشيم. الكامل ١/ ٨٤.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٩٤، ٩٥.

يقول المرصفي[1]: «يريد أن أصل التركيب: رَجْلَة كالحرشف؛ فأضافه إليها. والأجود تفسير الحرشف بالجراد، والرجلة: الرجالة الذين لا ظهر لهم، يركبونه في السفر».

جاء في لسان العرب[2]: الحرشف: صغار كل شيء، والحرشف: الجراد ما لم تنبت له أجنحة. قال امرؤ القيس[3]:

كأنهم حرشفٌ مبثوث   بالجوِّ إذ تبرقُ النعّالُ

شبه الخيل بالجراد في هذا البيت... يقال: ما ثم غير حرشف رجال» فوجه الشبه على كلٍّ هو: الضعف مع الكثرة.

وذكر البطليوسي أن المراد: تشبيه الرجالة إذا اجتمعوا، ورفعوا رماحهم بالحرشف؛ أي ضعفاء وشيوخ، وصغار كل شيء: حرشفة.. والحرشف: نبت»[4]. فقد ورد المعنيان في اللغة. ولكلٍّ تفسيرٍ ما يؤيده.

ومنه ما أورده المبرد[5] للعباس بن عبد المطلب، وهو:

ضَرَبناهُمْ ضَرْبَ الأَحامِسِ غُدْوَةً   بكـلِّ يمانِيٍّ إذا هُزَّ صَمَّمـا

---

(١) رغبة الأمل: ١/ ٣٣.

(٢) اللسان: (حرشف).

(٣) ديوانه: ١٩٣، والبيت قبله:

وغارَةَ قد تلبَّستُ بها   كأنَّ أسرابها الرعال

الرعال: الجماعات من الخيل. الوحدة: رَعلة. النّعال: ما استطاع على وجه الأرض من الحرّة.

(٤) الاقتضاب: ٣/ ١٢٩.

(٥) أورده شاهدًا على أن من صيغ النسب إلى اليمن «يماني» بتشديد الياء. الكامل: ٣/ ٣٠٩. ونقل البطلوسي عن المبرد هذه الرواية في الاقتضاب: ٢/ ١٨٣، كما وردت عنه في «فصيح ثعلب»: ٤٣ ولكن بلفظ: «الأحامر» بدل: «الأحامس» وهم جمع: أحمس. ومن معانيه: الشديد الصلب في الدين والقتال. والحمس: قريش، لأنهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم فلا يطاقون». اللسان: (حمس).

والمعنى: ضربناهم ضرباً كضرب الأحامس فى الشدة والصلابة؛ فاكتفى بطرفى التشبيه؛ للمبالغة فى المعنى.

ويقول أبو العباس: «ويروى أن عبد الرحمن بن حسّان لَسَعَه زنبورٌ؛ فجاء أباه يبكي؛ فقال له: مالك؟ فقال: لسعني طائر كأنه ملتفٌ فى بردي حِبَرة. قال: قلت والله الشعر»[1].

قوله: «طائر كأنه ملتف فى بردي حبرة» تشبيه مصيب؛ لأنه حدد الكثير من معالم المشبه؛ فمن يسمع هذا الوصف لدقته فكأنما رأي الطائر.

وقد أعجب به الإمام عبد القاهر[2]؛ فذكر أنه مما يستدل به على قوة الطبع. وأن موقع التعجب قوله: «ملتف»، وأنه لو قال: كوشي الحِبَرَة لم يكن له هذا الموقع؛ لأنه وإن أفاد التشبيه إلا أنه يدل على الفطنة فى الجملة».

فالمراد تشبيه: هيئة هذا الطائر وما وصف به من وشْيٍ وصبغ حتى صار كأنه ملتف فى برد من برود اليمن ذى النقش والصبغ الجميل. ففى وجه الشبه تفصيل يحتاج إلى تكرار النظر. والمراد بالشعر هنا: الكلام المؤثر الحافل بالخيال لا خصوص الشعر المقفى.

ويردد أبو العباس التشبيه بين معنيين مستشهداً بعلماء اللغة. ففىقول الفرزدق:

«ليشرب ماءَ القومِ الصَّرائِمُ»[3].

يقول: «هي جميع صريمة، وهي الرملة التي تنقطع من معظم الرمل» وأنشد الأصمعي[4]:

---

(١) الكامل: ١/ ٢٦٣. برود حبرة: ضرب من البرود اليمانية. اللسان: (حبر).

(٢) انظر: أسرار البلاغة: ٢/ ٣٩.

(٣) صدره: «فجاء بجُلْمُودٍ لهُ مِثْل رأسه» ، وهو من مقطوعة بالكامل: ١/ ٢٣٣.

(٤) البيت من قصيدة طويلة: لبشر بن أبي خازم في المفضليات: ٣٣٥. وهو للشاعر فى اللسان:=

فبات يقولُ أصبحْ لَيْلُ حتى ... تجلّى عن صَرِيمَتِهِ الظّلاَمُ

يعني: ثوراً، وصريمته: رملته التي هو فيها. وقال المفسرون في قول الله – عز وجل –: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾[1] قولين: قال قوم[2]: كالليل المظلم، وقال قوم[3]: كالنّهار المضيء. أي: بيضاء، لاشيء فيها، فهو من الأضداد. ويقال: لك سوادُ الأرض، وبياضُها. أي: عامرها وغامرها. فهذا ما يحتج به لأصحاب القول الأخير.

ويحتج لأصحاب القول الأول في السواد بقول الله – تبارك وتعالى–: ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾[4]. وإنما سُمي السواد سواداً لعمارته، وكل خضرة عند العرب سواد.

وجاء في «باب التشبيه» قوله: «ويتصل بهذا الباب ذكر من رغب برجل عن إرث رجل لا يشاكله، وولاية رجل لا يشابهه. قال الشاعر:

بَكَتْ دارُ بِشْرٍ شجْوَهَا أن تبدَّلَتْ ... هِـلاَلَ بْـنَ قعْقاعٍ ببِشْـرِ بنِ غَالبِ

ومَا هي إلاَّ كالْعَـروُسِ تنقَّلتْ ... على رُغْمِها من هاشمٍ في مُحارِبِ[5]

كان «هلال» قد اشترى دار «بشر» بعد موته. و «محارب» قبيلة. فوجه الشبه

= (حرم). وهو من قصيدة طويلة لبشر وقال: «قال الأصمعي وأبو عمرو وابن الأعرابي: «تكشف عن صريمته» أي عن رملته التي هو فيها. يعني الثور.

(١) سورة القلم: ٢٠، وهي من الآيات التي تبين بلاء أصحاب الجنة: ١٧ – ٣٣.

(٢) مجاز القرآن: ٢/ ٢٦٥، والجمان في تشبيهات القرآن: ٣١٥.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٥ / ٣٤٩. وكتاب الأضداد عن الأصمعي: ٤١، (ضمن ثلاثة كتب في الأضداد).

(٤) سورة الأعلى: آية: ٥.

(٥) الكامل: ٣/ ٨٢، ونسب البيتان لإسماعيل بن عمّار بن عيينه في شرح الحماسة للمرزوقي: ١٣ – ١٥، وللوليد بن كعب في عيون الأخبار: ١/ ١٣٤.

حال الشيء ينتقل من الحسن إلى السيء.

«والتاريخ يحدثنا أن العرب كانت ترمي بالخسة بعض القبائل مثل: مُحارِب، وسلول، وجرم، وباهِلة، وعاملَة، وعُكْل، وتيم الرِّباب»[1].

ويبين أبو العباس أركان التشبيه على الطريقة المألوفة عندما أورد قول حسان بن ثابت[2] ﷺ يهجو مسافع بن عياض التميمي:

لو كنتَ من هاشمٍ أو من بَني أسدٍ ... أوْ عبْدِ شمْسٍ أوْ اصْحابِ اللّوا الصِّيدِ

أو كنتَ من نَوْفلٍ او رهْطَ مُطَّلِبٍ ... لله درُّكَ لم تهمُمْ بتَهْديدِي

او في السِّرارة من تَيْمٍ رضِيتُ بِهِمْ ... أوْ من بني خَلَفِ الخُضْرِ الجلاعيدِ

يقول: وقوله: الخضر الجلاعيد: يقال فيه قولان:

أحدهما: أنه يريد سواد جلودهم. فهذا هو القول الأول. وقال آخرون: شبههم فى جودهم بالبحور. فالأداة: «شبَّه» والضمير المتصل هو المشبه، و«البحور» المشبه به، ووجه الشبه: «فى جودهم».

أما القول الأول وهو: «أنه يريد سواد جلودهم» فهو كناية عن موصوف، وهو أنهم عرب خلص. وذلك أن المراد بالخضر هنا: السواد، والجلاعيد: شديدو السواد.

ويقول فى موضع آخر: «وقول العرب: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر. يريد العربى والعجمي»[3] هو كناية عن العرب والعجم.

وأمثلة هذا الفصل كثيرة، وهي من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن

---

(١) فن التشبيه: ٢/ ٢٠٣.

(٢) من قصيدة بالكامل: ١/ ٢٤٨، وهي فى ديوان حسّان: ٣٤٤ مع اختلاف ى بعض الكلمات، وكذا فى ترتيب الأبيات. فبيت الشاهد روي فى ديوانه هكذا:

او فى الذُّؤابة من تيمٍ وإخوتها ... أوْ من بني جُمَحَ الخُضْرِ الجلاعيدِ

(٣) الكامل: ٢/ ٦٢.

المنثور والمنظوم، والكثير منها قد استوفى أركان التشبيه، واقتصر فى بعضها على بيان طرفى التشبيه كما نجد منها التشبيهات المركبة وما كان وجه الشبه فيها جليا، أو مفصلا وفى هذا إثراء لمباحث التشبيه.

* * *

المبحث الثالث

تشبيهات وضع لها المبرد أوصافاً، وأخرى وضعها تحت ما سماه «أضرب التشبيه»

أطلق المبرد على كثير من التشبيهات، أوصافا كما وضع قدرا آخر منها تحت ما سماه: «أضرب التشبيه»، فهو يصف بعض التشبيهات بالحسن، وبعضا آخر بالجودة، وبعضا ثالثا بالملاحة، ورابعا بالاستطراف، كما صنفت بعضها بصفات: المحمود، والعجيب، والمطَّرد، والمصيب، والمقارِب، والبعيد... إلخ. ولم يكتف بهذا؛ فاشتق من الوصف الواحد أوصافاً، وبمعنى آخر جعل الوصف درجات، فقال:

«تشبيه حسن» و «تشبيه مستحسن» وأحسن التشبيه، بل وكوَّن صفة من صفتين؛ فقال: «تشبيه قاصد صحيح»، و «حسن مستطرف»، و «التشبيه الحسن الذي نستطرفه» وقال: «ومن أحسن التشبيه ومليحه».

والمبرد ينعت أحيانا التشبيه بوصف مركب من وصفين مترادفين مثل: «متجاوز مفرط»، و «مفرط متجاوز» ويعجب بتشبيه فيصفه بقوله: «ومن حلو التشبيه وقريبه، وصريح الكلام وبليغه».

وهكذا أسرف المبرد في الصفات التي أضفاها على كثير من التشبيهات دون وضع حدود وتعريفات تميز كلاً عن الآخر، وهذا «مما يجعلنا نظن أنه لم يكن يقصد من وراء هذا الإفراط في التسمية إلا التنويع في الأسماء، دون أن يتعدى ذلك جوهر المسميات حيث لا اختلاف بينها»،[1] ولذا نجد أن بعض

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢١٢.

الأوصاف يمكن ردها إلى بعض؛ فالمتجاوز هو المفرط، وكذا صفات الحسن، والجودة، والملاحة تدور حول معنى واحد. فابن منظور يقول: «ملُحَ يَمْلَحُ مُلوحةً، ومَلاَحةً، ومِلْحاً أي: حَسُن، فهو مَليحٌ، ومُلاَحٌ»(1).

وكما قلت: إن الأمثلة لهذه الأوصاف وردت فى «الكامل» على غير نظام وترتيب، والسبب أن الكتاب لم يؤلف خالصا للبلاغة وإنما هو اختيارات أدبية. ثم شرح لما يراه المبرد من مفرداتها اللغوية، وبيان للمستغلق من المعاني... وكثيراً ما يتخلل هذا الشرح الكثير من الإشارات والمسائل البلاغية، واللَّمحات النقدية. هذا إذا استثنينا «باب التشبيه».

وأقول: لعل المبرد صنف هذا الكتاب فى فترات طويلة، وكان يدون دون مراجعة لما كتب، أو أن معظمه كان إملاءات في حلقة الدرس بالمسجد، ولذا كثر فيه التكرار، وقد رأى قرب نهاية الباب أن يوجز هذه الأوصاف فى أربعة أضرب، وهى:

١- تشبيه مفرط	٢- تشبيه مصيب
٣- تشبيه مقارب	٤- تشبيـه بعـيد

وهذه الأضرب لا تتعارض مع الأوصاف السابقة، فإن بعض أمثلة التشبيه تخضع لهذه الأضرب، وهذا لا يمنع من أن يُنعت شئٌ منها بالجودة، أو المقاربة، أو الإصابة.

والكلام هنا فى مطلبين:

الأول: تشبيهات وضع لها أوصاف.

والثاني: تشبيهات وضعت تحت: «أضرب التشبيه».

(١) اللسان: (ملح).

المطلب الأول

تشبيهات وضع لها أوصافًا

أولا: التشبيه الحسن[1]:

تتفاوت درجات النظم في الحُسن؛ ويبدو هذا واضحًا في التشبيه؛ فاشتراك طرفيه في أكثر الصفات يعد من أسباب الحسن، وأما زيادته فترجع إلى أسباب مثل إصابة الحقيقة دون إفراط، أو جودة النظم وما يحوى من خصوصيات كالإيجاز، وكذا إيراد التشبيه على غير الصورة المعهودة... الخ.

يقول المبرد: «وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبَّه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبَّه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه بوصف قوى، واختصار قريب»[2].

ويقول في أول باب التشبيه: «فأحسن ما جاء بإجماع الرواة ما مرَّ لامرئ القيس في كلام مختصر. أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين، وهو قوله:

كأن قلُوب الطَّيرِ رطْباً ويابساً ... لدى وكْرِهَا العُنَّابُ والحشفُ البَالي

فهذا مفهوم المعنى. فإن اعترض معترض فقال: فهلاَّ فصَّل، فقال: كأنه رطب العُنَّاب، وكأنه يابس الحشف! قيل له: العربي الفصيحُ اللَّقِن يرمي بالقول مفهومًا، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عِياً...»[3].

فالاختصار هنا: أن الشاعر ذكر لقلوب الطير تشبيهين بأداة واحدة كي لا

(١) يدرس في هذا المبحث: التشبيه الحسن ومشتقاته مثل: أحسن التشبيه، وتشبيه مستحسن..الخ.

(٢) الكامل: ١/ ٢٩٤.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣١.

يقع التكرير، وأورد هذا في وصف قوى، ونظم بديع.

ومن أمثلته قول زهير[1]:

كأنّ فُتاتَ العِهْنِ في كلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ به حبّ الفَنَا لم يُحطَّم

يقول المبرد: «الفنا: شجر بعينه يثمر ثمرا أحمر، ثم يتفرق في هيئة النَّبق الصغار[2]. فهذا من أحسن التشبيه، وإنما وصف ما يسقط من أنماطهن إذا نزلن، والعهن: الصوف الملوّن في قول أكثر أهل اللغة. وأما الأصمعي فقال: كل صوف عِهن. وكذلك قال أهل اللغة»[3].

المشبه: فُتات العهن، والمشبه به: حب الفنا. وقد وصف بقيد تحقق به التماثل. وهو قوله: «لم يحطم». وذلك أن: «حبّ الفنا» إذا كُسر ظهر له لون آخر غير الحمرة. فحسن التشبيه بسبب هذه الزيادة.

فقد شبه ما تفتت من العهن الذي علق على الهودج إذا نزلن منه منزلا بحب الفنا.

ويقول المبرد: «ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عَبَدة[4]:

كأن إبريقَهم ظبيٌ على شرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسبا الكتّانِ ملثومُ

فهذا حسن جدا[5].

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٤٢.

(٢) قال الفراء: «هو عنب الثعلب» شرح القصائد السبع الطوال: ٢٤٩ انظر. شرح القصائد العشر: ١٠٩ وشعر زهير بن أبي سلمى: ١٤ واللسان: (عهن).

(٣) الكامل: ٣/ ٤٢.

(٤) ديوانه: ٧٠. والشرَف: ما ارتفع من الأرض، فأشرف على ما حوله. مفدَّم: نعت لإبريق، وهو من الفدام، وهو ما يغطى به الإبرايق، فكان مصفاة له. سبا الكتان: سبائب بحذف الجزء الأخير، وهي شقة، رقيقة منه. ملثوم، من: تلثم بالعمامة: شدها على فمه. انظر: الخصائص: ١/ ٨٠، ٢/ ٤٣٧، والمفضليات: ٢/ ٤٠٢، والعمدة: ١/ ٢٥٣.

(٥) الكامل: ٣/ ٤٢

شبه الإبريق بظبي فى طول عنقه وإشرافه. وجعله على شرَف لأن ذلك مما يزيد فى طول عنقه للناظر[1] فقوله: «على شرف» قيد يتحقق به وجه الشبه وهو من أسباب حسن التشبيه. وقد أخذ أبو نواس[2] هذا المعنى فقال:

كأن أبريقَنا ظبيٌ على شرَفٍ قدْ قُدَّ مِنهُ لخوفِ القانصِ العُنقَا

قال المبرد: «ومثل بيت علقمة قول أبى الهندى[3]:

مُفدمةً قزًّا كأن رِقابَها رقابُ بَناتِ الماءِ أفزعهَا الرَّعْدُ

قال الشيخ عضيمة – رحمه الله –: «قال أبو حنيفة الدينورى: شبَّه أعناق الطير إذا نصبتْها بأعناق الأباريق، فلذلك قال: «أفزعها الرعد» وخطأه بعضهم فى هذا التفسير؛ فقال: هذا غلط؛ لأن الطائر إذا سمع صوت الرعد لم ينصب عُنقه، ولكن يلويه، وكذلك أيضا الأباريق عُوجٌ، ولذلك شبهت بأعناق الطيور العُوج »[4] أي فى هذه الحال.

قوله: «أفزعها الرعد» قيد تتحقق به المماثلة، ويُزاد به التشبيه حُسناً. وهذا النقد وجيه؛ لأنه رُوعى فى تحقيق التشبيه القيد المذكور، فتكون المماثلة بين الطرفين فى العِوَج.

وجاء فى الكامل: «وحدِّثتُ أن العُمانى»[5] الراجز أنشد الرشيد فى صفة فرس:

---

(١) البديع فى نقد الشعر: ١٧٩، ونقله شارح ديوان علقمة: (هامش).

(٢) ديوانه: ٩٠.

(٣) الكامل: ٣/ ٤٢، والبيت فى الشعر والشعراء: ٢/ ٦٨٢ والموشح: ١/ ٢٩٨، والطراز: ١/ ٢٨١، والبيت فى المخصص: ١١/ ٨٤، واللسان (فدم). وبنات الماء: الغرانيق، لأنها تكثر من التحليق فوقه.

(٤) المقتضب: ٤/ ٤٦ (هامش).

(٥) هو محمد بن ذؤيب الفقيمي. لم يكن من أهل عُمان، وإنما قيل له عمانى لأن دكيناً الراجز نظر إليه، وهو يسقى الإبل، ويرتجز فرآه غُلَيِّماً مصفر الوجه ضريراً؛ فقال: من هذا العماني فلزمه. الشعر والشعراء: ٢/ ٧٥٥.

كأن أذنيه إذا تشوّفا قادمةً أو قلماً محرَّفاً

فعلم القوم كلهم أنه قد لحن، ولم يهتد منهم أحدٌ لإصلاح البيت إلا الرشيد؛ فإنه قال له: قُل:

تخـالُ أذنيه إذا تشـوَّفا

والراجز وإن كان لحن فقد أحسَن التشبيه[1].

فسبب الحسن أن الراجز ولَّد ذكر التحريف فى القلم[2]، فزاد صفةً تقارب بها التشبيه؛ إذ يندر عادة حضور المشبه به عند حضور هذا المشبه، ومعلوم أن الأداة «كأن» تفيد تحقيق التشبيه وتأكيده، بخلاف «تخال» فإنها تفيد الظن، أو الشك. وأما اللحن ففى الإعراب؛ لأن «العمانى» نصب خبر «كأن» وما عطف عليه.

وأورد ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) هذا الرجز برواية: «قادِمتا أو قلماً محرَّفا». ثم ذكر تصحيحا لها، كما أورده برواية: «تخال»[3].

وذكر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) أن أصحاب الفراء جوزوا نصب الجزءين، كما ذكر أن من الناس من عدَّ الراجز لَحَن، وخطَّأ قائله وقت إنشاده، وأصلح له بما ذكر، وروي ما قاله «المبرد».

وأما ابن السِّيد البطليوسى (ت ٥٢١هـ) فلم يعده لحناً؛ لأنه حكى أن من العرب من ينصب خبر «كأن» ويشبهها بـ «ظننت»[4].

وأورد ابن هشام (٧٦١ هـ) خلاصة هذا الخلاف، ثم بين أن نصب الجزءين بـ «كأن» زعم قوم، وعلى هذا وجه رأيهم بأن الخبر محذوف. أى: يحكيان.

(١) الكامل ٣/ ١٤١، ورغبة الآمل: ٧/ ٤٧، تشوفا: نصب عنقه وجعل ينظر. قادمة: واحد القوادم، وهى أربع ريشات فى مقدم الجناح، أو مقاديم ريشه.

(٢) انظر: العمدة: ١/ ٢٦٤.

(٣) الخصائص: ٢/ ٤٣٠.

(٤) خزانة الأدب: ٤/ ٢٩٢.

وقيل: إنما الرواية: «تخال أذنيه» وقيل: الرواية «قادمتا، أو قلما محرفا» بألفات غير منونة على أن الأسماء مثناة...، وقيل: أخطأ قائله وهو أبو نُخيلة، وقد أنشده بحضرة الرشيد، فلحنه أبو عمرو، والأصمعي. وهذا وهم؛ فإن أبا عمرو توفى قبل الرشيد[1].

خلاف كثير حول هذا اللحن، وتبرير لتصحيحه، وجهد فائق من ابن هشام فى إعطاء القارئ صورة عن هذا الخلاف وبيان الصواب فى أوجز عبارة. ولكن ثمة فرقاً فى ميزان التشبيه بين الأداتين: «كأن» و «تخال»، فالأولى أنسب للغرض؛ إذ هي تفيد تحقق الشبه، أو تقاربه.

وقد راعي الراجز فى كل من «المشبه» و «المشبه به» شرطا لتحقيق وجه الشبه، وبهما اكتسب التشبيه صفة الحسن.

واتبع المبرد المثال السابق بمثال آخر، وكثر اقترانهما فى كتب البلاغة.

قال: «ويروى أن جريرا دخل إلى الوليد، وابن الرّقاع العاملي ينشده القصيدة التي يقول فيها:

غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً   وكفى قرُيش المعضلاتِ وسادهَا

قال جرير: فحسدته على أبيات منها حتى أنشد فى صفة الظبية:

«تُزْجِى أغنُّ كأن إبرة روْقهِ».

قال: فقلت فى نفسى: وقع والله. ما يقدر أن يقول، أو يشبهه به. قال: فقال:

«قلمٌ أصاب من الدواةِ مِدادها».

قال: فما قدرتُ حسداً له أن «أقيم حتى انصرفت»[2].

---

(١) مغنى اللبيب: ٢٥٤، وانظر: حاشية الصبان على الأشمونى: ١/ ٢٧٠، وهمع الهوامع: ١/ ٣٣٤.

(٢) الكامل: ٣/ ١٤١. تزجي: تسوق. والضمير للظبية: أى فى صوته غُنّة والمراد: ولدها. وإبرة روقه رأس قرن، وغالبا ما تكون سوداء.

هذا المثال علَم على «استطراف التشبيه»؛ وهو أن يندر الجمع بين طرفيه في الذهن عادة، ولكن الجمع بينهما على هذ النحو كان بمثابة اللمحة الذكية من الراجز حيث وفق في اقتران المشبه بما يناسبه، وهو ما لا يخطر على البال عادة.

ويبين الإمام عبد القاهر سبب الرحة أولاً على هذا الرجز، ثم الحسد عليه بعد بقوله: «إنه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يخطر له في أول الفكر، وبديهة الخاطر، وفي القريب من محل الظن شَبَه. وحين أتم التشبيه وأداه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف، وعثر على خبيءٍ مكانهُ غير معروف»[1].

«فقد شبه العماني إبرة قرن الظبي بقلم على أطرافه أثر مداد، وهذا التشبيه عند ابن رشيق من التشبيهات العقم التي لم يُسبقْ أصحابها إليها، ولا تعدى أحد بعدهم عليها»[2].

وإذا قارنت بين هذا التشبيه، والتشبيه الآخر في قول هذا الراجز أيضاً[3]:

يخرجن مِن فُرُجَات النَّقع دَامِيَةً كأنَّ آذانَها أطرافُ أقلامِ

علمت فضل الأول. وذلك أن الثاني: اقتصر فيه على تشبيه آذان الخيل بأطراف الأقلام في الشكل من الحدّة والانتصاب، لا الاسترخاء، ولم يقيد المشبه به بقيدٍ مّا كسابقه.

يقول البطليوسي: «وقوله: «كأن آذانَها أطرافُ أقلام»

جملة في موضع نصب على الحال من الضمير في «يخرجْنَ» كأنه قال: مشبهة آذانُها أطراف أقلام»[4].

واتبع المبرد البيت الأول بقوله: «ومن التشبيه الحسن الذي نستطرفه قوله:

---

(١) أسرار البلاغة: ٢/ ٢٨٠، وانظر: الصناعتين: ٢٥٢، والعمدة: ٢/ ٣٣، وسر الفصاحة: ٢٤٠، والجمان: ٢٣١.

(٢) العمدة: ١/ ٢٩٦.

(٣) العمدة: ١/ ٢٩٦.

(٤) الاقتضاب. القسم الثالث: ٨٨ وانظر: المعاني الكبير: ١١٤.

تُعاطيكَها كَـفٌ كـأنَّ بنانَها إذا اعترضَتْها العينُ صَفُّ مَدارى[1]

ولم يعلق بشئ.

فقد شبهت البنان فى الدّقة والاستواء بأسنان المشط. وسبب الاستطراف: ندور حضور المشبه به فى الذهن عند حضور المشبه؛ لبعد المناسبة بينهما.

وأورد المبرد فى هذا المعنى تشبيها لامرئ القيس وهو[2]:

وتَعْطوُ برخْصٍ غيرِ شثْنٍ كأنَّهُ أساريعُ ظبْيٍ أو مساويكُ إسْحِلِ

ولم يعلق بشئ.

فقد شبه أصابعها بالأساريع ليناً، وبياضاً، وطولاً، واستواءً، ودقةً وحمرةَ رأسٍ، كأنه ظفر قد أصابه الحنّاء.

وهذا التشبيه وإن كان مصيباً إلا أنه يعبر عن الحياة البدوية التى عايشها الشاعر، فهو مقبول فى زمنه؛ ولذا فإن نفس الحضريِّ المولَّد إذا سمعت قول أبى نواس السابق: «تعاطيكها كفٌ».

أو قول على بن العباس الرومى[3]:

سَقَى الله قَصْراً بالرُّصافة شَاقَنِي بأعلاه قصريُّ الدّلال رُصَافِي

أشَـار بقُضبانٍ مـن الدُّرِّ قُمِّعتْ يوَاقيتَ حُمْراً فاستَبَاحَ عَفَافِي

أو قول عبد الله بن المعتز:

أشرْنَ على خَوْفٍ بأغصان فضّةٍ مُقوَّمةٍ أثمارُهُنَّ عَقيـــقُ

كان ذلك أحبُّ إليها من تشبيه البنان بالدُّود فى بيت امرئ القيس وإن كان

(١) الكامل: ٣/ ١٤٢. والبيت من قصيدة بديوان أبى نواس: ٤٣٥.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٨٢. والبيت بديوان الشاعر: ١٧، وشرح المعلقات السبع الطوال: ٦٦، خزانة الأدب لابن حجة الحموى: ١/ ٣٨٥. رخص: أى: بنانٌ رخص. شثن: خشن. ظبى: اسم كثيب من الرمل. أساريع جمع الأسروعة، وهى دودة تكون فى الرمل. إسحل: شجر له غصون دقاق يستاك بها.

(٣) ديوانه: ٤ / ١٦٢٧.

تشبيهه أشد إصابة[1].

فحياة الترف التي عاشها هذان الشاعران كان لها أثرها في رسم صورة أخرى لهذا البنان، وهي صورة مستوحاة من حياة المدينة، ومعايشة القصور؛ ولذا تبدو كلماتها رقيقة موحية؛ فترسم صورة أخرى مشاكلة لهذه الحياة؛ فلكل مقام مقال. وما هو بديع في عصر لا يشترط أن يكون كذلك في كل عصر. والإصابة وحدها ليست كافية في جودة التشبيه، فلابد معها من مراعاة الحال والمقام.

يقول الدكتور على عبد الواحد وافى: «وذلك أن انتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها، ويسمو بأساليبها، ويوسع نطاقها، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة. وإن موازنة بين حال اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الإسلام، وحالها في عهد حضارتهم الإسلامية، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية في عصر مّا وما كانت عليه في الحضر في العصر نفسه لأصدق برهان على ذلك. وإن البدوى الذي لم يلهمه شيطانه في مدحه للأمير أحسن من قوله[2]:

أنت كالكلبِ في حفاظِكَ للعهْدِ وكالتَّيسِ في قِراَعِ الخطوُبِ

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن يجود بمثل قوله[3]:

عُيوُنُ المهاَ بين الرُّصافةِ والجِسرِ جلَبْن الْهوَى منْ حيثُ أدْرِى ولا أدري[4]»

---

(١) البيت بديوان الشاعر: ١٧، وشرح المعلقات السبع الطوال: ٦٦.

(٢) هو «على بن الجهم»، والبيت بديوانه: ١١٧ وفيه «للودّ» بدل «للعهد» والبيت الذي يليه قوله:

أنت كالدَّلوِ لا عَدِمْنَاكَ دلْواً من كِبار الدِّلاء كُثْرِ الذّنوبِ

(٣) ديوانه: ١٤١.

(٤) علم اللغة: ٢٥٧. وفى مناسبة القصيدة يقول محقق ديوانه:

«حكى لنا بعض الأدباء عن ابن الجهم – وكان بدويا جافيا – لما قدم على «المتوكل» وأنشده يمدحه بقصيدته التي يقول فيها – يخاطب الخليفة: «أنت كالكلب...»، فعرف المتوكل قوته»=

وبما يتصل بهذا ما رواه المبرد[(١)] من قول عدى بن الرقاع العاملي:

لوْلا الحياءُ وأن رأسِـيَ قـدْ عثـا ... فيه المشيبُ لَزُرْتُ أمَّ القاسِـمِ

وَكأنها بـين النّسـاء أعـارها ... عيْنيه أحوَرُ من جآذِرِ جاسمِ

وسْنَانُ أقْصَدَهُ النُّعـاسُ فرنّقـتْ ... فـي عينه سِنَةٌ ولـيس بنائـمِ

معنى «رنقت»: تهيأت. يقال: رنّق النّسر إذا مدّ جناحيه ليطير[(٢)].

وهذا التشبيه لم يضعه المبرد تحت وصف، أو ضرب من أضرب التشبيه، ولكنى أوردته فى هذا المقام لمناسبته ما قبله. فقد عاب الأصمعى بين يدى الرشيد قول النابغة[(٣)]:

نظرتْ إليْكَ بحاجةٍ لم تقْضِها ... نظَر السّقيم إلى وجُوه العُوَّدِ

وفضل عليه قول العاملى السابق؛ فهو يقول: «أما تشبيه مرض الطرف فحسن، إلا أنه هجنّه بذكر العلّة وتشبيه المراة بالعليل، وأحسن منه قول عدىّ»[(٤)].

= ورقة مقصده، وخشونة لفظه، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به، لعدم المخالطة، وملازمة البادية، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، فيها بستان حسن، يتخلله نسيم لطيف، يغذي الأرواح، والجسر قريب منه، وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعهد به، وكان يركب فى أكثر الأوقات، فيخرج فى محلات «بغداد» فيرى حركة الناس، ولطافة الحضر، ويرجع إلى بيته، فأقام ستة أشهر فى ذلك، والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضراته، فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده، فحضر وأنشد:

عُيونُ المها بين الرُّصافة والجسر ... جلبْنَ الهوى من حيث أدرى ولا أدري

فقال المتوكل: لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة». فللبيئة والظروف المحيطة بالأديب أثر فى الشعر والأدب كما سبق.

(١) ديوانه: ٩٩ – ١٠٠.

(٢) الكامل: ١/ ١٤٨، والأبيات فى الشعر والشعراء: ٢/ ٦٢٠.

(٣) ديوانه: ٩٣.

(٤) فحولة الشعراء ٥٧، وانظر الجمان فى تشبيهات القرآن: ٢٢٣.

ووجه ابنُ سنان (ت ٤٦٦هـ) نقداً لبيت «عدىّ» وهو «الحشو»[١]؛ فقال: لأن «جاسم» إنما وردت هنا لأجل القافية؛ لا لمعنى فيها، وهى قرية بالشام من أعمال «دمشق»... وليس لجآذرها ميزة على غيرها. وقد سألت عن ذلك جماعة ممن يخبر تلك الناحية فما وجدت عندهم فيها إلا ما عند غيرها من البلاد»[٢].

وأعود إلى أبى العباس حيث يقول: ومن حسن تشبيه المحدثين قول بشار[٣]:

وكـــأنَّ تحـــت لِـــسانهـــا ... هـــارُوتَ ينفـــثُ سِـــحْراً

وتَخالُ ما جمعتْ عليه ثيابَها ... ينفُـــثُ ذهبـــا وعطـــراً

وهذا من «التشبيه الجامع»، ونظيره فى جمع شيئين لمعنيين ما ذكرت لك من قول مسلم بن الوليد:

«كأن فى سرْجه بدراً وضِرْغاماً» [٤]

وقال المبرد فى موضع آخر[٥]: "وقال مسلم بن الوليد الأنصارى فى مدحه يزيد بن مَزْيد:

تَمضِي المنَآيا كما تمضِي أسنتهُ ... كأنَّ فى سرْجِه بدراً وضِرْغاما

المشبه فى هذه الأمثلة شئ واحد، والمشبه به متعدد، والمبرد سماه: «التشبيه الجامع» وهو الذى عرف بعد بـ «تشبيه الجمع»[٦] وإلى المبرد يرجع الفضل فى تسمية هذا النوع مقترناً بالمثال.

---

(١) هو زيادة متعينة فى الكلام... انظر: الإيضاح: ٣/ ١١٣.

(٢) سر الفصاحة: ١٤٥، وانظر. أسس النقد الأدبى عند العرب: ٣٥٤.

(٣) ديوانه: ٤/ ٩٠، وعيون الأخبار: ٤/ ٨٣.

(٤) الكامل: ٣/ ١٤٨.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٤٨.

(٦) التشبيه باعتبار تعدد طرفيه، أو أحدهما أربعة أنواع: ملفوف، ومفروق، وتسوية، وجمع. انظر. الإيضاح: ٣/ ٥٤. والمطول: ٣٣٨.

وفائدته: أنه يبين بالمثال الواحد الكثير من أحوال الموصوف، ففيه فضيلة الإيجاز.

وقد ألمح ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلى هذا النوع من التشبيه بقوله: «وشبه زهير امرأة في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد، فقال:

تنازعتِ المَهَا شبها ودرُّ البَحـ ـورِ وشاكهتْ فيها الظِّباءُ

معنى: شاكهت: شابهت. قال ثعلب: «أراد: فيها شبه من البقر في العيون، ومن الدّرّ في الصفاء، ومن الظباء بطول العنق»[1].

وقال المبرد: «ومن التشبيه الحسن قول جرير في صفة الخيل:

يشتفن للنظرِ البعيد كأنّما إرنانهُا ببوائنِ الأشطانِ

قوله: «يشتفن» و «يتشوّفن» في معنى واحد. وقوله: «كأنما إرنانها ببوائن الأشطان» أراد: شدة صهيلها. يقول: كأنما يَصهلْن في آبار واسعة، تُبين أشطانها عن نواحيها. ونظير ذلك قول النابغة الجعدي:

ويَصْهَلُ في جَوْفِ الطَّوِيِّ صَهيلاً يُبِينُ للمُعْرِبِ

فقوله: «تبين أشطانها عن نواحيها» أي تبعد حبالها عن جوانبها. وهذا يدل على سعة أجواف الخيل عند صهيلها. وكذا الحال في بيت النابغة فهو يصف سعة أجوافها. فكأن جوف الواحد منها عند الصهيل بئر، وبه يُعرف الخيل أنه عربي؛ فالمراد بقوله: «يُبين للمعرب» أنه إذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم أنه عربي[2].

وقال المبرد: «ومن حسن التشبيه قول النابغة الجعدي:

غادرْنَ نضْلةَ في معتركٍ يجرُّ الأسنّة كالمحْتَطِبِ

---

(١) الشعر والشعراء: ١/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) الخصائص: ١/ ٣٦.

يقول: طعن وغودرت الرماح فيه؛ فظل يجرها كأنه حامل حطب[1]. ووجه الشبه: حال المجهد الذي يعاني من أشياء تزيد من آلامه فالتشبيه مركب.

ثانيا: التشبيه الجيد:

أعجب المبرد بكثير من التشبيهات، وزاده إعجابا تشبيهات المولدين، فأورد طائفة منها في «باب التشبيه» ووصفها بالجودة ولم يعلق عليها إلا نادرًا؛ فقد تركها تدل بنفسها على جودة النظم، وروعة التصوير؛ فمنها قوله:

«وفي هذا الشعر من التشبيه الجيد قوله:

خبِّـر فـؤادك أو ستُخـبِـرهُ ... قسمًا لينتهيـنَّ أو حلفـا

الـحبُّ ظهـرٌ أنـت راكِبُـهُ ... فإذا صرفْتَ عِنانَهُ انصرفا[2]»

فقوله: «الحب ظهرٌ» من التشبيه البليغ الدال على الادعاء المفضي إلى المبالغة، وفيه من الجودة مالا يخفى.

ويقول: ومن التشبيه الجيد قوله[3]:

فكأنِّي بما أُزيِّن منها ... قعدِيٌّ يُزيِّن التحكيما

وكان سبب هذا الشعر أن الخليفة تشدد عليه في شرب الخمر، وحبسه من

---

(١) الكامل: ٣/ ٤٦.

(٢) الكامل: ٣/ ١٤٢.

(٣) أبو نواس والأبيات بديوانه: ٢٩. كُبْر: معظم الشيء، والمراد غاية الشاعر منها. قعديّ القعدُ: الذين لا ديوان لهم. وقيل: القَعد: الذين لا يمضون إلى القتال، وهو اسم للجمع. وبه سُمي قعدُ الحرورية. ورجلٌ قعدي: منسوب إلى القعد كعربي وعَرب.. والقَعَديّ من الخوارج: الذي يرى رأي القَعد الذين يرون التحكيم حقا غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس: وقال بعض مُجاّن المحدثين فيمن يأبى أن يشرب الخمر، وهو يستحسن شُربها لغيره، فشبهه بالذي يرى التحكيم وقد قعد عنه فقال:

فكأني وما أحسن منها ... قعدي يُزيِّن التحكيما

اللسان (قعد).

أجل ذلك حبساً طويلا؛ فقال:

أيُّهـا الرائحـانِ باللّـومِ لا تلُومـا ... لا أذوقُ المـدام إلاَّ شميمـا

نـالَنى بالمـلامِ فيهـا إمـامٌ ... لا أرى لى خـلافه مستقيما

فاصرِفاهـا إلى سـواىَ فـإنّى ... لستُ إلاَّ علىَ الحديثِ نديما

كُبْـر حظى منها إذا هـى دارتْ ... أن أراها وأن أشمَّ النسيما

فكأنّـى بمـا أزيّـن منهـا ... قَعَـدىٌ يُزيّـنُ التَّحْكيمَـا

لم يُطِـقْ حَملـةُ السلاحَ إلى الحـرْ ... بِ فأوصَى المطيقَ ألاَّ يُقيمَا

فهذا المعنى لم يسبقه إليه أحد[1].

فأبو نواس لا يهتم بمن يلومه فى ترك الخمر؛ فالخليفة الأمين لامه فيها، وحبسه فغايته منها بعدُ الحديث مع الندماء، وشمها... وأقول: ليت أبا نواس استجاب فى تحريمها والبعد عن مجالسها لله ولرسوله فكان ذلك أصلح لدينه ودنياه. ولكنه خاف العبد، ولم يخف الرب. والناس إلى فناء...!

والتشبيه مركب؛ فقد شبه الشاعر حاله فى تزيينها لغيره مع الامتناع عنها بحال القعدى الذي يرى التحكيم بين علىٍّ، ومعاوية — رضى الله عنهما — ولا يمضى إلى القتال ووجه الشبه: حال من يرى الشئ لغيره، ولا يراه لنفسه.

وسبب الجودة: عقد الشبه بين شيئين لا يخطر اجتماعهما على البال عادة.

ويورد أبو العباس للتشبيه الجيد قول الحسن بن هانئ[2]:

ترى الناس أفواجا إلى باب دارهِ ... كأنَّهم رجْـلاً دَبًا وجَرَادِ

فَيـومٌ لإلحاقِ الفقيرِ بذِى الغِنى ... ويـوم رقابٍ بُوكرتْ لحصَادِ

---

(١) الكامل: ٣/ ١٤٠، وجاء فيه: ٣/ ٢٦٢، ٢٨٤ قعدى. نسبة إلى القعد، وهم طائفة من الصُّفرية، وكان عمران شاعر قعد الصفرية، ورئيسهم ومفتيهم.

(٢) الكامل: ٣/ ١٤٠، ورغبة الآمل: ٧/ ٤٦، والبيتان بديوان أبى نواس: ٤٧٢.

الدَّبى: الجراد قبل أن يطير. يعنى: أن الذين يقصدون دار الممدوح كالدّبى فى الكثرة، والحركة، والانتشار.

ويجمع المبرد بين الحسن والملاحة حيث يقول[1]: «ومن أحسن التشبيه ومليحه قول رجل يهجو رجلا برثاثة الحال:

يأتيكَ فى جُبّةٍ مُخرّقــةٍ   أطـولُ أعمارِ مثلِها يـومُ
وطيلسانٍ كالآلِ يلبسُـهُ   علـــى قميصٍ كأنه غَيْمُ

رسم الشاعر صورة مزرية لرجل رقيق الحال، رث الهيئة، فشبه أولاً: الطيلسان الذي يلبسه بالسراب فى الخداع وسرعة الزوال. وثانياً: القميص بالغيم فى الخفة، وسرعة الزوال.

وأقول: إن فى الملاحة معنى الحسن، ولكن الشاعر قصد التفكه والسخرية فهو على حدّ الاستعارة العنادية التمليحية ويفهم هذا من النظم.

ثالثا: التشبيه المحمود:

وهو الذي بين طرفيه تلاؤم، فهو يتفق فى المعنى مع كل من التشبيه الحسن والجيد. وقد ورد هذا التشبيه فى الكامل مرة واحدة. قال المبرد: «ومن التشبيه المحمود قول الشاعر:

طليـــقُ الله لم يمـــنُن عليـــــه   أبـو دَاوُدَ وابــنُ أبــى كثيـــرِ
ولا الحجّــاج عينَــيْ بنــت مَــاءٍ   تُقلّبُ طرفها حـذَرَ الـصُّخُورِ

وهذا غاية فى صفة الجبان » ونصب «عينى بنت ماء» على الذم[2]. قال

---

(١) الكامل: ٣/ ١٥١. الطيلسان: رداء مقوّر أحد جانبيه يشتمل على كتفيه وظهره. الاقتضاب: ٢/ ١٩٨، وحكى عن الأصمعي أنه قال: ليس بعربي، وأن أصله فارسي. اللسان (طلس) الآل: السراب.

(٢) الكامل: ٣/ ٣٨، ورغبة الأمل: ٦/ ١٥٤.

الجاحظ: كان الحجّاج أخيفش[1]، منسلق الأجفان، ولذلك قال إمام بن أقرم النميرى: وكان الحجاج جعله على بعض شُرط أبان بن مروان، ثم حبسه، فلما خرج قال: «البيتين»؛ لأن طير الماء لا يكون أبداً إلا منسلق الأجفان[2].

شبه الشاعر عينى الحجاج عند الخوف والحذر بعينى طائر الماء إذا رأى الصقر ونحوه. فالتشبيه دقيق، ومصور لحال المشبه. فكان محموداً.

رابعا: التشبيه القاصد الصحيح:

وهو المعتدل المستقيم البعيد عن الإفراط والتهويل. قال المبرد: «ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغة[3]:

---

(١) الخفَش: ضعف البصر، وضيق فى العين. وقيل: صِغرٌ فى العين خلقه. وقيل: هو فساد فى جفن العين، واحمرار تضيق له العيون من غير وجع ولا قُرْح... وفى كتاب عبد الملك إلى الحجاج: قاتلك الله. أخيفش العين. هو تصغير الأخفش. اللسان (خفش). طليق الله: يعنى أن الذى أطلق الشاعر من أسره هو الله وحده، لا أحد هؤلاء الثلاثة.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٣٨٦.

(٣) الكامل: ١/ ٦٤، والأبيات بديوان الشاعر: ٣٢ – ٣٤، وهى فى مدح النعمان بن المنذر، والاعتذار إليه.

بين في البيت الأول سبب الهمّ الذي داخله في غير كنهه: في غير قدر الوعيد وفي غير حقيقته. راكس: واد. الضواجع: جمع ضاجعة، وهي منحنى الوادي ومنعطفه. يقول: أتاني وعيده على غير ذنب أذنبته، فبتُّ كالملدوغ، خوفاً منه ورهبة على أني ناءٍ عنه، وبيني وبينه راكس والضواجع وكأنها نائية عن بلاد النعمان.

والبيت الثاني: ساورتي: واثبتني. الضئيلة: حية دقيقة قد أتتْ عليها سنون كثيرة، فقلّ لحمها، واشتد سمها. الرقش: التي فيها نقط سواد، وبياض، ناقع: ثابت.

البيت الثالث: يسهد من ليلي التمام: أي يمنع من النوم، وليل الشتاء وهو يطول على من قاساه وإن قصُر، والسليم: الملدوغ وسمى بذلك على التفاؤل له بالسلامة، كما سميت الفلاة المهلكة: مفازة على التفاؤل للقوم بالفوز والنجاة. قعاقع: صوت.

البيت الرابع: أنذر بعضهم بعضاً؛ لأنها لا تجيب راقياً، لنكارتها، وشدتها، تطلقه طوراً... إلخ. أى تخفف عنه مرة، ومرة تشتد عليه، كذلك حال اللديغ. هامش الديوان، اللسان: (طلق).=

وعيدُ أبي قابوسٍ في غير كُنهه ... أتاني ودوني راكسٌ فالضَّواجعُ
فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ ... من الرُّقْشِ في أنيابها السمُّ ناقعُ
يُسهَّد من نوم العِشاءِ سليمُها ... لحَلْيِ النِّساءِ في يديه قَعاقعُ
تناذرَها الرّاقونَ من سُوءِ سُمِّها ... تطلقهُ حيناً وحيناً تُراجعُ

فهذه صفة الخائف المهموم، ومثله قول الآخر[1]:

تبيتُ الهمومُ الطارقاتُ يعدْنني ... كما تعترى الأوْصابُ رأسَ المطلقْ

والمطلق هو الذي ذكره النابغة في قوله:

«تطلقهُ حيناً وحيناً تراجعُ»

وذلك أن المنهوش إذا ألحَّ الوجع به تارة، وأمسك عنه تارة من لوعة في أثر لوعة، والفترة بينهما والخائف لا ينام إلا غِراراً، فلذلك شبه بالملدوغ المسهَّد. وقوله:

«لِحَلْي النساء في يديه قعاقعُ»

لأنهم كانوا[2] يعلقون حلي النساء على الملدوغ، ويزعمون أن ذلك من أسباب البُرء؛ لأنه يسمعُ تقعقُعها، فيمنعه النوم فلا ينام، فيدب السم فيه، ويُسهَّدُ لذلك».

فالنابغة يصور حاله مع الهمِّ الذي ألمَّ به بسبب وعيد النعمان بحال الملدوغ المسهَّد في الليل الطويل من تعليق الحلى عليه لتزعجه بقعقها، فلا ينام كي لا يسرى السم فيه، وهي صورة معبرة أتم تعبير عما قصده الشاعر، فإن خوفه من

= وكتاب الأضداد عند الأصمعي: ٣٨، والأضداد للسجستاني: ١١٤، والعمدة: ٢/ ٢٦٠، والكامل: ١/ ١٦٤.

(١) هو شأس بن نهار العبدي.

(٢) قال الثعالبي: (ليل السليم): يضرب به المثل في الطول والسّهر فيه، لأن السليم لا ينام لما به، ولا يترك للنوم إن غشيه النعاس، لئلا يسرى السم في بدنه. والعرب تعلق عليه الحلى وتُسهره» ثم روى بيت النابغة. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٦٣٥

ملك، وهي في نفس الوقت تبين ما كان يفعله بعض العرب في ذلك الحين. يقول الثعالبي (ت ٣٢٩هـ) حدّث أبو العيناء عن الأصمعي أنه قال: انصرفت ليلة من دار الرشيد وأنا أشكو علة ثم غدوت إليه، فقال لي: يا أصمعي كيف بِتَّ؟ فقلتُ: بليلة النابغة يا أميرَ المؤمنين: فقال إنا لله، هو قوله:

فبتُّ كأني ساورتْني ضئيلةٌ ... من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمّ ناقعُ

فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما أخبرت خبره، وإنما أردت قوله:

كِليني لِهمٍّ يا أميمةَ ناصِبِ ... وليلٍ أقاسيهِ بَطيءِ الكواكبِ[1]

وهذا مثال آخر يبين أن الأرض على اتساعها تضيق على الخائف حتى كأنها شبكة الصائد. قال الشاعر:

كأن فِجاعَ الأرضِ وهي عريضةٌ ... على الخائفِ المطلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

يُـؤَدَّى إليـــه أنَّ كـــلَّ ثنيَّــةٍ ... تيمَّمهـا تَرْمـي إليـــه بقـــاتِلِ

فالمبرد يعلق على البيتين بقوله: «... ويقال لكل شيء مستدير: كفة.. وكِفةُ الحابل يعني: صاحب الحبالة التي ينصبها للصيد»[2]

والعلم فى هذا المعنى قول الله تعالى يصور شدة هلع المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾[3].

أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم، أو ضارة لهم لجبنهم وهلعهم، وما فى قلوبهم من الرعب إذا نادى مناد فى العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة. ظنوه إيقاعًا بهم.

---

(١) ثمار القلوب: ٦٣٤

(٢) الكامل: ٣/ ١٣١.

(٣) سورة المنافقون: ٤.

... ومنه قول الأخطل:

مازلتَ تَحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهُم   خيلاً تكرُّ عليهم ورِجالاً[1]

خامسا: التشبيه المطَّرِد:

وهو المشهور بين العرب، الجارى على ألسنتهم؛ لأنه يعبر عن طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وعلى ما تقع عليه أنظارهم ولا سيما ما يألفونه فى الطبيعة المحيطة بهم، فصور هذه الأشياء تتوارد على خواطرهم؛ ولذا وقع التشبيه بها فى كلامهم كثيرا. وقد بينت فى «منهج التشبيه» صورا من ذلك. وأورد هنا بعض الأمثلة مع تحليلها تحليلاً بيانيًا.

يقول أبو العباس: «ويقال للخطيب: كأنه لسانه مِبْرد. فهذا الجاري فى الكلام كما يقال للطويل: كأنّه رمحٌ، ويقال للمهتز للكرم: كأنه غُصن تحت بارحٍ»[2].

وقال: «ومن التشبيه المطرد على ألسنة العرب ما ذكروا فى سير الناقة وحركة قوائمها. قال الراجز:

كأنها ليلةُ غِبِّ الأزرقِ[3]   وقد مدَدْنا باعها للسُّوَّقِ

«خرقاءُ بين سُلَّمين تُرتقى»

قوله: «ليلة غب الأزرق» إنما يعنى موضعا وأحسبه ماءً... قال زهير[4]:

فلما وردن الماء زُرْقاً جمامُهُ   وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضرِ المتخيِّمِ

وقوله: «وقد مددنا باعها للسُّوَّقِ».

---

(١) الكشاف: ٤/ ١٠٩.

(٢) الكامل: ٣/ ١٣٤.

(٣) الأزرق: ماء بالبادية لبنى تميم. وفى ديوان الراعي:

حتى وردْنَ من الأزراق منهلاً   وله على آثارهن سحيلُ

(٤) من معلقته بديوانه: ٤٢. يُقال: ماء أزرق: إذا كان صافيا. الجمام: المجتمع. المتخيم: المقيم.

يقول: استفرغنا ما عندها من السيْر... وقولها:

«خرقاء بين السُّلمين ترتقى»

يقول: لكثرة حركة الخرقاء، وقلة حذقها بالصُّعُود. وقال الآخر:

كـأنّهَا نائحةٌ تفجـّـعُ ... تُبْكِي بشجوٍ وسواهَا الموجعُ»(1).

شبهت قوائم الناقة وقد أجهدت فى السير برجلي امرأة خرقاء تصعد بين سلمين ووجه الشبه: التخبط، والاضطراب، وفقد الاتزان.

وأورد أبو العباس تشبيهات كثيرة ومنها قوله: وقال آخر(2):

كـــأن ذراعيها ذراعـــا بَذِيَّـــــةٍ ... مُفَجَّعَةٍ لاقتْ خـلائِلَ عـن عَفْرِ

سَمِعْنَ لها واستفرغَتْ فى حديثها ... فلا شئَ يَفْرى باليدَيْن كما تُفْرى

قال: أنشدنيهما عبد الصمد بن المعَذَّل، وأنشدنيه سعيد بن سلمْ ولو قيل: إن هذا من أبلغ ما قيل فى هذا الوصف ما كان ذلك بعيداً. وصفها بأنها بَذِيَّة، وقد فُجِعَتْ بما أُسْمِعَتْ، ونيل منها، ولقيتْ خلائلها بعد زمان. وتلك الشكوى كامنة فيها، وأصغين لها فتسمّعْن. والفرى: الشق.

والتشبيه يصور هيئة سرعة حركة اليدين، واضطرابهما يمنة ويسرة، وصعودًا وهبوطا.. إلخ.

ومن الأمثلة قول امرئ القيس:

كأنَّ الحَصَى من خلفِها وأمامها ... إذا نَجلَتْهُ رجلُها حذْفُ أعْسَرَا

كـأنَّ صليل المَرْوِ حين تشـدُّهُ ... صَليلُ زُيُـوفٍ يُنتقدْن بِعَبْقَرا

يقول المبرد: قوله: حذف أعسراً: يريد أنه يذهب على غير قصد. وقوله: «صليل زيوف» يقال: إن الزائف شديد الصوت صافيه(3).

---

(1) الكامل: ٣/ ١٠٢

(2) الكامل: ٣/ ١٠٥، ١٠٦

(3) الكامل: ٣/ ١٠٦، ١٠٧. وديوان الشاعر: ٦٤.

قال شارح ديوانه: إذا سارت الناقة فرقت الحصى إلى كل جهة؛ لشدة سيرها. شبه صوت الحجارة إذ رمتْ بها، ووقوع بعضها على بعض بصوت الدراهم الزُيوف إذا انتقدها الصَّيْرَف، وقلبتها. والزُيوف: الرديئة. واحدها زائف.. وإنما خصها؛ لأن صوتها أشد من صوت غيرها؛ لكثرة نحاسها.

التشبيه فى البيتين حسى، وقد راعى الشاعر فى الصفة المشتركة شيئا من التفصيل، وهو يستدعى التأمل والفكر.. ففى الأول جعل الرمى من أعسر وهو يناسب تفريق الدابة للحصى فى غير انتظام.

وفى الثانى راعى صوت النقد - الزيوف - تحقيقا للتماثل فى الصوت.

سادساً: التشبيه العجيب:

وصف هذا النوع بالعجيب لكونه مركباً، أو لأن أحد طرفيه اتصف بقيد يتحقق به التماثل، أو لما حوى من المبالغة، وهذا يحتاج إلى فضل تأمل وإعادة نظر كما يتبين من أمثلته.

يقول أبو العباس: «ومن تمثيل امرئ القيس العجيب»[1]:

كأنَّ عُيونَ الوحْشِ حوْلَ خِبائِنا   وأرحُلنا الجَزعُ الذى لم يثقَّبِ

ومن ذلك قوله:[2]

إذا ما الثُّريّا في السَّماءِ تعرَّضَتْ   تعَرُّضَ أثناء الوِشاحِ المُفصَّلِ

قد أكثروا في الثريّا[3] فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى، ولا بما يقارب سهولة

---

(١) ديوانه: ٥٣. قال الشارح: إنما شبه عيونها وهي سود كلها لا يبدو فيها بياض، الجزع: ضرب من الخرز، وقيل هو الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض.

(٢) ديوانه: ٥٣، ونقد الشعر: ١٦٨، والمثل السائر: ٢/ ٩٣

(٣) الثريا: هو النجم، وصورتها ستة كواكب متقاربة حتى كادت تتلاصق، وأكثر الناس يجعلها سبعة. سميت بهذا لأن عن مطرها تكون الثروة، وهي تصغر «ثروى» تصغير تكبير ولم ينطق بها إلا مصغرة، اللسان: (ثرى)، وانظر العمدة: ٢/ ٢٥٦، وقد وردت فيها أشعار كثيرة: أنظر غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: ١٨، وما بعدها، والجمان: ١٦٦، والطراز:=

هذه الألفاظ»[1].

فالبيت الأول عند أبي العباس من التمثيل، ولكنه من تشبيه مفرد مقيد، بمفرد مقيد وتقييد الطرفين أو أحدهما لا يخرج التشبيه عن الإفراد وهو لا يفرق بين تشبيه، وتمثيل جرياً على المعنى اللغوي. وقد بينت ذلك في الفصل الأول «منهج المبرد».

في البيت الأول شبهت عيون الوحش لما فيهن من سواد وبياض بالخرز، وجعله غير مثقب لأن ذلك أصفى له، وأتم لحسنه، إذ كانت عيون الوحش غير مثقبة، فقوله: «لم يثقب» جملة يتم بها المعنى، وفائدتها تحقيق التشبيه، وهذا يسمى: «الإيغال»[2].

وفي البيت الثاني: «إذا» معمول قوله: «تجاوزت» في البيت الذي قبله وهو:

تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ معشرٍ   عليَّ حِراصٍ لو يُشرُّون مقْتَلي

يقول: تجاوزتُ هذه الأهوال والأحراس حين تصوَّبت الثريا للمغيب وذلك أن الثريا تستقبلك بأولها، فإذا أرادت المغيب تعرضت. أي أرتك عُرضها. أي ناحيتها.

فشبهها بالوشاح المفصّل إذا تلقاك بناحيته. والمفصّل: الذي جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤ[3]. وقال التبريزي (ت ٥٠٢هـ): شبه اجتماع كواكب الثريا، ودنو بعضها من بعض بالوشاح المنظم بالودع المفصَّل بنيه[4]. وزيادة «المفصل» إيغال، وبه يتحقق الشبه وهو سبب وصفه بالعجيب. وكلا التشبيهين صحيح، ووجه نقده إلى الشطر الأول. وهو: أن الثريّا لا تتعرض، وإنما تتعرض الجوزاء؛

= ١/ ٣٥١، وأسرارا البلاغة: ١/ ١٩٩، ٢/ ٣، ومعاهد التنصيص: ٢/ ١٧ - ٢٨.

(١) الكامل: ٣/ ٣٣.

(٢) وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. الإيضاح: ٣ / ١٣٧.

(٣) ديوانه: ١٤ (هامش).

(٤) شرح القصائد العشر: ٢٥

فذكر «الثريا» على الغلط كما قال الآخر: «كأحمر عاد»، وإنما هو: «كأحمر ثمود» وهو عاقر الناقة، أو أن الشاعر عنى بها الجوزاء [1].

ويقول المبرد: ومن أعجب التشبيه قوله النابغة[2]:

فإنَّكَ كاللَّيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكي وإنْ خِلتُ أنَّ المُنتأى عنكَ واسِعُ

وقوله:

خطاطيف حُجْنٍ في حِبالٍ متينةٍ تُمَــدُّ بهـا أيْــدٍ إليْكَ نوازِعُ

في البيت الأول: شبه النعمان بالليل في وصوله إلى أي مكان، ولذا فإنه لن يفلت منه هارب؛ لأن له أعوانًا يردونه عليه وهذا الوصف وإن كان يتحقق أيضا بالنهار إلا أن إيثار الليل أنسب للمقام؛ فالشاعر يعبر عن قلقه وخوفه من النعمان بعد أن توعده، والليل مخيف بظلمته وكثرة همومه، وتوقع الأعداء والوحوش...إلخ[3]

ووجه ابن قتيبة نقدًا إلى البيت الثاني؛ فقال: «رأيت علماءنا يستجيدون معناه، ولست أري ألفاظه جيادا، ولا مبينة لمعناه؛ لأنه أراد: أنت في قدرتك عليّ كخطاطيف عُقف يُمدّ بها، وأنا كدلو تُمدُّ بتلك الخطاطيف، وعلى أني لست أري المعنى جيداً»[4].

وللشاعر عذره؛ فهو متأثر بالبيئة البدوية، فهذه الصورة وأمثالها لا تفارق خياله، فعبر بها عن حالته النفسية، وما قد يصير إليه حاله مع النعمان بن المنذر.

---

(1) انظر: الشعر والشعراء: 1/ 111 وجمهرة أشعار العرب: 124، وشرح القصائد الشعر: 25، والوساطة: 13، والموشح 1/ 43.

(2) ديوانه: 28 الخطاطيف: جمع خطاف، والحجة: جمع أحجية وهو المعوج. نوازع: جواذب.

(3) انظر ديوانه: 38، وجمهرة أشعار العرب: 72، وعيار الشعر: 24، 47، وأسس النقد الأدبي عند العرب: 280.

(4) الشعر والشعراء: 1/ 78، 171، وانظر نقد النثر: 86

وقال المبرد: ومن عجيب التشبيه قول ذي الرمة[1]:

وردتُ اعْتِسافاً والثُّريا كأنّها ... على قِمّة الرأسِ ابنُ ماءٍ مُحَلِّقُ

فجاءتْ بِنَسْجِ العنكبوتِ كأنّهُ ... على عَصَوَيْها سَابريٌّ مُشبرَقُ

وتأويله: أنه يصف ماء قديما لا عهد له بالوِرادة، فقد أصفر، وأسود فقال:

وماءٍ قديمِ العهدِ بالناس آجنٍ ... كأنَّ الدَّبا ماءُ الغضَا فيه يَبْصُقُ

وقد أجاد علقمة بن عَبَدَة فى وصف الماء الآجن حيث يقول:

إذا وردتْ ماءً جِمَامه ... من الآجنْ حِنّاءً معاً وصبِيّبُ[2]

فى قول ذى الرمة: شبهت الثريا وقد توسطت السماء بطير الماء المحلق فى الهواء، ووجه الشبه الارتفاع، والاستواء فوق الرأس[3].

وشبه الماء المتغير بطول المكث، وبعد عهده بالورادة بنسج العنكوت فى التغير والرقة.

وفى البيت الذى بعده: وصف ماء قد علاهُ الطُّحلب؛ لعدم الاستقاء منه؛ فأخضر؛ فكأن الدَّبا وهي الجراد بصقت فيه ماء الغضا. قال الأصمعي: وماء الغضا أخضر إلى السواد[4].

وفى بيت علقمة: شبه الماء المتغير بسبب عدم ورادته بالحنّاء ونحوها فى

---

(١) ديوانه: ١/ ٤٨٨. الاعتساف: ركوب الفلاة بلا دليل. السابري: الرقيق وهو فى الأصل: الدروع السّابرية المنسوبة إلى سابور - ملك الفرس - ومشبرق: ممزق. الغضا: شجر له هدبٌ يؤذي الإبل إذا أكلته. محلق: مستدير. انظر الكتاب: ٢/ ٩٩ والمقتضب: ٤٢ « ونقد النثر: ٥٨ واللسان: (عسف).

(٢) رواية ديوانه: ٤٢ « فأوردتها ماء» أي ناقته. جمام الماء: ما أجتمع منه وكثر والآجن: المتغير. الصبِّب: شجر بالحجاز يختضب به.

(٣) انظر: الكتاب: ٢/ ٩٩، والاقتضاب. القسم الثالث: ١٦٤، والمخصص ٨/ ١٥٣، والمفضليات: ٣٩٢.

(٤) الاقتضاب. القسم الثالث: ١٦٤.

اللون. وقد أجاد كلا الشاعرين فى وصف الماء المتغير بدقة وذكاء ولكل طريقته.

وقال أبو العباس: ومن التشبيه العجيب قول ذي الرمة[١]:

شخْتُ الجُزارة مثل البيت سائِرهُ ... من المسُوح خِدَبٌّ شَوْقَبٌ خَشِبُ

الشخت: الضئيل اليابس الضعيف. الجزارة: القوائم. وقوله: «مثل البيت سائره من المسوح. يعني إذا مدّ جناحيه. وإنما أخذ هذا من قول علقمة بن عَبَدَة[٢]:

صعْلٌ كأن جناحيْه وجؤجؤه ... بيتٌ أطافتْ به خرقاءُ مهْجُومُ

الصعل: الصغير الرأس. الخرقاء: التي لا تحسن شيئا؛ فهي تفسد ما عرضت له. والمهجوم: المهدوم. الخِدَبّ: الضخم. الشوْقب: الطويل»[٣].

قول المبرد: «يعني إذا مد جناحيه» قيد للمشبه، وبه يتحقق التشبيه وفى البيت تقديم وتأخير. والتقدير: سائره – الثور – مثل بيت الشَّعَر المبني من المسوح وهي أكسية من الشعر. الواحد: مسح[٤]. يعني «خيمة».

شبه الظليم فى نشر جناحيه ببيت من شعر أطافت به خرقاء، فلم تحسن

---

(١) ديوانه: ٣٨، وقبله بأبيات قوله:

ولاح أزهرُ مشهورٌ بنقْبته ... كأنه حين يعْلو عاقرٌ لَهِبُ

أزهر: ثور أبيض. نقبته: لونه. عاقر: رملة لا تنبت شيئا. شبه الثورَ الأبيض بشعلة نار من بريقه، وبياضه. جمهرة أشعار العرب: ٦٧٩ بتصرف. وهذا التقدير مناسب لأن البيت فى مقدمة أبيات كثيرة تصف الثور ومنها بيت الشاهد. وقد وهم شارح ديوانه، فبين المعنى على أنه فى الصبح. قال: شبه الصبح بشعلة نار على أعلا الرملة.

(٢) ديوان علقمة: ٦٣، وهذا البيت امتداد للحديث عن «خاضب» ص ٥٨ فى بيت سابق – وهو الظليم الذي أكل الربيع، واحمرت قوائمه.

(٣) الكامل: ٣/ ٣٥. وفى جمهرة أشعار العرب: ٧٧٥. قوله: والخشب: الغليظ من كل شئ وهو انسب لمعنى البيت.

(٤) انظر رغبة الأمل: ٦/ ١٤٩.

إقامته وعمله، فكلما رفعت جانبا سقط جانب آخر واسترخت عيدانه وأطنابه وانتشرت أكنافه[1].

واشترط أن يتعاطي في تقويضه «خرقاء» ليكون أشد لتفاوت حركاته، وخروج اضطرابه عن الوزن[2] فبهذا الشرط يتحقق الشبه.

ويقول المبرد: «قال الشماخ، وهذا من التشبيه العجيب:

فقَرّبْتُ مُبْراةً تخَالُ ضلُوعَها   من الماسخيّات القِسِيَّ المُوَتَّرَا

وماسخة من نصر بن الأزد وإليهم تنسب القسيُّ الماسخية»[3].

شبه ضلوع ناقته الهزيلة بالقسيّ في الانحناء، والتقوس. واشترط في القسيّ أن تكون موترَه، لإفادة تمام التعرج والانحناء في ناقته. وبهذا الوصف استحق أن يوصف التشبيه بالعجيب[4].

يقول قدامة (ت ٣٣٧هـ): وقد أحسن الشّماخ في هذا التشبيه من قبل اجتماع الأضلاع، والقسي الموترة في الشكل والتوتر، والأعصاب، والأوتار. ولم يرد إلا الشكل فقط، وقد أتي علي ما فيه [5].

والبحتري أخذ هذا المعنى فزاد عليه حين قال:

كالقسِيّ المُعَطّفاتِ بل الأ   سهُم مبريَّةً بل الأوتار

(١) ديوان علقمة: ١٣٦ (هامش).

(٢) أسرار البلاغة: ٢/ ٧٠، وانظر المفضليات ٤٠٠، واللسان (هجم).

(٣) الكامل: ٣/ ٤١، والبيت بديوان الشماخ: ١٣٣ وقبله:

ولما رأيتُ الأمر عرش هويّةٍ   تسليتُ حاجات الفُؤادِ بشمّرا

مُبراة: من البرة التي تجعل في أنف الناقة. الماسخيات: نسبة إلى رجل من الأزد لأنه هو أول رجل عمل القسي من العرب... فلما كثرت النسبة إليه وتقادم ذلك قيل لكل قوس: ماسخي اللسان (مسخ).

(٤) المبرد واضع النواة الأولي للمباحث التشبيه: ٢٧٧ بتصرف.

(٥) نقد الشعر: ١٢٦.

فأحسن فى الترتيب»[1]، وهو ترتيب مصيب' لأنه بدأ بالأغلظ وبالأدق، والأكثر دقة. وهكذا بدت عبقرية البحتري فى توليد المعني، وتعدد المشبه به.

وأثنى المبرد على بيت الشماخ بقوله: وأحسن ما قيل فى صفة الضلوع، واشتباكها قول الراعي[2]:

وكأنما انتطحتْ على أثباجِها فُدرٌ بِشابَةَ قد يَمَمنَ وُعُولاً

الفادر: المسنّ من الوعول.

شبه هيئة انحناء الضلوع، ومواجهة بعضها إلى بعض فى اقتراب بهيئة انحناء قرون وُعُول، واجهت فى اقتراب وعُول أخري. فقد شرط فى المشبه به قيد، به يتحقق التشبيه، ويوصف بأنه أحسن ما قيل فى هذا المعني.

فلم يفت المبرد أن يفاضل بذوقه، وبما حوت بعض النصوص من خصوصيات كان بها التفاضل فى المقام الواحد.

ومن الأمثلة قوله: ومن عجيب التشبيه قول القائل:

لَعَيْنَكَ يومَ الْبَيْنِ أسْرعُ واكِفاً من الْفَنَنِ الْمَمْطُورِ وهْو مَرُوحُ

وذلك أن الغصن يقع المطر فى ورقه، فيصير منها فى مثل المداهن. فإذا هبت الريح لم تُلبثه أن تقطره»[3].

ففى طرفى التشبيه كثرة القطر، وسرعته، وهو ضمني؛ لأنه لم يرد على صورة من صور التشبيه المعروفة، وهو كذلك تشبيه مقلوب؛ لأن الصفة فى الغصن أكثر منها فى العين.

---

(١) الصناعتين: ٢٢٩.

(٢) والضمير فى «أثباجها» يعود على «نحائب» فى بيت سابق، وهو:

كانت نحائبَ مُنذرٍ ومُحرِّق أماتهن وطرقُهُنّ فحيلاً

أثباجها: جمع ثبج، وهو معظم الظهر، وفيه حاني الضلوع شابه: جبل بنجد، أو الحجاز.

(٣) الكامل: ٣/ ١٣٤.

تشبيهات المولدين:

ذكر أبو العباس أول «باب التشبيه» أنه سيصل هذا الباب الجامع بما ذكر قبل من تشبيهات العرب والمحدثين بعدهم[1] وما ذكره يتفق مع ما ذهب إليه من أنه لا فضل لقديم على محدث «ولكن يُعْطَى كلٌّ ما يستحق»[2] ولذا وجدنا فى «الكامل» كثيرا من تشبيهات المحدثين مشفوعة بصفات الحسن والجودة والملاحة... إلخ.

وقرب نهاية «باب التشبيه» يفى أبو العباس بما وعد فيقول: «ثم نذكر بعد هذا طرائف من تشبيه المحدثين ومُلاحاتهم، فقد شرطناه فى أول الباب إن شاء الله.

قال أبو العباس: ومن أكثرهم تشبيهًا؛ لاتساعه فى القول، وكثرة تفننه، واتساع مذاهبه، الحسن بن هانئ» [3] فهو أكثر المحدثين تشبيهًا؛ ولذا أورد له ثلاثة عشر تشبيها، فمنها قوله[4] فى وصف السفينة:

بُنِيَتْ على قَـدَرٍ ولاءَمَ بينَهـا ... طبقانِ من قِيرٍ ومـن ألـواحِ
فكأنها والماءُ ينطحُ صدرَهَـا ... والخيزُرانةُ فى يـدِ المـلاَّحِ
جَوْنٌ من العِقْبَانِ يبتدرُ الدُّجَي ... يهْوِي بصوْتٍ واصْطِفاقِ جَنَاحِ

شبهت السفينة وهي تشق عباب الماء؛ فتحدث أصواتاً تختلف ارتفاعا وانخفاضا بعقبان بيض، تنقض بأصواتها وأجنحتها؛ لا ترهب الظلمة. ووجه الشبه: السيطرة والقوة.

وقوله: [5]

---

(١) الكامل: ٣ / ٣٢.

(٢) المرجع السابق: ١ / ٢٨.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٣٤.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٤٣. الجوْن. الأسود المُشرب حمرة، والجون الأحمر الخالص، والجون الأبيض اللسان (جون).

(٥) من قصيدة للشاعر بديوانه: ٣١٤ عنوانها: «أثنوا بما عابوا» والكامل: ٣/ ١٤٥.

ما حطَّكَ الواشُونَ مِنْ رُتْبَةٍ عِنْدِي ولا ضَرَّكَ مُغْتابُ
كأنَّما أثنَوْا ولَمْ يعلمُوا عليْكَ عِنْدِي بالَّذي عِلمُوا

شبهت وشايتهم وغيبتهم للممدوح دون أن يعلموا بالثناء عليه، فقد أحسنوا إليه من حيث قصدوا الضّرر به، فهو على قول الشاعر:

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُوِيتْ أتاحَ لها لِسَانَ حَسُودِ

ومنها قوله: وفى قصيدة الحسن هذه:

إنْ جِئتَ لم تـأتِ وإنْ لم أجِئْ جئتَ فهذا منكَ لي دأبُ
كأنَّما أنت – وإن كنت لا تكذبُ فى الميعاد – كذابُ

وهذا كلام طريف»[1]. أي ظاهره هزل ولكنه فى واقع الأمر جدّ، قصد به التفكه والذم. يقول: دأبك معي إخلاف الموعد. فشبه إخلاف مخاطبه له فى الحالين بقول الكذب، ووجه الشبه: الخلف فى كل.

وأورد المبرد فى هذا المقام مثالين لبشار بن برد، ومسلم بن الوليد ووصفهما بالحسن. وهما من التشبيه الجامع، وأورد الرجز المشهور[2]:

«جاءوا بمذق هَلْ رأيتَ الذئبَ قَطْ»

ومنها ما روي لعبد الصمد بن المعذّل فى صفة العقرب:

تُبرزُ كالقرنَيْنِ حينَ تُطْلِعُهْ تُزْجِلُه مَرًّا ومَرًّا تُرْجِعُهْ
فى مِثْلِ صدْرِ السِّبْتِ خَلْقٌ تُفْظِعُهْ أعْصَلُ خطّارٌ تلُوحُ شُنْعُهْ
أسْودُ كالسُّبْحة فيه مبْضَعُهْ لا تصْنعُ الرّقْشاءُ مالا يصْنَعُهْ[3]

هذا الوصف الدقيق ينبع عن قوة الملاحظة، وإمعان النظر وتكرره، ولذا جاء

---

(١) الكامل ٣/ ١٤٧، وانظر له مثالا آخر: ٣/ ١٤٤.

(٢) الكامل: ٣/ ١٤٩.

(٣) الكامل: ٣/ ١٥٠ خلق: مخلوق والمراد ذنبها. تفظعه تراه فظيعا. أعصل: ملتو. خطّار: كثير الحركة فى اتجاهات مختلفة.

التشبيه مطابقاً لما وصف من أمر العقرب وخطورته.

ويقول أبو العباس: وقال الحنفي وهو إسحاق بن خلف في صفة السيف[١]:

ألقـــي بجانـــبِ خَـصْــرِهِ	أمْضَى مِنَ الأجـلِ المتـــاحِ
وكأنمــــــا ذرُّ الهبَـــــا	ءَ علَيْــهِ أنفــاسُ الريـــــاحِ

يصف الشاعر سيف ممدوحه. شبّه ما يُري مثل دبيب النمل في جوهر السيف بذرات الهباء المنبثة، في ضوء الشمس الداخل من ثقب صغير وسط الظلمة. في الانتشار والكثرة والصغر. ولعل هذا دليل القوة والمضاء في السيف.

ومن تشبيهات المحدثين ما تناقلته كتب البلاغة والنقد؛ لأنها من بديع المركب الحسي. حيث لوحظ فيها من القيود ما جعلها موضع الاستشهاد والمقارنة، فمنها[٢] قول دعبل بن علي[٣] في صفة المصلوب:

لم أرَ صفًّا مثلَ صفِّ الزُّط	تِسعيـن منهم صُلِبوا في خـطْ
من كلِّ عالٍ جِذْعُه بالشـطّْ	كأنّـه فــي جِذْعِـــه الُمشْتـطْ
أخو نُعَاسٍ جدَّ في التمـطِّي	قد خامر النومَ ولَـمْ يَغِــــطْ

وقول الأخطل في صفة مصلوب:

كأنّه عاشِــقٌ قد مدَّ صفحتَهُ	يَوْمَ الْوِدَاعِ إلى تَوْديعِ مرتحلِ
أو قــائمٌ من نُعاسٍ فيه لوثته	مُــواصِلٌ لِتمَطيه مـن الكسـلِ

---

(١) الكامل: ٣/ ٤٨.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

(٣) ديوانه: ١٧٩. الزُّط: جيل أسود من السِّند، والمراد: جماعة منهم كان رئيسهم يقال له: محمد بن عثمان. غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا، وأخذوا الغلاّت، وأخافوا السبيل، فوجه المعتصم «عجيف بن عنبسة» لحربهم سنة ٢١٩هـ فقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل، وأسر خمسمائة رجل، ثم ضرب أعناقهم، وبعث برؤوسهم إلى «المعتصم» وبذلك قضي علي فتنتهم. الكامل لابن الأثير. المجلد السادس: ٤٤٣.

فى قول الأخطل تشبيهان:

شبّه المصلوب أولا بالعاشق يوم وداع محبوبه، فهو يقف فى سكون، حال كونه مادا صفحة عنقه، باسطا ذراعيه. وهذه الهيئة نجدها فى المصلوب: سكون واستقرار أعضاء، وامتداد جسم.

وشبهه ثانيا بقائم من نعاس، مواصل التمطيّ بسبب الكسل، وفى كلا التشبهين تفصيل يكون به التقارب بين طرفي التشبيه. وموضع التفصيل الشطر الأخير؛ فقوله: «مواصل لتمطيه» قيد يبين استدامة التمطي، وقوله: «من الكسل» بيان لسببه.

وبعد أن بين هذا عبد القاهر قارن بين هذا القيد، والقيد فى قول «دعبل» فقال: قوله: جدّ فى التمطّي» شرط يتم التشبيه كما أن قوله: «مواصل» كذلك إلا أن فى اشتراط المواصلة من الفائدة ماليس فى هذا. وذاك أنه يجوز أن يبالغ ويجتهد ويجد فى تمطيه ثم يدع فى الوقت، ويعود إلى الحال التي يكون عليها فى السلامة مما يدعو إلى التمدد...

فأما قوله بعد: «قد خامر النّوم ولم يغط» فإنه وإن كان كأنه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال: إنه إذا أخذه النعاس؛ فتمطي ثم خامر النوم فإن الهيئة الحاصلة من جدّه فى التمطي تبقي له. فليس ببالغ مبلغ قوله: «مواصل لتمطيه» وتقييده من بعد بأنه «من الكسل» واحتياطه قبل بقوله: فيه لوثته»[1].

وأخيرا فإن مهارة الأخطل تبدو فى إبراز هذه الصورة المؤلمة للمصلوب فى صورة أخري فيها سكون وهدوء وراحة نفسية تخفف من هذا الألم. والشعر فى هذا قليل[2].

وأورد أبو العباس تشبيهات أخري لجرير، وعمرو بن معد يكرب، وأبي العتاهية، وطفيل وغيرهم من المولدين وقد مرت أمثلة أخري فى هذا المقام.

---

(١) أسرار البلاغة: ٢/ ٣ – ٣٧، وانظر الإيضاح: ٣/ ٣٠، والبلاغة العالية – علم البيان: ٥٠.

(٢) انظر. نظرات فى البيان: ١٤١، بتصرف.

المطلب الثاني

أضرب التشبيه

وأما أضرب التشبيه التي ذكرها أبو العباس فهي أربعة، وهو لا يريد أن يضمها إلى أوصاف التشبيه السابقة، ولكنه أراد أن ينبه إلى أن هذه الأضرب هي أصول التشبيه التي يدور في فلكها كل ما تجود به قرائح الشعراء والمتكلمين من تشبيهات في شتى الأغراض[1].

يقول: أبو العباس: «والعرب تشبه على أربعة أضرب؛ فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير، ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام» وسأبين هذه الأضرب:

أولا: التشبيه المفرط:

وهو التشبيه المبالغ فيه الذي تجاوز في وجه الشبه حدَّ المعقول، ويحمد هذا التشبيه إذا خرج في كلام جيد، وكان المشبه به جليل القدر، فخرج المشبه بالمبالغة من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان؛ فالمدار على النظم، وقد مثَّلَ بقول النابغة [2] ينعي حصن بن حذيفة:

يقُولُون حِصنٌ ثم تأبي نُفُوسُهُم ... وكيف بحصنٍ والجِبَالُ جُنُوحُ
ولَمْ تلفظ الموْتيَ القُبورُ ولَمْ تَزُلْ ... نُجُـومُ السَّماء والأديـمُ صحيحُ
فَعَمَّا قليـلٍ ثـمَّ جـاء نَعيُّــهُ ... فظلَّ نديُّ الحَـيِّ وهْـو يَنُـوحُ[3]

فحاسة المبرد الفنية وذوقه الأدبي لهما أثر في إدراك هذا الإفراط والإعجاب

---

(١) المبرد واضع النواة الأولى لمباحث التشبيه: ٢٢٦ بتصرف.

(٢) ديوانه: ١٩٠ والبيت الثالث فيه: «ثم جاش» بدل «ثم جاء».

(٣) الكامل: ٣/ ١٢٩.

به، وقد أيَّدَ كلامه بنصوصٍ من أدب القدماء والمحدثين. والشيء الهام في نظر المبرد هو الإقناع الفني الذي يتمكن فيه الشاعر بملكاته الخيالية من تبرير الصورة، وإقناعنا بها[1]. والشاعر بهذا الإقناع الفني يُمكِّن للصورة الأدبية، ويجعل المتلقي يُسلِّم بها، ويعرف قدرها.

يقول المبرد: ومن إفراط التشبيه قول أبي خراش الهذلي يصف سرعة إبله في العدو:

كـأنهُمْ يـسْعونَ في إثْـرِ طـائرٍ ... خفيفِ المشَاشِ عظمُهُ غيرُ ذِي نَحضِ
يُبـادِرُ جُـنْحَ اللَّيـلِ فَهـو مُهـابـدٌ ... يَحُـثُّ الجنـاحَ بالتبـسُّطِ والقـبْضِ[2]

المشبه به «طائر» وقد وصف بصفات لها أثر في إفراط السرعة، فهو ضعيف العظم، قليل اللحم، مسارع وسبَّاق. فإذا شبهت الإبل في السرعة بطائر هذه صفاته كان التشبيه مفرطا، وذلك أن الإبل بطبيعتها كبار الحجم، وتتعرض في سيرها للتعثر، وقلة السرعة.

ويقول[3]: ومن التشبيه المتجاوز المفرط قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ بـهِ ... كأنهُ علمٌ في رأسِـهِ نارُ

ومن هذا الضرب قول العجاج[4]:

«تقضِّيَ البازي إذا البازيُّ كسَرْ»

والتقضي: الانقضاض: وإنما أراد سرعتها.

---

(١) انظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢١٣.

(٢) الكامل: ٣/ ٥٠ المشاش: كل عظم لا مخَّ فيه. أو: رؤس العظام كالمرفقين، والكفين، والركبتين. اللسان (مشش)، غير نحض: أي قليل اللحم. مهابد: هبدَ هبداً: عَدَا. يكون ذلك للفرس وغيره. قال أبو خراش: « البيت»، والمهابدة: الأسراع. اللسان: (هبذ).

(٣) الكامل: ٣/ ٤٦. والبيت من شواهد الإيغال. الإيضاح: ٣/ ١٣٧.

(٤) ديوانه: ٢٨. وقبله: «دَاني جناحَيه من الطُّور فمرّ»
وبه: من الطور: وهو الجبل وقد عني به: الشام. يقول: أنقض «ابن معمر» إنقضاضه من الشام.

شبهت الخنساء أخاها صخراً بالجبل، واشترطت أن يكون «في رأسه نار» لأنه يزيد في الشهرة والوضوح، والإفراط جاء من هذا الشرط، وشبه العجاج إنقضاض «ابن معمر» من الشام بانقضاض البازي، وزاد في المشبه به شرطا هو قوله: «إذا البازيُّ كسر» أي ضم جناحيه، ليزيد انقضاضه.

وبما مثّل به المبرد قوله: «فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي: هو كالبحر، وللشجاع: هو كالأسد. وقد قيل: إن امرأة عمران ابن حطان قالت له: أما زعمت أنك لا تكذب في شعر قط! قال: أو فعلت؟ قالت: أنت القائل:

فهناك مجزأةُ بنُ ثوْ ... رِ كان أشجعَ مِنْ أُسامة

أفيكون رجل أشجع من الأسد! قال: أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة، والأسد لا يفتح مدينة»[1].

فقد ضم إلى الإفراط في التشبيه كل من: التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مكان المشبه، والعكس؛ للمبالغة، وكذا: التشبيه الضمني الذي يفهم من النص، دون التصريح به. ويقول: «فمن الإفراط في السرعة قول ذي الرُّمة[2]:

كـأنّه كوكبٌ إثره عِفْرِيةٌ ... مُسوَّمٌ في سوادِ اللَّيْلِ متقَضِبُ

يقال: عفريت، وعِفْرية في معني واحد. والتاء في «عفريت» زائدة.

فهو يشبه ثوراً ولّي منهزماً، من كلاب صيد بالكوكب في سرعته وبياضه، وانقضاض الكوكب أسرع، ولذا كان التشبيه متجاوزا.

ولكن المبرد يخلط بين التشبيه المفرط، وغيره من أساليب البيان، فمما مثل به

---

(١) الكامل: ٣/ ١٢٨، وانظر الصناعتين ١٢٨، والعمدة: ١/ ٩٩.

(٢) ديوانه: ١/ ١١ والضمير في «كأنه» راجع إلى «أزهر» في بيت قبله. وهو:

وَلاح أزْهرُ معـــروُفٌ بنقبْه ... كأنهُ حيـــن يعلـــو عـاقرًا لهبُ

هاجَتْ له جُوَّعٌ زُرقٌ مخصَّرةٌ ... شوازبٌ لاحَها التغرِيثُ والجَنَبُ

أزهر: ثور أبيض. العاقر: الرّمل: جُوَّع: جمع جائع. زرق: يريد: أعداء مخصرة: ضُمرٌ. التغريث: الجوع. انظر جمهرة أشعار العرب: ٧٦٨ – ٧٧٤، والعمدة: ١/ ٢٩٦.

قول أبي الطمحان القيني:

أضاءتْ لهمْ أحسابُهم ووُجُوهُهم ... دُجَى الليلِ حتى نظَّم الجزْعَ ثاقبُه

فهو من الاستعارة المكنية. بجعل الأحساب والوجوه من المصابيح... إلخ.

كما مثل بقول أبي بكر بن النطّاح[1]:

له هِممٌ لا منتهى لكبارِها ... وهِمّتُهُ الصُغرَى أجلُّ من الدَّهرِ

لهُ راحةٌ لوْ أنَّ مِعْشارَ جُودِها ... على البَرِّ كان البرُّ أندَى من البَحْرِ

فهو من أمثلة المبالغة[2] لا التشبيه.

ثانيا: التشبيه المصيب:

وهو ما يتفق الناس على صدقه[3] وكان وجه الشبه مفيدا للتماثل بين طرفي التشبيه. وهذا النوع يتسم بالصدق والاعتدال، وتحقيق الغرض دون إفراط، فهو على النقيض من التشبيه المفرط، ولذا عقّب الزجاجي[4] على قول الشاعر:

ويومٍ عند دارِ أبي نُعيمٍ ... قصيرٍ مثل سالفةِ الذُّبابِ

بقوله: «وأنا أقول: إن هذا نهاية في الإفراط، وخروج عن حدود التشبيه المصيب»[5].

والمبرد يؤثر التشبيه المصيب، وينبه عليه بقوله: «وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبّه فيه بفطنته على ما يخفى

---

(١) الكامل: ٣/ ١٢٨.

(٢) انظر: الإيضاح: ٣/ ٤٧.

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢١٥.

(٤) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي دارا، ونشأة، النهاوندي أصلاً ومولداً. توفي سنة ٣٠٧ هـ.

(٥) الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية: ١٢٣. وقد أتبع الزجاجي هذا بقوله: «ونظيره في الإفراط في ضد هذا المعنى قول أبي تمام:

ويومٍ كطول الدّهر في عرضِ مثله ... وشوقي من هذا وهذاك أطولُ

عن غيره، وساقه برصف قوي، واختصار قريب»[1].

ولكنه لم يحدد كلا من التشبيه المصيب، والمقارب تحديدا دقيقاً، وترك هذا التحديد اعتمادا على منهج العرب، واكتفاء بالدلالة اللغوية، وإشاراته الذكية إلى المراد ببعض التشبيهات.

ويطالعنا التشبيه المصيب في «الكامل» كثيراً، وقد بدأ به المبرد «باب التشبيه» فقال: «وهذا باب طريف تصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرناه، وهو بعض ما مرَّ للعرب من التشبيه المصيب، وللمحدثين بعدهم، فأحسن ما جاء بإجماع الرواة ما مر لامرئ القيس في كلام مختصر. أي بيت واحد من تشبيه شئ في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين، وهو قوله:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رطباً ويابساً   لدى وكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي

فالاختصار في إيراد هذين التشبيهين مع الوفاء بالمعنى والغرض من أسباب إصابة هذا التشبيه، ولذا أثنى عليه الرواة كما قال المبرد.

– ومن هؤلاء محمد بن علي الجرجاني: (ت ٧٢٩ هـ) فهو يقول: «أتفق أهل العلم بالشعر كعمرو بن العلاء، والأصمعي، وغيرهما على أن أحداً لم يقل في هذا المعنى أحسن من هذا البيت»[2].

– ويقول ابن ناقيا البغدادي[3]: «وأهل العلم بالشعر مجمعون على أن أحسن التشبيه ما يقابل به تشبيهان مشبهين، وأن أحداً لم يقل أحسن من قول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ رطباً ويابساً   لدى وكْرِها العنَّاب والحُشَفُ البالي

(١) الكامل: ١/ ٢٩٤.

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة: ١٧٢، وانظر: العمدة: ١/ ٢٩١، وسر الفصاحة: ٢٣٩، والشعر والشعراء ١/ ١٣٤.

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن: ٢٢٠.

وحكي أن بشارًا قال: مازلت مذ سمعت امرأ القيس أزاول أن أقابل مشبهين بتشبيهين حتى قلت:

كأنّ مثارَ النَّقعِ فَوْقَ رؤسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ

ولا يخفي أن التشبيه في بيت بشار مركب، وله موقعه في البيان العربي.

ويحدثنا الأصمعي عن أحد[1] مجالس النقد في منزل الرشيد قال: استدعاني الرشيد في بعض الليالي وقد تصرمت قطعة من الليل، فراعتني رسلُه، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه، وإذا في المجلس: يحيى بن خالد، وجعفر والفضل. فلما لحظني الرشيد استدناني، فدنوت منه؛ فتبين ما لبسني من الوجل؛ فقال لي: ليفرخ روعُك[2] فما أردناك إلاَّ لما يُراد له مثلك. فمكثت هنيهة إلى أن ثابت إليّ نفسي بعد أن كادت تطير شَعاعا فقال: إني نازعت هؤلاء القوم في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، ولم يقم إجماعنا على بيت، فأردناك لفصل هذه القضية، واجتناء ثمرة الخطار فيها؛ فقلت: يا أمير المؤمنين: إن التعيين على بيت واحد في نوع واحد قد وسَّعت العرب فيه، وجعلتهُ معْلما لأفكارها، ومُستراحا لخواطرها؛ لبعيد أن يقع النص عليه، ولكن أحسن الناس تشبيها امرؤ القيس في قوله:

كأن قلوب الطَّير رطباً ويابساً لدى وكرها العنَّاب والحشفُ البالي

ومما مثل به المبرد قول الشاعر[3]:

كــأنَّ القلْبَ ليلةَ قِيْلَ يُغدَى بِلَيْلى الْعامِريّــةَ أو يُــراحُ

---

(١) وهو في فحولة الشعراء: ٥٤ – ٦٦، والجمان: ٢٢٠– ٢٣٣. وفيه وضع الأصمعي كثيرا من المعايير الدقيقة للنقد والمفاضلة بين الشعراء في التشبيه.

(٢) أفرخ روعُك. أي خلا قلبك من الهم خلُو البيضة من الفرخ. والمراد: أطمئن. أساس البلاغة: (فرخ).

(٣) ديوان مجنون ليلي: ٩٠ ورويت الأبيات لنصيب في: شرح الحماسة للمرزوقي القسم الثالث: ١٣١٣.

قطاةٌ غرَّها شَـركٌ فباتتْ ... تُجاذِبهُ وقدْ عَلِــقَ الجناحُ
لها فَرْخانِ قد عَلِقا بوكْــرٍ ... فعُشُهمَـا تُصَفّقُه الريـــاحُ
فلاَ بالليلِ نالـتْ مـا تُرَجّى ... ولا بالصُّبحِ كانَ لهـا بَـراَحُ

وقد أتبعه بقوله: وقد قال الشعراء قبله فلم يبلغوا هذا المقدار.

وقال الشيباني للحجاج:

هَلاّ برزْتَ إلى غَزالةِ في الوَغَى ... بل كان قَلْبُكَ في جناحَيْ طائرِ

فهذا يجوز أن يكون في الخفقان، وفي الذهاب ألبتة[1].

في التشبيه الأول ذكر الشاعر للقطاة أحوالا متعددة؛ ليعبر عما يجده من الأسى؛ فرسم صورة مؤلمة لقلبه المضطرب عندما قيل له: إن ليلى ذاهبة فوجدها في صورة القطاة الأليفة المسالمة التي أوقعها حظها العاثر في حبالة الصائد، فباتت ليلتها كئيبة تجاذب هذا الشرَك، وهو بالتالي يمنعها من الإفلات، ومما زاد من همومها، وشدة اضطرابها أنها تركت فرخين لها في عش بالٍ ينتظران عودتها دون جدوى. فهي لم تفلت ليلتها من الشرك، ولا كان لها مع الصبح فكاك؛ فالقطاة في صراع دائم من أجل فرخيها[2].

وكذلك حال الشاعر همٌّ، وحزنٌ، وتعلق بالأمل، دون جدوى فالتشبيه مصيب لتطابق الحالتين. ولذا أثنى المبرد على الشاعر، فقد كان في هذا رائدا وسباقا.

وفي الثاني شبه الشيباني قلب الحجاج وخوفه من «غزالة» حتى بلغ هذا المبلغ. والمبرد ذكر هنا تعدد وجه الشبه. والثاني منهما أقوي في الدلالة على الخوف.

---

(١) الكامل: ٣/ ٣٨. وغزالة الحرورية امرأة خارجية تصدت لقتل الحجاج، فدخل قصره وأغلق عليه بابه.

(٢) انظر: فنون التصوير البياني: ١٤٠-١٤٢.

وإذا قارنت ما سبق بقول عُروة بن حِزام العذري[1]:

كأنَّ قطاةً عُلِّقتْ بجنَاحِها على كَبِدِي من شِدَّةِ الخَفَقانِ

ألفيت أن عروة نص على «شدة الخفقان» فأرانا مقدار حال التشبيه. هذا إلى أن بيته تضمن أهم عنصر في أبيات «نصيب» وهو الحمامة المعلقة بالجناح والتي تنتفض دائما، وأنها في محاذاة قلق وخفقان[2].

وقريب من هذا ما تضمنه البيت الذي رواه المبرد وهو[3]:

كـأنّي بين خافِيَتَيْ عُقَابٍ أصابَ حَمامةً في يَومِ غَيْنِ

حيث صور الشاعر نفسه وقد سيطر عليه اليأس بالحمامة التي أوقعها القدر في مخلب عقاب في يوم غائم.

وذكر المبرد بيتاً لذي الرّمة ثم قال: «وفي هذه القصيدة من التشبيه المصيب قوله[4]:

بيضاءُ في دَعَجٍ صَفْراءُ في نَعجٍ كأنهــا فضــةٌ قد مَسَّها ذهبُ

ولم يعلق عليه.

وبينه ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) بأن ذا الرمة كان من أنصار مدرسة الصنعة مثل زهير، وابن أبي حفصة صاحبي الحوليات... ويقول: وكذلك الحكاية عن ذي

---

(١) الكامل: ٣/ ٤٤. والشعروالشعراء: ٢/ ٦٢٦.

(٢) التصوير البياني: ٧١.

(٣) انظر: الكامل: ٣/ ٨٤.

(٤) الكامل: ٣/ ٤١ والبيت بديوان ذي الرمّة: ١/ ٣٣ برواية « كحلاء في برج » وهذه الرواية في الصناعتين: ٣٩٢، وجمهرة أشعار العرب: ٧٤٨، والعمدة ٢/ ٢٩ وهو برواية أخرى في العمدة: ٢/ ٩٨ « نجلاء في برج » وفي الخصائص: ١/ ٣٢٤ برواية « بيضاء في نعج صفراء في برج ». الدعَج: حسن اللون. والبَرَج: تباعد ما بين الحاجبين. والشاعر يتحدث عن « مية» في بيت سابق وهو:

دارٌ لِمية إذ ميٌّ تُساعِفُنا ولا يرى مثلَها عُجْم ولا عَرَبُ

الرمة أنه لما قال[1]:

«بيضاءَ فى نعج صفراء فى بَرَج»

أجبل حولاً، لا يدري ما يقول إلى أن مرت به صينية فضة، قد أشربت ذهباً فقال:

«كأنها فضة قد مَسَّها ذهب»

شبه بياضها المشوب بصفرة بفضة مسَّها يسير من الذهب. وفيه نوع من التفصيل الذي يحتاج إلى الفكر والتأمل.

وقد فاضل الإمام عبد القاهر(ت ٤٧١هـ): بين هذا التشبيه وتشبيه آخر فقال: «ومنه ما يوجد فى النادر، ويتبين ذلك بالمقابلة فأنت إذا قابلت قوله:

وكأنَّ أجرامَ النُّجوم لوامعًا ... دُررٌ نثرن على بساطٍ أزرق

يقول ذو الرمة: «كأنها فضة قد مسَّها ذهب»

علمت فضل الثاني على الأول فى سعة الوجود، وتقدم الأول على الثاني فى غرابته، وقلته، وكونه نادر الوجود؛ فإن الناس يرون أبدا فى الصياغات فضة قد أجري فيها ذهب، وطُليت به. ولا يكاد يتفق أن يوجد درٌّ قد نثر علي بساط أزرق[2].

ونعود إلى أبي العباس حيث يقول: ثم نرجع إلى التشبيه المصيب.

قال امرؤ القيس فى طول الليل[3]:

كأن الثُّريا عُلقَتْ فى مصامِّها ... بأمراسِ كتَّانٍ إلى صُمِّ جندلِ

فهذا فى ثبات الليل وإقامته. والمصامّ: المقام... وقال فى ثبات الليل:

---

(١) الخصائص: ١/ ٣٢٤.

(٢) أسرار البلاغة: ٢/ ٢٠.

(٣) ديوانه: ١٩، وفيه ترتيب البيت الثاني ولكن قبل الأول. وانظر. شرح القصائد السبع الطوال: ٧٩ والجمهرة: ١٣٣.

فيَا لكَ من ليلٍ كأنّ نُجومَهُ ... بكلِّ مُغارِ الفَتْلِ شدّتْ بيذبُلِ

المغار: الشديد الفتل... ويذبل: جبل بعينه[1].

البيتان فى الحديث عن طول الليل وثباته. ففي الأول جعلت الثريا كأنها عقلت بحبال كتان، مشدودة إلى حجارة صُمّ، فهى عنده لا تتحرك، وفى الثاني صورت النجوم فى ثباتها كأنها مشدودة بحبال محكمة الفتل إلى جبل.

والتشبيه فيهما مصيب؛ لأن فيه تصويرا دقيقاً لكل من الخائف والمهموم ونحوهما فالشاعر يشعر بثقل الليل وطوله.

ثالثًا: التشبيه المقارب:

وهو ما تقارب فيه طرفا التشبيه، فكان واضحا لا يحتاج إلى تبيين. وهذا التقارب فى الصفة يعطي التشبيه جودة وحسنا.

يقول المبرد[2]: وأحسن التشبيه ما قارب فيه القائل إذا شبه «ومما مثل به قول عقبة العنزي فى صفة فرس:

لـهُ بَيْـنَ حوَاشيـه ... نُسورٌ كنُوَى القَسْبِ

وقد أتبعه بقوله: « فهذا تشبيه مقاربٌ جدا».

شبهت النسور بالتمر اليابس الجاف فى الشكل والحجم والصلابة، ونعته بأنه «مقارب جداً» تنبيها إلى ما بين طرفيه من تقارب شديد يكاد يلحقه بالتشبيه المصيب[3].

وقد عدّ أبو العباس[4] بيتا لذى الرُّمة بأنه من حلو التشبيه وقريبه، وصريح الكلام وبليغه، فهو ـ عنده ـ من التشبيه المقارب، ولكنه من التشبيه المفرط؛ لأنه

---

(١) الكامل: ٣/ ١١٣. النسور: جمع نسر، وهو لحمة صلبة فى باطن الحافر مثل الحصاة.

(٢) الكامل: ٣/ ١١٣.

(٣) انظر: المبرد واضع النواة الأولى لمباحث التشبيه: ٢٢٦.

(٤) الكامل: ٣/ ١٠٩.

من المقلوب. وهو أول شواهد ابن جني(١) في «باب غلبة الفروع على الأصول» وذكر أنه لا يجيء شيء في هذا المعنى إلا و الغرض منه المبالغة.

رابعا: التشبيه البعيد:

وفسره المبرد بأنه: ما يحتاج إلى تفسير، ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام(٢) وهذا النوع مردود؛ إذ لا يعلم المراد منه إلا بتفسير، وهو نوعان:

الأول: إذا شبه بموجود، وقصد القائل معنى لا يتبادر إلى الذهن عند ذكر المشبه به ومثّل له بقول الشاعر:

بلْ لو رأتني أختُ جيرانِنَا ... إذ أنا في الدّارِ كأنّي حمارْ

ثمّ أتبعه بقوله: فإنما أراد الصحة. فهذا بعيد؛ لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره، وقال الله – عز وجل – وهذا البين الواضح: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾(٣). والسِّفر: الكتاب: وقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ ﴾ في أنهم تعامَوا عنها، وأضربوا عن حدودها، وأمرها، ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها.

وهجا مروان بن سليمان بن يحي بن أبي حفصة قوما رواة الشعر بأنهم لا يعلمون ما هو على كثرة استكثارهم روايته؛ فقال(٤):

زَواملُ للأشعارِ لا عِلْمَ عِندَهُم ... بجيدِّها إلاّ كَعِلْـــمِ الأباعِـــرِ

---

(١) الخصائص: ١/ ٣٠٠.

(٢) الكامل: ٣/ ١٢٨، ١٣٢، وهذا غير التشبيه البعيد الغريب الذي يحتاج إلى فضل تأمل وفكر، لخفاء وجه الشبه أول الأمر إما لكثرة التفصيل، أو لندور حضور المشبه به في الذهن عند حضور المشبه؛ لبعد المناسب بينهما. انظر. أسرار البلاغة: ١/ ٢٧١، والإيضاح: ٣/ ٧٢.

(٣) سورة الجمعة. الآية: ٥.

(٤) الكامل: ٣/ ١٣٢، والبيتان من: شعر مروان بن أبي حفصة: ٥٨ الزوامل: جمع زاملة وهي البعير التي يحمل عليها المتاع والطعام. والأوساق: جمع وسق، وهو حمل البعير.

لعمرُكَ ما يدْرِي البَعِيرُ إذَا غَدا   بأوْسَاقِهِ أو رَاحَ مـا فِي الغرَائِـرِ

شبه الشاعر نفسه بالحمار على إطلاقه. قال المبرد: «فإنما أراد الصحة؛ فهذا بعيد»؛ إذ لا قرينة تدل عليه، وإنما يفهم ذلك بقرينة خارجية. فالمتبادر فى العرف عند التشبيه بحمار الوحش هو: الغباء، والبلادة والبلاهة، لا الصحة كما عني الشاعر. فالتشبيه على هذا يوقع في الحيرة؛ ولذا كان بعيداً.

يقول أبو هلال: «هذا وإن كان صحيحا فإنه لا يحسن بالإنسان أن يشبه نفسه بالحمار لا سيما بلفظ الإطلاق»[1]. ولذا دلَّل أبو العباس بما فيها من التعب والمشقة فى حملها، أي فى حفظها حتي صاروا كالحمار، فهو يحمل الكتب النافعة، ولا يعلم ما فيها مع التعب فى حملها[2].

ومروان يبين أن ليس كل من روي الشعر عالما به، فمنهم من يحفظه ولا يميز جيده من رديئه. ولذا قال: «لا علم عندهم...»، ففهْم مراد الشاعر من البيت بعيد؛ ولذا كان التشبيه مردوداً.

والثاني: إذا لم يكن للمشبه به واقع، فإذا شبه بما لم يقع فكيف يتصور المعني!؟ وقد نبه المبرد على ذلك بقوله: «وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم، وعن أصل أخذوه أن يشبهوا عين المرأة بعين الظبية، أو البقرة الوحشية...» [3]، فالتشبيه إذا كان عن أصل كان مستحسنا، وإلا كان بعيدا ومردودا.

وروي المبرد نقد «نُصيب» للكميت فى أبيات، ومنها قوله: «ثم أنشده فى أخري:

كأنَّ الغُطَامِطَ من غَلْيِها   أراجيزُ أسلَمَ تهجُو غِفَارَا

(١) الصناعتين: ٢٦٥.

(٢) انظر: أسرار البلاغة: ١/ ٢١٠، ٢٧٠.

(٣) الكامل: ١٣٢.

فقال له نصيب: ما هجتْ أسلمُ غِفاراً قط؛ فاستحيا الكميت؛ فسكت»[1].

وسبب النقد أن الكميت شبه بما لا واقع له؛ فيكون التشبيه قياسا على مجهول! فلا يتبين المراد.

قال ابن سنان (ت ٤٦٦هـ): وهذا كما يقال: كأن مناقضة فلان مناقضة جرير والفرزدق؛ فيكون الكلام صحيحا، ولو قيل: كأن مناقضتهما مناقضة الأحوص، وعمر بن أبي ربيعة لم يكن ذلك التشبيه صحيحا ولذا كان التشبيه بعيداً، ومردودا.

يقول الجاحظ: فجعل الأراجيز التي شبهها في لغطها والتفافها بصوت غليان القدر لأسلم دون غفار»[2]. فالتشبيه بعيد لأنه لا يعلم المراد منه.

ففي هذا الفصل طوائف شتى من الأمثلة اندرجت تحت أوصاف التشبيه وأضربه وأكثرها من التشبيهات الحسية المركبة، وقد بدا ذوق المبرد وثقافته في تحليل هذه الأمثلة، وفي المقارنة بين بعضها. هذا إلى أن بعضا آخر منها كثر تداوله في كتب النقد والبلاغة، وبخاصة ما صنف منها تحت ما عرف بـ «بديع المركب الحسيّ».

* * *

(١) الكامل ٢/ ١٦٠ الغطامط: صوت غليان القدر، أو صوت موج البحر أسلم، وغفار: قبيلتان.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٢٢٤، وانظر الخصائص: ٣/ ٢٩١، وعيون الأخبار: ٣/ ٢٦٥، ومجالس العلماء: ١٤٠.

المبحث الرابع

جهود المبرد فى التشبيه

تقدم البحث البلاغي فى التشبيه على يد محمد بن يزيد المبرد، فقد لقي عناية فائقة، وجهدا مثمرا. ولا عجب! فإمام البصريين بثقافته الواسعة، وفكره الثاقب، وبحثه الدءوب، ومحاولاته الجادة فى دراسات التشبيه قد ساهم بجهدٍ موفور فى تحديد معالمه، وتنويع مباحثه. وهذا ماجعل الكثير من علماء العربية يتجهون إلي «الكامل»، لينتفعوا بدراسات التشبيه.

وهذه إشارات إلى أبرز جهوده.

أولاً: كان المبرد أول من عقد للتشبيه فى كامله باباً مستقلاً وأكثر فيه من ضرب الأمثلة من روائع المنظوم والمنثور. هذا إلى ما تناثر في كتابه من دراسات التشبيه. وقد صنف طائفة كثيرة من أمثلته؛ فجعلها تخضع لصفات وأضرب وأشفع الكثير منها بالشرح والتحليل الوافي، ولما لكتاب «الكامل» من أهمية فى التشبيه فإنه يشار إليه بالبنان.

يقول الدكتور بدوي طبانة: «ومن آثار المبرد فى الكامل ذلك الباب الذي عقده للتشبيه على هذا النحو من التفصيل، وإشباع البحث. وبه يعد المبرد إمام الأدباء والبلاغيين فى علاج هذا الموضوع الذي يعد من أهم موضوعات البيان. وقد جمع فى هذا الباب بين الرواية والشرح والنقد، وساق فيه قدراً كبيراً من النصوص التي ازدانت بفن التشبيه، وفسرها ونقدها، وبين ما فيها من جمال»[1].

ويشير الدكتور عبد الفتاح لاشين إلى أثر المبرد في ذلك فهو «العالم الذي له الفضل على البلاغة العربية لهذا الباب الذي عقده فى التشبيه وقد اعتمد فيه

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربي: ٢٣٨.

على استقرائه للشعر العربي، وجمع الشواهد الشرعية، مما حقق له إفراد باب كامل في موضع التشبيه في كتابه «الكامل»... وبهذا نري أن المبرد نقل التشبيه نقله واسعة، ووسع مباحثه، وهيأ له فرصة الشيوع... »[1].

ويقول الدكتور عبد القادر حسين: «ولعل أبرز مجهود شخصي بذله المبرد فيما يتعلق بالبلاغة في ذلك الباب الطريف الذي عقده للتشبيه؛ فهو في هذا الباب كله لم يعتمد على أسلافه من علماء البلاغة والنحو واللغة كسيبويه والفراء، وأبي عبيدة وابن قتيبة. وإنما اعتمد على استقراءاته في الشعر العربي، وجمع الشواهد الشعرية التي تحقق له إفراد باب بأكمله في موضوع واحد. ونعني به «التشبيه»[2].

ثانياً: يقول المبرد: «وأحسن التشبيه ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه فيه بفطنته على ما يخفي عن غيره، وساقه بوصفٍ قوي، واختصار قريب»[3]، والمعنى أن للتشبيه صلة بمباحث «علم المعانى» بسبب الخصوصيات التى يرد عليها النظم، كما أن له صلة بمباحث «علم البديع» فالمبرد يؤثر الحقيقة ولا يُحَبِّذ الإفراط والغلو.

ثالثاً: وإذا كان ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) قد أشار إلى «تشبيه الجمع» عندما صدر بيت زهير:

تنازعَتِ المهَا شَبَهًا ودُرُّ الـ ـبُحورِ وشاكَهَتْ فيها الظِّبَاءُ

بقوله: «وشبه زهير امرأة في الشعر بثلاثة أوصاف في بيت واحد؛ فقال[4]: (البيت). فإن محمد بن يزيد كان أول من اهتدي إلى تسمية هذا النوع بـ «التشبيه

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٢٦، ٢٩.
(٢) أثر النحاه في البحث البلاغي: ٢١١.
(٣) الكامل: ١/ ٢٩٤.
(٤) الشعر والشعراء: ١/ ١٣٩، ١٤٠.

الجامع»، ومثّل له بقول مسلم بن الوليد:

«كأنّ في سرْجِهِ أسداً وضرغاماً»

وهو ما سماه المتأخرون بـ «تشبيه الجمع».

رابعاً: وبيان المبرد للتشبيه البعيد كان له صدى عند المتأخرين في الاهتداء إلى «التشبيه المردود».

خامساً: وعدّ المبرد «التشبيه المضمر الأداة، ووجه الشبه» من التشبيه، وليس من الاستعارة كما فعل كثير من علماء النقد والبلاغة.

ومن أمثلته في الكامل قوله تعالي: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾.

سادساً: أما أركان التشبيه فإن المبرد قد بينها كما اقتصر على بيان بعضها في أمثلته. ففي قول حسان – رضي الله عنه–:

أو في السَرَاة مِنْ تَيْم رضيتُ بِهِمْ ... أو مِن بني خَلَفِ الخضْرِ الجلاعيدِ

يقول: قوله: «الخضر الجلاعيد»: شبههم في جُودهم بالبحور[1].

ويورد قول الشاعر:

وتحْتَ نُحورِ الْخيْلِ حَرْشفُ رجْلَةٍ ... تُتاحُ لِحبّاتِ القُلُوبِ نِبَالُـها

ثم يقول: «الحرشف: نبت يكثر في البادية، وإنما شبه النبل به في الكثرة»[2].

ويورد قول علقمة:

سُلاّءة كعصا النّهدِيّ غُلّ بها ... ذُو فيئَةٍ من نوىَ قُرّانَ معْجوُمُ

ثم يبين طرفي التشبيه بقوله: «شبهها – الفرس – بالشوكة من شوك النخل»[3].

وقد يقتصر على ذكر وجه الشبه، أويشير إليه. ففي بيانه لقول الشاعر:

---

(١) الكامل: ١/ ٢٤٩ – ٢٥٣، وانظر: ديوان حسان: ٣٤٥.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٩٤.

(٣)المرجع السابق: ١/ ١١٢.

وجمعٍ كمثلِ الليل مُرْتجسِ الْوَغَي　　كثيرٍ ثواليهِ سريعِ البَوَادِرِ

يقول: «وقوله: كمثل الليل». يقول: كثرة»[1]

ويبين قول العجاج:» تقضيَّ البَازي إذ البَازي كسَرْ.

بقوله: «وإنما أراد: سرعتها»[2] وهو إشارة إلى وجه الشبه.

وذكر المبرد تعدد الوجه عند ما أورد قول الشيباني للحجاج:

هلاَّ برزْت إلى غزالة في الوَغى　　بل كانَ قبْلك في جناحَيْ طائر

وأما أداة التشبيه فقد ورد منها الكثير: الكاف، وكأنَّ، وتخال، ويحكي... الخ.

ومن شواهد «كأنَّ» قول علقمة [3]:

كأنَّ إبريقَهم ظَبْيٌ على شرَفٍ　　مُفَدّمٌ بِسَبَا الكتَّان مَلْثُومُ

وقول النابغة[4]:

فبتُّ كأنيّ ساورَتْني ضَئيلةٌ　　من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقِعُ

الخبر في البيت الأول: «ظبي» وهو جامد وفي البيت الثاني جملة «ساورتني».

فهل ثمة فرق من حيث التشبيه؟

يرى كثير من العلماء[5] أن خبر «كأن» إذا كان جامداً كانت للتشبيه، وهو رأي «ابن السيد البطليوسي» وجماعة من النحويين. أما إذا كان الخبر جملة – فعلية، أو كان مشتقا، أو ظرفا فإنه يفيد الشك والظن، أو التوهم. وكذا يفيد التحقيق كما في قول الشاعر:

فأصبح بطنُ الأرض مقشعِرًّا　　كأنَّ الأرضَ ليْس بها هشامٌ[6]

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٢٠١ – ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٧.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٤٢.

(٤) المرجع السابق: ٣ / ١٣٠.

(٥) انظر: مغني اللبيب: ١/ ٢٥٣.

(٦) الكامل: ٢/ ١٤٢.

ولكن الرأي الغالب والصحيح أن «كأن» تفيد التشبيه فى الحالتين بمعونة القرائن.

وأما «تخال» فإن ابن طباطبا العلوى (ت ٣٢٢هـ) يرى أن ما قارب الصدق من التشبيه قلت فى وصفه: تراه، أو تخاله»[1].

ووردت الأداة « تحكي» فى قول إسحاق الموصلي[2]:

فما دَرَّ قرْنُ الشَّمسِ حتى كأننا ... مِن العِيِّ نَحكى أحمدَ بنَ هِشامِ

هذا فى التشبيه الصريح.

وأما التشبيه الضمني، فقد وردت له أمثلة كثيرة فى الكامل.

سابعا: ازدواج النقد والبلاغة ومن ذلك ردُّ المبرد على الجهلة والمعترضين على التشبيه فى قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾، وكذا التشبيه فى قول كُثَيِّر[3]:

كأنَّ لها فى الأرضِ نِسْيًا تقصُّه ... عنْ أمِّها وإن تخاطِبْكَ تَبْلَتِ

ثم إيلاؤه نقد بشّار بن برد لقول كُثَيِّر:

ألا إنّما ليلى عصَا خَيزُرانة ... إذا غَمزُوها بالأكُفِّ تَلِينُ

ولهذا الازدواج أثره فى تنمية الموهبة، وإذكاء الملكة، وإرساء دعائم البيان العربي.

وأما أغراض التشبيه فقد ورد منها الكثير فى «الكامل»، فقد أشار المبرد إلى بعضها. فمن ذلك:

- بيان حال المشبه، كقول امرئ القيس:

---

(١) عيار الشعر: ٢٣.

(٢) الكامل: ٣/ ٥٢.

(٣) الأم: القصد الذى تريده لا تُعرّج عنه إلى غيره. تَبْلت: تقطع كلامها ولا تطيله. والمعنى: إذا مشت نظرت إلى الأرض؛ لشدة حيائها. كأنها تطلب شيئا. الاقتضاب: ٣/ ٣٠٩.

كأنّ قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العنّاب والحشف البالى

- بيان مقدار الحال، كما فى قول الآخر:

كأن قطاة علقت بجناحها   على كبدى من شدة الخفقان

- تزيين المشبه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾.

- أو ذمه؛ كقول مروان بن أبى حفصة:

زوامل للأشعار لا عِلْم عندهمْ   بجيّدها إلاّ كعِلْــــم الأباعِرِ

- استطراف المشبه. والعلم فى هذا قول عدىّ بن الرّقاع:

تُزْجِى أغَنَّ كأنّ إبْرَة رَوْقهِ   قلَمٌ أصاب من الدّواةِ مِدَادَهَا

ثامناً: نبّه «المبرد» على الأخذ بين الشعراء، وبه يتبين فضل السابق، والاهتداء إلى وجوه تصرف اللاحق من نظم بديع، أو معنى مبتكر، والأمثلة فى ذلك كثيرة.

وأخيرا فإن المبرد بتذوقه للنصوص، وإدراكه لبعض مزاياها قد أسدى إلى مباحث التشبيه الكثير من جهوده العلمية وهذا ما ساعد على التقدم بالمسيرة العلمية للتشبيه.

* * *

الفصل الثاني

المجـــاز اللغوي

الكلمة والكلام كل منهما إما حقيقة، أو مجاز. فالحقيقة اللغوية هي: اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح به التخاطب(١).

وللمجاز بعامة أهمية في اتساع اللغة وحيويتها، وإمدادها بالمعاني الملائمة لأحوال الناس، والمعبرة عما يريدون في شتى ميادين الفكر والنشاط الإنساني.

والمجاز اللغوي(٢) هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب، على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته مثل الأسد في الرجل الشجاع، فهو يعتمد على النقل من المعنى الحقيقي إلى المجازي، ولابد من علاقة تصحح هذا النقل، وقرينة المجاز صارفة عن المعنى الحقيقي.

وهذا المجاز ينقسم إلى: مجاز مرسل، واستعارة. ومدار التفرقة بينهما نوع العلاقة؛ فإذا كانت المشابهة بين المعنيين كان استعارة، وإلا فهو المجاز المرسل.

وقد عرف العرب المجاز اللغوى أساليب فنية تجرى على ألسنتهم، وتتردد في كلامهم، فتعبر عما تكنه أفئدتهم من بديع المعنى، وروائع التصوير؛ فاللغة لديهم حيَّة نابضة، والسليقة صافية مواتية، وخبرتهم بالحياة واسعة، ولذا كثر المجاز في كلامهم، فقد ألفوه فناً أدبيًا قبل أن توضع له القواعدُ، وتدوَّن المصطلحاتُ والتقسيمات.

وقد أثنى العلماء على المجاز، وبخاصة الاستعارة، فابن رشيق (ت ٤٥٦هـ)

---

(١) انظر: المطول: ٣٤٨.

(٢) المجاز مفْعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً. أسرار البلاغة: ٢/ ٢٦٥، وانظر: المطول: ٣٥٢.

يقول[1]: «العرب كثيرا ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها، فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها من سائر اللغات».

ويقول: «الاستعارة أفضل المجاز، وأول البديع وليس في حلَى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها».

وبين الإمام عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) منزلتها في الكلام، ومما قاله: «ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعنى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدُّرر، وتجنى من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر...»[2] إلخ. كما شرح بإفاضة الاستعارة الأصلية، والمكنية وأجرى كثيراً من الموازنات بين بعض الأساليب.

وإذا بحثنا عن نشأة المجاز اللُّغوي ألفيناه بدأ إشارات غير محددة المعالم، ولكن مع مرور الزمن، وتتابع البحث تحددت معالمه، فوضعت له التعريفات والتقسيمات، ودرست الأمثلة الكثيرة التى توضحه تماماً.

فأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) ألَّف «مجاز القرآن»، وألمح فيه إلى المجاز المرسل عند قوله تعالي: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾[3] حيث قال: «أي ثناء حسناً فى الآخرين». وأشار إلى الاستعارة التمثيلية عند قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[4] قال: «ومجاز الآية مجاز التمثيل؛ لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذى بنوه على الكفر والنفاق، فهو على شفا جُرُف، وهو ما يُجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء

---

(١) العمدة: ١/ ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) أسرار البلاغة: ١/ ١٣٦.

(٣) سورة الشعراء: الآية: ٨٤. مجاز القرآن ٢/ ٨٧.

(٤) سورة التوبة: ١٠٩.

عليه»[1].

وذكر أن الاستعارة تكون بنقل الكلمة إلى معنى آخر مشابه. وأن العرب تفعل ذلك[2].

وأما الجاحظ فقد أطلق على الاستعارة لفظ «البدل»[3] وورد هذا في ردّه على من أنكر أن المشي لا يكون إلا بالأرجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾[4]، ففي بيانه للفظ «المشي» ردَّد المعنى بين التشبيه، والبدل أي: الاستعارة، وإن كان يدخل فيه المجاز المرسل.

وعرف الاستعارة بأنها: «تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[5]. وكان بيانه لما أورده من الأمثلة يتفق مع ما سمي بعد بالاستعارة الأصلية، والمكنية، وبيانه لها يتفق مع إجرائها عند المتأخرين؛ حيث قال:

«شبهوا الحقد الكائن في القلب الذي يسرى ضرره، وتدبُّ عقاربه بالضَّب؛ فسموا ذلك الحقد ضبًّا»[6] غير أن المتأخرين ضموا إلى هذا: تناسي التشبيه، وادعاء أن المشبه من جنس المشبه به، ثم استعارة المشبه به للمشبه، لغرض ما.

فالجاحظ عرَّف الاستعارة وإن كان تعريفه لها غير مانع من أمثلة المجاز

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٩، يقول الزمخشري: المعنى: أفمن أسس بنيانه على قاعدة محكمة، وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه خيرٌ أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها وأملكها، وهو الباطل والنفاق الذى مَثَلُه مثل «شفا جُرُفٍ هار» فى قلة الثبات والاستمساك. وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى؛ لأنه جعله مجازاً عما ينافى التقوى» الكشاف: ٢/ ٢١٥.

(٢) نقائض جرير والفرزدق: ١/ ٢٧٥.

(٣) الحيوان: ٤/ ٧١.

(٤) سورة النور: ٤٥.

(٥) البيان والتبيين: ١/ ١٥٢.

(٦) الحيوان: ٤/ ١١٢.

المرسل، كما أشار إلى علاقتها، وطريقة إجرائها. ويتبين ذلك من تحليله للكثير من الأمثلة.

وألف ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) «تأويل مشكل القرآن» ليبين ما أشكل على المفسرين، وليرد على أهل البدع والضلال، وعلى الجهلة الذين يقولون في كتاب الله بغير علم[١].

وأورد في كتابه مباحث ومسائل بيانية كثيرة وفي مقدمتها: «باب القول في المجاز» و «باب الاستعارة» وهو في «أول باب» المجاز يذكر أن عدم فهمه سبب غلط كثير من الناس، فالقرآن حافلٌ به وأن الطعن على القرآن بالمجاز من أشنع الجهالات.[٢]. وضرب له أمثلة كثيرة غير أن من أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[٣]، فقد فسره بقوله: «أي: كأمهاتهم في الحرمة»[٤]، وواضح أنه من التشبيه المضمر الأداة.

وبين ابن قتيبة صلة الاستعارة بالمجاز فهو أعم منها[٥]. وعرفها بقوله: «فالعرب تستعير الكلمة؛ فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمَّى بـها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، أو مشاكِلاً، فيقولون للنبات: نوْء؛ لأنه يكون عن النوء عندهم». قال رؤبة بن العجاج:

«وجفَّ أنواءُ السَّحابِ المرتزقْ»

أي: جفَّ البقلُ. ويقولون للمطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل...، ويقولون ضحكت الأرض إذا أنبتت؛ لأنها تبدى عن حُسن النبات وتتفتق عن الزهر كما

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢٤، وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ١٠٣، ١٣٢.

(٣) سورة الأحزاب: ٦، وتأويل مشكل القرآن: ١٠٤.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ٣٠٨.

(٥) المرجع السابق: ١٣٢.

يفتر الضاحك عن الثغر، وبذلك يكون تعريفه للاستعارة شاملا لبعض أمثلة المجاز المرسل؛ فالنوء سبب المطر، والسماء مكانه. فمفهوم ابن قتيبة للاستعارة يدخل فيها بعض أمثلة المجاز المرسل.

وبين ابن قتيبة فى بعض الأمثلة طرفى الاستعارة[1]، والنقل فيها، وأن الاستعارة ليست كذباً، كما أشار إلى قرينتها، وأنها تكون للمبالغة فى المعنى.

فالمجاز اللغوي لم تتحدد معالمه، ولم يوضع له التعريف الجامع المانع، ولم يقسم إلى: المجاز المرسل، والاستعارة، غير أن جهد هؤلاء العلماء كان له أثره البعيد في التقدم بهذا اللون البلاغي عند المبرد، ومن جاء بعده.

وننتقل إلى محمد بن يزيد المبرد لنرى جهوده فى هذا المجاز من خلال دراستنا فى كتابه الكامل.

* * *

(١) تأويل مشكل القرآن ١٣٢، ١٦٧.

المبحث الأول

المجـــاز المرســـل

المجاز المرسل هواللفظ المستعمل فى غير ما وضع، لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، «وسُمىَ مرسلاً لإرساله عن التقييد بعلاقة المشابـهة، فصحَّ جَرَيانه في عدة من العلاقات»[1].

واختلف المتأخرون في تحديد هذه العلاقات ونوعها غير أن المشهور منها عشرة[2]. ومنهم من زاد على ذلك كثيراً.

ويرجع الاختلاف في حصر هذه العلاقات ونوعها إلى علاقة الملابسة؛ إذ يصلح تفسيرها بعلاقات كثيرة دون أن تتحدد في علاقات جزئية معينة، فالعرب كانوا يعتمدون الملابسات التي تسوغ النقل في إطار عرفهم البياني[3] ولذا كثرت العلاقات التي تناسبها.

وفي كتاب «الكامل» أمثلة كثيرة لأشهر علاقاته، وهي ترد غالباً مشفوعة بالبيان، وأحياناً بالإشارة إلى العلاقة، والقرينة. ولم يذكر المبرد تسمية لهذا ا لمجاز، وإنما هي تسمية المتأخرين غير أن دراسات المبرد كانت أصلاً من الأصول التي اعتمد عليها المتأخرون في تسمية هذا المجاز، وتحديد معالمه.

وسأتناول هذه الدراسات مشفوعة بعلاقات المجاز المرسل على ما ذكره المتأخرون:

---

(١) مواهب الفتاح: ٤/ ٢٩.

(٢) هي: السببية، والمسببية، والجزئية، والكلية، والآلية، واعتبار ما كان، واعتبار ما سيكون، والمجاورة، والمحلية، والحالية، انظر الإيضاح: ٣/ ١٠٠، والمطول: ٢٥٥. المثل السائر: ٢/ ٨٨ – ٩٥، والبرهان في علوم القرآن: ٢/ ٢٥٩– ٢٩٦.

(٣) التصوير البياني: ٣٥٨، باختصار.

١ - السببية: أي ذكر السبب وإرادة المسبب، ومن أمثلته أن المبرد روى قول أبي الحسن الأخفش:

حدثتكَ نفسُك بالوفاءِ ولم تكُنْ ... للغدْرِ خائنةً مُغِلُّ الإصبعَ

ثم قال: «الإصبع أفصح ما يقال... موضعها[1] هاهنا: اليد. يُقال: لفلان عليك يدٌ، ولفلان عليك إصبُع، وكلٌّ جيد، وإنما يعني هاهنا: النعمة»[2].

فاستعمال كل من: «يد» و «إصبع» في النعمة مجاز مرسل، علاقته السببية، وفي كلام المبرد إشارة إلى المولي لليد وهو قوله: «لفلان» وهو ما اشترطه المتأخرون، وذلك لما لاحظوه من ضعف العلاقة بين اليد على الإطلاق، والنعمة في نحو: «اتسعت اليد في البلد، أو اقتنيتُ يداً».

ويورد أبو العباس قول امرئ القيس[3]:

كأنَّ أباناً في أفانين ودْقِهِ ... كبيرُ أُناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ

ثم يقول: أبان: جبل، وهما أبانان: أبان الأسود، وأبان الأبيض... قوله: «في أفانين ودقه» يريد: ضروباً من ودقه، والودْق: المطر. قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[4]، وقال عامر بن جوين الطائي:

---

(١) الإصبع مؤنثة، وهي إصبع الكف، وكذلك «الإصبع» الأثر الحسن من الرجُل على عمله، فاحسن عمله، أو معروف أسداه إلى قوم، فهو يرى أثره عليهم». المذكر والمؤنث، لابن الأنباري: ١/ ٣٥٠.

(٢) الكامل: ١/ ٣٥٩- ٣٦١.

(٣) من المعلقة بديوانه: ٢٥، وهو في شرح القصائد العشر الطوال: ٥٢، برواية:

«كأنَّ ثبيراً في عرانين وبلهِ»

ثبير: جبل، وعرانين: أوائل. والوبل: ما عظُم من القطر، والبجاد: كِساء مخطط من أكسية الأعراب، قال شارح الديوان: شبه هذا الجبل حين غشيه المطر، وعمه الخِصب بشيخ ضعيف في بجاد، وخص الشيخ لأنه متدثر أبداً».

(٤) سورة النور: الآية: ٤٣.

فلا مُزْنةٌ ودِقَتْ وذْقَها　　　ولا أرْضَ أبْقَلَ إبْقالَها

كبيرُ أُناسٍ فِي بجَادٍ مُزملِ

يريد متزمِّلا بثيابه. قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[1]. وهو المتزمل بثيابه. والتاء مدغمة فى الزاى، وإنما وصف امرؤ القيس الغيث؛ فقال قوم: أراد أن المطر قد خنق الجبل، فصار له كاللباس على الشيخ المتزمل.

وقال آخرون[2] إنما أراد: ما كساه المطر من خُضرة النَّبت، وكلاهما حسن. وذكر الوذق؛ لأن تلك الخضرة من عمله[3].

فقد ذكر المبرد معنيين أولهما على التشبيه، وأشار بالثاني إلى المجاز المرسل مع الإشارة إلى نوع العلاقة بقوله: «لأن تلك الخضرة من عمله».

٢- المسببية: أي تسمية السبب باسم المسبب، فقد أورد أبو العباس قول الراجز يصف غنماً:

أقبل في المُستنّ من رَبابِهِ　　　أسنِمةُ الآبالِ في سحابه

ثم قال: «أراد أن السحاب يُنبت ما تأكله الإبل، فتصير شحومها في أسنمتها. والرَّباب: سحاب دُوَيْنَ المُعْظَم من السحاب»[4]. أراد بالأسنمة: المطر؛ لأنه سبب نموها.

وجاء في «الكامل»[5] أن رجلاً «رفع عقيرته» ليُسمِع جرير بن عبد الله البجَلي:

---

(١) سورة المزمل: الآيات: ١، ٢.

(٢) هذا قول أبي نصر في شرح القصائد السبع الطوال.

(٣) الكامل: ٣/ ٩١، الآبال: جمع إبل، والمستن: موضع جريان الماء. أسنمة جمع سنام وهي خاصة بالإبل. دوين: تصغير «دون».

(٤) الكامل: ٣/ ٩١ - ٩٢.

(٥) المرجع السابق ١/ ٣٢٥.

تطاول ليلي واعترتْني وساوسي ... لآتٍ بالتُّرهاتِ البَسابسِ
أتاني جريرٌ والحوادثُ جمَّةٌ ... بتلكَ التي فيها اجتِداعُ المعاطِسِ

ولم يعلق المبرد.

يقول ابن منظور: «رفع عقيرته» رفع صوته بالشعر متوعِّدًا، ورفع الصوت هنا مسبب عن العقْر. «يقال: عَقر الفرسَ والبعيرَ بالسيف عقْراً: قطع قوائمه. وفرسٌ عقير: معقور. العقيرة: ما عُقِر من صيد أو غيره، وعقيرةُ الرجل: صوتُه إذا غنَّى، أو قرأ، أو بكى»[1].

ويقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «وأصله أن رجلاً قطعت إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى ثم صرخ بأرفع صوته؛ فقال الناس: «رفع عقيرته» فقيل لكل من رفع صوته: «رفع عقيرته»»[2].

وذكر عبد القاهر أن العلاقة تختلف قوة وضعفاً وظهوراً، فهي في تسميتهم الشاة التي تذبح عن المولود يوم سابعه: عقيقة أقوى من حال العقيرة في هذا المثال قال: «وذلك أنه شيء جرى اتفاقاً، ولا معنى يصل بين الصوت وبين الرِّجل المعقور. على أن القياس يقتضي أن لا يسمى مجازاً، ولكن يجرى مجرى الشيء يحكم فيه بعد وقوعه[3]» وشبهه بالمثل الذي يشبَّه مضربه بمورده.

ويجمع بينهما بأن اعتبار رفع الصوت مسبب عن العقر (مجاز مرسل)، وعندما نقل هذا إلى معنى مشابه يكون مثلاً.

٣- اعتبار ما سيكون: أي تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه. قال المبرد: «وقوله - ﷻ -: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾[4] أي عنباً؛ فيصير إلى هذه الحال»

---

(١) لسان العرب: (عقر).

(٢) الخصائص: ١/ ٦.

(٣) أسرار البلاغة: ٢/ ٢٧١ ، ٢٧٢.

(٤) سورة يوسف: الآية: ٣٦.

فالخمر لا تعصر، وإنما يؤول عصير العنب في بعض الأحوال إلى خمر.

قال ابن يعقوب (ت ١١١٠هـ): «إن الأيلولة تكون يقيناً أو ظناً، لا احتمالاً، وأما في الحال فلم يوجد سبب التسمية، ولا شك أن الارتباط موجود بين الحال، وما يئول إليه صاحبه، وذلك مصحح للانتقال المصحح للتجوز، كقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾، فقد سمى العنب باسم الحال الذي سيحدث، ويؤول إليه المسمى»[(١)].

٤ - **المحلية**: أي تسمية الحالّ باسم محله، لما بينهما من الملابسة.

والمبرد يذكر أنه يمكن الاستغناء عن المضاف بالمضاف إليه. ثم يقول: «إذا حذفت المضاف استغنى بأن الظاهر يبينه، وقام ما أضيف إليه مقامه في الإعراب. من ذلك قول الله - تبارك وتعالى-: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[(٢)]. نصبت لأنه كان: واسأل أهل القرية»[(٣)]. المراد بالقرية: «مصر» أي أرسل إلى أهلها؛ فسلهم عن كنه القصة[(٤)]. ففي كلام المبرد إشارة إلى المجاز المرسل، وأن الحذف قياسي متى وجدت القرينة وهي هنا حالية.

- وروى[(٥)] قول مهلهل يرثى أخاه كليباً؛ فقال:

وكان كليب إذا جلس لم يُرفع بحضرته صوتٌ، ولم يستب بفنائه اثنان:

ذهبَ الخِيارُ من المعاشِرِ كلِّهمْ   واستبَّ بعدكَ يا كليبُ المجلسُ

ولم يعلق بشيء.

---

(١) مواهب الفتاح: ٤/ ٤١، ضمن (شرح التلخيص).

(٢) سورة يوسف: الآية: ٨٢.

(٣) الكامل: ٣/ ٩٢، ٢/ ١٤٠.

(٤) الكشاف: ٢/ ٣٣٧

(٥) الكامل: ١/ ٣١٧، وقوله: «لم يتبسوا» أي ببنت شفة، وهو كناية عن مهابة مجلسه. قال ابن منظور: « ما نبس بكلمة. أي ما تكلم» اللسان. (نبس).

يقول الأصمعي (ت ٢١٣هـ): يقال للقوم: المجلس، وأنشد:

«واستبَّ بعدَكَ يا كليبُ المجلسُ» [١]

فالمجلس أريد به أهله بعلاقة المحلية. والعجب أن الآمدي (ت ٣٧٠هـ) يجعل هذا من الاستعارة، ففي دفاعه عن البحتري يُورد قوله:

فكأنَّ مجلسهُ المحجَّبَ مَحفِلٌ — وكأن خلوتهُ الخفيةَ مشهدُ

ثم يقول: «المجلس المحجب قد يكون فيه الجماعة الذين يخصهم، وفي الأكثر الأعم لا يسمى مجلساً إلا وفيه قوم. ألا ترى إلى قول مهلهل:

«واستبَّ بعدَكَ يا كليبُ المجلسُ»

أي أهل المجلس على الاستعارة» [٢].

والواقع أنه لا يوجد شبه بين المجلس، وأهله؛ فيكون استعارة.

ولذا أورد عبد القاهر قول الآمدي، ثم عقب بقوله: «أطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذي يجتمعون في الأمور، وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه، بل على وجه وقوع الشيء على ما يتصل به، وتكثر ملابسته إياه، وأي شبه يكون بين القوم ومكانهم الذي يجتمعون فيه! إلا أنه لا يعتد بمثل هذا؛ فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة» [٣].

ولعل الذي أوقع الآمدي أنه توسع في مفهوم الاستعارة؛ فهي عنده تشمل بعض أمثلة المجاز المرسل. يقول: «وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يُقاربه، أو يناسبه، أو يُشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه». فقوله: «أو كان سبباً من أسبابه» [٤]. داخل في المجاز المرسل.

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٥٧، وأنظر شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٢٨.

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: ١/ ٣٩٣.

(٣) أسرار البلاغة: ٢/ ٢٧٣، ٢٧٤.

(٤) الموازنة: ١/ ٢٦٦.

٥- الآلية: أي تسمية الشئ باسم آلته. قال المبرد: «وقال المفسرون[1] في قوله - ﷻ - عن إبراهيم- صلوات الله عليه-: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾[2] أريد باللسان: الثناء الحسن؛ فإنه يبقى طويلاً، بخلاف اللسان، وهو آلة الثناء»[3]. وعلى هذا جمهور علماء البيان.

ومن العلماء من جعل هذه العلاقة: السببية، أو الجزئية؛ فالقاضي البيضاوي (ت ٦٩١هـ) أتبع الآية الكريمة بقوله: «جاهاً وحسن صيت في الدنيا، يبقى أثره إلى يوم الدين؛ ولذلك ما من أمة إلا وهم محبُّون له، مثنون عليه. أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني».

واذكر هنا تعليق فاضلين ممن كتبوا على البيضاوي:

أولاً: قال شيخ زادة (ت ٩٥١هـ) قوله: «وحسن صيت»: الصيت: الذكر الجميل الذي ينشر في الناس دون القبيح. عبرّ عن الثناء الحسن والقبول العام في الأمم التي تجيء بعده إلى يوم القيامة باللسان، ولكون اللسان سببًا في ظهوره وانتشاره، وبقاء الذكر الجميل على ألسنة العباد إلى آخر الدهر دولة عظيمة من حيث كونه دليلا على رضي الله ومحبته للعبد... ثم قال:

«قوله: أو صادقاً من ذريتي» فيكون ذكر اللسان من قبيل تسمية الكل باسم جزئه...»[4].

ثانياً: وقال الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) قوله: «(جاهاً) فالمراد باللسان: الذكر الجميل بعلاقة السببية،...» ثم قال:

قوله: (أو صادقا من ذريتي) فهو بتقدير مضاف. أي صاحب لسان صدق، أو

---

(١) يعني بهم علماء اللغة، انظر: مجاز القرآن: ٢/ ٨٧، ومعاني القرآن: ٢/ ٣٨١.

(٢) سورة الشعراء: الآية: ٨٤.

(٣) الكامل: ١/ ٣٧٨.

(٤) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي، الجزء الثالث: ٤٧٣، ٤٧٤.

مجاز بإطلاق الجزء على الكل؛ لأن الدعوة باللسان»[1]. فالعلاقة عند كل من شيخ زادة، والشهاب الخفاجي: السببية، أو الجزئية.

أما قول الشهاب: «فهو بتقدير مضاف. أي: صاحب لسان» فقد أراد به: الحقيقة.

وأقول: المتبادر من معنى الآية الكريمة، والذي عليه جمهور العلماء أن العلاقة الآلية. يقول البطليوسي (ت ٥٢١هـ) في الآية الكريمة: «أي: ذكرا جميلاً. وحقيقته: أن اللسان هو الخبر، والكلام سمي لساناً؛ لأنه باللسان يكون على مذهبهم في تسمية الشيء باسم غيره إذا كان منه بسبب»[2].

وروى المبرد قصيدة لأعشى[3] باهلة يرثى «المنتشر بن وهب الباهلي» ومطلعها:

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي: ٧/ ١٩، والايضاح: ٤/ ١٠٠.

(٢) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، القسم الأول: ٦٨، وانظر منه: ٤٨.

(٣) هو عامر بن الحرث بن رباح بن أبي خالد بن ربيعة بن زيد بن عمرو.... بن قيس غيلان. وقيل: هو من عامر بن عوف بن ثعلبة بن وائل. الأصمعيات: ٨٧ (هامش). وقد ذكر المبرد قدراً كبيراً من القصيدة في الكامل: ٤/ ٦٥، وهي في جمهرة أشعار العرب: ٥٦٨، ومختارات ابن الشجري: ٣٢، والأصمعيات: ٨٧، ومطلع القصيدة:

قد جاء من عَل أنباءٌ أنبؤها إلىَّ لا عجبٌ منها ولا سخرُ

وفي شرح المرزوقي. القسم الثالث: ١٠٦٠، وشرح المفصل: ٤/ ٩٠، «من عَلُ» بضم اللام، وفي الصحاح، ومختارات ابن الشجري «عَلْوُ» بسكون اللام مع ضم الواو أو فتحها.

وفي مناسبتها يقول المبرد: «وكان من خبره – المنتشر– أنه أسر» صلاءةَ بن العنبر الحارثي؛ فقال: افتد بنفسك؛ فأبى؛ فقال: لأقطعنّك أنملة أنملة، وعضوًا عضوًا ما لم تفد نفسك؛ فجعل يفعل ذلك به حتى قتله. ثم حج من بعد ذلك «المنتشر» –ذا الخُلصة– وهو بيت كانت «خثعم» تحجه – فدلت عليه بنون نفيل بنِ عمرو بن كلاب الحارثيين؛ فقبضوا عليه؛ فقالوا: لنفعلنّ بك كما فعلت بصلاءة؛ ففعلوا ذلك به فلقى راكبٌ أعشى باهلة؛ فقال له: هل من جائبة خبر؟ قال: نعم. أسرت بنو الحارث «المنتشر» فقال أعشى باهلة «القصيدة»... جمهرة أشعار العرب: ٥٦٨.

إني أتتني لســـانٌ لا أُســرُّ بـهـا … مِنْ عَـلٍ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

فِبتُّ مـرتفقـًا للنَّجـمِ أرقبُـه … حَيْرانَ ذا حـذرٍ لـو ينفـعُ الحـذَرُ

ثم قال في الشرح: قولـه: «إني أتتني[1] لسان». يقال: هو اللسان، وهي اللسان. فيمن ذكَّر فجمعه ألسنةٌ، ومن أنث قال: لسانٌ وألسُنٌ. وأراد باللسان هاهنا: الرسالة»[2]. فاللسان مجاز عن الرسالة؛ لأنه يمليها. والقرينة: أتتنى.

وجاء لفظ لسان في شعر وأريد به القول، وهو:

مَلأتُمْ فِجاج الأرض عـدلاً ورأفـةً … ويعجـزُ عَنيِّ عُجـزها ورحيبُها

قطعتُـم لِســان عـن عـدوٍّ تنـالكُمْ … عقاربِـــهُ تلْـــداغُها ودبيبُهـــا

يقول لمدوحه: إنّ عدلكم البالغ لم يعد معه لكم عدوّ، فهذا منع قولي من هجاء أحد تجاهكم، يقول أبو زيد القرشي: «قطعتم لساني» أي: منعتموني من الكلام»[3].

٦- المجاورة: أي ذكر الشئ باسم مجاوره، لما بينهما من الصلة، ومن أمثلتها أن المبرد روى مقطوعة لابن نمير الثقفي، وأولها:

أشاقَتكَ الظعائــنُ يــومَ بــانوُا … بذي الزيّ الجميل مـن الأثاثِ

ظعائن أسلكــتْ نقْــب المُنَقَّـى … تحثُّ إذا ونِـتَ ايَّ احتِثــاثِ

ثم قال: «قوله: الظعائن. واحدتها ظعينة، وإنما قيل للمرأة ظعينة وهم يريدون: مظعونا بـها، ثم استعمل هذا وكثر حتى قيل للمرأة المقيمة ظعينة»[4]

---

(١) قال ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ): «اللسان يذكر، وربما أنث إذا قصدوا باللسان قصد الرسالة، أو القصيدة ثم استشهد بأبيات، أولها:

أتتني لسانُ بني عامرٍ … أحاديثُها بعدَ قولٍ نُكرْ

(٢) المذكر والمؤنث: ١/ ٣٣٨.

(٣) جمهرة أشعار العرب: ٧٨٨.

(٤) الكامل: ٢/ ٢٣٩.

فليس ثمة شبه بين المرأة والهودج، ولكن لما كان في السفر مجاورة صح إطلاق «ظعينة» على المرأة، ثم اتسع فيه وكثر حتى قيل للمرأة المقيمة ظعينة. قال أبو زيد: الظعائن: الهوادج، وإنما سميت النساء ظعائن لأنهن يكن فيها»[1].

ومن الأمثلة قول المبرد: «روى» استقى لأهله. يقال: فلان راوية أهله إذا كان يستقي لأهله، والتي على البعير والحمار: مَزادة»[2] فالراوية في الأصل للبعير ونحوه مما يحمل الماء، وإطلاقها على المزادة ونحوها مجاز مرسل. قال أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ): «العرَب تسمي الشيء باسم غيره إذا كان معه أو من سببه. كما قالوا للمزادة: راوية به؟ لأنها تكون عليه»[3].

ويقول المبرد: «العِطفُ: ما انثنى من العنق... ويقال للأردية: المَعْطَفُ؛ لأنها تقع على ذلك الموضع»[4] فالمجاورة سوغت إطلاق العطف عليها.

وروى أبو العباس قول أعرابي:

ترَى القومَ منها مُطرقين كأنما تساقوا عُقاراً لا يَبِلُّ سليمُها

ثم قال في الشرح: «قوله: «تساقوْا عقاراً» يريد: كأنهم سكاري لِمَا نالهم من الحجة والعُقار: اسم من أسماء الخمر، وإنما سميت عُقاراً لمعاقرتها الدّن». فعلى هذا التفسير العلاقة: المجاورة[5]. ويجوز أن تكون السببية.

---

(١) كتاب الأضداد عن الأصمعي: ٤٦ ضمن (ثلاثة كتب في الأضداد).

(٢) الكامل: ٣/ ٢١٨، وانظر: الموازنة: ١/ ٣٦، وأسرار البلاغة: ٢/ ٣٧٢.

(٣) غريب الحديث. المجلد الثالث: ١٥٦، وأنظر حاشية السيد على المطول: ٣٥٥.

(٤) الكامل: ٢/ ٣٠٤، وفي لسان العرب (عطف): «العطف: المنكب... والعِطاف: الرداء، والجمع: عُطُفٌ وأعطفة... وقيل: المعاطف: الأردية، لا واحد لها. وسمى الرداء عِطافا؛ لوقوعه على عطفي الرجل. وهما ناحيتا عنقه».

(٥) الكامل: ١/ ١٠٧، والضمير في «منها» يعود على بيت سابق، وهو:

وداهيةٍ داهٍي بها القومَ مُفلقٌ شديد بعوران الكلام أزومُها

قال المبرد: قوله: «وداهية»: يعنى حجة داهي بها القوم: يريد: عجيبة،والمراد: أن الرجل أورد حجة بليغة، لها تأثير على القوم فاطرقوا؛ كأنما تساقوا عُقارًا.

قال ابن منظور: «سُمّي الخمر عقاراً؛ لأن الدّن يعقر العقل»[1]. فالخمر سبب عقره أي منعه عن التفكير والاهتداء. وذكر أبو زيد القرشي هذين التعليلين[2].

٧- **الكلية**: أي تسمية الشيء باسم كلّه. ومن أمثلتها أن المبرد روى قول الشاعر:

إنّ الذين يسوغُ في أعناقِهم زادٌ يُمَنُّ عليهم لَلِئامُ

ثم قال: قوله «يسوغُ في أعناقهم» يريد: حلوقهم؛ لأن العنق يحيط بالحلق»[3].

ونقده «المرصفي» بقوله: «هذه رواية أبي العباس وقد تكلف لها. والرواية على ما أنشده أئمة اللغة:

«إن الذين يسوغُ في أحلاقِهم»

مستشهدين به على أن يقال: حلْق وأحلاق، والكثير حُلوُق»[4].

فعلى رواية أبي العباس تكون الأعناق مجازاً عن الحلوق، بعلاقة الكلية. وعلى ما رواه أئمة اللغة: الأحلاق حقيقة لغوية.

٨- **الجزئية**: وهي تسمية الشيء باسم جزئه، ففي شرح المبرد لخطبة الصديق - ﷺ - قال: وقول: «وَرِم أنفهُ» يقول: امتلأ من ذلك غضباً، وذكر أنفه دون السائر كما يقال: فلان شامخٌ بأنفه. يريد: رافع، وهذا يكون من الغضب»[5]. فالغضب يملأ الجسم ولكن ظهوره في الأنف أكثر؛ ولذا قال أبو العباس: «دون السائر» فللأنف أهمية في هذا المقام، وهذا ما جعله موضع الذكر.

ويورد أبو العباس مقطوعة لجرير يمدح هشام بن عبد الملك، ومنها قوله[6]:

---

(١) اللسان: (عقر).

(٢) جهرة أشعار العرب: ٣٦٢.

(٣) الكامل: ١/ ٥٩.

(٤) رغبة الآمل: ١/ ١٩٦.

(٥) الكامل: ١/٦.

(٦) المرجع السابق: ٢/ ١٣٩، والأبيات من قصيدة بديوانه: ٥٠٦، وعددها أربع وعشرون بيتاً.=

تـرى للمـسلمين عليـك حقًـا   كَفِعْلِ الوالـد الرءُوفِ الرَّحِيـم

وَليـتُمْ أمــرنا ولكـم علينـا   فُضُولٌ في الحديث وفي القـديمِ

إذا بعــضُ الـسِّنين تعــرفتنا   كفى الأيتـامَ فَقْـدَ أبـي اليتيمِ

وفي بيانه لقول جرير:

«إذا بعض السِّنين تعرفَتْنا»

فإنه يذكر سبب تأنيث الفعل «تعرفت» مع فاعله الضمير المستتر العائد على «بعض»؛ لأنه قصد به لفظ «السنين» ويورد له شاهداً هو تأنيث الفعل «شرقت» مع فاعله وهو «صدر» في قول الأعشى:

وتشرق بالقول الذي قد أذعتَهُ   كما شرِقت صدرُ القَنَاةِ من الدَّمِ

فيقول: «لأن صدر القناة قناة، ومن كلام العرب:... ذهبت بعضُ أصابعه». وأورد أبو العباس في هذا الموضع أمثلة أخرى من الشعر.

فعلى هذا يكون كل من «بعض» و «صدر» في البيتين مجازًا مرسلاً، علاقته الجزئية.

وثمة قول أجود منه. قال أبو العباس:

«والأجود أن يكون الخبر في المعنى عن المضاف إليه؛ فأقحم المضاف توكيداً؛ لأنه خارج عن المعنى. وفي كتاب الله - ﷻ - ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[1]. إنما

= والبيت: «وليتم أمرنا... » غير موجود بالكامل. وأثبتُه هنا ليستقيم المعنى. والبيت الثالث: «إذا بعض السنين...» ورد في المقتضب: ١٩٨/٤ شاهداً على اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه.

(١) يقول الله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء: ٣، ٤. والله تعالى: يسلي رسوله محمد ﷺ ويخفف عنه ما يلاقيه من عنت الكفار، وشدة معاناته من تكذيبهم وكفرهم حتى إنه ﷺ =

المعنى: فظلوا لها خاضعين. والخضوع بيّن في الأعناق؛ فأخبر عنهم؛ فأقحم الأعناق توكيداً.

وكان أبو زيد الأنصاري يقول: أعناقهم: جماعاتهم. تقول: جاءني عنقٌ من الناس والأول قول عامة النحويين».

فقد ذكر المبرد قولين:

الأول: يُفهم منه أن بعض الشيء مثل كله من حيث التذكير والتأنيث وهو قول عامة النحو النحويين – وقد عزاه ابن جرير (ت ٣١٠هـ) إلى نحوي البصرة[1]. وعلى هذا تكون «أعناق» مجازاً عن أصحابها – كما سبق- يقول ابن منظور: وقيل: أراد بالأعناق هنا: الرقاب كقولك: ذلت له رقاب القوم، وأعناقهم... وجاء بالخبر على أصحاب الأعناق لأنه إذا خضع عنقه فقد خضع»[2].

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦هـ) «والتأويل الآخر: أن يريد الأعناق: الجارحة المعلمة، وذلك أن خضوع العنق والرقبة هو علامة الذلة والانقياد»[3] فهو كناية عنهما.

- ليكاد يهلك نفسه أسىً عليهم. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فاطر: ٨، فهدايتهم إنما هي بيد الله وحده، وشاءت إرادته سبحانه ألا يكرههم على الإيمان؛ فقد منحهم العقول الواعية، وأرسل إليهم محمداً ﷺ ومعه الكتاب العزيز، بلْ ونصب أمامهم من الأدلة أينما ساروا، أو حلّوا، والتي لو أنعموا النظر فيها لاهتدوا، ولذا تركهم الله إلى اختيارهم، وليكون الجزاء يوم الدين.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٩/ ٥٩. والمراد: الكسائي والفراء وابن الأعرابي وعيسى بن عمر...، وانظر مجالس ثعلب: ٢/ ٤٣١، ومعاني القرآن: ٢/ ٢٧٦، والتفسير الكبير. المجلد السابع ١٣/ ٦١.

(٢) اللسان: (عنق).

(٣) المحرر الوجيز: ٤/ ٢٢٥.

وقال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): وقيل: «أريد الجارحة»[١].

وذكر الفرّاء (ت ٢٠٧هـ) أن هذا أحب الوجوه إليه في تأويل الآية[٢].

الثاني: قول أبي زيد: أعناقهم: جماعاتـهم. ونسبه ابن جرير إلى بعض نحويي الكوفة[٣] قال: «ويقال: يحتمل أن تكون الأعناق هم: السادة والرجال الكبراء؛ فيكون كأنه قيل: فظلت رءوس القوم وكُبراؤهم لها خاضعين.

وجعل ابن منظور هذا التأويل من الحقيقة حيث قال: «... قال ابن الأعرابي: أعناقها: جماعاتُها، وقال غيره: ساداتُـها».

والزمخشري جعله من المجاز، فقال: «ومن المستعار أتاني عنق من الناس، وجعله رسلاً رسلاً، وعنقاً عنقاً»[٤].

والخلاصة أن: توجيه الأعناق على الحقيقة يراد بـها: الجماعات؛ فيكون استغرقت الأعناق جملة الناس. وعلى المجاز المرسل بعلاقة الجزئية يراد بـها: الجماعة المتقدمة مثل الرؤساء، والكبراء.

وأما على المجاز المركب فيلاحظ هيئة اجتماع الجماعة، وارتباطها على الخضوع والإذعان. فلكل من العلماء رأيه، ووجهة نظره.

ولعل القول بالمجاز أولي سواء جعل من المجاز المفرد، أو من المركب، بعلاقة الهيئة الحاصله من الاجتماع والترابط في كلٍّ.

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٥. وفسره «على بن عيسى» بأنه على حذف مضاف، أي أصحاب الأعناق. فيكون من الإيجاز بالحذف. وهذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم، انظر: روح المعاني: ١٩/ ٥٩، وحاشية الشهاب: ٧/ ٣ والدُّر المصون: ٥/ ٢٦٧.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٧٦.

(٣) جامع البيان ١٩/ ٦١. وقال به: ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، والأخفش، انظر: البحر المحيط: ٧/ ٥، وتفسير البيضاوي: ٧/ ٣ هامش (حاشية الشهاب).

(٤) أساس البلاغة: (عنق).

وقد ذكر المبرد فى «المقتضب»[1]. هذه الآية الكريمة وعددا من الشواهد الشعرية التي وردت فى «الكامل». وذكر الرأيين بوضوح، ولعله أوجز فى «الكامل» اعتماداً على ما ذكره هناك، فقد ألف «المقتضب» أولا، ثم أحال عليه فى «الكامل»[2].

وأعود إلى المبرد حيث قال: «فأقحم الأعناق توكيداً» فالكلام عن زيادة «أعناق» كما قال. فقد جعلها مؤكدة للضمير المتصل بها. ولكن كيف يتقدم المؤكّد على المؤكّد؟ ومعلوم أن التابع رتبته التأخير!.

والقول بزيادة بعض الحروف فى القرآن مختلف فيه[3] وقد عبر المبرد عن الحرف الزائد بقوله: «مقحم» كما يقول بعضهم: «لغو»، وكلا اللفظين لا يليق التعبير بهما فى أي حرف من كتاب الله – تعالي – فالذّوق العربي الإسلامي يأبي ذلك.

يقول ابن منظور: «قَحَم الرجلُ فى الأمر يقحَمُ قحُوما، واقتحَم، وانْقحَمَ وهما أفصح: رمي بنفسه من غير رويّة، أو فى أمر من غير دُربة... وتقْحيمُ النفس فى الشيء: إدخالها فيه من غير رويّة... واقتحَمَ المنزل: هجمه».

فإذا كان من معاني «قحم» ومشتقاته: إدخال الشيء عَنوة، أو دون رويّة، أو الهجوم على الشيء... فهل يليق بلفظ قرآني أن يقال فيه ذلك؟ أو يسوغ للمبرد أن يقول: «فأقحم الأعناق توكيداً»؟.

والعجب أن الزمخشرى نقل عبارة المبرد وفيها هذه الكلمة، ثم نقلها عنه كل من أبي حيان، والقاضي البيضاوي، والشهاب الخفاجي... دون تردد أو نقد. وأكتفى بهذا القدر هنا فى أمر زيادة الحروف.

---

(١) ج ٤: ص ٣٣٥.

(٢) انظر: الكامل: ١/ ٨٣، ٢/ ١٧٦، ٣/ ١٠١، ١٧٣.

(٣) انظر: ص: ٣٠٤؛ ففيها دراسة أوسع.

المبحث الثاني

الاستعـــارة

الاستعارة: هي اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي كالأسد في قولنا: رأيت أسداً يرمي. فهي تعتمد على النقل من المعني الحقيقي إلى المجازى على سبيل المبالغة، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعني الحقيقي. والاستعارة إما: مفردة، أو مركبة.

أولاً: الاستعارة في اللفظ المفرد:

وهي تنقسم إلى: تصريحية، ومكنية.

فالتصريحية: ما صرح فيها باللفظ المستعار، فإن كان جامداً مثل: أسد، وبحر كانت أصلية. وإن كانت فعلا، أو مشتقا، أو حرفا كانت تبعية.

وإذا لم يصرح باللفظ المستعار، ولكن حذف ورمز إليه بشئ من لوازمه، فهي المكنية.

وفى كتاب «الكامل» دراسات مستفيضة للاستعارة؛ فقد بين أبو العباس معناها، ونقل اللفظ فيها من المعني الحقيقي إلى المجازي، وأشار إلى كل من: العلاقة والقرينة كما أشار إلى أن التشبيه أصل الاستعارة.

معني الاستعارة:

عُرفت الاستعارة عند الناس بما يتداولونه من المحسوسات بغرض المنافع، ثم يرد المستعار بعد إلى صاحبه. والاستعارة بهذا المفهوم معنى لغوى. ثم عُنِيَ بها عند علماء البيان: استعارة الكلمة أو الكلام المركب، لمشابهة بين المعنيين مع قرينة. وفى «الكامل» هذان الأمران.

١ - قال المبرد[١]: «حدثني التُوزي قال: دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب على هشام بن عبد الملك وعليه عمامة تخالفها؛ فقال هشام: كأن العمامة ليست من الثياب! قال: إنها مستعارة. قال: كم سنُّك؟ قال: ستون سنة.

ويذكر فى موضع آخر أن «ضابئ بن الحارث البرجُمي» كان استعار من قوم كلبا؛ فأعاروه إياه، ثم طلبوه منه.

فالاستعارة هنا معناها لغوى عرفى، وهي أصل للاستعارة بالمعنى البياني، وقد ربط ابن الأثير بين المعنيين، وزاد المعنى وضوحا؛ حيث يقول:

«الأصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه؛ فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئا؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جار فى استعارة الألفاظ بعضها من بعض؛ فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشئ المستعار من أحدهما إلى الآخر»[٢].

وتبدو الصلة قوية بين المعنيين: فالمجازى من لوازم الحقيقي المدلول عليه بهذا اللفظ.

٢ - **وعرفت الاستعارة عند المبرد بمعناها البياني**، فقد أشار إلي كل من: تعريفها، والجامع بين المعنيين، وبين منهج العرب فيها عند شرحه لقول الراعي[٣] فى المطر:

يا نُعمها ليلةً حتى تخوّنها ... داعٍ دعا فى فُروع الصبُح شحّاج

---

(١) الكامل: ٢/ ١٧٠، ١/ ٣٨٧.

(٢) المثل السائر: ٢/ ٧٧، وانظر. أسرار البلاغة: ٢/ ١٨٥.

(٣) ديوان الراعي النميري: ٢٩، ومعجم الشعراء للمرزباني: ١٢٢.

لما دعا الدَّعوة الأولى فأسمعني   أخذتُ بُردَيَّ واستمررتُ أدْراجي

يقول: قوله «شحَّاج» إنما هو استعارة في شدة الصوت، وأصله للبغل. والعرب تستعير من بعض لبعض. قال جرير[1]:

إن الغرابَ بما كرهتُ لمولعٌ   بنوَى الأحبَّة دائمُ التَّشحاجِ[2]

فقد بين استعارة «شحاج» للصبح، وأشار إلى الجامع، وهو «في شدة الصوت».

وقد استدرك «المرصفي» على «المبرد» جعل «شحاج» من الاستعارة، فقال معلقا: «وأصله للبغل» كذا يقول أبو العباس، وجعله استعارة فيما سواه، وليس كما قال: بل هو حقيقة أيضا في الحمار والغراب، حتى إن بعضهم جعل الشحاج صفة غالبة للحمار»[3].

ويؤيده قول ابن منظور: «الشحيجُ والشُّحاجُ بالضم: صوت البغل والحمار والغُراب إذا أسَنّ»[4]. ويؤيد ذلك قول العجاج يصف الحمار الوحشي[5]:

كــأنَّ في فِيــهِ إذا ما شحجَا
عُويدًا دُوَيْن اللَّهوات مُولَجَــا
رَعَى بها مرْجَ ربيــعٍ مُمْرِجَـا

فعلى هذا يكون لفظ «شحج» ومشتقاته حقيقة لغوية في «البغل» فقط عند بعض علماء اللغة، وعلى هذا جرى كلام المبرد.

---

(١) ديوانه: ٥٩، والبيت من قصيدة يمدح بها الحجاج، ومطلعها:

هاجَ الهَوى لِفؤادكِ المُهتاجِ   فانظر بتُوْضِحَ باكر الأحداجِ

(٢) الكامل: ١/ ٤٨١ - ٤٨٢.

(٣) رغبة الأمل: ٣/ ١٤٩. ولعله استأنس بقول الثعالبي في «فقه اللغة وسر العربية»: ٣١٨، «الشحيج للبغل».

(٤) اللسان: (شحج).

(٥) ديوانه: ٣٧٤، والمراد أنه إذا علا صوته كان له نغمة، كأنَّ في فمه آلة العُود.

ويجوز أن يكون حقيقة لغوية في صوت بعض الحيوانات كما ذكره ابن منظور، وعلى هذا يحمل رد «المرصفى» وقد وجدت له شاهداً، وهو قول العجاج. فالرأي الثاني أرجح.

وأورد أبو العباس[1] قول جرير يرثي ابنه «سوادة»:

لكنْ سوادَةَ يجلُو مُقْلتَيْ لَحمٍ ... بازٍ يُصَرْصِرُ فوقَ المركب العالي

ثم قال: قوله: «يُصرصر» يعني: يصوّت. يقال: صرصَر البازي، والصقر وما كان من سباع الطير. ويقال: صرْصرَ العصفور. وأحسبه مستعارا؛ لأن الأصل فيه: أن يستعمل فى الجوارح من الطير. قال جرير:

«بازٍ يُصرصِرُ بالسَّهْبَا قطًا جُونًا»[2]

وأنشد فى عُمارة[3]: «بازٍ يُصعْصع»

وهو أصح. قال أبو الحسن: «يُصعصع» وهو الصواب. وهكذا وقع فى كتابه.

شبه جرير فى الأول ابنه بالبازى. أي: هو باز. ثم استعار له: «يُصرصر» بمعنى يصدر صوتا متقطعاً[4]. وهو فى الأصل لبعض الطيور... ثم استشهد

---

(١) ديوانه: ٤٣٠، ورواية أبي العباس «هذا سوادة» ومطلع القصيدة:

قالوا: نصيبك من أجرٍ فقلت لهم: ... مَنْ للعرينِ إذا فارقتْ أشبالي

(٢) ديوانه: ٣٨٢ من قصيدة له يهجو التيم. والبيت كاملاً:

كأن حاديها لما أضرّ بها ... بازٍ يُصعصعُ بالسَّهبَا قطا جُونا

والضمير فى حاديها يعود على « العيس» فى بيت قبله.

(٣) وهي رواية ديوانه؛ قال:

كأنّ حاديها لما أضَرّ بها ... باز يُصعْصِعُ بالسّهبا قطاً جُونَا

والضمير المتصل من حاديها «يعود على العيس» فى بيت قبله يقول:

«والعيسُ عُرض الفُجاَجِ الغُبر يخديئا».

العيس: مفازة، وقيل: بلد اليمن. يصعصع: يطرد.

(٤) قالوا: صرَّ الجندب؛ فقطعوه لما هنالك من تقطيع. الخصائص: ١/ ٦٥.

بقول جرير للثاني؛ هذا ما رآه المبرد. ولكن تعقبه «المرصفي»؛ فبين أن «صرصر» حقيقة في كلا الأمرين فقد علق على قول المبرد: «وأحسبه مستعاراً»؛ بقوله: «ليس كما حسب، بل هو حقيقة. تقول: صرَّ العصفورُ، والجندب، والبازى، وصرَّ القلمُ، والباب كذلك صريراً: صوَّت»[1].

فعلى هذا الصرير: حقيقة في أصوات بعض الطيور والجمادات..؛ فيكون حقيقة في صوت « سوادة » يؤيده ما جاء في لسان العرب: «صرَّ يصِرُّ وصريراً وصرير: صوَّت وصاحَ أشدَّ الصياح. وقوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[2] قال الزجاج: الصرَّة شدة الصياح[3] تكون في الطائر، والإنسان وغيرهما» ثم روى أبيات جرير وفيها الشاهد الثاني — ثم قال: «قيل لامرأة: أي النساء أبغض إليك؟ فقالت: التي إن صخبت صرصرت... وصرْصر الطائرُ: صوَّت. وخص بعضهم به البازي والصقر»[4].

وعلى هذا فلعلماء اللغة في «صرَّ» ومشتقاته رأيان:

الأول: أنه حقيقة في أصوات بعض الطيور والإنسان والجماد. وقد أورد ابن منظور له شاهداً من القرآن الكريم، وآخر من كلام العرب.

الثاني: أنه خاص بالبازي[5] والصقر. والقائل بهذا الرأي قليل.

فالمبرد نظر إلى هذا الرأي؛ فقال بالاستعارة، والمرصفي نظر إلى الأول فقال بالحقيقة، ووجه بالتالي نقده للمبرد، فلكل عند علماء اللغة دليل.

بيد أن الرأي الأول أولى؛ لأن له شاهدا من القرآن الكريم. والمعنى بعد

---

(١) رغبة الآمل: ٣/ ٣٠
(٢) سورة الذاريات: ٢٩.
(٣) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٥٥.
(٤) لسان العرب: (صرصر).
(٥) فقه اللغة وصحاح العربية: ٣١٩.

صحيح على كلا الرأيين.

وفى حديث المبرد عن بعض أصوات الطير فإنه يورد قول حُميد بن ثور فى الحمامة المطوقة:

تغنَّتْ علَى غُصنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ — لِنائحةٍ فى شجْوِها مُتلوَّما

إذا حركتْه الريحُ أوْ مالَ مَيْلةً — تغنَّتْ عليهِ مائلاً ومُقوَّما

ثم يقول: «ويقال للحمامة: تغنَّتْ، وناحت. وذلك أنه صوت حسن غير مفهوم، فيشبَّه مرة بهذا، ومرة بهذا»[(1)].

وقوله: «يشبه...» إشارة إلى أن الاستعارة تبنى على التشبيه. فالشاعر استعار «تغنت» من الإنسان للحمامة، بجامع التطريب فى كلٍّ، وعلى هذا يحمل قول ابن منظور: «كلُّ من رفع صوته، ووالاه فصوته عند العرب غِناء»[(2)].

ومن استعارة الفعل ما جاء فى قول عُمر بن أبي ربيعة[(3)] فى «القتُول»:

أزهقَتْ أمُّ نوفلٍ إذ دعتْها — مُهجتِي مَا لقاتلٍ متَاب

فقد بيَّن أبو العباس «أزهقت» بقوله: «تأويله»: أبطلتْ وأذهبت. قال الله – جل وعز –: ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[(4)]»[(5)].

والحديث فى الآية الكريمة عن قهر القرآن الكريم، أو الحجة الواضحة للشيطان والشبه الباطلة... قال الله تعالي: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فالقذف هو: الرمي وأريد به القهر كما سبق.

---

(1) الكامل: ٣/ ١٢٤، وما بعدها.

(2) لسان العرب: (غنا).

(3) ديوانه: ٥٩.

(4) سورة الأنبياء. الآية: ١٨.

(5) الكامل: ٢/ ٤٣.

استعير لفظ «زُهوق» الذي هو إخراج الروح لمعني الإبطال. ثم اشتق منه «أزهقت» في البيت، و «زاهق» في الآية الكريمة. يقول الزمخشري (ت٥٢٨هـ): استعير لذلك – الإبطال – القذف، والدمغ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقهِ، فجعله – الباطل – كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا، قُذف به على جرم رخو أجوف، فدمغه». ثم اشتق منها: «نقذف» و «يدمغ»[1] لهذا المعني.

وأشار المبرد إلى الاستعارة التصريحية الأصلية عند بيانه لرسالة على بن أبي طالب يرد على معاوية – رضي الله عنهما – وأولها قوله[2]:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من على بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر. أما بعد. فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصرٌ يهديه، ولا قائدٌ يرشده. دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتَّبعه». ثم شرع في شرحها، ومما قاله:

وقولـه: «ليس له بصر يهديه» فمعناه: يقودهُ، والهادي هو الذي يتقدم؛ فيدُل. والحادي الذي يتأخر فيسُوق. والعُنق يسمى الهادي؛ لتقدمه. وقولـه: «دعاه الهوي» فالهوى من هويت مصدر. قال الله – عز وجل –: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[3].

فقد جُعل العقل في دلالته على الحق مشبّها بالبصر. ثم استعير البصر لهذا المعنى. ولفظ «يهديه» قرينة. فالاستعارة تصريحية أصلية.

وشبه الهوى وهو معنوي بالمأمور المطيع المجيب، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإجابة، ثم اشتق منه «أجاب». فالاستعارة مكنية.

وأما الآية الكريمة فإنها تصف الكفار الذين زُينَ لَهُم سُوءُ أعْمَالِهِم فاتبعوها.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٦٥، وانظر: رسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني: ٨٨.

(٢) الكامل: ١/ ٣٣٠، وما بعدها.

(٣) قال الله تعالي: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ (سورة محمد: الآية: ١٤).

يقول أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي: شهوات أنفسهم ممن لا يكون له بينه؛ فعبدوا غير خالقهم، وقد بني الفعل «زُيّن» للمجهول ليفيد كل مزيِّن للشرك والمعصية، وفيه تنبيه لهم عسي أن يفكروا ويهتدوا.

شبهت الأهواء فى انقيادهم لها بالأمر المطاع، بجامع السمع والطاعة فى كلٍّ. ثم استعير المشبه به للمشبه، وحذف ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الاتباع منه، واشتق منه: اتَّبع مسند إلى ضميرهم. فالاستعارة مكنية كذلك.

ومن التصريحية الأصلية ذكر الأخ، والعمّ إذا أريد بهما: الكلام المتفاوت فى درجات النظم. وذلك أنهما وضعا للآدميين.

يقول المبرد: «وخُبِّرت أن عُمر بن لجأ قال لابن عم له: أنا أشعر منك قال له: وكيف؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه»[1].

ومن استعارة الفعل ما أنشده نُصيب فى مدح سليمان وهو[2]:

أقول لركبٍ صَادرين لقيتهُــم ... قِفَا ذات أو شالٍ ومـولاكَ قــاربُ
قِفوا خبروني عن سُـلَيمان إنَّـني ... لمعروفـه مـن أهْـل وَدَّانَ طالــبُ
فعاجُوا فأثنوْا بالـذى أنت أهلُـهُ ... ولـو سكتواْ أثنتْ عليـك الحقـائِبُ

يقول أبو العباس: «إنما يريد أنـهم يرجعون مملؤة حقائبهم من رِفده؛ فقد أثنت عليه الحقائب من قبل أن يقولوا، فليس للحقائب ألسن؛ فتثنى، أو تذم. وإنما امتلاؤها دليل على كثرة العطاء».

شبه امتلاء الحقائب بثناء المادح بجامع الدلالة فى كل، ثم استعير الثناء لهذا المعني، واشتق منه: أثنتْ؛ بمعني: دلت على سبيل الاستعارة الأصلية التبعية.

(١) الكامل: ٢/ ١٦٠.

(٢) المراجع السابق: ١/ ١٨٤ – ١٨٧، وانظر. عيون الأخبار: ١/ ٢٩٩، والعمدة: ١/ ٧٤، وأمالي المرتضي: القسم الأول ٦١، وأمالي القالي: ١/ ٩٤.

وورد في «الكامل» أمثلة لاستعارة الحرف فالمبرد يرينا في مثالين متجاورين استعمال الحرف في حقيقته، ثم في مجازه باعتباره متعلقة. يقول:

«قولهم: فلان على الدّابة، وعلى الجبلَ. أي فوق كل واحد منهما. ثم تقول: فلان عليه ديْن تمثيلاً، وكذلك: ركبه ديْن، وإنما تريد: أن الدّين قد علاه وقهره»[1].

الحرف «على» يفيد الاستعلاء وهو على الحقيقة في المثالين: فلان على الدابة، وعلى الجبل. وأما في قوله: فلان عليه ديْن، وركبه ديْن فهما من الاستعارة التبعية؛ لأن الاستعلاء هنا مجازي.

شُبه تمكن الدّين من المدين، وقهره له، وعدم براءة ذمته منه إلا بقضائه، شبه براكب دابة ونحوها. ثم استعيرت «في» من معناه الأصلي لتدل على هذا المعنى على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف.

ويبين أبو العباس المعنى الأصلي للحرف، ثم المعنى المراد به في النظم. فالحرف يبدل من آخر بشرط، وهو «إذا وقع الحرفان في معنًى في بعض المواضع». وهذا إشارة إلى العلاقة التي تصحح الاستعارة في الحرف المستعار، فهو يقول:

«وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع. قال الله – جل ذكره –: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[2] أي «على»، ولكن الجذوع إذا أحاطت دخلت «في» لأنها للوعاء. يقال: فلان في النّخل. أي: قد أحاط به. قال الشاعر:

همُ صلبُوا العبْدِيَّ في جذع نخلةٍ ... فلا عطِسَتْ شيبانُ إلا بأجدَعَا

(١) الكامل: ١/ ٣٧

(٢) سورة طه: الآية: ٧١.

وقال الله – جل وعز –: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾[1]. أي: عليه.

ففي الآية الأولى: «شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشئ الموعَى في وعائه»[2]، ثم استعير لفظ « في» لهذا المعنى على سبيل الاستعارة التبعية، وذلك أن حقيقة الصلب يكون على جذوع النخل لا فيها. قال أبو عبيدة: «إنما هو على جذوع النخل»[3]. ومثله صلب العبدى في جذع نخلة في البيت.

وقد جاء الصلب على الحقيقة في قول المبرد: «ويروى أن شاعراً لبني أمية قال معارضاً للشيعة في تسميتهم زيداً المهدي:

صلَبْنا لكمُ زيداً على جِذْعِ نخلةٍ ... ولم نَر مهديًا علىَ الجذعِ يُصلبُ»[4]

وفي الآية الثانية نابت «في» مناب «على» لوجود العلاقة بين الحرفين. هذا على المجاز. ولكن لا داعي إليه ما أمكن الحمل على الحقيقة. فهما رأيان.

الأول: المجاز:

– قال أبو عبيدة (ت٢١٠ هـ): ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾[5]... جاز «فيه»: به، وعليه، وفي القرآن ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ والسُّلم: السبب والمرقاة. قال الشيباني: «البيت السابق».

– وقال ابن عطية[6](ت ٥٤٦هـ): «المعنى: ألهم (سُلَّم) إلى السماء يستمعون فيه» أي: عليه، ومنه. وهذه حروف يسد بعضها مسد بعض»، ونقل أبو حيان ذلك بتصرف يسير.

---

(١) سورة الطور: الآية: ٣٨.
(٢) الكشاف: ٢/ ٥٤٦.
(٣) مجاز القرآن: ٢/ ٢٣٤.
(٤) الكامل: ٤/ ١٢.
(٥) سور الطور: الآية: ٣٨.
(٦) المحرر الوجيز: ٥/ ١٩٣.

الثاني: الحقيقة:

- قال الزمخشري (ت ٥٢٨هـ): ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ منصوب إلى السماء، يستمعون صاعدين فيه كلام الملائكة، وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه - ﷺ - على هلاكهم، وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون»[١]. ونقل الرازي[٢](ت ٦٠٦هـ) قول الزمخشري بتمامه، كما نقله القاضي البيضاوي.

- وشرح الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) ما نقله البيضاوي حيث قال: «صاعدين فيه» يعني أن الظرفية على حقيقتها، وليست «في» بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ كما قيل، والجار والمجرور متعلقه خاص، وهو حال. أي: صاعدين فيه.

وقيل: إنه - السلّم - ضُمِّن معنى الصعود، ولا حاجة إليه، وقوله: «إلى كلام الملائكة» وأنه يتعدى بـ «إلى» كما يتعدى بنفسه، لا بـ «في»، ولو جعل منزّلاً منزلة اللازم. أي يقع منهم الاستماع جاز»[٣].

- فالخفاجي بيّن أن المراد بـ «في»: الحقيقة، وأن ثمة فرقا بينها وبين «علَى» في الآيتين الكريمتين.

- وجمع بين الرأيين مفسر معاصر[٤] حيث رأى أن «في» للظرفية المجازية، وقد اشتهرت حتى ساوت الحقيقة، وأنه شاع في الكلام: صعَد في السلّم، ولذا اعتبرت ظرفيه حقيقة. أي حقيقة عرفية. فلا منافاة إذاً بين من زعم أن الظرفية

---

(١) الكشاف: ٤/ ٢٦.

(٢) التفسير الكبير. المجلد الرابع عشر: ١٧/ ٢٨.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي: ٨/ ١٠٧.

(٤) هو سماحة الإمام: محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله. انظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٧٣ باختصار.

مجازية، ومن زعم أنها حقيقة.

وأشار المبرد إلى الاستعارة العِنادية في مواضع من كتابه قال: «والسليمُ: الملسُوع، وقيل له: سليم على جهة التفاؤل، كما يقال للمَهلكَة: مفازة، وللغراب: الأعور. على الطيرة منه؛ لصحة بصره»[1].

فهذه الأمثلة منها ما يراد به التفاؤل، أو التطير، وكل مستعمل في ضد معناه بعد تنزيل التضاد، أو التناقض منزلة التناسب. وهذا ما رآه أئمة اللغة وما جرى عليه العرف.

يقول الأصمعي: «أصل المفازة: مهلكة، فتفاءلوا بالسلامة والفوز كقولهم للملدوغ: سليم، والسليم: المعافي»[2].

ثانياً: المجاز المركب:

وهو: اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل، للمبالغة. أي تشبيه إحدي صورتين منتزعتين من أمرين، أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبَّهة في جنس المشبَّهة بها في التشبيه؛ فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه.

وهذا النوع يسمي: الاستعارة التمثيلية، لجريانها بين الهيئات المنتزعة من متعدد. وإذا شاع تداولها واستعمالها سميت: مثلاً[3] والأمثال لا تغير؛ فيخاطب بها – وهي على حالها – كل من المفرد والمثني والجمع، مذكرًا ومؤنثا.

وللمثل مورِد: وهو المعني الذي ورد فيه أولا، ومضرِب: وهو الحالة الثانية المشبهة لمورده.

وكتاب «الكامل» حافل بدراسات كثيرة لهذا المجاز؛ ففيه الكثير من الاستعارة

---

(١) الكامل: ١/ ١١٠، ٣/ ١٦٤،وانظر: الإيضاح: ٣/ ١٣٢.

(٢) كتاب الأضداد عند الأصمعي: ٣٨ «ثلاثة كتب في الأضداد» وانظر العمدة ٢/ ٢٦٠.

(٣) انظر: المطول: ٣٧٩، وتجريد البناني: ٢/ ٢٤٢.

التمثيلية، كما تطالعك الأمثال فيه كثيرا، ومعظمها مشفوع بالشرح والبيان. ففى أول الجزء الثاني من الكتاب تتوالى أمثلة كثيرة للاستعارة التمثيلية ويرد المثل فيه كثيراً على سبيل الاستطراد، بيانا لمعنى لغوي، أو تأييدا لمثل آخر، وقد يرد منفردا، وأكثر المثل من النثر، وقد يرد شعرا.

وشرح المبرد للمثل يختلف؛ فهو أحيانا يكتفى باللمحة الدالة(١)، وقد يسهب(٢)، وهو أحيانا يشير إلى أن من الأمثال ما هو قريب فى المعنى من آية قرآنية(٣)، أو حديث شريف، أو بيت من الشعر. وقد ينبه على أخذ المثل من كلام الغير.

وتوسع المبرد فى المثل، فأطلقه على بعض أمثلة الاستعارة التبعية، والكناية. فهو يقول: «تقول: فلان عليه دين تمثيلا، وكذا: ركبهُ دين، وإنما يريد: أن الدَّين قد علاه، وقهره»(٤) فهذا من الاستعارة التبعية، كما سبق.

وعندما أورد قول الشاعر:

طوال أنضية الأعناقِ لم يجِدُوا ... ريحَ الإماءِ إذا راحتْ بأزْفَارِ

ضربه مثلا، وإنما أراد: «طِوال الأعناق»(٥) فهو كناية عن الطول.

ويبين المبرد منزلة المثل فى الكلام؛ فيجعله أحد ضروبه؛ يقول: والكلام يجرى على ضروب. فمنه ما يكون فى الأصل لنفسه، ومنه ما يكنّى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلا، فيكون أبلغ فى الوصف»(٦). ويستشهد للمثل من كلام القدماء والمحدثين وسأبين ذلك.

---

(١) انظر: المثل: «إن الحُر حرٌّ» ٣/ ٩، «كما تدين تُدان» ١/ ٤٣، و «أكل عليه الدهر وشرب»: ١/ ١٤٨.

(٢) انظر: المثل: «لا فى العير ولا فى النفير»: ١/ ٣٣٦، والمثل: «إن الشّقي وافدُ البراجم»: ١/ ١٧١.

(٣) انظر: الكامل: ١/ ٩١، ٣١٩.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٣٧.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٥٧.

(٦) المرجع السابق: ٢/ ٢٩٠.

أورد المبرد في بداية الجزء الثاني فيضا من الأمثلة[١] في مختلف الأغراض بدأها بقوله:

قال أبو العباس: هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل؛ لأنها أشكل بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتبُ. قال ابن المعذل:

تكلِّفُني إذلالَ نفسي لِعزِّها ... وَهانَ عليها أنْ أهانَ لِتكرَما

تقولُ: سلِ المعروفَ يحيىَ بنَ أكثمٍ ... فقلتُ سليهِ رَبَّ يحيى بنِ أكثما

وقال محمود الورَّاق:

تعْصِي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا مُحالٌ في القيَاس بَديعُ

لو كانَ حُبُك صَادقاً لأطعتَهُ ... إنَّ المحِبَّ لِمنْ يحبُّ مُطيعُ

ويروى أنه – الشّعبي – أتي مسجدا؛ فصادف فيه قوما يغتابونه، فأخذ بعُضادتي الباب، ثم قال:

هنيئًا مريئاً غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِن أعراضنا ما استَحَلَّتِ

وقال محمود الورّاق:

يَا نـاظراً يَـرْنُو بعَيْنَيْ راقـدٍ ... ومُـشاهِداً للأمْـرِ غَيْـرَ مُـشاهِدِ

مَنَّيتَ نفْسَكَ ضَلَّةً وأبحتَها ... طُـرُقَ الرَّجـاءِ وهُنّ غيرُ قواصِدِ

تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذُّنوبِ وترتَجِي ... دَرَكَ الجِنانِ بها وَفَوْزَ العابِـدِ

ونسيتَ أن الله أخـرجَ آدمـا ... منها إلى الدنيا بـذَنبٍ وَاحـدِ

وأنشد منشد من الأبيات المفردة:

---

(١) سأقتصر على بعض الأمثلة.

إذا أنتَ لم تعصِ الهوَى قادَكَ الهوَى ... إلى بعْضِ ما فيهِ عليْكَ مَقَالُ

ومنها قول محمد بن وهيب:

وإني لأرجُو الله حتَّى كأنَّني ... أرى بجميلِ الظنِّ ما اللهُ صانِعُ[1]

وقال إسماعيل بن القاسم:

يامنْ يعيبُ وعيبُهُ متشعِّبٌ ... كمْ فيكَ من عَيْبٍ وأنتَ تُعيبُ

لِله دَرُّك كيفَ أنت وغايةً ... يدعوك ربُّكَ عندها فتُجيبُ

وقال:

يا عجباً للنَّاسِ لوْ فكَّرُوا ... وحاسبُوا أنفسَهُم أبصرُوا

وعبرُوا الدنيا إلى غيرِهَا ... فإنَّما الدُّنيا لَهُم مَعْبَرُ

الخيْرُ مِما ليس يَخْفَى هُوَ الـ ... مَعروفُ والشرُّ هُو المنكَرُ

مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال: رسول الله ﷺ: «يا عبد الله. كيْفَ بك إذا بقيتَ في حُثالة من النَّاس مَرِجَتْ عُهودُهم وأماناتُهم، وصارَ النَّاسُ هكذا»؟ وشبَّكَ بين أصابعه. فقلت: مُرني يا رسول الله. فقال: خُذ ما عرفتَ، ودعْ ما أنكرت، وعليك بخويْصةِ نفسِك، وإيَّاكَ وعوامَّها»[2].

---

(١) في عيون الأخبار: ١/ ٣٦ «بجميل الله» بدل: «بجميل الظن».

(٢) ورد الحديث الشريف بروايات مختلفة. فقد رواه أبو داود في سننه في: «كتاب الملاحم» ٤/ ١٢٣ بروايتين: الأولى هي: «حدثنا القعنبي أن عبد العزيز بن أبي حازم حدثهم عن أبيه عن عمارة بن عمرو عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وبزمان أو «يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلةً تبقى حُثالةٌ من الناس، قد مرجتْ عهودهم وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا» وشبَّكَ بين أصابعه؟ فقالوا: {و} كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلُون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم» (قال أبو داود: هكذا روىَ عن عبد الله بن عمرو عن النبي، من غير وجه).

- ورواه ابن ماجه في سننه في «كتاب الفتن. باب التثبت في الفتنة»: ٢/ ١٠٧ مع اختلاف =

قولـه ﷺ «فى حُثالة من الناس» أما الحثالة فهو ما يبقي فى الإناء من ردئ الطعام، وضربه مثلا. وقوله: «مَرِجت عُهودهم» يقول: اختلطت، وذهبت كل مذهب.

وقرب نهاية « الكامل[1] يورد أبو العباس «من مختصرات الخطب وجميل المواعظ والزهد فى الدنيا» كثيرا من النصوص؛ ليصل بها ما كان قد بدأ به – كما قال[2]– ومنها قوله:

«ويروى أن على بن أبي طالب – رضوان الله عليه – تمثَّل عند قبر فاطمة – رحمها الله –:

لكلِّ اجتماعٍ من خليليْن فُرقةٌ ... وإنَّ الَّذِى دُونَ الفراقِ قليلُ
وإن افتقَادِى وَاحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ علَى أن لا يدُومَ خَليلُ

وتمثلت عائشة – رحمها الله – عند قبر عبد الرحمن بن أبي بكر – بقول متمم

= يسير فى السند والمتن لرواية أبي داود، وأولها: «حدثنا هشام بن عمّار ومحمد بن الصباح قالا: ثنا عبد العزيز بن أبي حازم حدثني أبي عن عمارة بن حزم عن عبد الله بن عمرو بن العاص...».

والثانية برقم: ٤٣٤٣ وأولها: «حدثنا هارون بن عبد الله... حدثني عكرمة حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص قال:...».

ورواه الإمام أحمد فى مسنده: ٢/ ١٦٢ برواية: «حدثنا عبد الله حدثني أبي إسماعيل بن يونس عن الحسن أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا بقيت فى حُثالةٍ من الناس... » غير أن فيها «وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذاك».

وهو فى اللسان (حثل)، وعن عبد الله فى (مرج)، والفائق (حثل).

الحُثالة: الردئ من كل شئ. قال أبو عبيدة: الحُفالة، والحثالة: واحد وهي من التمر والشعير وما أشبهها: القُشارة منه، وحثالة الناس: رُذالتهم. أمالي القالي: ٢/ ٢٣٤، ومرج: اضطرب. يقال: مرِجَ الأمرُ مَرجًا فهو مارج ومرج: التبس واختلط. الفائق واللسان: (مرج).

(١) ج٤ ص ١٧، وانظر: ١/ ٧، وما بعدها.

(٢) الكامل: ١/ ٤، وما بعدها.

ابن نُويرة:

وعِشْنا بخيرٍ فى الحياة وقبلَنَا أصابَ المَنَايَا رهطَ كسْرَى وتُبَّعَا

وكنَّا كَنَدْمَانَىْ جُـذيمَةَ حِقبةً مِـنَ الدَّهرِ حتى قيل لَنْ يتصدَّعا

فلما تفرقْنَـا كأنّى ومالِكـــًا لِطول اجتْماعٍ لم نَبِتْ ليلةً مَعًـا[1]

فهذه الأمثلة نقلت من مقام إلى آخر مماثل، على سبيل الاستعارة التمثيلية.

– ٢ –

وفى «الكامل» أمثلة كثيرة للاستعارة التمثيلية مشفوعة بالبيان. وقد أخذها عن المبرد كثير من العلماء. فقد روى قول الشماخ[2] يمدح «عَرابة»:

رأيتُ عَرابةَ الأوسي يسمُو إلى الخيراتِ منقطِعَ القَرِينِ

إذا مـا رايـةٌ رُفِعَتْ لمجـــدٍ تلقَّاهـا عرابـــةُ باليميـنِ

ثم قال: قوله: «تلقَّاها عرابةُ باليمينِ». قال أصحاب المعاني[3]: معناه: بالقوة

---

(١) الكامل: ٤/ ٣٠، وفى جمهرة أشعار العرب: ٥٩٩، وأمالي الزجاجي: ٥٨، والمؤتلف والمختلف: ٤٦٦، والاقتضاب: ٣/ ٣٨٧ روي البيت الثاني «وكنَّا كندْمَانَيْ...» متقدما على البيتين، وجاء متأخرا عنهما فى رواية المفضليات: ٢٦٧ وفيها: «الندمان: النديم. أراد: مالكا وعقيلاً ابني فارج بن كعب من بني القَيْنِ بن جسر بن قُضاعة. نادما جُذيمة الأبرش حين ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي؛ فحكَّمهما؛ فاختارا منادمته؛ فكانا نديمه دهرا. ثم قتلهما. ولإعجاب عمر بن الخطاب بهذا الرثاء فإنه قال لمتمم: « لوددتُ أنك رثَيْتَ أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك». معجم الشعراء: ٤٦٦.

(٢) ديوانه: ٣٣٥. والمبرد ترك بيتا بين البيتين وهو:

أفادَ عامدًا وأفاد مجداً فليْس كجامدٍ لحِزٍ ضَنينِ

«قال المبرد: «وكان سبب ارتفاع عرابة أنه قدم من سفر، فجمعه الطريق، والشماخ بن ضرار المرى؛ فتحدثا؛ فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة؟ قال: قدمت لأمتار منها، فملأ له عرابة رواحله بُرًّا وتمرا، وأتحفه بغير ذلك. فقال الشماخ الأبيات».

(٣) قال ابن عباس: «بيمنيه». بقدرته يوم القيامة، وكلتا يدي الله يمين» تنوير المقباس: ٢٨٩، وفى قوله تعالي: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾. (الحاقة: ٤٤ – ٤٥) يقول:=

وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالي: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[1]»[2].

حكى المبرد عن أصحاب المعاني تفسير اليمين بالقوة فى كل من الآية الكريمة، والبيت؛ فالمجاز فى اللفظ المفرد. ولكن المعنى فى كل منهما على تؤديه الصورة التركيبية من المعنى والتصوير، وهو لا يكون إلاّ بمجموع الكلام.

فالشماخ يصور «عَرابة» فى حرصه على المبادرة إلى سبل المجد بكل ما أوتي من قوة، ومال وغير ذلك بتلقيه الشئ باليمين.

والآية الكريمة تشير إلى عظمة الله – سبحانه – وقدرته، وصُنعه يوم القيامة فى السموات والأرض. قال تعالي: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[3]. فالمراد بالمجاز: جملة ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ لا لفظ «يمين» وحده، وكذا البيت الثاني فى قول عَرابة.

والإمام عبد القاهر ذكر ما قاله أبو العباس، ثم بين أن المعنى فى المثالين على التمثيل المستفاد من جملة الكلام حيث قال[4]:

«إذا أريد باليد: القدرة فهي إذاً أحنُّ إلى موضعها الذي بدئت منه، وأضْبث[5] بأصلها؛ لأنك لا تكاد تجدها تراد مع القدرة إلا والكلام مثلٌ

= بالحق والحجة. ويقال: أخذناه بالقوة» تنوير المقياس: ٢٦٦.

ويقول ابن قتيبة: «... وإنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شئ فى ميامنه». تأويل مشكل القرآن: ١٥٤.

(١) سورة الزمر: ٦٧.

(٢) الكامل:١/ ١٢٨.

(٣) سورة الزمر: الآية: ٦٧.

(٤) أسرار البلاغة: ٢/ ٢٢٤ – ٢٢٦.

(٥) ضَبِثْتُ بالشئ ضبثاً... إذا قبضْت عليه بكفك والضَّبْث: قبضكَ بكفك على الشئ. اللسان.=

صريح. ومعنى القدرة منتزع من اليد مع غيرها، أوهناك تلويح بالمثل... فأما ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل، دون التصريح حتى ترى كثيرا من الناس يطلقون القول أنها بمعنى القدرة، ويجريها مجرى اللفظ فيقع لمعنيين، كقولـه تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة، ويصلون إليه قول الشماخ:

إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ تلقَّاهَا عَرابةُ باليمينِ

كما فعل أبو العباس فى «الكامل»، فإنه أنشد البيت، ثم قال: قال أصحاب المعاني: معناه بالقوة، وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾. وهذا منهم تفسيرٌ على الجملة[1]. وقصدٌ إلى نفى الجارحة بسرعة؛ خوفا على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه[2] – جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين – ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة، والجهة التى منها يحصل على القدرة والقوة. وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل».

فعبد القاهر يبين أن محصول المعنى على القدرة، وأننا نصير إليها من طريق التأويل والمثل « فكأن المعنى – والله أعلم – أنه – عز وجل – يخلق فيها صفة الطيّ حتى تُرى كالكتاب المطويّ بيمين الواحد منهم. وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم للمثل».

ويبين الإمام عبد القاهر حسن قصد أصحاب المعاني فى تأويل اليمين بالقدرة دفعًا للمشبِّهة، والمجسِّمة[3]، والجهال فى التأويل بالجسمية.

= (ضَبث) والمراد: أن تأويل اليد بالقدرة رجوع إلى أصل المعنى فيها.

(١) أي دون إمعان نظر، وطول تأمل لما تؤديه الصورة التركيبية من مجموع كلمات الآية الكريمة والبيت.

(٢) أسرار البلاغة: ٢ / ٢٢٤ – ٢٢٦.

(٣) هم الذين يزعمون التجسيم والتشبيه فى حق الذات العلية: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ

ثم بيّن الطريقة المثلى في بيان المعنى، وأنها على المجاز المركب في كل من الآية الكريمة، والبيت.

وكان بيان الزمخشرى لهذا التأويل بأسلوب واضح، وقد ترسم فيه خُطى عبدالقاهر فقال: «والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كُنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة، ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو مجازاً...» [(١)].

وأقول: ما ذكره الإمامان هو الرأي، وعليه أكثر أهل العلم، فقد استظهر القاضي البيضاوي كلام جار الله الزمخشري؛ فذكر أن المعنى وارد على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة، واليمين حقيقة أو مجاز.

وأجرى الشهاب الخفاجي[(٢)] هذه الاستعارة، وبين نوعها بقوله: «مثّل حال عظمته، ونفاذ قدرته بحال من يكون له قبضة فيها الأرض، ويمين بها تطوى السموات.... واعلم أن المراد: استعارة تمثيلية تخييلية؛ فإن التمثيل يكون بالأمور المحققة كما في: «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى»، ويسمى تخييلا تحقيقاً، وقد يكون بالأمور المفترضة، وفرض المعاني من الحقيقة».

وقد قرنت هذه الآية الكريمة مع آية الكرسي فى بعض التفاسير[(٣)] لبيان أن

عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٤٣) وهؤلاء فرق فى مقدمتهم: الهاشمية واليونسية... وهذه الفرق ضلت فى بدع التجسيم والتشبيه – الفرق بين الفرق: ٦٥ – ٧٠، وانظر: شرح البيجورى على جوهرة التوحيد: ٨١.

(١) الكشاف: ٣/ ٤٠٨ ونقله الخطيب في الإيضاح: ٣/ ١٤٨.

(٢) حاشيته: ٧/ ٢٥١ وبالهامش: «تفسير البيضاوي».

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا

المجاز فيها مركب.

يقول الزمخشري[1]: وفي قوله ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن كُرسيه لم يضق عن السموات والأرض؛ لبسطته وسعته. وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسيَ ثمة ولا قُعود ولا قاعد كقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ من غير تصور قبضة، وَطيٍّ ويمين. وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسي. ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾.

والثاني: وسع علمه، وسمى العلم كرسيًا، تسمية بمكانه[2] الذي هو كرسي العالم.

والثالث: وسع ملكه، تسمية بمكانه الذي هو كرسيّ الملك.

والرابع: ما روى أنه خلق كرسيًا، هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض، وهو إلى العرض كأصغر شيء».

ونقل البيضاوي هذه التأويلات بإيجاز، فقال: «تصورٌ لعظمته، وتمثيل مجرد. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ولا كرسي ثمة ولا قعود، ولا قاعد، وقيل..».

ووجهه الشهاب بقوله: «قوله: تصوير لعظمته وتمثيل إلخ» إشارة إلى أنه استعارة تمثيلية. والتخييل نوع من التمثيل إلا أنه تمثيل خاص، بكون المشبه به فيه أمرا مفروضاً، وما يقال: إن التمثيل: تشبيه قصة بقصة، والتخييل تصوير

يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (سورة البقرة. الآية: ٢٥٥).

(١) الكشاف: ١/ ٣٨٥.

(٢) فهو مجاز مرسل، علاقته المحلية.

حقيقة الشيء.

والحاصل أنه استعارة تمثيلية كما في جعل الأرض في قبضته»[1] سبحانه وتعالى.

ونقل أبو حيان[2] الأوجه التي ذكرها الزمخشري، وفيها قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾.

– وقال: «إن العرب[3] وأهل الحكمة من العجم تجعل كل دليل قولاً؛ فمن ذلك قول زهير:

«أمِنْ أمِّ أوْفَي دِمنةٌ لم تكلَّم»

وإنما كلامها عنده: أن تُبين بما يرى من الآثار فيها من قدم أهلها، وحدثان عهدهم.

ويُروى عن بعض الحكماء[4] أنه قال: هلاَّ وقفت على المعاهد والجنان؟ فقلت: أيتها الجنان. منْ شقَّ أنهاركِ، وغرسَ أشجاركِ، وجنَى ثماركِ، فإن لم تجبْكَ حِوارًا أجابتك اعتباراً.

وأهل النظر[5] يقولون في قوله – ﷻ –: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[6] لم يكن كلام، وإنما فعل الله – ﷻ – ما أراد؛ فوجد. قال الراجز:

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي: ٢/ ٣٣٥.

(٢) البحر المحيط. المجلد الثاني: ٢٨٠.

(٣) روى الجاحظ في البيان والتبيين: ١/ ٨١ ، ٨٢ قول بعض الخطباء، وكذلك شعرا للراعي يفيد كلاهما أن السماوات والأرض شاهدة بربوبية الله، وقول نادب الإسكندر: «الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أو عظ منه بالأمس».

(٤) هو الفضل بن عيسى الرقاشي. انظر. البيان والتبيين: ١/ ٨٢، ٢٠٨، والحيوان: ١/ ٣٥، وأسرار البلاغة: ١/ ١٤٠

(٥) انظر: مجاز القرآن ٢/ ١٩٦، تأويل مشكل القرآن: ١٠٧.

(٦) سورة فصلت: الآية: ١١.

قد خَنَق الْحوض وقَال قَطنِي مهلاً رويداً قد ملأتُ بطني

ولم يكن كلام، وإنما وجد ذلك فيه».

فالدِّمنة[1] والمعاهد والجِنان والحوض كلٌّ منها دالٌّ بنصبتِه على ما عناه القائل ولم يكن ثمة كلام؛ فدلالة الحال في البيان بمنزلة الكلام.

وفي حاشية الصبان[2]: فالحوض لا يتكلم، ولكن لما أريد به نـهاية الامتلاء التي لا يزاد عليها، فكأنه قد تكلم بذلك».

والراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) جعل الدلالة من معاني القول، واستشهد بقول الراجز في الحوض[3]، ونقله عنه الفيروز أبادي في «بصائر ذوى التمييز».

– وأما قولـه تعالى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فهو في سياق الآيات[4] التي تبين بعض مظاهر قدرة الله –سبحانه– في خلق السموات والأرض، وانقيادهما له، وتذكرنا ببعض آلائه –سبحانه– فيها. ومنها: أن الله – تعالى – بعد أن خلق الأرض تعلقت قدرته بخلق السماوات وكانت على هيئة دخان؛ فأمرهما بالتكوين؛ فكانتا. عن ابن عباس قال[5]: "قال الله –تعالى– للسماوات: أطْلعي شمسي وقمري ونُجُومي. وقال للأرض: شقّقِي أنـهارك، وأخرجي ثمارَكَ، فقالتا: ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾.

وقد تردد معناه بين الحقيقة، والمجاز، وسأبين ذلك.

أولاً: المجاز: يقال: سرعة تكوين السماء والأرض كما أراد الله شُبه بالقول والإتيان، بجامع سرعة الامتثال فى كلٍّ. ثم استعير القول، والإتيان لذلك،

---

(١) دمنة الدار: أثرها والدمنة: آثار ما سوّدوا.. والجمع: دمن. اللسان (دمن).

(٢) ج ١ ص: ١٢٥.

(٣) المفردات فى غريب القرآن (قول)، بصائر ذوى التمييز: ٤/ ٣٠٤(بصيرة فى قول).

(٤) سورة فصلت: الآيات: ٩-١٢.

(٥) انظر: جامع البيان: ٢٤/ ٦٤، وتفسير القرآن العظيم: ٧/ ١٥٦. وفتح القدير: ٤/ ٧٢٢.

واشتق منه: قال: وأتي، ثم أضيفا إلى الضمير. فالاستعارة تبعية.

- أو يقال: شبهتا بإنسان مطيع لأمر ذى جبروت نافذٍ أمره. ثم استعير لهما: الإنسان للدلالة بشئ من لوازمه وهو الطوع. ثم اشتق منه طائعين. فهو استعارة تخييلية قرينة المكنية. وهذا على المجاز المفرد.

- وأما على المجاز المركب: فالزمخشرى يقول: معني أمر السماء والأرض بالإتيان، وامتثالهما: أنه - سبحانه - أراد تكوينهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المُطاع. وهو من المجاز الذي يسمي: التمثيل... والغرض: تصوير أثر قدرته فى المقدورات لا غير، من غير أن يحقق شئ من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل: قال: الجدار للوتدِ: لِمَ تشقُّنى؟ فقال الوتد: اسأل من يدقنى؛ فلم يتركني، ورائي الحجر الذي ورائي»[1].

والقاضي البيضاوي (ت ٦٩١هـ) نقل هذا الغرض من الاستعارة بتصرف، وتولى شيخ زادة (ت ٩٥١هـ) تقريره، ثم أجرى الاستعارة؛ فقال: «إنه من قبيل الاستعارة التمثيلية من غير أن يتحقق هنا خطاب، ولا جواب. شبه تأثير قدرته فيهما، وتأثرهما عنها بالذات - أي بالمشيئة والاختيار - بأمر آمر نافذ الحكم، يتوجه نحو المأمور المطيع له، فيتمثل أمره، ولا يُرد قوله بالقبول والامتثال؛ فعُبِّر عن الحالة المشبَّهة بما يعبر به عن الحالة المشبهة بها»[2].

ثانياً: الحقيقة: وهي على أن الله - تعالي- خلق فى السماوات والأرض

---

(١) الكشاف: ٣ / ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي: ٤/ ٢٥٥، وأوله كل من: الألوسي، وأبي السعود على التمثيل متأثرين بالزمخشرى، انظر: روح المعاني: ٢٤ / ١٠٣، وتفسير أبي السعود: ٥ / ٨، وقدرّه صاحب التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٤٨، على المجاز بنوعيه، وقدره كل من أبي عبيدة: ٢/ ١٩٦، والشريف المرتضي فى الأمالي: ١/ ٣٠ على مطلق المجاز.

حياة، وإرادة، فامتثلنا بالقول والفعل. يدل على ذلك قوله تعالي: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[1].

ومن الأدلة: تسبيح الجبال والطير مع دواد – عليه السلام – ونطق الجوارح على العبد يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[2]. فالزمخشري يقول: فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم، وكيف تنطق؟ قلت: الله – عز وجل – ينطقها»[3]. وكذا تسبيح الحصي في كف النبي – ﷺ – وحنين الجذع إليه عندما صنع له المنبر وخطب عليه[4].

ثالثاً: الجمع بين الحقيقة والمجاز:

وإزاء هذا الخلاف نجد القرطبي (ت ٦٧١هـ) يرجح التأويل بالحقيقة فيقول: «وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام؛ فتكلمتا كما أراد تعالي»[5].

وأوجز ابن عطية (ت ٥٤٦هـ) ما قاله المفسرون في هذين الرأيين، ولكنه رجح الحقيقة ومما قاله: «... قالت فرقة: نطقتْ حقيقة...، وقالت فرقة: هذا مجاز... والقول الأول أحسن؛ لأنه لا شئ يدفعه، وإنما العبرة به أتم، والقدرة أظهر...»[6].

(١) سورة الأحزاب: الآية: ٧٣

(٢) سورة فصلت: الآية: ٢١.

(٣) الكشاف: ٣/ ٤٥٠.

(٤) انظر: شرح البيجوري على جوهرة التوحيد: ١٢٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٤٥٠.

(٦) المحرر الوجيز: ٥/ ٧ ونقل أبو حيان في البحر المحيط: ٧/ ٤٨٦ قول ابن عطية، ثم ثني =

فالقول بالحقيقة أولي؛ لأنه المتبادر من الآية الكريمة والمخبر هو الله القادر، وله – سبحانه – فى خلقه شئون. وسبق أن الزمخشرى فسَّر آية أخرى على الحقيقة. وإن كان هذا لا يمنع المجاز، غير أن القول بالحقيقة أولي وأسلم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا – والله أعلم.

المثـــــل:

قلت: إن الاستعارة التمثيلية إذا شاعت صارت مثلا، وقد وردت معظم الأمثال فى «الكامل» متناثرة، وصنيع المبرد نحوها يختلف.

– فقد يقتصر على بيان المعني ومن ذلك قوله: «ومن أمثال العرب: «من عزَّ بزّ» وتأويله: من غلب استلب[1]. وقوله: «من أمثال العرب: لم يذهب من مالك ما وعظَك». يقول: إذا ذهب من مالك شيء فحذرك أن يحل بك مثله، فتأديبُه إياك عوض من ذهابه»[2].

– وكثيرا ما يبين معني المثل، ومضربه فيقول: «ومن أمثال العرب: «إنه ليُسرُّ حَسواً فى ارتغاء» ومعني ذلك، أنه يُوهمك أنه يأخذ بفيه تلك الجلدة من اللبن؛ ليصلحه لك، وإنما هو يحسو من تحتها. يضرب هذا المثل لمن يريك أنه يعينك، وإنما يجترُّ النفع إلى نفسه».

ويورد أبو العباس قول أبي زيد الأسلمي:

«وحلبتُ الأيَّام والدهرَ أضرعا»

ويتبعه بقولـه: «إنه مثل. يقال للرجل المجرب للأمور: فلان قد حلب الدهر

= بالزمخشرى، وأشار ابن كثير فى تفسيره: ٧/ ١٥٦ إلى الرأيين.

(١) الكامل: ١/ ١٤٨، ٣/ ٧١، وانظر: «ربَّ عجلةٍ تهب رَيثا»، و «أن ترد الماء بماءٍ أكيس»: ١/ ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٠٥.

أشطُره «أي قاسي الشدة، والرخاء، وتصرف فى الفقر والغنى»[1].

– وأحيانا يذكر مورد المثل ومضربه. فيقول: «وحُدثت أن الحسن نفى سابق الحاج، وقد أسرع، فجعل يومئ إليه بإصبعه فِعْل الغازلة، وهو يقول: «خرقاء وجدت صوفا» وهذا من أمثال العرب. يضربونه للرجل الأحمق الذي يجد مالا كثيرا؛ فيعيث فيه»[2].

وقد يقتصر على مضربه، ومنه قوله: «ومن أمثال العرب: «إن كنت ريحاً فقد لاقيْتَ إعصاراً». يضرب للرجل يكون جلداً؛ فيصادف من هو أجلد منه»[3].

– وقد يورد المثل شعرا ثم يقرنه بآخر؛ توضيحا له؛ فقد أورد شعرا لحارثة ابن بدر فى رثاء زياد، ومنه قوله:

الناسُ بعدكَ قد خفَّتْ حلُومُهم   كأنَّما نفختْ فيهَا الأعاصيرُ

ثم يقول فى الشطر الثاني: هذا مثل، وإنما يراد: خفة الحلوم. والإعصار فيما ذكر أبو عبيدة:[4] ريح تهب بشدة فيما بين السماء والأرض.

– وقد يقرن المبرد مثلين فأكثر، لاتفاقهما فى المضرب فقد أورد قول الفضل ابن جعفر.

يــــاوزراءَ الــسُّلطـان   أنتُــــم وآلَ خـــاقان

كــبعضِ مــا رويْنـــا   فى ســالِفَــات الأزمـــان

مـــاءٌ ولا كـــصَـدَّى   مَــرْعى ولا كـالـسَّعْـدان

ثم أتبعه بقوله: «وهذه الأمثال ثلاثة منها قولهم: «مرعي ولا كالسَّعدان»، و«فتًى ولا كمالِك» و «ماء ولا كصدَّى». تضرب هذه الأمثال للشئ الذي فيه

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٩١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٤٣ ويضرب للذى يفسد ماله. مجمع الأمثال: ١/ ٤١٨.

(٣) الكامل: ١/ ٣١٩.

(٤) قال: الإعصار: «ريح عاصف تهب من السماء كأنه عمود فيه نار». مجاز القرآن: ١/ ٨٢.

فضل، وغيره أفضل منه»[1].

المثل بين الإمكان والاستحالة:

ومن الأمثال ما يمكن تحقيقها، أي تنفيذ مضمونها، ومنها ما يندر؛ لأنه صعب المنال، ومنها ما هو محال.

- فمثال ما يمكن تحقيقه ما ورد على سبيل النصح مثل: «عشّ ولا تغتر». فالمبرد يبين مورده بقوله: «وأصل ذلك أن يمرّ صاحب الإبل بالأرض الكلِئة، فيقول: أدَعُ أن أعشّيَ إبلى حتى أرِد على أخرى، ولا يدري ما الذي يرد عليه»[2].

وكذا ما يرد على سبيل الإرشاد والوعظ مثل: «كما تدينُ تُدان» أي كما تفعل تجازى. ولهذا المثل أثره عند ذوى الألباب.

- ومن المثل ما يندر تحقيقه؛ أو يمتنع؛ لأنه مستحيل. وهذا النوع قليل. قال المبرد: «ومن أمثال العرب»[3]: «هو أعزُّ من بَيْض الأنُوق» وتقول لمن يطلب الأمر العسير: «سألتنى بَيْض الأنوُق» وذلك أنها تبيض فى رءوس الجبال؛ فلا يكاد يوجد بيضها؛ لبعد مطلبه وعسره». فإن سأله محالا قال: «سألتنى الأبلق العقُوق» وإنما هو الذكر من الخيل. ويقال: فرس عقُوق إذا حملت، فامتلأ بطنها. فالأبلق العَقوُق محال»[4].

المثل الأول: يضرب للشئ النادر، أو الذي يعسر الحصول عليه. يقول الميداني: «الأنوُق: الرَّخمة، وعزَّ بيضها لأنه لا يظفر به؛ لأن أوكارها فى رءوس

---

(١) المرجع السابق: ١ / ٩.

(٢) الكامل: ١/ ٢٠٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٢٨.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٧١.

الجبال، والأماكن الصعبة البعيدة»[1].

أما الثاني: فإنه يضرب للشيء المحال، فالأبلق العقوق لا وجود له، فهو على حد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[2] أي: لا تصعد أعمالهم[3]، وإنما خص الجمل من بين سائر الحيوانات لأنه أكبر جسماً عند العرب، وثقب الإبرة أضيق المنافذ؛ فكان ولوج الجمل فى تلك الثقبة الضيقة محالا؛ لأن المعلّق على المحال محال، وهذا تيئيس لهم من دخول الجنة إلا أن يتوبوا ويُسلموا لله رب العالمين. يقول القرطبي: «والجمل لا تلج...، فلا يدخولونها ألبتة»[4].

وروى المبرد خطبة[5] الحجاج لأهل العراق، وصدَّرها بقوله: «... فلما رأي عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه، ونهض وقال:

أنا ابنُ جلا وطلاَّعُ الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني»

ثم قال: قوله: «أنا ابن جلاً وطلاَّع الثنايا»

لسحيم بن وثيل الرِّياحي، وإنما قاله الحجاج متمثلا».

ويقول الميداني: «أنا ابن جلا». يضرب للمشهور المتعالم – وروى البيت – ثم قال: وتمثل به الحجاج على منبر الكوفة».

ويقول الحجاج مهددا: «إني والله ما يُقعقعُ لي بالشِّنان» وبينه المبرد بقوله: «ما يُقعقع لي بالشنان». وأحدها: شنٌّ، وهو الجلد اليابس، فإذا قُعقع به نفرت

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٩٠، وانظر: أمالي القالي: ٢/ ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ٤٠.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٣٧٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم:١/ ٢٠٦.

(٥) الكامل: ١/ ٣٨٠.

الإبل منه، فضرَب ذلك مثلا لنفسه. وقال النابغة الذبياني:

كأنك من جمال بني أقيشٍ ... يُقعقعُ بين رجليه بشَنِّ»

يقول الميداني: يضرب لمن لا يتضع لما ينزل به من حوادث الدهر، ولا يروعُه مالا حقيقة له[1]. فالحجاج يعنى: ما أنا بالذى يخاف منكم.

وكتاب «الكامل» حافل بدراسات كثيرة عن المجاز اللغوى بنوعيه المفرد والمركب.

* * *

وثمة مسألة فى زيادة «حروف المعانى»[2] وموقعها من البلاغة في القرآن الكريم.

والزيادة مصطلح نحوى. «وإنما حكموا بزيادة هذه الحروف؛ لأن التوكيد الذى أفادته ليس من معانيها التى وضعت لها أصلا، فضلا عن أن بعضها لا يُحدث أثراً إعرابيًّا فى تركيبه، فمازوها بذلك المصطلح»[3].

وقد عبروا عن الحرف الزائد بقولهم: زائد، وصلة، وحشو، ولغو، ومقحم[4]. قال ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ): «والصلة والحشو من عبارات الكوفيين، والزيادة والإلغاء من عبارات البصريين»[5].

وقد ورد في «الكامل» عن زيادة الحروف الكثير، فقد روى المبرد قول الشاعر:

فإنّى وتركي الإنس من بعد حبِّهم ... وصبْرى عمَّنْ كنتُ ما إن أزايله

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥١.

(٢) هى: (إن، أن، ما، لا، من، الباء).

(٣) التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية: ٣١٢، د/ أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب.

(٤) انظر لفظ «مقحم»، ص ٢٧٤.

(٥) شرح المفصل: ٨/ ١٢٨.

ثم قال: «إن» زائدة، وهي تزاد مغيرة للإعراب، وتزاد توكيداً وهو موضع ذلك[1]. ثم قال: «و «ما» تزاد على ضربين، فأحدهما أن يكون دخولها في الكلام كإلغائها، نحو: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[2] أي: فبرحمة، وكذلك ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ ﴾[3]. وكذلك: ﴿ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾[4]، وتدخل لتغيير اللفظ، فتوجب في الشيء ما لولا هي لم يقع، نحو: ربما ينطلق زيد، و ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[5]»[6]. وقال المبرد بزيادة «ما» في موضع آخر: ١/ ٢٨٩.

وفي زيادة اللام قال: «تقول: هذا ضاربٌ زيداً، وهذا ضاربٌ لزيد؛ لأنها لا تغير معنى الإضافة إذا قلت: هذا ضاربُ زيدٍ، وضاربٌ له، وفي القرآن: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[7]، وكذلك: ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا

---

(١) ولذا ذهب عبد القاهر في أسرار البلاغة: ٢/ ٢٨٦ إلى أن الكلمة كما توصف بالمجاز، لنقلك لها عن معناها إلى معنى آخر، توصف به كذلك لنقلها عن حكم إعرابي كان لها إلى آخر؛ وذلك بسبب حذف لفظ كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ (سورة يوسف: ٨٢) فالحكم الأصلي لـ «القرية» الجر بإضافة «أهل»، وكما في قولهم: بنو فلان يطؤهم الطريقُ، إذ الأصل: أهلُ الطريقِ، بالجر. أو بسبب زيادة لفظ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (سورة الشورى: ١١) فالأصل: ليس مثله شيءٌ، والمعنى: أن نفي مثل المثل يقتضي نفي المثل عن ذاته تعالى، وهو أبلغ من نفي المثل، فقد أفادت زيادة «الكاف» تأكيد النفي. انظر ذلك في مفتاح العلوم: ٢١٤، والإيضاح: ٣/ ١٥٢، والطراز: ١٧٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سورة نوح: ٢٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٦.

(٥) سورة الحجر: ٢.

(٦) الكامل: ١/ ٣٤٢.

(٧) سورة الزمر: ١٢.

تَعۡبُرُونَ ﴾[1]»[2]. هذا كلام المبرد.

وإذا رجعنا إلى كتب التراث وجدنا من العلماء من يقول بزيادة الحروف، ومنهم من يمنع ذلك، ولكلٍّ رأيه.

١- فأبو البقاء يقول في قوله تعالى: ﴿ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ ﴾: «ما» حرف زائد للتوكيد[3]. وفي آية يوسف يقول: «للرؤيا». اللام فيه زائدة، تقوية للفعل لمّا تقدم مفعوله عليه.

٢- والزمخشري يقول في آية البقرة: «ما» هذه إبهامية، أو صلة التأكيد كالتي في قوله: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ ﴾[4] كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقا، أو ألبتة، وهذا إذا نصبت «بعوضة»...»[5]. وفي آية آل عمران يقول: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ ﴾: «ما» مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه ما كان إلا برحمة من الله»[6].

٣- وابن هشام يقول في «ما»: «وتزاد بعد أداة الشرط جازمة كانت نحو: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾[7]، ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾[8]، أو غير جازمة، نحو: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ ﴾[9]. وبين المتبوع وتابعه في نحو:

---

(١) سورة يوسف: ٤٣.

(٢) الكامل: ١/ ٣١١.

(٣) التبيان: ١/ ٢٦.

(٤) سورتا النساء: ١٥٥، والمائدة: ١٣.

(٥) الكامل: ١/ ٢٦٤، والكشاف: ١/ ٢٦٤.

(٦) المرجع السابق: ١/ ٤٧٤.

(٧) سورة النساء: ٧٨.

(٨) سورة الأنفال: ٥٨.

(٩) سورة فصلت: ٢٠، وتتمتها: ﴿ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾، قال الزجاج: «ما» حرف زائد للتوكيد عند جميع البصريين»[1].

– ويقول أبو حيان في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾[2]: «الظاهر أن (لا) زائدة تفيد التوكيد والتحقيق... وقال قوم: «لا» في (أنْ لا تَسْجُدَ) ليست زائدة»[3].

فالخلاف بين العلماء مشهور في وقوع الحرف الزائد في القرآن الكريم، ولكلٍّ رأيه ووجهة نظره، ولم يَسْلم القائلون بالزيادة من النقد.

وغالب ظني أن أشهر من حمل على القائلين بالزيادة في القرآن ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)؛ فقد فنّد آراءهم، وكان قوي الحجة، طويل النفَس.

وأعرض هنا ما قاله باحث معاصر في هذا المعنى. قال: «وقضية الحرف الزائد الذي تعوّد إطلاقه علماء النحو على بعض الحروف في القرآن الكريم يثير عند علماء البلاغة غضاضة في النفس ووخزاً في الضمير، ولا يكادون يطيقون إطلاقاً هذه الزيادة على أحد الحروف في القرآن الكريم.

فإذا ورد حرف يُظن فيه الزيادة في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فلابد أن تكون هذه الزيادة في اللفظ دلالة على الزيادة في المعنى، وإذا وقف الذهن وعجز الإدراك عن تصور المعنى لهذا الحرف فلا أقل من أن نضيف علم ذلك إلى الله -- سبحانه- فهو العليم بأسرار كتابه.

ولقد وقعت مناقشة علمية بين أحد علماء النحو، وأحد علماء البلاغة وهو:

---

(١) مغني اللبيب: ١/ ٤١٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٢.

(٣) البحر المحيط: ٤/ ٢٧٢، وانظر: في زيادة الحروف. الكتاب: ٤/ ٢٢٩، والمقتضب: ١/ ١٨٣، ومعاني القرآن وإعرابه: ٢/ ١٥٩، والتحرير والتنوير: ١/ ٣٦٢، ٤/ ١٤٤، ٦/ ١٧، ٨/ ٣٩.

ابن الأثير – حول حرف «أن» في قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾[1].

فقال النحوي: إن «أن» الأولى زائدة، ولو حذفت فقيل: فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[2].

وقد اتفق النحاة على «أن» الواردة بعد «لما» وقبل الفعل زائدة.

فقال ابن الأثير: النحاة لا فتيا لهم في مواضع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارها من حيث إنهم نحاة، ولا شك أنهم وجدوا «أن» تزاد بعد «لما» وقبل الفعل في القرآن الكريم، وفي كلام فصحاء العرب، فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت، فقالوا: هذه زائدة.

وليس الأمر كذلك، بل إذا وردت «لمّا» وبعدها «أن» ثم الفعل كان دليلا على أنه لم تكن مسارعة موسى عليه السلام إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول، بل كان عنه إبطاؤه من بسط يده؛ فلذلك عبر القرآن عن هذا بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾ بزيادة «أن» بعد «لما». وإذا ورد الفعل بعد «لما» بإسقاط «أن» كان ذلك دليلاً على أن الفعل كان على الفور.

وأما ما استدل به النحويون من قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى

---

(١) سورة القصص: ١٨، ١٩.

(٢) سورة يوسف: ٩٦.

ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾[1]. فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد.

وقد اختلف المفسرون في طول هذه المدة، ولم يكن ثم مدة بعيدة، وأمد متطاول لما جيء بـ «أن» بعد «لما» وقبل الفعل، بل كانت تكون الآية: فلما جاء البشير ألقاه على وجهه. ثم أنهى ابن الأثير كلامه بقوله: «وهذه دقائق لا تؤخذ من النحاة؛ لأنها ليست من شأنهم»[2].

وأخيراً أعلن ابن الأثير رأيه: فحمل على الإمام أبي حامد الغزالي، وغيره ممن يرى زيادة الحروف في الكتاب العزيز، قال: «وأما الغزالي – رحمه الله – فإنه معذور عندي في ألا يعرف ذلك؛ لأن ذلك ليس فنه». ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظاً زائداً لا معنى له فإما أن يكون جاهلاً، وإما أن يكون متسمحًا في دينه واعتقاده[3].

وأقول: أغلظ ابن الأثير، في هذا القول والمسألة لا تعدو أن تكون خلافية، ولكل من العلماء رأيه. وهم بعدُ يجتهدون في إعراب القرآن، وتفسيره وبيان إعجازه وبلاغته، ومعلوم أن المجتهد مثاب من الله -ما أخلص في اجتهاده- وكان بغيته خدمة الدين والعلم.

فعلماء النحو قالوا بزيادة بعض الحروف وأن فائدتها: التوكيد، وقد اتخذوا من الإعراب وسيلة إلى بيان المعنى، والكشف – ما أمكن – عن المضمون في النص القرآني؛ فالإعراب فرع المعنى، وموضعه: الشكل والصورة.

وقد نظروا إلى الحروف العاملة فوجدوها تارة لا تكف ما قبلها عن العمل،

(١) سورة يوسف: ٩٤- ٩٦.

(٢) من أسرار التعبير في القرآن، حروف القرآن: ١٢٥ – ١٢٧، والمثل السائر: ٢/ ٩٤.

(٣) المثل السائر: ٢/ ٩٤.

كما في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾(1). وتارة تعمل لفظاً، لا محلا مثل «من» في قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾(2). ومن ثمَّ قالوا بالزيادة. فالصناعة النحوية ألجأتهم إلى ذلك، فالجملة تتكون من ركنين هما: المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، ومازاد فهو: قيدٌ أو فضلة، ومنه ما هو زائد، وصلة.

وأما من عارض الزيادة فى القرآن فإنه نظر إلى ما تؤديه هذه الحروف من معان، ولهذه المعانى موقعها فى النظم القرآنى، وما يتطلبه الحال والسياق، ومن ثمَّ نظر هؤلاء العلماء إلى المعنى، فعارضوا القول بالزيادة فى الكتاب العزيز.

وأرى أن الخلاف لفظى، فحسن النية متوفر لدى الفريقين، وأن خدمة النص القرآنى عندهم هو الغاية، فكلاهما يجتهد فى ذلك طلبا للمثوبة والأجر من الله. غير أن القول بعدم الزيادة هو الأولى والأقرب إلى الصواب، فلكل كلمة فى النظم القرآنى موقعها الذى لا يسد فيه غيره، وذلك أسلم، ففيه درءٌ لأهل البدع والريب والمتأولين - بغير علم - فى الكتاب العزيز.

يقول ابن يعيش: «وقد أنكر بعضهم وقوع هذه الأحرف زوائد لغير معنى، إذ ذلك يكون كالعبث، والتنزيل منزه عن مثل ذلك».

* * *

---

(1) سورة النساء: 55.

(2) سورة فاطر: 3.

الفصل الثالث

الكنـــاية

جاء في مختار الصحاح: «الكناية: أن تتكلم بشيء، وتريد غيره. وقد كنيتُ بكذا عن كذا، وكنوْتُ أيضا فيهما»[1].

وقال ابن منظور: «كنّى عن الأمر بغيره يكني كناية يعني: إذا تكلم بغيره على ما يستدل عليه»[2].

فمادة: «كني» يراد بها في اللغة: السّتْر والإخفاء.

وقد عرفها الشيخ عبد القاهر بقوله: «المراد بالكناية هاهنا: أن يريد المتكلم بثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود؛ فيوصل إليه، ويجعله دليلاً عليه. مثال ذلك قولهم: هو طويل النّجاد. يريدون: طول القامة... »[3].

فالمعنى الحقيقي ملزوم، والمعنى الكنائي لازمة، وهو ما عناه عبد القاهر بأنه: التالي والرّدف للمعنى الموضوع له.

وقد جرت الكناية على السنة العرب فنا أدبيا، وصوراً تترد في كلامهم، وتحتفي بها أشعارهم؛ فتعبر عما تكنه صدورهم، وما يبدو في مخيلتهم من الصور في شتى المجالات.

وجاء عصر التدوين فألفينا سيبويه (ت ٢١٠ هـ) يورد الكناية. بمعناها اللغوي حيث قال: «وأما فلان فإنما هو كناية عن اسم سمي به المحدَّث عنه خاص غالب...

---

(١) مادة: (كني).

(٢) لسان العرب: (كني).

(٣) دلائل الإعجاز: ٤٣٠.

وقد اضطر الشاعر فبناه على حرفين فى هذا المعنى. قال أبو النجم:

«فى لجة أمسك فُلاناً عن فُلِ»(١)

فقد كنَي بكل من: فلان، وفل عن شخص ما، وضرورة الشعر جعلته يقول فى غير النداء: «فُلِ» تخفيفا.

وتوسع أبو عبيدة فى معنى الكناية، فهي عنده تشمل الأمور التالية:

١ - عود الضمير على اسم يفاد مما سبق ومثاله: أنه جعل الضمير فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾(٢) كناية عن الشمس.

٢ - الرجوع من المخاطبة إلى الكناية فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .... ﴾(٣).

٣ - الكناية بمعناها البيانى. ففى قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾(٤) يقول: كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة.

ويجيء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فيورد للكناية أمثلة كثيرة، ويبين المراد بها. ومن ذلك قوله(٥): «وإذا قالوا: فلان مقتصد، فتلك كناية عن البخل»، وقال: «يقال للراعي: إنه لضعيفُ العصا» إذا كان قليل الضرب بها للإبل، شديد الإشفاق عليها».

كما بين منزلة الكناية والتعريض بقوله: «أوما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الإفصاح والكشف» ويقول: «رب كناية تُربى على

(١) الكتاب: ٢/ ٢٤٨، وانظر. المقتضب: ٢/ ٢٣٨.

(٢) سورة ص: ٣٢.

(٣) سورة يونس: ٢٢.

(٤) من الآية ٤٣ سورة النساء، والآية ٦ سورة المائدة. وانظر: مجاز القرآن: ١/ ١٢٨، ١٥٥.

(٥) البيان والتبيين: ١/ ٨٨، ٣/ ٥٢.

إفصاح، ولحظ يدل على ضمير»[1].

فالكناية إلى هذا العهد لم تتحد معالمها البلاغية. وقد وقف جهد العلماء عند معناها اللغوي، وكذا خلط مفهومها بالضمير، وبعض صور الالتفات إلخ.

ودراسات المبرد المتناثرة للكناية إثراء لمباحثها، وإمداد للصورة البيانية بفيض من الأمثلة مشفوعة بالشرح والبيان، سواء منها ما ورد فى اختياراته الأدبية، أو جاء منفردا، أو على سبيل الاستطراد... وقد أدخل بعضها تحت لفظ المجاز. أى: الطريق إلى فهم المعنى أيا كان.

يقول المبرد: «فمجاز الطَّعام عند العرب: من لا عقل له ولا معرفة عنده»[2] كما أطلق على بعضها لفظ: المثل «ففى بيانه لقول الشاعر:

طِوالُ أنضيةِ الأعناقِ لم يجدوا ريح الإمَاءِ إذا رَاحَتْ بأزفارِ

يقول: «قوله: طوال أنضية الأعناق» ضربه مثلا، وإنما أراد: طِوال الأعناق»[3]. وأطلق لفظ كناية على الضمير، ففى قول السعدي بن مُحلِّم[4]:

ألا فتى من بني ذُبيان يحملُني -وليس يحملُني إلا ابنُ حمَّالِ

يعيب اتصال الضمير باسم الفاعل فى «حاملني» فيقول:

هذا يجوز فى الكلام؛ لأنه إذا نون الاسم لم يتصل به المضمر؛ لأن المضمر لا يقوم بنفسه، ولا يقوم التنوين ها هنا، لأنه لو وقع لانفصل المضمر. وعلى هذا قول الله تعالي: ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾[5].

وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة، وكلاهما مصنوع. وليس

---

(١) المرجع السابق: ١/ ١١٦، ٢/ ٧.

(٢) الكامل: ١/ ٢٦. والمثال من خطبة الإمام «علي» ص: ٢٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٥٧.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٣٦٣.

(٥) سورة العنكبوت: ٣٣

أحد من النحويين يجيز مثل هذا في الضرورة، لما ذكرت من انفصال الكناية – يعني الضمير – والبيتان اللذان رواهما سيبويه[1]» هما:

همُ القائلون الخيرَ والآمرونه إذا ما خشوْا يوماً من الأمر مُعظَما

وأنشد:

ولم يرتفِقْ والناسُ محتضرُونه جميعا وأيدِي المعتَفِين رواهقُهْ

وعني بالكناية إطلاق وزن صرفي على آخر؛ فقد أورد قول القائل [2]:

إني لأكنوْ بجبّالٍ عن أجْبُلِها وباسم أوديةٍ حبًّا لواديها

للتعبير بصيغة «فعال» عن «أفعُل» وبصيغة، «أفعلة» عن المفرد، لغرض ما. كما أطلق الكناية على بعض أمثلة التورية، فقد أتبع قول عمر بن أبي ربيعة:

«حانَ من نجمِ الثُّريا طلوعٌ».

بقوله: «كناية. وإنما يريد: الثريا بنت عليّ...»[3].

واعتد المبرد بمنهج العرب[4]؛ ففيَ بَيانه لقول «عليّ – كرم الله وجهه: «ويا عقول ربَّاتِ الحِجال» – يقول «ينسبهم إلى ضعف النساء، وهو السائد في كلام العرب.

ويقول: «العرب تقول: «ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، والعربي والعجمي».

ويقول: «والمكنونُ: المصُون. يقال: كننتُ الشيءَ إذا صُنْتَه، وأكننتهُ: إذا أخفيتَه. فهذا المعروف»[5]. قال الله – تبارك وتعالي: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي

---

(١) الكتاب: ١/ ٨٨، ٣٦٣.

(٢) الكامل: ١/ ٦٠.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٣٤. انظر: التورية. ص ٣٧٠.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٦، ٢/ ١٥٢.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٣٤.

أَنفُسِكُمْ ﴾[1]. وقد يقال: أي أخفيته»[2] فلفظ «كنى» ومشتقاته يدل على هذا المعنى.

أغراض الكناية:

قسم المبرد الكلام إلى ضروب[3]، وجعل الكناية ضربا منها؛ فقال:

والكناية تقع على ثلاثة أضرب:

الأول: التعمية والتغطية، كقول النابغة الجعدي:

أكني بغير اسمها وقد علم اللـ ـهُ خفيَّاتِ كلِّ مكتتم

الثاني: وهو أحسنها: الرغبة عن اللفظ الخسيس إلى ما يدل على معناه. ومما مثل به قوله – تعالي- فى المسيح وأمه –عليهما السلام – ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[4].

الثالث: التفخيم والتعظيم. ومنه اشتقت الكُنية. وهي: أن يعظِّم الرجل، بأن يدعي بغير اسمه. ووقعت فى الكلام على ضربين: فقد وقعت فى الصبي على جهة التفاؤل؛ بأن يكون له ولد. ويُدْعي ولده، كناية عن اسمه. وفى الكبير: أن ينادي باسم ولده، صيانة لا سمه. وإنما يقال: كنَي عن كذا بكذا أي ترك كذا إلى كذا.

هذه الأضرب ليست أقسام الكناية المعروفة، وهي لا تعدو أن تكون بعض أغراضها، كما يلاحظ أن الكُنية تشارك الكناية فى الضرب الثالث.

ومن المُسلَّم به: أن لكلِّ مقامٍ مقالا، ولذا فالكناية فى موضعها أبلغ من

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٣٥.

(٢) الكامل: ٢/ ٢٣٤.

(٣) الكامل: ٢/ ٢٩٠، باختصار.

(٤) سورة المائدة: ٧٥.

التصريح في موضعه.

يقول الجاحظ: «ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة. وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدَّرك، وأحق بالظفر» ويقول في موضع آخر: «أو مَا عِلمت بأن الكناية والتعريض لا يعملان في القلوب عمل الإفصاح والكشف»[1] فعلى البليغ إيثار ما يناسب الحال.

يقول المبرد: «وقال ذو الرُّمة استراحة إلى التصريح من الكناية:

أُحبُّ المكَان القَفر من أجل أنني به أتغنّي باسمِها غير مُعجَمِ

وقال أحد القرشيين:

وقد أرسلتْ في السرِّ أن قد فضحْتني

وقد بُحتَ باسمي في النسيب وما تكْني»[2]

ويبدو أن العيون كانت تلاحق ذا الرمة، ولذا فهو يحب المكان الخالي، فيصرح باسمها، وأما الأخرى فهي تعتب عليه أن صرح باسمها. وكان عليه أن يكني. فلكل مقام مقال!.

وقد يُكني عن الإساءة عند الخوف، أو الإبقاء على قليل من الودّ، أو إذا كان ثمة شيء من الحياء. وإلا كان التصريح. وقد روى المبرد تصرفا مشينا من أحد زعماء الخوارج، فقد كان يسيء إلى الإمام عليّ – كرم الله وجهه – على المنبر، ثم يقبل على الناس ويقول: أكنيتُ![3]. يعني حمله سوء الأدب إلى رابع الخلفاء الراشدين، وفي المسجد على التصريح بالإساءة. وقديما قيل: «إذا لم تستح

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٨٨، ١١٧.

(٢) الكامل: ٢/ ٢٩٠.

(٣) الكامل: ١/ ٢٩٢، ولولا الأمانة العلمية ما أشرت إلى هذا الخبر، فللصحابة ولا سيما الخلفاء الراشدون – رضي الله عنهم – مكانتهم وتقديرهم؛ يقول الرسول ﷺ: «لا تسبوا أصحابي»، ونزعة المبرد الدينية جعلته يلعن من فعل ذلك.

فاصنع ما شئت». رضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ.

ومعلوم أن كلا من: الكناية والتعريض، والتورية، والكنية، والضمير يشترك فى معنى الخفاء والستر. ولذا وقع الخلط أحيانا بين هذه المفاهيم.

والكنية بالمرأة - غالبا - موضع ذم. قال المبرد: «ويروى أن الحُطَيْئة، واسمه: جرول بن أوس، ويكنى: أبو مُليكه مرَّ بحسان بن ثابت وهو ينشد:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعْنَ بالضُّحى   وأسيافنا يقطُرن من نجدةٍ دمًا

فالتفت إليه. فقال: كيف ترى[1]، فقال: ما أرى بأساً. أبو مَنْ؟ قال: أبو مُليكة. قال حسان: ما كنت علىَّ أهون منك حيث كنيت بامرأة. ما اسمك: قال: الحطيئة. قال: امضِ بسلام.

* * *

(١) يريد أن ينبه حسان إلى مآخذ النابغة على البيت، وهى مشهورة.

أقسام الكناية

كثرت دراسات الكناية وتنوعت فى كامل المبرد، وسأبينها على ما آل إليه الحال فى الدرس البلاغي:

أولا: الكناية التي يطلب بها صفة.

وهي أن يصرح بالموصوف ولا يصرح بالصفة التي يراد نسبتها إليه، ولكن تذكر صفة تستلزمها وتدل عليها.

ونستهل ذلك بالحديث الشريف[١]. قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأحبِّكم إليَّ، وأقربكم منِّي مجالس يوم القيامة؟ أحاسِنكم أخلاقا. الموطَّئون أكنافا. الذين يألفُون ويُؤلفوُن. ألا أخبركم بأبغضِكم إليَّ، وأبعدِكم مني مجالِس يوم القيامة؟ الثَّرثارون المتفيهِقون». ثم بين بعض معانيه ومنها قوله:

«الموطئون أكنافا» مثل، وحقيقته: أن التوطئة هي: التذليل والتمهيد. يقال: دابة وطِئٌ يا فتى. وهو الذي لا يحرك راكبه فى مسيره. فأراد القائل بقوله: «موطأ الأكناف» أن ناحيته يتمكن فيها صاحبُه، غير مؤذى، ولا نابٍ به موضعه. وتأويل الأكناف: الجوانب»[٢].

فهذا كناية عن التواضع، ولين الجانب. يقول ابن منظور: «رجل مُوطَّأ الأكناف» إذا كان سهلاً دمِثاً كريما، ينزل به الأضياف؛ فيَقريهم»[٣].

ومن ذلك قوله: « قال أبو العباس[٤]: «ومما يؤثر من حكيم الأخبار. وبارع الآداب ما حدثنا به عن عبد الرحمن بن عوف، وهو أنه قال: دخلت يوما على أبي بكر الصديق – رحمه الله –، فى علته التي مات فيها، فقلت له: أراك بارئا يا

---

(١) مسند الإمام أحمد. المجلد الثانى: ٣٦٩، والمجلد الرابع: ١٩٤.

(٢) الكامل: ١/ ٣، ٤.

(٣) لسان العرب (وطأ).

(٤) الكامل: ١/ ٦. وهذه الخطبة فى: «الفائق فى غريب الحديث» (برى): ١/ ٩٩.

خليفة رسول اله. فقال: أما إني على ذلك لشديدُ الوجع، ولما لقيتُ منكم يا معشر المهاجرين أشدّ عليّ من وجعي. إني وُلّيت أموركم خيركم في نفسي، فكلكُم وَرم أنفُه أن يكون له الأمر من دونه، والله لتتخذُن نضائِد الديباجِ، وستُور الحرير، ولتألمُنّ النوم على الصوف الأذربيّ كما يألم أحدكم النوم على حسكِ السّعدان».

ثم بين ذلك قائلا: قوله: «نضائد الديباج» واحدتها نضيدة، وهي الوسادة، وما ينضد من المتاع... وقوله على حسك[1] السعدان ».. فالسّعدان: نبت كثير الحسَك تأكله الإبل، فتسمن عليه، ويغذوها غذاء لا يوجد في غيره.

فمن أمثال العرب: «مرعى ولا كالسّعدان»[2] تفضيلا له» وقوله: «فكلكم ورم أنفه» يقول: امتلأ من ذلك غضباً، وذكر أنفه دون السائر كما يقال: فلان شامخ بأنفه. يريد: رافع. وهذا يكون من الغضب، كما قال الشاعر:

«ولا يهاجُ إذا ما أنفُهُ ورما»

أي: لا يُكَلَّمُ عند الغضب. ويقال للمائل برأسه كِبْرا: متشاوس، وثاني عِطفه، وثاني جِيدِه إنما هو من الكبرياء. قال الله – عز وجل –: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3].

قول الإمام: «فكلكم ورم أنفه. كناية عن امتلاء جسمه بالغضب. وخص الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر، فكما يقال شمخ بأنفه، وورم فلان بأنفه توريما إذا شمخ بأنفه وتجبّر قال الزمخشري: (ت ٥٢٨ هـ): «ورم أنفه»

---

(١) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصوات الغنم، والسعدان والقراس. وما أشبهه: حسك. والسّعدان: نبتٌ شوك يتلقي، فتنظر الشوكة كالحار إذا يبس. ومنبته سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبا. اللسان. (حسك، وسعد).

(٢) يضرب مثلا للشيء يفضل على غيره. مجمع الأمثال: ٣/ ٢٦٥.

(٣) سورة الحج: الآية: ٩، الكامل: ١/ ١٠.

كناية عن إفراط الغيظ؛ لأنه يردف الاغتياظ الشديد أن يرم أنفُ المغتاظ، وينتفخ منخراه»[1].

وأما قولـه: «فلان شامخ بأنفه» فهو كناية عن التكبر. واستطرد أبو العباس بذكر كنايات أخرى مماثلة. فميل الراس، وثني العطف، وكذلك الجيد تدل كلها على الكِبْر والتِّية.

وأما «متشاوس» فإن مادة (شوس) ومشتقاتها تدل على ذلك أيضا. يقول ابن منظور: (ت ٧١١هـ) الشَوَس بالتحريك: النظر بمؤخر العين تكبرا وتغيظاً، ويكون من الكبر والتِّيه والغضب»[2].

وأما قوله تعالي: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ فقد استدل به على هذا المعنى في غير موضع. فهو يقول: «والعِطف»: ما انثنى من العنق. قال تعالي: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾[3].

ويورد أبياتا لحسان ﷺ يهجو مُسافع بن عِياض التَّيمي، ومنها قوله[4]:

أو في الذؤابة من قوم ذوي حسبٍ   لم تصبح اليوم نِكساً ثانِي الجِيدِ

ويتبعه بقوله: «قوله: ثاني الجيد» قد مرّ تفسيره في قول الله – عز وجل – ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. يقول الزمخشري: «ثنيُ العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير[5] الخد، وليِّ الجيد. وقيل الإعراض عن الذكر»[6].

وهو يورد أمثلة أخرى للكبر ومظاهره، فكلام المبرد يشد بعضه بعضا،

---

(١) الفائق (ورم): ١/ ٩، وانظر: اللسان (ورم).

(٢) لسان العرب: (شوس)، وانظر: المعجم الوسيط: (شوس).

(٣) الكامل: ٢/ ٣٠٤.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٤٩.

(٥) إشارة إلى وصية لقمان لابنه. قال تعالي: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ سورة لقمان الآية: ١٨.

(٦) الكشاف: ٣/ ٦، وانظر: تفسير القرطبي: المجلد السادس ١٤/ ١٢.

ويضفى على المعني ألوانا وظلالا، فيرسم الصورة واضحة المعالم. فقد أورد مقطوعة لشاعر يمدح قوما من أهل الحيرة. ومنها قوله:

معي كُلُّ فضفاضِ القميصِ كأنّه　　　إذا سرتْ فيه المدامُ فنيقُ[1]

ثم قال: «يريد: أن يقول قميصه ذو فضول» وإنما يقصد إلى ما فيه من الخيلاء ويقال: إن تأويل قول رسول الله ﷺ: «فضلُ الإزارِ في النار». إنما أراد معنى الخيلاء، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال لأبي تميمة الهجيمي[2]: «إيّاك

---

(١) قال المبرد في الكامل: ١/ ٤١.

(٢) هو طريف بن مجالد الهجيمي. بصرى تابعي يروى عن ابي هريرة، وأبي موسي. ويروى عنه قتادة، وبكر المزني. وقد اختلف في صحابته. فالبعض يعده ممن روى عن النبي - ﷺ - وفى الاستيعاب ٤/ ٦١٦: «وقد ذكر بعض من ألف في الصحابة: أبا تميمة الهجيمي، فغلط».

قال أبو عمرو: لا يعرف في الصحابة: أبو تميمة: وروى أبو عمر بإسناده عن بكر بن عبد الله المزني قال: قالوا لأبي تميمة: كيف أنت يا أبا تميمة؟ قال: بين نعمتين: ذنب مستور، وثناء حسن من الناس.

وقال أبو أحمد العسكري: أبو تميمة الهجيمي تابع لم يلحق، «وقد روى حديثا لأبي تميمة آخر غير هذا. انظر أسد الغابة. المجلد الخامس: ٤.

وروى أبو داود في سننه في «كتاب اللباس» ٤/ ٥٤ حديثا مطولا لأبي تميمة الهجيمي أوله: حدثنا مسدد، ثنا يحيي عن أبي غفار ثنا أبو تميمة الهجيمي، وأبو تميمة (اسمه: طريف بن مجالد)، عن أبي جريّ بن سليم قال: رأيت رجلاً يَصْدُرُ الناسُ عن رأيه، لا يقول شيئا إلا صدرُوا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ قلت: عليك السلام يا رسول الله مرتين. قال: «لا تقل: عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت. قل: السلام عليك. قال: قلت: أنت رسول الله ﷺ؟ قال «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عامُ سنةٍ فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة؛ فَضَلّتْ راحلتك، فدعوته ردّها عليك. قال: قلت: اعهد إليّ. قال: «... وإياك وإسبالَ الإزار؛ فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه؛ فإنما وبال ذلك عليه».

فعلى هذا أبو تميمة صحابي. ويبدو أنه أدرك النبي - ﷺ - إبان بعثته، وأن ما رواه المبرد عن أبي تميمة مأخوذ من هذا الحديث. والله أعلم.

والمخيلة». فقال: «نحن قوم عرب فما المخيلة؟» فقال ﷺ: «سَبْلُ الإزارِ فى النار»[1]. وعندما أورد أبو العباس قول الشاعر:

أقول والهُوجاء تمشى والفُضَل   قطعتِ الأحداجُ أعناقَ الإبل

أشار إلى الكناية بقوله: « والفضل: مِشيةٌ فيها اختيال. كأن مِشيتَها تخرج من خِطامها؛ فتفضُل عليه. والأصل فى ذلك أن يمشي الرجل وقد أفضل من إزاره، وإنما يفعل ذلك من الخيلاء. ولذلك جاء فى الحديث: «فضلُ الإزار فى النار»[2].

روى المبرد هذين الحديثين. ويبدو أن ما رواه هو معنى ما ورد فى الأحاديث الشريفة من النهي عن إطالة اللباس.

١- فقد روى البخارى أول «كتاب اللباس»[3] حديثا «عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبهُ خيلاء». وقد ورد هذا الحديث بنصه فى سنن الترمذى[4] (كتاب اللباس).

٢- وروى البخارى فى «باب من جرّ إزاره من غير خيلاء» حديثا: «عن سالم بن عبد الله عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من جرَّ ثوبهَ خُيلاء لم ينظرِ الله إليه يوم القيامة»[5].

وأورد ابن ماجه هذا الحديث بروايتين[6] مع اختلاف يسير. أحدهما: «من جرَّ إزاره من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» كما روى فى الباب عن أبي

---

(١) الكامل: ١/ ٤١.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٨٨. وانظر النهاية (سبل وفضل).

(٣) صحيح البخارى: ٧/ ١٨٢.

(٤) ج٤ ص ٢٢٣.

(٥) صحيح البخارى: ٧/ ١٨٢.

(٦) سنن ابن ماجه: رقم: ٣٥٦٩، ٣٧٥٠ جـ٢ ص ١١٨١.

هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما أسفَل الكعبينِ من الإزار ففى النَّار».

٣- وروى البخارى فى «باب من جرّ ثوبهُ من الخيال»[١]: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظرُ الله يوم القيامةِ إلى من جرَّ إزارهُ بطَرا» ورواه الترمذي[٢] بنصه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وأعود إلى أبي العباس فأقول: إنه بينْ معنى الحديثين على الكناية؛ فقال بأسلوب القصر: «إنما أراد: معنى الخُيلاء»، وقال: «وإنما يفعل ذلك من الخيلاء».

ويورد المبرد مقطوعة شعرية أولها:

ما لِـيدَدٍ ما لِدَدٍ ما لَـــه	يبكي وقد أنعَمْتُ ما بالَهُ
مالي أراهُ مُطرِقاً سامِياً	ذا سِنَةٍ يُوعِـدُ أخـوالَــهُ

ثم يقول: «قوله: «مالدد» يعني: رجلا و «ددٌ» فى الأصل هو: اللهو؛ قال

(١) صحيح البخارى ٧/ ١٨٣.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٢٢٣ رقم: ١٧٣٠، فالحديث الشريف برواياته المختلفة غالي فيه المتشددون، ورددوا كثيراً: أن طول الثياب بإطلاق كبيرة تدخل النار.

وأقول: إنه إذا كانت هناك أحاديث مطلقة فى الوعيد عن هذا الأمر فإنها تُحمل على التي وردت مقيدة بالخيلاء، وما فى معناه. فقد جاء فى فتح البارى ١٢/ ٣٧١ « كتاب اللباس»: «قال النووى: «ظواهر الأحاديث فى تقييدها بالجر خيلاء يقتضى أن التحريم مختص بالخيلاء».

ويقول ابن حجر ١٢/ ٣٧٦: «وفى هذه الأحاديث: أن إسبال الإزار للخيلاء كبيرة، وأما الإسبال لغير الخيلاء فظاهر الأحاديث تحريمه أيضا، لكن استدل فى هذه الأحاديث على [أن] الإطلاق فى الزجر الوارد فى ذم الإسبال محمول على المقيد هنا؛ فلا يحرم الجرّ والإسبال إذا سلم من الخيلاء » ونقل عن الشافعي – رحمه الله – فى الفرق بين الجر للخيلاء، ولغير الخيلاء قوله » وما نزل عن الكعبين ممنوع منع تحريم إن كان للخيلاء، وإلا فمنع تنزيه؛ لأن الأحاديث الواردة فى الزّجر والإسبال مطلقة؛ فيجب تقييدها بالإسبال للخيلاء». أ.هـ.

وكذا لا يدخل التحريم من الجر إزاره بغير قصد، أو لعذر شرعى كجرح فى الكعبين أو أحدهما. ثم إن الكبر والخيلاء والبطر ونحو ذلك مذموم بدون إسبال. فيجب فى هذا المقام أن تنظر إلى مضمون الأحاديث الشريفة مجتمعة؛ فهو أسلم.

رسول الله ﷺ: «ما أنا من دَدٍ، ولا الدَّدُ مِنّى»[1]. وقد يكون فى غير هذا الوضع مأخوذ من العادة[2].

فالحديث الشريف كناية عن نفى أي من اللهو واللعب عن الرسول ﷺ؛ لأن حياته قبل المبعث كانت بعيدة عن ذلك وحياته بعد المبعث كانت جداً وتشميراً فى أمر الرسالة والعبادة.

ومن الكناية عن الشئ وضده ما جاء فى الكامل[3]: «والمختار من الشعر الأول قوله:

مِن النَّفر البيض الذين إذا اعتزُّوا　　وهاب الرجالُ حلْقة البابِ قعقعُوا

يخبر بجلالتهم و معرفتهم بأقدارهم، وثقتهم بأن مثلهم لا يرد.

وقد قال جرير للئَّيم خلاف هذا، وهو قوله:

قومٌ إذا احتضرَ الملوكَ وفودُهم　　نُتفَتْ شوارِبُهُم على الأبوابِ

البيت الأول كناية عن العزة، والثانى كناية عن المهانة.

---

(١) ورد فى غريب الحديث لأبي عبيد: ١/ ٤٠، والفائق: (دد) ٢/ ٤٢٠، والنهاية: (دد) ٢/ ١٠٩ بلفظ: «ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ مني» قال: الدد: «هو اللعب واللهو».

وفى الفائق: «هذه الكلمة محذوفة اللام. وقد استعملت متممة على ضربين: «كندَى، وددَنْ كبدَن. فهي من أخوات مئة، وعِضة فى اختلاف موضع اللام: ومعناه اللهو واللعب. معني تنكير الدّد فى الجملة الأولى الشياع، وألا يبقي طرف منه إلا وهو منزه عنه. كأنه قال: ما أنا من نوع من أنواع الدّد، وما أنا فى شئ منه. وتعريفه فى الثانية؛ لأنه صار معهوداً بالذكر كأنه قال: ولا ذلك النوع مني. وإنما لم يقل: ولا هو مني؛ لأن الصريح اكد وأبلغ. والكلام جملتان. وفى الموضعين مضاف محذوف تقديره: وما أنا من أهل ددٍ، ولا الدَّدُ من أشغالي».

وأقول: رواية المبرد فى الكامل: «لسْت من ددٍّ ولا دد مني» وقد أثبت الرواية الصحيحة عملا بأصول التحقيق تجاه نصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف.

(٢) الكامل: ١/ ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) ج١ ص: ١٨٢. القعقعةُ: حكاية أصوات السلاح... والرعد... وقعقع الشئ: اضطرب وتحرك. اللسان (قعقع).

ومن الكناية عن الصفة قول متمم بن نويرة يرثي أخاه:

«فتى غير مِبْطانِ العشيَّات أرْوعا»

يقول: فتى كان لا يأكل فى آخر النهار انتظارا للضيف[1].

وفى موضع آخر يقول «إنما أراد: أنه لا يستعجل بالعشاء؛ لانتظار ضيفه»[2]. فهذا كناية عن الكرم.

ويذكر المبرد أن: «من سيما الرئيس السيِّد، أن يكون عظيم البطن، ضخم الرأس، فيه طرَش»[3]. والمعنى أنه يصطنع الطَّرش مع السُّوقة، وعوام الناس؛ فمطالبهم لديه كثيرة، وليبدو وكأنه من جنس آخر؛ فللسيادة – فى نظره – تقاليد!

والمبرد بهذا يحدثنا عن عرف طائفة من الناس فى ذلك الزمن، أما فى العصر الحاضر فإنه لا تنال السيادة أو الرئاسة إلا بالعلم، أو بما يؤديه الفرد لوطنه، ومجتمعه، بل وللإنسانية من عظائم الأمور؛ فلكل زمن دولة ورجال، ونظم وأحوال.

ويورد قول الخنساء[4] ترثي أخاها صخراً:

يذكرني طلُوع الشمس صخرا   وأذكره لكل غروبِ شمسِ

ثم يبينه بقوله: « أذكره فى أول النهار للغارات، وفى آخره للضيفان». فالشطر الأول كناية عن الشجاعة، والثاني عن الكرم.

ومما ورد فى الكامل: وقال الآخر يصف ابنه:

أعرف منه قلة النُّعاس   وخفَّةً رأسهِ من راسي

---

(١) الكامل: ٢/ ٧٣-٧٧.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٥٣.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٧٧.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٤ والبيت بديوانها: ٧٨.

كيف ترين عنده مراسي

يخاطب أم ابنه. فقوله:

«أعرف منه قلة النعاس»[1]

أي: الذكاء، والحركة.

وقال الآخر:

فجاءتْ به حُوشَ الفؤاد مسهّدا ... وأفضلُ أولادِ الرجالِ المسهَّدُ

وقال رسول الله ﷺ: «عينيَّ تنامانِ ولا ينامُ قلبي»[2].

في هذه العبارة ثلاث كنايات عن: اليقظة والذكاء.

الأولى: «قلة النّعاس» **والثانية**: «حوش الفؤاد مسّهداً». وبين المرصفي المراد بقوله: «يريد: إنه كناية عن ذينك»[3].

أما الثالثة: فالحديث الشريف، ورسول الله ﷺ في ذلك رائد؛ فهو الذي تحار في وصفه العقول والأفهام. وصدق القائل:

أعيا الورَى فهمُ معناه فليس يُرى ... لِلقُربِ والبُعد فيه غَير مُنفَحِمِ

كالشّمسِ تظهُر لِلعيْنينِ من بُعُدٍ ... صغيرةً وتُكلُّ الطَّرف من أمَمِ

وكيف يُدرك في الدنيا حقيقتَهُ ... قوم نيامٌ تسلَّوا عنه بالحُلُم[4]

---

(١) المرجع السباق: ١/ ١٣١.

(٢) هذا الحديث في البخاري. (باب قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره) جـ١ ص ٦٧ برواية عائشة: «إنَّ عينَيَّ تنامان ولا ينامُ قلبي». وورد عنها في «باب المناقب» جـ ٤ص ٢٣١، ٢٣٢ برواية: «تنام عينيَّ ولا ينام قلْبي، وكذلك الأنبياء تُنام أعينهم، ولا تنام قلوبُهم».

وهو في «كتاب الوضوء» جـ١ ص٤٦ برواية سفيان عن عمرو قال: «أخبرني كريب عن ابن عباس. ومنها: «قلنا لعمرو: إنَّ ناسا يقولون: إن رسول الله ﷺ تنامُ عينه ولا ينام قلبه. قال عمرو: سمعت عبيد أبي عُمير يقول: رؤيا الأنبياء وحيٌ...».

(٣) رغبة الأمل: ٢/ ١٠٣.

(٤) ديوان البوصيري: ١٦٨.

ويتصل بما سبق قول المبرد: «وكانت العرب تمدح بخفة الرأس من النوم، وتذم النّومة كما قال عبد الملك لمؤدب ولده: علّمهم العَوْم، وخُذهم بقلة النّوم[1]». فالجزء الثاني منه دلالة على شدة الانتباه واليقظة.

وللكلمة دلالة في نظم، ولها في نظم آخر دلالة مغايرة والعبرة بالسياق ودلالات التراكيب. وقديما قيل: «لكل مقام مقال»؛ فكلمة «خفة» دلت هنا على المدح.

وهي في مقام آخر تدل على الذم. ومثاله أن المبرد أورد شعرا للفرزدق يهجو عمرو بن هبيرة عندما وُلّي العراق، فقال مخاطبا به « يزيد بن عبد الملك».

أمـيرَ المـؤمنين وأنـت بَـرٌ أمينٌ لستَ بالطَّبْع الحـريصِ
أأطعمْـتَ العـراقَ ورافِدَيْـهِ فزاريًا أحـذَّ يـدِ القَميـص

ثم قال: «... وقوله أحذَّ يدِ القميص»، الأحذ: الخفيف، وإنما نسبه بالخفة في يده إلى السرقة»[2].

فخفة اليد لا تزال في العرف كناية عن هذا المعنى.

قال أبو العباس: «وتقول للصوص: بنو غبراء. وفي هذا باب»[3]. ويورد قول الأعرابي:

ولمّا أن رأيت بنـي جُوَيْـن جلوساً ليس بينهمُ جليسُ
يئستُ من التي اقبلتُ أبغي لديهم إنّني رجل يئُـوسُ

ويبنه بقوله: «هؤلاء قوم لا ينتجعُ الناسُ معروفَهم، فليس فيهم غيرهم،

---

(١) الكامل: ٢/ ١١٩.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٨٣-٨٥. الأحذُّ: السريع في الكلام والفِعال... وقوله: أحذ يد القميص. أراد أحذ اليد، فأضافه إلى القميص لحاجته وأراد: خفة اليد في السرقة. اللسان (حذذ).

(٣) المرجع السابق: ٤/ ١٢.

وهذا من أقبح الهجاء»[1].

وبما احتمل بالكناية غرضين قول الشاعر[2]:

يمرّون بالدَّهْنا خِفافـا عِيابُهُـــمْ ... ويَخْرُجْنَ من دَارِينَ بُجْرَ الحقائبِ

على حينَ ألهي النَّاسَ جُلّ أمُورِهِمْ ... فنَدلاً زُرَيْقُ المال نَـدْلَ الثَّعالبِ

يقول المبرد: «يمرّون بالدّهْنا خفافاً عيابهم» يعني: قوما تجارا. وقد قالوا: إنما ذكر لصوصا. والأول أثبت. وذلك أن «دارين» من أسواق العرب. وقوله: «بجر الحقائب» يقول: عظام[3]. وقال في موضع آخر: الدّهنا. من بلاد بني تميم[4].

فالشاعر يصف تجارا، أو لصوصا، ويقوى الأول أن: «دارين» من أسواق

---

(1) المرجع السابق ١/ ٧٢. قال المرصفي: «يريد «بني عامر بن جُوين بن عبد الرضا بن قمران. وهو من جرْم» رغبة الأمل: ٢/ ٢٠٠.

(2) البيتان في حاشية الصبان على الأشموني ٢/ ١١٦. عيابهم: العيْبة: وعاءٌ من أدم يكون فيها المتاع. والجمع: عيابٌ وعيَب والعيبة: ما يجعل فيها الثياب... والعرب تكني عن الصدور والقلوب التي تحنى على الضمائر المخفّاة بالعياب. وذلك أن الرجل إنما يضع في عيبته حُرّ متاعه، وصون ثيابه، ويكتم في صدره أخص أسراره التي لا يحب شيوعها؛ فسميت الصدور والقلوب عياباً، تشبيها بعياب الثياب. اللسان (عيب).

الدّهنا: قال ياقوت: الدهنا بفتح أوله، وسكون ثانية ونون وألف ممد. وتقصر. من ديار بني تميم معروفة، وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها. بين كل جبلين شقيقة، وطولها من حزْن ينسُوعه إلى رمل «يبْرين»، وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة أغذاء، ومياه، وإذا أخصبت الدهناء رتعت العرب جميعا؛ لسعتها، وكثرة شجرها. معجم البلدان: ٧/ ٥٦٠، باختصار.

دارين. قال ياقوت: دارين. فُرضة بالبحرين، يجلب إليها المسك من الهند. والنسبة إليها: داريّ.. وفي كتاب سيف: إن المسلمين اقتحموا إلى دراين البحر مع العلاء بن الحضرمي، «أجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعا يمشون على مثل رملة ميثاء، فوقها ماء يغمرها أخفاف الإبل، وأن ما بين الساحل ودارين» مسيرة يوم وليلة، لسفر البحر في بعض الحالات، فتحت أيام أبي بكر – رضي الله عنه – سنة ١٢ هـ معجم البلدان: ٢/ ٢٢٩.

(3) الكامل: ١/ ١٨٥.

(4) المرجع السابق: ٢/ ٥٥.

العرب كما قال المبرد.

وخطأه المرصفي حيث قال: «يعني قوما تجارا، وقد قالوا... إلخ» قد علمت أنه يريد بني الأزرق لا غير، وذلك أن «دارين... إلخ» يريد: إثبات ما زعم أنهم تجار على أن «دارين» ليست سوقا كما وهم، وإنما هي فُرضة[1] يجلب إليها المسك، وقد أضيف إليها، فقيل: مِسكُ دارين»[2]. فالمعنى على الحالين: امتلاء الحقائب، وهو كناية عن النشاط، والعمل الدءوب.

ومن الأمثال ما أريد به الكناية. فالمبرد يورد قول الرّاعي[3] في الصيِّب: «المطر»:

لمّا دَعَا الدّعْـوة الأولى فأسمعني ... أخذت بُرْدِيَّ واستمررْتُ أدراجي[4]

ثم يقول: وقوله: «استمررْتُ أدراجي» أي: فرجعت من حيث جئت. تقول العرب[5]: رجع فلان أدراجَه، ورجع في حافِرته[6]، ورجع عودَهُ على بدئِه»[7]. فهذه كنايات عن خيبة المسعي.

ومن الأمثال ما جمع بين التشبيه والكناية، فالمبرد يذكر أن العرب تصف الموالي بالحمرة، ويستشهد بقول زيد الخيل:

«وأيقن أننا صُهْبُ السِّبالِ»

---

(١) الفرضة: مشرب الماء، أو مرفأ السفينة. الاقتضاب: ١/ ٨٥، «وفُرضةُ النهر: ثُلمتُه التي منها يُستقى». اللسان: (فرض).

(٢) رغبة الأمل: ٢/ ٢١٩.

(٣) الكامل: ١/ ٢٨١.

(٤) ديوان الراعي النميري: ٢٩.

(٥) في مجمع الأمثال: ٢/ ٣٧ «رجعت أدراجي، رجعت عودي على بدئي».

(٦) يضرب للراجع إلى عادته السوء. مجمع الأمثال: ٢/ ٦٢.

(٧) الكامل: ٢/ ٢٨٤.

ثم يقول: «أي كهؤلاء العدوّ من العجم»[1]. الضمير من «أتنا» مشبه، و«صهب السبال: مشبه به. وشطر البيت كناية عن الأعداء، وإن لم يكونوا كذلك[2]. قال ابن منظور: «الصُّهبة: يقال للأعداء: صُهْب السِّبال، وسُود الأكباد، وإن لم يكونوا صُهبُ السبال»[3] أي صار هذا وصفا لهم لما يبدو من فعالهم المعبِّرة عما تكنه طويتهم لنا.

ومن ذلك ما جاء فى قول المبرد قال: «ولقُبيصة[4] بن المُخارق صحبة لرسول الله ﷺ وكان قد سار إليه فأكرمه، وبسط له رداءه، وقال: مرحباً بخالي. فقال: يا رسول الله. رقّ جلدي، ودق عظمي وقلّ مالي، وهنتُ على أهلي. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد أبكيت بما ذكرت ملائكة السماء»[5]. قوله: «رق جلدى، ودقّ عظمي» كنايتان عن ضعف البنية، وفيها تعريض بالحاجة.

وفى هذا المعنى ما أورده أبو العباس من قول رجل اعتلّ فى غُربة فتذكر أهله وأحبابه:

لو أن سَليمَي أبصرت تخدُّدى وَدِقَّة في عظم ساقِـي ويَـدِي
وبُعْـدَ أهلـى وجفـاءَ عُـوَّدِي عضَّتْ من الوَجد بأطراف اليدِ[6]

فتخدد البشرة، ودقة العظم، وجفاء العود كنايات عن الضعف. وعض أطراف اليد فى هذا المقام كناية عن الحزن.

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٢٥.

(٢) انظر: مجمع الأمثال: ٢/ ٢١٨.

(٣) اللسان (صهب).

(٤) هو قبيصة بن المخارق بن عبد الله بن شداد الهلالي. يكنى أبا بشر. نزل البصرة. وروى عنه أبو عثمان الهندي، وأبو قلابة، روى عن رسول الله ﷺ. أسد الغابة. المجلد الرابع: ٨٣، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب. القسم الثالث: ١٢٧٣.

(٥) الكامل: ٢/ ٣٩.

(٦) المرجع السابق: ١/ ٢٠٣.

يقول المبرد: «إن الحزين، والمغيظ، والمتأسف يعض أطراف أصابعه جَزَعًا. قال الله عز وجل –: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[1] فعض اليد هنا كناية عن هذه الصفات. وذلك أن القول الكريم وارد في التحذير من أهل الكتاب، والنهي عن اتخاذ المسلمين منهم بطانة؛ فصدورهم تخفى من الحقد والبغضاء أكثر مما يبدو من أفواههم. يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

يقول القرطبي: «وعض الأنامل من فعل المغضب الذي فاته مالا يقدر عليه، أو نزل به مالا يقدر على تغييره»[3].

ومنه ما جاء في قول المبرد: «ويقال في الغضب: تركت فلانا يصرِفُ نابهُ عليك، ويحرقُ، ورأيته يعضُّ عليك الأرَم». وفسر «الأرم» بالشفاة، أو الأصابع. ثم أتبع ذلك بقوله: «فأما قولهم: (عضّ على ناجذه) وهو آخر الأسنان؛ فيكون على وجهين:

أحدهما: أنه قد احتنك، وبلغ. والآخر: أنه يكون للإطراق والتشدد.

ويروى المبرد عن على بن أبي طالب –رضي الله عنه– أنه كان يقول: «إذا لقيتم القوم فأجمعوا القلوب، وعضُّوا النواجذ. فإن ذلك ينبي السيوف

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٠٤.

(٢) سورة آل عمران: ١١٨، ١١٩.

(٣) تفسير القرطبي: جـ٢: ١١٧.

عن الهام[١].

تفسير العض بذلك يفيد أن الغضب استولى على صاحبه وبلغ فيه الغاية. ففي لسان العرب[٢]: «احتنك فلانٌ ما عند فلان. أي أخذه كله». وصرفُ الناب معناه: الصوت الناشئ من احتكاك نابٍ بآخر من شدة الغيظ، وهو يكون شديداً. وكرر «يحرق» ليدل على زيادة الغضب، وتأكيده. وجمع القلوب: كناية عن الاتحاد، والإصرار على النصر وهو يناسب عض النواجذ.

والمبرد أحياناً ما يقرن المعنى بضده ليتبين الفرق بينهما؛ فسرعة بديهته، وكثرة حفظه للأدب تعينه على ذلك. فقد أورد قول الحسن بن هاني في مدح الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك:

وكنّا إذا [ما] الخائنُ الجِدُّ غرَّهُ   سناً برقِ غاوٍ أو ضجيجُ رُعَادِ

تردّى له الفضلُ بن يحيى بن خالدٍ   بماضِي الظُّبا أزهاه طولِ نِجادِ

وقال في بيانه: «وقوله: «أزهاه طول نجاد» النجاد: حمائل السيف، وأزهاه: رفعه وأعلاه. والرجل يمدح بالطول، فلذلك يذكر طول حمائله. قال مروان بن أبي حفصه يمدح المهدي:

قصُرتْ حمائلهُ عليه فقلَّصت   ولقد تأنق قينُها فأطالها[٣]

فالأول مدح صاحبه بالتصدي للمغرور بالأسنة الطويلة الحادة، وهذا يستلزم طول قامته.وأما الثاني فإنه ذم من عناه بالقِصر البالغ، وذلك أنه لم يكتف بقصر حمائله، ولكن زاد وصفها بالتقلص ويلزمه: شدة التداني والقِصر.

---

(١) الكامل: ٣/ ١٢٠.

(٢) مادة: (حنك).

(٣) الكامل: ٣/ ١٣٥-١٣٨. قلصَ الشيء يقلِصُ قُلوُصاً: تداني، وانضم... القالِص من الثياب: المشمر القصيرز اللسانُ (قلص).

وفى بيان المبرد لمعنى «مقنع» استشهد بقول الله تعالى: ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾[1]. ثم ذكر أنه: الذي يحط رأسه استخذاء، وأن من يرى أنه: الرافع رأسه. فتأويله عنده: أنه يتطاول؛ ثم يطأطئ رأسه، فهو بعدُ يرجع إلى الإغضاء والانكسار.

والآية الكريمة تبين حال الظالمين يوم القيامة – فعلى كلا التأويلين- لا يخلو الأمر عن ملازمة الاستخدام. فالقول الكريم كناية عن الخزى والانكسار.

ويورد المبرد مقطوعة للقتّال الكلابي ومنها قوله[2]:

طوالُ أنضية الأعناق لم يجدوا   ريح الإماء إذا راحت بأزفارِ

ثم يقول: «إنما أراد: طِوال الأعناق، كما قال الأعشى[3]:

الواطئين على صدُورِ نعالهم   يمشُون في الدّفنيّ والأبْرادِ

ويريد السؤدد والنعمة، ولم يخصص الصدور، وإنما أراد النعال كلها». والشطر الأول كما يفاد من النص؛ كناية عن الترف والنعمة.

وأعود إلى المبرد حيث ذكر قول الشاعر:

يُشبِّهون ملوكا في تجِلّتهم   وطُول أنضية الأعناقِ واللِّمم[4]

فالحديث متصل عن الكناية؛ إذ يلزم من طول أنضية الأعناق طولَ الأعناق، فجاء المعنى مشفوعاً بالليل.

وقد عاب المرصفي الوصف باللِّمم حيث قال: «وقد عيبت هذه الرواية بأن الكهول والشيوخ لا تمدح بطول اللمم، وإنما يمدح به النساء والفتيان. والرواية على ما رواها ابن القطاع قال: والأمة: بضم الهمزة وتشديد الميم: القامة. قال الأعشى:

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٣ وهي ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

(٢) الكامل: ١/ ٥٧.

(٣) انظر: الصاحبي: ٤٢١، وفقه اللغة وسر العربية: ٣٨٣، والمزهر: ١/ ٣٤٢، الدفنى: الثياب المخططة.

(٤) جمع لِمّة: وهي ما ألم بالمنكب من شعر الرأس.

وإن معاويَة الأكرمين   بيضُ الوجوه طِوال الأمم

يريد: طوال القامات. ومثله قول الشمردل:

«وطوال أنضية الأعناق واللّمم»

وهذا النقد في موضعه، وليت الشباب في هذا العصر يعتز بمبادئه، وقيم مجتمعه، فلا ينقاد للغرب حُبًّا في التقليد الأعمى.

وأقول: إن طول النجاد كناية عن طول القامة. ويبدو أن الثانية تستلزم كناية أخرى، يقول ابن سيدة: (ت ٤٥٨ هـ): «وطول القامة والسّنان كناية عن الحذق بالطعان، ولهذا وصفت العرب أرماحها بالطول، يريدون جودة العمل بها، والقوة على تصريفها؛ لأنها أطول في ذاتها؛ لأن طولها مبعِد عن القِرْن»[١]. أو أن «طول القامة» لما احتاج إلى واسطة كان من الرمز.

ويقول أبو العباس: «ويروى عن غير أبي عبيده أنه[٢] سأله – عليّ بن أبي طالب– عن قوله– جل اسمه– ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾[٣]. قال: الشدة بالشدة، فسأله عن الشاهد؛ فأنشده:

أخُو الحرب إن عضّت به الحربُ عضَّها

وإن شمَّرتْ عن ساقِها الحربُ شمَّرا»[٤]

الآية الكريمة كناية عن الشدة التي تنزل بالمحتضر، قال الفراء: (ت ٢٠٧هـ): «أتاه أول وأشد آخر أمر الآخرة، وأشد أمر الدنيا»[٥].

---

(١) شرح المشكل من شعر المتنبي: ٤٣.

(٢) السائل هو: نافع بن الأزرق.

(٣) سورة القيامة: الآية: ٢٩.

(٤) الكامل: ٣/ ٢٢٤.

(٥) معاني القرآن: ٣/ ٢٢٤.

وفي موضع من كتاب «الكامل»[1] فيض من أمثلة الكناية، وأكثرها عن الصفة وسأذكر بعضها، يقول المبرد:

«وقوله – عز وجل- : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[2] كناية بإجماع عن قضاء الحاجة؛ لأن من أكل الطعام في الدنيا أنجى، يقال: نجا وأنجى إذا قام لحاجة الإنسان». وأورد المبرد هذا في موضع آخر[3].

فهو في الأول يحكّم الإجماع على القول بالكناية، وفي الثاني يُعبّر عن إفادة الأسلوب «الكناية» بطريق القصر «إنما». وهذا منه مجازفة، أو تسامح، وذلك أن العلماء رددوا المعنى بين الحقيقة والكناية، أو هما معاً.

فالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) حمل المعنى على الحقيقة. بقوله: «الكلام على ظاهره، ويكفي في «الدلالة على عدم الإلهية في نفس أكل الطعام؛ لأن الإله هو الذي لا يحتاج إلى شيء يأكله؛ ولأنه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدَثاً، كذلك لا يجوز أن يكون طاعماً، وأيده ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) بقوله: «وهذا صحيح»[4].

وأُثِر عن الزمخشري «أن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم، والنفض لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة... وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع، مدبَّر كغيره من الأجسام»[5].

---

(١) الكامل: ٢/ ١٣١.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ .....﴾ سورة المائدة: ٧٥، وهو ردٌّ على من قال بالتثليث، ونفي لزعمهم ألوهية عيسى – عليه السلام- وأمه، وبيان لبشريتهما.

(٣) الكامل: ٢/ ١٣١. وانظر: الكامل: ٢/ ١٩١.

(٤) البيان والتبيين : ٢/ ٣٠٤، وسر الفصاحة: ١٥٨.

(٥) الكشاف: ١/ ٦٣٥.

وقال بالكناية كل من ابن رشيق[1] (ت ٤٥٦هـ) وابن يعيش «ت٦٤٣هـ»، وابن أبي الأصبع المصري (ت٦٥٤هـ)، وابن حجة الحموى (ت٨٣٧هـ).

وضعَّف الإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ) القول بالكناية من وجوه[2]، وأورد هنا وجهين:

الأول: أنه ليس كل من أكل أحدث؛ فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون.

الثاني: أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، فأي حاجة بنا إلى جعله كناية من أي شيء آخر.

وبعد. فالقول بالحقيقة أولى؛ لأن أكل الطعام كاف في الردّ على من زعم ألوهية عيسى –عليه السلام– وأمه، وهو – مع ذلك – لا يمنع الكناية.

وقال المبرد: «وكتب عثمان بن عفان إلى «عليّ» – رحمه الله– حين أحيط به: أما بعد. فإنه قد جاوز الماء الزُّبي، وبلغ الحزام الطِّبيين، وتجاوز الأمر بي قدره».

وقال في بيانه: قوله: «قد جاوز الماء الزّبي» فالزبية: مصيدة الأسد، ولا تتخذ إلا في قُلة أو رابية أو هضبة.. وتقول العرب «قد علا الماء الزّبي» و «قد بلغ السكين العظم» و«بلغ الحزام الطبيين» أي قد جلّ الأمر عن أن يغيّر ويصلح»[3]

فقوله: قد جل الأمر إلخ. «إشارة إلى أن هذه الأمثال كناية عن شدة الأمر وخطورته.

ثانيًا: الكناية التي يطلب بها موصوف:

وهي ألا يصرح بالموصوف المكنى عنه، ولكن يذكر مكانه صفة أو صفات خاصة تدل بالتالي عليه.

---

(١) انظر: العمدة: ١/ ٢٦٨، شرح المفصل: ٤٨١، وبديع القرآن: ٥٢. وخزانة الأدب وغاية الأرب: ٥٢.

(٢) التفسير الكبير. المجلد السادس: ١٢/ ٥٢.

(٣) الكامل: ١/ ١٧، ١٨، وانظر: رغبة الأمل: ١/ ٩٧، ومجمع الأمثال: ١/ ١٥٨، ٢١٥.

وإذا كان يراد بالكناية: الإخفاء والستر، فمن شرط الصفة أن لا تكون كاشفة، وإلا فما فائدة الكناية؟.

وهذا يفاد من قول المبرد: ورُوى أن عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة قال شعراً، وكتب به إلى امرأة مُحرمة بحضرة ابن أبي عتيق، وهو:

ألِمَّا بـذاتِ الخال فاستطلعا لنا ... على العهد باقٍ وُدُّها أم تصرَّما

وقُولا لها: إن الهـوى أجنبيـةً ... بنـا وبكُم قـد خِفْتُ أن تيمّمـا

قال: فقال له ابن أبي عتيق: ما ذا تريد إلى امرأة مسلمة محرمة تكتب إليها بمثل هذا الشعر! قال: فلما كان بعد مُدَيْدة قال له ابن أبي ربيعة: أما علمت أن الجواب جاء من عند ذلك الإنسان! فقال له: ما هو؟ قال: كتبت[1]:

أضحى قريضك بالهوى نمّاما ... فاقصِد هُـديت وكُن له كتّاما

واعلمْ بأن الخال حين ذكرتَهُ ... قعـد العدوُّ به عليك وقامـا

«الخال» صفة خاصة بإنسانة، وهي معروفة في مجتمعها بهذه الصفة، فالخال من الصفات النادرة. فإذا كُنى به فقد دلَّ على صاحبه. وإذاً فما فائدة الكناية؟؛ ولذا انتهز العدو هذا الشعر فرصة سانحة للقيل والقال، والتشنيع في كل مكان. وهذا يُفاد من قوله:

«قعد العدوُّ به عليك وقاما»

ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام عليّ- كرم الله وجهه- في الحث على الجهاد، وهي طويلة. منها قوله: يا أشباه الرجال، ولا رجال!...، ويا عقول ربَّاتِ الحجال، والله لقد أفسدتُم عليّ رأيي بالعِصيان»[2].

ويقول[3]: «وربَّ امرأة تتقدم في صناعة، وقلَّما يكون ذلك، والجملة ما قال

(١) ديوانه: ١٠٩، والكامل: ٢/ ٢٩٠.

(٢) الكامل: ١/ ٢٠.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٤٦

– عز وجل–: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ ﴾[1]».

فقول الإمام: «عقول ربّات الحجال» كناية عن النساء؛ لأنهن أو أكثرهن يتزين بالحجال. وهو يفيد أن عقول هؤلاء الرجال مثل عقول النساء في الضعف. وأما الآية الكريمة فهي كناية عن المرأة[2] إذ التنشئة في الحلية، وعدم القدرة عند الجدال من صفاتهن.

وأقول: هذا هو الشأن في المرأة، ولا سيّما من تربين على الفضيلة والحياء، أما في هذا العصر حيث خفّ الوازع الديني، وفَعل الاستعمار والغرب بالأخلاق ما فعل فإن بعض النساء من أجل الانتصار بالباطل يتحايلن بالدهاء والمكر، وتلفيق الاتهامات وتعالى الأصوات التي تفوق الرجال! فالآية تبين الصفة المتأصلة في النساء واللائي ينبغي أن يتصفن بها.

ومن الأمثلة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾. فقد أتبعه بقوله: «كناية عن الفروج»[3]. وأورد المبرد هذا في موضوع آخر[4].

وقد ردّد الشهاب الخفاجي المعنى بين الحقيقة، والمجاز المرسل، والكناية. حيث قال: «الجلود. قيل: المراد بها الظاهر، وقيل: الجوارح وقيل: وهو كناية عن الفروج[5] وهو مأخوذ من كلام الزمخشري.

ومن الأمثلة قول أبي العباس: «وقول العرب: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر. يريد: العربي والعجمي. ومن ذلك قول الأشعث بن قيس لعلي بن أبي طالب –رحمه الله– وأتاه يتخطى رقاب الناس و «علي» على المنبر فقال: يا

---

(١) سورة الزخرف: الآية: ١٨، وتمامها: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾.

(٢) انظر: الكشاف ٣/ ٤٨٣، وعقود الجمان: ١/ ٥٦، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ١٨.

(٣) الكامل ٢/ ١٣١، وقال ذلك في: ٢/ ٢٩٢. وانظر: الإتقان: ٢/ ٣٠٥.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٩٢.

(٥) حاشية الشهاب الخفاجي: ٧/ ٢٩٧، انظر: الكشاف: ٣/ ٤٥٠.

أمير المؤمنين: غلبتنا هذه الحمراء على قُربك»[1].

ويقول في موضع آخر: العرب تقول: ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، أي العربي والعجمي، ويُسمون الموالي وسائر العجم: الحمراء»[2].

جاء في لسان العرب: (حمر) «الأحمر: الذهب، والأبيض: الفضة، والذهب كنوز الروم.

لأنه الغالب على نقودهم، وقيل: أراد العرب والعجم جمعهم الله على دينه وملته[3].

ومن ذلك ما جاء بخطبة الحجّاج في أهل العراق[4]، قال: «يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق... يا بني اللُّكيعة، وعبيدِ العصا، وأولاد الإماء، إني لأسمع تكبيراً ما يراد الله به، إنما يراد به الشيطان...». قال المبرد: «وقوله: بنو اللكيعة» يريد اللئيمة. وقد مرّ تفسير هذا في موضعه.

وهو يريد ما جاء في قوله[5]: «وقوله: «بنو اللكيعة» فهي اللئيمة، ويقال في النداء للئيم: يا لُكع، وللأنثى يا لَكَاعِ؛ لأنه موضع معرفة.. وقد جاء في الحديث «لا تقوم الساعةُ حتّى يلي أمرَ الناسِ لُكع بن لُكع»[6]. فهذا كناية عن اللئيم بن

---

(١) الكامل: ٢/ ٦١.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٥٢، وانظر: غريب الحديث: ٣/ ٤٢٩.

(٣) لسان العرب: مادة حمر.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٧٠، ٢٧١.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٢٦١.

(٦) المرجع السابق: ١/ ٢٦٠، ٢٦١. وقد ورد في مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٥٨ برواية «... عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهبُ الدنيا حتى تصيرَ لِلكعُ بنِ لُكع». وفي: ٣٢٦ نفس الرواية: «... ثنا كامل أبو العلاء قال: سمع أبا صالح عن أبي هريرة قال:...». وفي غريب الحديث لأبي عبيد الهرويّ (ت ٢٤٤هـ): ٣/ ١٥٤ برواية: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعدَ الناس بالدنيا لكعَ ابن لكع». وفي: ٢٢٢٣ برواية: «يأتي على =

اللئيم، وهي صفة ذم». وقد فسرت بأنها: العبيد والسفلة، والحمق[1].

وقد يراد بالجملة الكناية عن موصوف، وببعضها الكناية عن صفة ومن ذلك ما جاء في قول الأحنف بن قيس: «لا تزال العربُ عرباً ما لبستِ العمائمَ، وتقلدت السيوفَ، ولم تعدَّ الحلم ذلاً، ولا التواهب فيما بينها ضعة».

قال المبرد: فقوله: «ما لبست العمائم» كناية عن مداومة العرب الاستعداد للحرب، وذلك أن العرب لا تلبسها، وإنما تكنى بها عن بيضات السلاح، هذا إلى [جانب] أنها وردت مقترنة بتقليد السيوف[2].

يقول: المرصفي في تعليقة على قول سُحيم:

أنا ابنُ جلا وطلّاع الثنايا   متى أضعِ العمامةَ تعرفوني

«أضع العمامة» العرب تكنى بالعمامة عن بيضة السلاح. يقول متى أضعها على رأسي تعرفون مكانتي في الحرب، ولا وضعها عن الرأس في حال السلم»[3].

والأصل فى العمامة: الحقيقة؛ فالحجاج فى خطبته لأهل العراق أراد ذلك، كما أراد بوضع العمامة حسرها عن وجهه؛ فالكلمة لا يمنع أن يكتنفها جانباً حقيقة، وكناية؛ لأن قرينتها لا تمنع ذلك.

ويورد أبو العباس قول خالد بن يزيد في آمنة بنتِ سعيد:

فتاةٌ أبوها ذُو العصابة وابنهُ   عثمانُ ما أكفاؤها بكثيرِ

ثم يقول: «قوله: أبوها ذو العصابة «يعنى: سعيد بن العاص بن أمية. وذلك

= الناس زمانٌ يكون أسعدَ الناس بالدنيا لُكعَ بن لُكع...» وهذه الرواية ورد في: النهاية في غريب الحديث: «لكع».

(١) انظر: غريب الحديث (لكع).

(٢) الكامل: ١/ ١٧٩.

(٣) رغبة الآمل: ٣/ ٣٨.

أن قومه يذكرون أنه كان إذا اعتمَّ لم يعتم قُرشي إعظاماً له»[1].

العصابة هي: العمامة، ويكنى سعيد هذا بـ «ذي العصابة»

وأورد النيسابوري (ت ٤٢٩هـ) نقداً للخبر. فقال: «وزعم بعض أصحاب المعاني أن هذا اللقب إنما لزم سعيداً كناية عن السؤدد، وذلك أن العرب تقول للسيد معمم: يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك القبيلة، أو العشيرة فهي معصوبة برأسه، وإلى هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص: ذا العمامة وذا العصابة»[2].

ومن ذلك ما كنى به عن المرأة، يقول المبرد:

«والعرب تكني بالنعجة عن المرأة، وبالشاة، قال الله –تبارك وتعالى– ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾[3].

وقال الأعشى:

فرميتُ غفلة عينهِ عن شاتهِ فأصبتُ حبة قلبها وطِحالها[4]

يريد: المرأة»[5] وقد أعاد المبرد في موضع آخر.

فقد ذكر أن منهج العرب الكناية عن المرأة بالنعجة والشاة والبقرة الوحشية، وهذا على عمومه جائز في كلام العرب.

وأما أن يراد بالنعجة في الآية الكريمة المرأة: فهذا ما لا نسلم به؛ لأن فيه مجاراة للماكرين، وأعداء الدين، والسذّج من المسلمين، وعونا لمن يلفّقون في معنى الآية الكريمة بغية الإساءة إلى نبي الله داود –عليه السلام– فقد اختلقوا كثيراً

(١) الكامل: ١/ ٣٤٧.
(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٢٨٩.
(٣) سورة ص: الآية: ٢٣.
(٤) ديوانه: ١٤٤.
(٥) الكامل: ٢/ ٢٤٠، ١/ ٢٨٣.

من الأكاذيب، وروجوها في حقه، وكذا في حق سليمان ـ عليهما السلام ـ.

وأعداء الإسلام يحاولون بكل الأساليب بث الشكوك، وإلقاء الأراجيف، وإذاعة الأكاذيب بين المسلمين، وذلك لتضليلهم في فهم الكتاب العزيز، والسنة النبوية. فيجب على المسلم أن يكون واعياً لما يقرأ ويسمع، ويشاهد، ويعرض ذلك على تعاليم دينه، وعقله الذي وهبه له ربه، طلباً للسلامة.

وأعود فأقول: إن المراد بالنعجة في الآية الكريمة: الحقيقة، والقصة التي وردت الآية في سياقها قصة حقيقية لشخصين من البشر تسوّرا على داود ـ عليه السلام ـ محرابه، ولا مجال فيها للرمز أو الكناية.

والعجب أن كثيرا من العلماء مع دفاعهم عن الرسل، قد أوّلوا قصة داود على الكناية أو الرمز، وأوردوا في ذلك أخباراً كثيرة أغلبها مكذوبٌ ومختلق، وسأورد بعض هذه التأويلات:

١- يقول أبو عبيدة: «ولي نعجة واحدة» امرأة كما قال الأعشى (البيت). يعني: «امرأة الرجل»[1]. ولكن شتان بين الآية الكريمة، والبيت.

٢- ويقول ابن قتيبة: (ت ٢٧٦هـ) «إنما هو مثل ضربه الله ـ سبحانه ـ ونبه داود على خطيئته به، وورّى عن النساء بذكر النّعاج، كما كنى الشاعر عن جارية بشاة»[2].

٣- ويقول ابن رشيق: (ت ٤٥٦هـ) بعد ذكر الآية: «كناية بالنعجة عن المرأة»[3].

٤- ويقول الزركشي(ت٧٩٤هـ): «كنّى بالمرأة عن النعجة كعادة العرب أنها

(١) مجاز القرآن: ٢/ ١٨١.

(٢) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٦.

(٣) العمدة: ١/ ٣١٢.

تكنى بها عن المرأة»[1].

٥- والعجيب أن الزمخشري يجعل القصة على التمثيل. فيقول: «... مُثّلت قصة أوريا مع «داود» بقصة رجل له نعجة واحدة، ولخليطه تسع وتسعون... وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة»[2].

وجاراه الشهاب الخفاجي عندما علق على قول القاضي: «وقد يكنى بها عن المرأة، والكناية والتمثيل فيما يساق للتعريض» فقال: «هكذا وقع في الكشاف، وفيه خفاء يحتاج إلى توضيحه»[3].

فالخفاجي بهذا يبين رأى الزمخشري ويقويه. وإن في هذا التعليل، بل وكثرة الافتراضات ما يعطى للإسرائيليات جانباً من الأهمية.

وأقول: ليت المفسرين أهملوا الإسرائيليات بعامة، فذهبت مع تضاعيف الزمان ولكن هيأ الله من العلماء من دحض هذه الافتراءات وبين كذبها وزيفها وسأورد من ذلك ما يتصل بموضوعنا:

١- فالعلامة ابن كثير (ت ٧٤٤هـ) عقّب على آيات[4] القصة بقوله: «وقد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يَثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس -ويزيد وإن كان من الصالحين- لكنه ضعيف الحديث عن الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يردّ علمها إلى الله -عزّ وجل- فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً»[5].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف: ٣/ ٣٦٨.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي، وبالهامش (تفسير البيضاوي): ٧/ ٣٠٥.

(٤) سورة ص: الآية: ٢١-٢٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، المجلد السابع: ٥١.

٢- وقال أبو حيان: «والظاهر إبقاء النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك»[١].

وفي مختصر تفسير القرطبي[٢]: «والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة لما هي عليه من السكون، والعجزة، وضعف الجانب... والمقصود هنا: النعاج الحقيقية».

فالواجب الأخذ بهذه الآراء إحقاقاً للحق، وإتباعاً للصواب، ودرءاً للماكرين، والمتأولين في كتاب الله بغير علم.

ثالثًا: الكناية التي يطلب بها نسبة:

وهي أن يصرح بالموصوف وبالصفة، ويقصد بإثباتها لشيء الكناية عن إثباتها للموصوف بها.

فالمبرد يذكر خبر إقصاء هشام بن عبد الملك لأبي النجم؛ لأنه لم يراع المقام حين أنشده:

«والشمسُ قد صارتْ كعين الأحوال»

حين ذهب به الرّوى عن الفكر في عين هشام، ثم أرقَ ذات ليلة، فطلب من حاجبه عربياً فصيحا يحادثه؛ فأحضر له أبا النجم فلما حَضر قال له: أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: بحيث ألفتْني رُسُلُك. قال: فمن كان أبو مثواك؟ قال: رجلين أتغدّى عند أحدهما، وأتعشى عند الآخر[٣].

وقال في موضع آخر: «ويقال لربّ البيت، وربّة البيت اللذين ينزل بهما الضيف: هي أم مثواه، وهو أبو مثواه، وأنشد أبو عبيدة:

ومن أمّ مثوى كريم قد نزلتْ بها إنّ الكريمَ على عِـلاّته يسعُ

(١) البحر المحيط، المجلد السابع: ٣٩٢.

(٢) اختصار ودراسة: الشيخ محمد كريم راجح. دار الكتاب العربي.

(٣) انظر: الكامل: ٣/ ٩٤.

وفي كتاب الله – ﷻ –: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾[١]. معناه عند العرب. إضافته»[٢].

ثم زاد ذلك شرحاً عند قول عمران بن حطان:

يا روحُ كم من أخي مثوى نزلتُ به[٣].

فهو يقول::يقال: هذا أبو مثواي، وللأنثى هذه أمُّ مثواي. ومنزل الإضافة وما أشبهها: المثوى»[٤]. وكذلك قال المفسرون في قول الله عز وجل: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾. أي إضافته».

كلمة «مثوى» اسم مكان بمعنى موضع الثواء أي: الإقامة أو نزول الضيف. وأما «أبو مثوى» و «أم مثوى» فهما كنايتان عن صاحبي مكان الإضافة. فإذا اتصف المثوى بالكرم فهو كناية عن نسبة الكرم بطريق اللزوم لمن ينزل فيه، وذلك أن المكان لا ينتفع بشيء. يقول ابن عطية (ت ٥٤٦هـ) فى آية سورة يوسف: «الإكرام إنما هو لذى المثوى»[٥].

ويبين الزمخشرى معناه بقوله: «اجعلي منزله ومُقامه عندنا كريماً. أي حسنا مرضيا بدليل قوله: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾[٦]. والمراد: تفقديه بالإحسان، وتعهديه بحسن الملكية حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنا في كنفنا»[٧].

---

(١) سورة يوسف: من الآية: ٢١.

(٢) الكامل: ٣/ ١٠١، مجاز القرآن: ١/ ٣٠٤.

(٣) الشطر الثاني قوله: «قد ظن ظنك من لخم وغسّان». الكامل: ٣/ ١٧٠.

(٤) الثواء: طول المقام والمثوى: الموضع الذي يقام به. وقوله تعالي: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ اي إنه تولاني في طول مقامي، ورب البيت: أبو مثواه. اللسان (ثوا) بإيجاز، وانظر. الفائق (ثوى) انظر مجاز القرآن: ١/ ٣٠٤.

(٥) المحرر الوجيز: ٣/ ٢٣١.

(٦) سورة يوسف: الآية: ٢٣.

(٧) الكشاف: ٢/ ٣١٠.

ويبين الرازي إيثار الكناية بقوله: «وقال المحققون: أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه، دون نفسه يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم، وهو كما يقال: «سلام على المجلس العالي»[1]. أي: أهله

وروى أبو العباس قول قتّال الكلابي:

لا أرْضعُ الدهرَ إلا ثَدْيَ واضِحةٍ لِواضحِ الخدّ يحمي حوْزةَ الجارِ

ثم قال قوله: «يحمي حوزة الجار»؛ أي: ما يحوزه يقال: فلان مانعٌ لحوزته. أي صار في حيزه»[2]. فإذا حُميت حوزة الجار فقد حمى الجار نفسه بطريق اللزوم. وهو أبلغ في التعبير من التصريح بحمايته، لأن الكناية تفيد أن الجار وما يحوزه موضع الحماية.

ويذكر المبرد أن أبا زيد أنشد إبراهيم بن هشام والي المدينة:

«يا ابن هشامٍ يا أخا الكِرام»

فقال إبراهيم: وإنما أنا أخوهم وكأني لست منهم! ثم أمر به فضرب بالسّياط[3].

قوله: «يا أخا الكرام» كناية عن نسبه، وهي تفيد أن الكرم غير متأصل في هشام، فقد يكون الملازم للكرام غير كريم، والمصالح هي التي جمعت بينهم. ولكن الأخوة في هذا المقام لا تعنى سوى الكرم بقرينة المدح، غير أن هذا مما لا يواجه به الملوك والأمراء... فلكل مقام مقال، ولذا عرّض الشاعر نفسه للعقاب.

ويتبين هذا بما جاء في «المثل السائر» في مدح إنسان «أنت من القوم الكرام» أي: لك في هذا الفعل سابقة، وأنت حقيق به، ولست دخيلا فيه»[4].

---

(١) التفسير الكبير: المجلد التاسع: ٨٨، وأنظر تفسير أبي السعود: ٤/ ٢٦٢.

(٢) الكامل: ١/ ٥٦ باختصار.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٨٧.

(٤) ج ٣: ص ٦١.

إشارة إلى التعريض:

قرن التعريض بالكناية في كثير من كتب التراث[1]؛ إذ هما يتفقان في الإخفاء والستر. وقد فرق المحققون بينهما بوجوه أهمها[2]:

أولاً: الكناية تقع في الألفاظ المفردة، والتراكيب. أما التعريض فإنه لما كانت دلالته بالقرينة اختص بالتراكيب.

ثانياً: التعريض أكثر خفاء من الكناية. والسبب أن دلالتها من الألفاظ أما التعريض فإن دلالته بالقرينة، وفيها نوع خفاء.

ثالثاً: التعريض يكون في كل من الحقيقة والمجاز والكناية، فهو أوسع استعمالاً من الكناية.

ولم يبين أبو العباس المراد بالتعريض، ولكن ورد من أمثلته في الكامل:

«وكان قيس بن سعد شجاعاً، جواداً، سيداً. وجاءته عجوز قد كانت تألفه، فقال لها: كيف حالك؟ فقالت: ما في بيتي جُرَذ. فقال: ما أحسن ما سألت. أمَا والله لأكثرنَّ جرذان بيتك»[3]. فقد عرَّضت بحاجاتها دون تصريح، وبطريقه فهمها «قيس» ولذا أجابها إلى ما أرادت. والقرينة ما فهم من حالها وإلقاء هذه العبارة إلى جواد كريم.

وأخيراً، فدراسات الكناية في «الكامل» كثيرة غير أنها متناثرة، وقد أضفى عليها محمد بن يزيد الكثير من بيانه، ولذا كان الكتاب مقصداً لعلماء البلاغة.

---

(١) انظر: الصناعتين: ٣٨١.وإعجاز القرآن: ٩٨، والمثل السائر: ٣/ ٥٦، والإكسير في علم التفسير: ١١٨.

(٢) انظر: الإيضاح: ٣/ ١٨٦، والطراز: ١/ ٣٨، وشروح التلخيص: ٤/ ٢٦٤، والبيان في ضوء أساليب القرآن: ٢٧٨.

(٣) الكامل: ٢/ ١١٦.

الباب الثالث

صور من علم البديع

وفيه فصلان:

الأول: المحسنات المعنوية

الثاني: المحسنات اللفظية

صور من علم البديع

تمهيد

-١-

قال ابن منظور (ت ٧١١هـ):

بدعَ الشيءَ يبدعهُ، بدعاً، وابتدعهُ: أنشأهُ وبدأه، وبدعَ الركيةَ: استنبطها وأحدثها. والبديعُ والبِدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً. وفي التنزيل: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1]. أي: ما كنتُ أول من أرسل. فقد أرسل قبلي رسل كثير.

والبديع المحدَث العجيب... وأبدعتُ الشيء: اخترعته لأعلى مثال. والبديعُ من أسماء الله – تعالى –؛ لإبداعه الأشياء، وإحداثه إياها، ويجوز أن يكون بمعنى مُبدِع، أو يكون من بدعَ الخلق أي: بدأه. والله تعالى – كما قال سبحانه– : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] أي: خالقهما ومبدِعهما، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال، وسَقاءٌ بديع، وحبل بديع[3].

فمادة «بديع» تدور في لغة العرب حول الجديد، والمحدث المعجب والمخترع.

وكلمة «بديع» وردت في شعر الجاهليين والإسلاميين والأمويين بهذه المعاني؛ فالشاعر عدي بن زيد يقول:

فلا أنا بِدْعٌ من حوادِثَ تعتري   رِجالاً غدتْ مِن بعد بؤسي بأسعدَ

ويقول حسان ﷺ:

---

(١) سورة الأحقاف: الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١١٧، وسورة الأنعام: الآية: ١٠١.

(٣) لسان العرب: (بدع).

قومٌ إذا حارَبوا ضرُّوا عدوَّهُمُ ... أو حاولوا النَّفعَ في أشياعهم نفَعُــوا
سجيةٌ تلكَ فيهم غيرُ محدثـةٍ ... إن الخلائِـق؛ فاعلمْ شـرُّها البِــدَعُ

ويقول الفرزدق:

أبتْ ناقتِي إلا ازديادًا ورغبتِي ... وما الجودُ من أخلاقهِ ببديع

ووردت أمثلة كثيرة لفنون البديع في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وفي كلام العرب.

فمن المقابلة قوله – تعالي-: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[1].

ومن الإرصاد قوله تعالي: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

ومن رد العجز على الصدر قوله تعالي: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[3].

ومن العكس والتبديل قولـه ﷺ: «جارُ الدارِ أحق بدَار الجار»[4].

ومن السجع قوله ﷺ: «رَحمَ الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسَلِم».

ومن الطباق قول زهير:

ليثٌ بعثّر يصطادُ الرجالَ إذا ... ما كذِبَ الليثُ عن أقرانِه صدقَا

ومن الرجوع قول حسان ﷺ:

لا أسرِقُ الشعراء مَا نطقُوا ... بل لا يوافقُ قوْلهم قولي

---

(١) سورة التوبة: الآية: ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: ٣٧.

(٤) رواه أبو دادود في سننه: ٣/ ٢٨٦.

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم قول النابغة الجعدي:

فتى كَمُلَتْ أخلاقهُ غيرَ أنه   جوادٌ فما يُبْقِي من المالِ باقيا

هذا قليل مما حفلت به لغة العرب في هذا المقام؛ فقد اهتدى العرب إلى ألوان البديع، وزينوا بها كلامهم قبل أن يُعرف البديع علما بقواعد وأصول.

ولما جاءت الدولة العباسية، وفُتِنَ الأدباء بالحضارة المادية والعقلية، أو عاشوا حياة الترف، واطلعوا على الكتب المترجمة وما تفيض به من حكمة، وخيال وصنعة، دفعهم ذلك إلى محاكاتها، فأغرموا بالبديع، وكانوا فيه بين مقتصد كالبحتري، وابن المعتز، ومفرط كمسلم بن الوليد، وأبي تمام:

وهذا ما جعل الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) يضيف إلى معنى الجِدَّةِ والطرافة: الاستعمال العلمي؛ فقد روى قول الأشهب في رُميلة:

هُمْ ساعِدُ الدَّهْرِ الذي يُتقى به   وما خيرُ كفٍّ لا تنوءُ بساعدِ

ثم علَّق عليه بقوله: «هم ساعد الدهر» إنما هو مثل، وهذا الذي سماه الرواة: «البديع».

وتبدو الصلة وثيقة بين المعنيين: اللغوي والبياني، فالخطيب يُعرِّفه بقوله:

«هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة»(١).

ويُعرِّفه ابن خلدون بقوله: «هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إمَّا بسجع يُفَصِّله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يُقطِّع أوزانه، أو تورية عن المعنى بإيهام معنى أخفى عنه، لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم: علم البديع»(٢).

---

(١) الإيضاح بشرح الشيخ عبد المتعال الصعيدي المسمى (بُغية الإيضاح): ٤/ ٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٥٢٠.

-٢-

وإذا أردنا أن نُلقي نظرة على نشأة التأليف في البديع وتطوره، ألفينا الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) هو أول من ألف كتاباً خاصاً سماه: (كتاب البديع) وما درسه في هذا الكتاب يدخل تحت البلاغة بالمعنى العام من: معان، وبيان، وبديع.

والباعث على تأليفه هو الدفاع عن أنصار البديع، وتعريف الناس أن ألوان البديع وردت فى الأدب الجاهلى والإسلامى، وكذلك فى القرآن الكريم والحديث الشريف، وذلك قبل التدوين فى العلوم العربية والإسلامية.

فابن المعتز سجل في كتابه كثيراً من الأمثلة والشواهد وربطها بالقواعد، فكان ذلك العمل تقنيناً علمياً، وكانت المحسنات قبل ذلك تجرى على الألسنة فناً أدبياً متميزاً.

وقد ذكر ابن المعتز ثمانية عشر نوعاً من البديع، وجعلها قسمين:

الأول: فنون البديع وهي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

والثاني: محاسن الكلام والشعر، وقد جمع منها ثلاثة عشر نوعاً ومنها: الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج.

ويُسجِّل ابن المعتز سبقه إلى التأليف فيها بقوله: «وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد... فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن، أو غيرها شيئاً من البديع، ولم يأت غير رأينا فله اختياره».

- والجاحظ ينتصر للغة العرب فيقول: «والبديعُ مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان، والرّاعي كثير البديع في

شعره، وبشار حسن البديع، والعتّابي يذهب شعره في البديع»[1].

وأما قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) فقد جمع في كتابه «نقد الشعر» عشرين لوناً، ولكنه توارد مع ابن المعتز في ثمانية منها» وهي: «التشبيه، والتتمّم، والمبالغة وهي التي سماها ابن المعتز «الإفراط في الصفة»، والتكافؤ، والالتفات، والإرداف، والمجانسة، والاستعارة وبذلك سلِمَ لقدامة اثنا عشر نوعاً، فتكامل ثلاثون نوعاً[2].

وجاء أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) فخص «الباب التاسع»، من كتاب «الصناعتين»[3] لشرح فنون البديع وهي عنده خمسة وثلاثون، وكان العسكري طويل النَّفس، قوى البيان في شرح هذه الفنون، وضرب الأمثلة الكثيرة، والنقد لبعض الأمثلة.

وقد أحسن أبو هلال حيث استخدم طريقتي: ابن المعتز، وقُدامة، وأحكم التوفيق بينهما، فنجا نحو ابن المعتز في حشد الأمثلة الكثيرة، ثم تعقيب ذلك بالإلماح إلى المعيب المستهجن، والقبيح المبْتذل من كلام القدماء والمحدثين، وتراه يحافظ على هذا المنهج في جمهور ما عرض له من ألوان، وقد يقتبس من أمثلة ابن المعتز وشواهده التى ساقها في كتابه، البديع»[4].

ويجيء القرن الخامس الهجري فيؤلف ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ) كتابه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» ولهذا الكتاب أهميته، فهو سجل حافل لآراء العلماء في النقد والبلاغة، وفيه الكثير من أبواب البديع، ومنها: التجنيس، والترديد، والتصدير، والتقسيم، والمبالغة.

---

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٥٥، ٥٦.

(٢) انظر: الصيغ البديعي في اللغة العربية: ١٤٦ – ١٥٦.

(٣) ص ٢٧٢.

(٤) الصيغ البديعي: ١٦١.

ويؤلف ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) كتابه «سر الفصاحة»، ولهذا الكتاب أهميته في البلاغة والنقد وقد كُتبَ بأسلوب علمي ممتاز، ومما ورد فيه من فنون البديع: الترصيع، والجناس، والمطابقة، والتوشيح.

وأما الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ففي مقدمة كتابه أسرار البلاغة، كلام طيب عن: التجنيس، والسجع، والحشو، والتطبيق والاستعارة[١]. وقد قرن بين هذه المصطلحات مع أن منها ما هو من صميم علمي: المعاني، والبيان، ليُبين أنَّ الحسن فيها راجع إلى المعنى قبل أن يكون راجعاً إلى اللفظ، كما عرض للتجريد[٢]. وحلل بعض أمثلته دون أن يُسميه.

وتناول في «دلائل الإعجاز»[٣]: التقسيم والمزاوجة ليبين منزلتهما في النظم.

وإلى هنا نرى أن فنون البديع وردت مختلطة بمباحث المعاني والبيان، بل إنَّ بعض الكتب أطلق عليها اسم «البديع» مع أنَّ موضوعها: البلاغة بعامة، ومن ذلك: «بديع القرآن» لابن أبي الإصبع المصري و «البديع في نقد الشعر» لأسامة بن منقذ.

ويجيء السكاكي (ت٦٢٦ هـ) فيطلق «علم المعاني»[٤] على المباحث التي تدرس فيه حالياً من أحوال الإسناد الخبري، والقصر، والفصل والوصل... إلخ»، ويطلق «علم البيان»[٥]، على مباحث: التشبيه، والاستعارة، والكناية، ثم يعرض لألوان البديع[٦]، ويصفها بأنها تشارك مسائل هذين العلمين في تزيين

---

(١) أسرار البلاغة: ١/ ٩٩- ١١٧.

(٢) أسرار البلاغة: ٢/ ١٩٥.

(٣) ص: ٩٣.

(٤) مفتاح العلوم: ١٦٣.

(٥) المرجع السابق: ٣٢٩.

(٦) المرجع السابق: ٤٢٣.

الكلام، وتحسينه.

ويطلق بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) على ألوان البديع اسم «علم البديع»[١]، وبذلك صارت البلاغة ثلاثة علوم هي: المعاني، والبيان، والبديع.

وأمّا الخطيب القزويني (ت ٧٨٠هـ) فقد عرّفَ علم البديع بأنّه «علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على متقضى الحال، ووضوح الدلالة»[٢].

وبذلك صارت مباحث «علم البديع» على يدي الخطيب تابعة لهذين العلمين فهو يقول في متن التلخيص: «وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسناً».ثم قسَّمَ المحسنات إلى معنوية، ولفظية، فقال:

وهذه الوجوه ضربان: ضربٌ يرجع إلى المعنى، وضربٌ يرجع إلى اللفظ: وهو بذلك قلَّلَ من الضرب الثاني حيث لم يجعل للتحسين فيه نصيباً يرجع إلى المعنى.

ولا يسلم للخطيب ما ذهب إليه؛ فألوان البديع من البلاغة إذا وردت مواتية للطبع، وكانت فيض البديهة، دون تعمل وتكلف مع شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته[٣].

أما إذا ورد شيء منها متكلفاً فإنه يكون معيبًا مذمومًا، فالحسن أو الذم مُوجَّه إلى الطريقة التي يورد عليها اللون البديعي، وليس اللون البديعي نفسه.

يقول الإمام عبد القاهر: «ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان من أن تُرسِل المعاني على سجيتها، وتدَعها تطلب لأنفسها الألفاظ فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكْتس إلا ما يليق بها، ولم

---

(١) المصباح في المعاني والبيان البديع: ١٥٩.

(٢) الإيضاح: ٤/ ٣.

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن: ٦٣.

تلبس من المعارض إلا ما يزينها، فأمّا أن تضع نفسك أنه لابد من أن تجنّس وتسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت فيه بعُرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم.»[1].

وبعد هذا التمهيد أراني أسرع الخُطا لدراسة الألوان البديعية التي وردت في كتاب «الكامل» لمحمد بن يزيد، وأبين أثره في هذه الدراسات.

* * *

(١) أسرار البلاغة: ١٠٦/١.

الفصل الأول

المحسنات المعنوية

الطباق والمقابلة

الطِباق: يسمى التطبيق، والمطابقة، والتّضاد[1]. قال الخليل (ت ١٧٥هـ): «طابقتُ بين الشيئين إذا جمعتَ بينهما على حذوٍ واحد وألصقتهما؛ فيسمى هذا المطابِق».

وقال ابن رشيق[2] (ت ٤٥٦هـ): وذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضْع الرِّجل في موضع اليد في مشي ذواتِ الأربع.

والمراد بقول الأصمعي: أصلها: وضع الرجل في موضع اليد: «إنما هو مساواة المقدار[3]، دون زيادة ولانقصان.

والطباق عند علماء البلاغة هو: الجمع بين المتضادين: أي بين معنيين متقابلين في الجملة، أي مطلق تنافي بين المعنيين[4].

وأما المبرد فقد ذكر المعنى اللغوي للطباق عندما أورد مقدم الربيع بن زياد الحارثى على عمر بن الخطاب ﷺ فقال[5]:

---

(١) انظر: كتاب البديع:٣٦، الصناعتين: ٣١٦، وحاشية الدسوقي: ٤/ ٤٨٦، وسمى ثعلب: الطباق «مجاورة الأضداد»، قواعد الشعر: ٥٣، وانفرد قدامة بتسميته: «التكافؤ» نقد الشعر: ١٥٢.

(٢) العُمدة: ٢/ ٦، وانظر: سر الفصاحة: ١٩٢.

(٣) انظر: سر الفصاحة: ١٩٢.

(٤) الإيضاح: ٤/ ٤.

(٥) الكامل: ١/ ١٥٢ – ١٥٦.

«قال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب –رحمه الله– يأمره بالقدوم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا جميعاً، قال: فلما قدمنا أتيت «يرفأ»[1] فقلت: يا يرفأ. مسترشدٌ وابن سبيل. أي الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عُمّاله فأومأ إليّ بالخشونة، فاتخذت خُفين مُطارقيْن ولبستُ جبة صوف، ولُثتُ عمامتي على رأسي» ثم أخذ المُبرِّد في تفسيره فقال: وقوله: «خفين مطارقين»: تأويلهُ: مطبقين، يقال طارقت أهل إذا أطبقتها، ومن قال: طرقت، أو أطرقت فقد أخطأ» فهذه مطابقة بالمعنى اللغوي؛ لأنها في المحسوس.

وورد في كامل المبرِّد[2] قول الفرزدق:

والشَّيبُ يَنْهضُ في الشباب كأنَّه ... ليـلٌ يصيحُ بجانبيه نهـارُ

ولم يبين هذا الطباق. والمعنى أنه طابق بين الشيب والشباب، ثم بين: ليل ونهار.

-٢-

وأما المقابلة فهي: أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل[3].

ومن أمثلتها ماجاء في «الكامل»: قال رسول الله ﷺ للأنصار في كلام جري: «إنكم لتكثُرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع». والفزع في كلام العرب على وجهين:

أحدهما: ما تستعمله العامة تريد به: الذعر، والآخر: الاستنجاد والاستصراخ»[4].

---

(١) هو مولى عمر بن الخطاب.

(٢) الكامل: ١/ ٢٩، والبيت بديوان الفرزدق، المجلد الأول: ٣٧٢.

(٣) الإيضاح: ٤/ ١٣.

(٤) الكامل: ١/ ٣، وقد ورد الحديث الشريف في الصناعتين: ٢٧٠، ٣١٨، وإعجاز القرآن: ٨١، والإيضاح: ٤/ ٤.

ويقول: «وقال رجل للشّعبي كلاماً أقذع فيه؛ فقال الشّعبي: إن كُنت صداقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك»(١).

المقابلة في الحديث الشريف بين تكثرون، وتقِلون، وبين: عند الفزع، وعند الطمع، والمقام مقام خلاف بين الشّعبي وصاحبه فالمقابلة بين قوله: صادقاً، وكاذباً، وحرف اللام من: «لي» و «لك» بينهما تضاد؛ باعتبار متعلقهما، ومن ثم كانت المقابلة بين قوله: صادقاً وكاذباً، و «لي» و «لك».

* * *

(١) الكامل: ٢/ ٥، والصناعتين: ٣١٨.

مراعاة النظير

قال الخطيب[1]: وتسمى التناسب والائتلاف، والتوفيق أيضاً وهي: أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه، لا بالتضاد.

فالمعنى على التآلف والتوافق في النظم بغير التضاد، فلا يكون فيه تكلف، أو كلمة نافرة، أو شاذة، وكان القدماء يدركون هذا بسليقتهم ويراعونه في كلامهم، ولذا أثنى العلماء على من راعى التناسب في كلامه، كما وجهوا سهام النقد لمن لم تسعفه موهبته بمراعاته؛ فجاء كلامه مفككاً، متنافراً، لا تلاؤم بين أجزائه ولا تناسب. ومن أمثلته ما جاء في الكامل:

«وحدثت أنَّ الكُميت بن زيد أنشد نُصيباً، فاستمع له، فكان فيما أنشده:

وقد رأينا بها حُوراً منعَّمةً   بيضاً تكامل فيها الدَّلُّ والشنبُ

فثنى «نُصيب» خنصره، فقال له «الكميت»: ما تصنع؟ فقال: أحْصى خطأك. تباعدت في قولك: «تكامل فيها الدل والشنب».

قال أبو العباس: والذي عابه نصيب من قوله:

«تكامل فيه الدل والشنب»

قبيح جداً. وذلك أن الكلام لم يجر على نظم، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يُشاكلها، وأول ما يحتاج إليه القول: أن ينظم على نسق، وأن يوضع على رسم المُشاكلة[2].

فالكُيمت جمع بين شيئين متباعدين، وهما الدَّل وهو الشكل والحلاوة وحسن الهيئة، والشنب وهو: برَد الأسنان، وتطرق عليه بذلك بعض العيب[3]

---

(١) الإيضاح: ٤/ ١٦.

(٢) الكامل: ٢/ ١٦٠. الشنب عذوبة الأسنان ورقتها. والمراد بالمُشاكلة هنا: المعنى اللغوي من التناسب والتآلف بين أجزاء الكلام.

(٣) أمالي المرتضى ٢/ ٢٥٤- ٢٥٥.

وهو عدم التناسب بين الكلمتين في النظم.

ويرينا المبرد الفرق بين نوعين مختلفين من النظم، أحدهما روعى فيه التناسب، والثاني لم يراع فيه ذلك؛ فهو يتبع النص السابق بقوله:

«وخُبِّرْتُ أنَّ «عُمر بن لجأ» قال لابن عم له: أنا أشعر منك، قال له: وكيف؟ قال لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه، وأنشد عمرو بن بحر:

وشعرٍ كبعْرِ الكبْشِ فرَّق بينهُ ... لِسانُ دَعيٍّ في القريضِ دخيلُ

وبعر الكبش يقع متفرقاً»[1].

فقد عَدَّ شعر «عمر بن لجأ» مثلاً للنظم الجيد؛ لأنه متلائم، متناسب الكلم، كما عَدَّ شعر ابن عمه مثالا للنظم الردئ؛ إذ لا تناسب بين أجزائه، وأورد المبرِّد شاهداً للنوع الثاني البيت الذي أنشده «عمرو ابن بحر» فهو يصف شعراً مفكك الأجزاء ولذا شبهه ببعر الكبش، فهو يقع مفرقاً حيثما كان واتفق، وذلك أن قائل هذا الشعر ليس من أهله.

قال الجاحظ: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج؛ فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجرى الرهان... وقال سحيم بن حفص: قالت بنت الحطيئة للحطيئة: «تركتَ قوماً كِراماً، ونزلتَ في بني كلب بعر الكبش؛ فعاتبهم بتفرق بيتهم...»[2].

ويقول ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ): «ويتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت مقروناً بغير جاره،ومضموماً إلى غير لِفقه»[3] ثم روى قول «عمر بن لجأ» السابق.

---

(١) الكامل ٢/ ١٦٠، وانظر: البيان والتبيين: ١/ ٢٠٦.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٦٠.

(٣) الشعر والشعراء ١/ ٩٠.

ومن الأمثلة قول الفرزدق[١]:

أخذنا بآفاقِ السماء عليكمُ   لنا قمراها والنُّجومُ الطوالعُ

فقد أتبعه المبرد بقوله: « يريد الشمس والقمر؛ لأنهما قد اجتمعا في قولك: «النيّران»، وغلب الاسم المذكر، وإنما يؤثر للخفة.

قوله: «قمراها والنجوم» من تشابه الأطراف؛ لأنها أجرام سماوية متلألئة.

ومما يلحق بمراعاة النظير: إيهام التناسب.

وهو: أن يجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وإن لم يكونا مقصودين[٢].

وقد أورد أبو العباس قول عمر بن أبي ربيعة في «القتول»

ثم قالوا تحبها؟ قلت بهرًا   عدد النَّجم والحَصىَ والتُّراب

وبين المراد بالنجم بقوله: «**فيه قولان:**

أحدهما: أنه أراد بالنَّجم: النجوم، ووضع الواحد في موضع الجمع؛ لأنه للجنس.

والوجه الآخر: [٣] أن يكون ما نجم من النبت، وهو ما لم يقم على ساق. والشجر: ما يقوم على ساق، و «اليقطين»[٤]: ما انتشر على وجه الأرض[٥].

---

(١) الكامل ١/ ١٤٣.

(٢) المطول: ٤٢١، ومواهب الفتاح: ٤/ ٣٠٤ ضمن (شروح التلخيص).

(٣) هذا تفسير ثعلب في مجالسه: ٤١٩.

(٤) أورده تتمة للفائدة، لتكتمل الأنواع. واليقطين. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (الصافات:١٤٦).

(٥) وهو المفروش على الأرض كالقثاء، والبطيخ ونحوهما. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، المجلد الرابع: ١٥٣.

قال الله ﷻ: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[1].

فالنجم مناسب للشمس والقمرَ، لأنها كواكب سماوية.

أما على الرأي الثاني: وهو أنَّ النجم ما لم يُقم على ساق فلا مناسبة بينه وبين الشمس والقمر بهذا المعنى،ولكنه يناسبه إذا كان بمعنى الكوكب.

وسمى هذا: إيهام التناسب؛ لتخيل الوهم فيه المناسبة باعتبار ما يتبادر منه[2]. ففيه تناسب، أو إيهام التناسب بين هذه الكائنات. ولكن مناسبة بين هاتين الآيتين كان بسببها الوصل؟ إنه التضاد.

فمراعاة التناسب من أسباب حُسْن النظم وجودته، وبذلك تترابط المعاني وتتلاءم، وهو أمر دعا إليه علماء البلاغة وأرجعوا إليه الكثير من مزايا النظم وبلاغته.

وتبدو صلة هذا اللون البديعي بمباحث النظم، فمن لم يواته الطبع، أو تسعفه الملكة على صوغ الكلام المتناسب الأجزاء فإن المعاني تتأبى عليه. أما إذا قسرها في مواقعها فإنها تتجاور دون مؤاخاة؛ فيبدو الكلام مهمل النسج، مفكك التركيب، ومن ثم يتعرض صاحبه لسهام النقد.

الاستطراد

عرَّفه الخطيب بأنه: «الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به، لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني»[3].

وورد من أمثلته قول إسحاق الموصلي:

فما ذرَّ قرنُ الشمس حتى كأننا ‏ ‏ ‏ ‏ من العِيِّ نَحْكِي أحمدَ بنِ هشامِ[4]

---

(١) سورة الرحمن: ٥-٦.

(٢) انظر: مواهب الفتاح ٤/ ٣٠٤، ضمن (شروح التلخيص).

(٣) الإيضاح: ٤/ ٢٤.

(٤) الكامل: ٣/ ٥٢، وانظر الصناعتين: ٣١٦، والمعيار في نقد الأشعار: ١٧٤.

وصف إسحاق نفسه وصحبه بالتعب والعجز، ثم استطرد بذكر «أحمد بن هشام» فجعله على سبيل التشبيه أصلاً لما ذكر.

وقد أورده ابن المعتز[1](ت ٢٩٦هـ) شاهداً لحسن الخروج من معنى إلى معنى.

المشاكلة

وهي في اللغة: مطلق الموافقة والمماثلة.

وفي اصطلاح البلاغيين[2]: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً.

فمثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[3] فالأولى سيئة على الحقيقة، والثانية جزاء عليها، وعبر بلفظ «سيئة» لوقوعها في صحبة الأولى تحقيقاً.

وقد وردت المشاكلة بكلا المعنيين في كتاب «الكامل».

١ - فمن ورودها بالمعنى اللغوي ما جاء في قول المبرد:

- قال أبو العباس: «هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مُستحسنة، يحتاج إليها للتمثل؛ لأنها أشكل بالدهر»[4].

قوله: «أشكل» يعني: أشبه، وقال: «يقال: هذا أكبر من هذا، إذا شاكله في باب واحد»[5]. يعني: إذا شابهه وماثله.

---

(١) كتاب البديع: ٦٢.

(٢) انظر: الإيضاح: ٤/ ٢٢، والمطوّل: ٤٢٢، وعقود الجمان: ٢/ ١١٠.

(٣) سورة الشورى: الآية: ٤٠، ويجوز أن يكون ذلك من المجاز المرسل بعلاقة المسببية، لأن السيئة الثانية مسببة عن الأولى.

(٤) الكامل: ٢/ ٣.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٣٠٧، وانظر: ٢/ ٨٢.

٢- ووردت المشاكلة بمعناها البلاغي في قول المبرّد لبيت كعب ابن جعيل:

إذا رمونا رميناهم ودِنّاهم مثل ما يُقرضونا

فقد علق بقوله: «يقول: جزيناهم، وقال المفسرون في قوله ﷻ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[١]، قالوا: يوم الجزاء والحساب، ومن أمثال العرب: «كما تَدِينُ تُدانُ»[٢]. وأنشد أبو عبيدة[٣]:

واعلم وأيقِنْ أنَّ ملكك زائلٌ واعلمْ بأنَّ كما تَدِينُ تدانُ

عبّر الشاعر عن رمي الأعده لهم. أي الاعتداء عليهم – بالقرض؛ لأنه يُرد على المقرض، وهذا على سبيل الاستعارة العنادية التهكمية، لما بين طرفيها من التضاد، فالقرض خير ومنفعة، والرمي شر ومضرة. وقوله: «دناهم» هو المراد بقوله: «رميناهم».

وأما المثل: «كما تدين تُدان» فمعناه: كما تَفعل تُجازي[٤]، فقد عبر عن الجزاء بلفظ «تدان»؛ لوقوعه في صحبة «تَدين» على سبيل المشاكلة وهي هنا تحقيقية.

واستشهد الخطيب بهذا المثل في المجاز المرسل لعلاقة «المسببية» بمعنى تسمية السبب وهو الفعل باسم مسببه «تدين» فبعض الأمثلة دائرة بين المشاكلة، والمجاز المرسل.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية: ٤.

(٢) مجمع الأمثال للميداني: ٢/ ٤٣، وفسّره بقوله: «يعني كما تعمل تجازي، إن حسناً فحسن، وإن سيئاً فسيء...»، انظر: اللسان: (دين).

(٣) من قوله: «وقال المفسرون... »إلخ من أبي عبيدة في مجاز القرآن: ١/ ٢٣، والمبرّد يقصد بالمفسرين: علماء اللغة.

(٤) انظر الإيضاح: ٣/ ٩٧، وحاشية السيد الشريف الجرجاني عن تفسير الكشاف: ١/ ٥٧.

الإرصاد أو التسهيم

وهو أن[1] يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى كقوله تعالي: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

وسماه قدامة التوشيح، وتابعه في هذه التسمية كل من أبي هلال وابن أبي الإصبع وابن حجة الحموي.

واختار ابن رشيق[3] تسميته: «التسهيم» وقال: «قيل: إن الذي سماه تسهيماً علي بن هارون المنجِّم، وأما ابن وكيع فسماه «المطمع».

ومن أمثلة الإرصاد ما رواه المبرد[4] في «باب التشبيه»:

«ويروى أن جريراً دخل على الوليد وابن الرِّقاع العامِلي عنده ينشده القصيدة التي يقول فيها:

غلبَ المسامِيحَ الوليدُ سماحةً وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادَها

قال جرير: فقلت في نفسي: وقع والله، ما يقدر أن يقول، أو يشبه به، قال: فقال:

«قلمٌ أصابَ من الدَّواةِ مِدادَها»

قال: فما قدرت حسداً له أن أقيم حتى انصرفت».

هذا ما قاله المبرد.

وورد في بعض الروايات ما يدل على أن جريراً عندما سمع أول هذا الرجز

---

(١) الإيضاح: ٤/ ٢١.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٠.

(٣) انظر: نقد الشعر: ١٦٧، والصناعتين: ٣٩٧، وتحرير التحبير: ٢٢٨، وخزانة الأدب: ١\٢٢٢، والعمدة: ٢ \ ٣٠.

(٤) الكامل: ٣/ ٤١.

فطن إلى آخره، فأنشده كما قال «عدي»[1]. وهو من نوادر الخواطر، فهو ينبئ عن الفطنة والترقب لسير النظم وائتلافه، فكأن خاطر السامع يجيش في فكر القائل.

التورية

وتسمى الإيهام والتخييل والتوجيه، وهي في اللغة[2]: مصدر ورّى الشيء إذا ستره وأخفاه، كالمواراة، يقال: ورّيتُ الشيء وواريته.

وفي الاصطلاح: أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ويراد البعيد: بدلالة قرينة ترشد إلى هذا المعنى، فعناصر التورية ثلاثة[3].

الأول: لفظ له معنيان.

الثاني: معنى قريب، ويسمى: المورّى به.

الثالث: معنى بعيد، ويسمي المورّي عنه وهو المقصود. فالقرينة تدل على المعنى البعيد وهي إما لفظية أو حالية.

والتورية قسمان:

الأولى: مجردة: وهي التي لا تجامع شيئاً مما يلائم المُوَرَّى به[4]. أعني المعنى القريب.

فمن أمثلتها[5] قول أبي بكر ﷺ وقد سئل عن النبي ﷺ وهو في طريق الهجرة؛ فقال: «هادٍ يهديني السبيل». أراد الصّديق: أن محمداً ﷺ هادياً يهديه إلى الإسلام، وورّى عنه بقوله: «هادٍ يهديني السبيل». أي يدلني عليه.

---

(١) انظر: العمدة: ٢/ ٢٣، وتحرير التحبير: ٢٢٩..

(٢) انظر: بديع القرآن: ١٠٢، وشروح التلخيص: ٢/ ٣٢٢.

(٣) انظر: ألوان من البديع: ٩٨.

(٤) الإيضاح ٤/ ٢٩.

(٥) انظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد: ٨٧، وفي البلاغة العربية رؤية جديدة: ٧٧.

فالمعنى القريب للفظ «سبيل» الطريق، وهو غير مراد، والمعنى البعيد: المراد هو الإسلام، قال الله – تعالى-: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1].

والثانية: مرشحة: وهي التي قرن بها ما يلائم المعنى البعيد الموري به. ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[2]. التورية في لفظ «يد».

فالمعنى البعيد الخفي هو الذّل والاستكانة، وهو المراد.

وقد ورد في «الكامل» أمثلة للتورية، وبعض التعليقات عليها، ولكن المبرد خلط بين أمثلتها، وأمثلة الكناية والسبب أن كليهما يعتمد على الإخفاء والستر. فقد أورد شعراً لعمر بن أبي ربيعة بدأه بقوله[3]:

ليتَ شعري هل أقولنْ لـركبٍ بفـلاةٍ هُمْ لـديها هجوعُ
طـالمـا عرَّستُـمُ فاستقِليـــــوا حانَ من نجمِ الثّريّا طلوُعُ

ثم قال: قوله: «حانَ من نجم الثريا طلوع»

كناية، وإنما يريد: «الثريا» بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وهم العَبَلات[4]. وكانت «الثريا»[5] موصوفة بالجمال، وتزوجها سهيل بن

---

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٨.

(٢) سورة التوبة الآية: ٢٩.

(٣) الكامل: ٢/ ٢٣٤، ديوان الشاعر: ٢٤٧.

(٤) عبلة. قال الجوهري: اسم جارية، والعَبَلات بالتحريك: بطن من بني أمية الصغرى من قريش نسبوا إلى أمهم: عبْلة، إحدى نساء بني تميم، حركوا ثانية. اللسان (عبل).

(٥) الثريا: من الكواكب، سُميت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مرآتها. وقد عُرف بها ص٢٢٥. وأريد بها هنا امرأة. قال المرتضى في أماليه ١/ ٣٤٨: «اختلفا في نسبها، فقيل: إنها الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية، وقيل: هي بنت عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحارث بن أمية.

عبدالرحمن بن عوف الزهري، فنقلها إلى مصر، فقال عمر[1] يضرب لهما المثل بالكوكبين:

أيها المنكِحُ الثريا سُهيْلا عمْرك اللهُ كيف يَلتقيانِ

هي شاميةٌ إذا ما استقلَّتْ وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِي[2]

التورية في لفظي: «الثريا» و «سهيل» الكوكبان المشهوران وقد ورّى بهما عن الزوجين: «الثريا بنت علي» و «سهيل بن عبد الرحمن» وهذا يوهم أن الشاعر يريد النجمين المشهورين وذلك أن «الثريّا» من منازل القمر الشامية، وسهيلاً من النجوم اليمانية وهو يريد: صاحبه «الثريا».

وفائدة التورية أنَّ الشاعر يستطيع معها الإنكار متى أراد[3]. والتورية مجردة، حيث لم تقترن بما يلائم المعنى القريب، وقد قرنت بما يلائم المعنى البعيد، وهو «المنكح» فهو ليس من صفات الكواكب.

وجعلها بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) مرشحة؛ لأن كلاً من «الثريا» و«سهيل» رشح صاحبه للتورية؛ .... فقال عمر يضرب لهما المثل بالكوكبين. «الثريا» على إيهام القصد بالثريا إلى المنزلة المشهورة؛ لكون أحدهما شمالياً[4]، والآخر جنوبيا. وقال السيوطي بهذا في كتابه: عقود الجُمان في المعاني والبيان[5].

وجاء في «الكامل» قول الشاعر[6]:

---

(١) الكامل: ٢/ ٢٣٤- ٢٣٥.

(٢) ديوانه: ٢/ ٢١٥، وتحرير التحبير ٢٦٨، ٢٧٢.

(٣) انظر: تحرير التحبير: ٢٦٨، وألوان من البديع: ١٠٥، وعلم البديع رؤية جديدة: ٢٢٨.

(٤) انظر: المصباح في المعاني والبيان والبديع: ٢٦٢.

(٥) ص: ١١٥.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ٨.

لو أنَّ قصركَ يا ابن يُوسفَ كلُّه إبرٌ يضيقُ بها فنـاءُ المنـــزلِ
وأتاكَ يُـوسـفُ يستعيركَ إبـرةً ليخيطَ قدَّ قميصهِ لـم تفعلِ

ولم يُعلق المبرد بشيء.

والبيتان لابن الرومي في هجاء بخيل يدعى «ابن يوسف» وفيهما التورية، والمبالغة في الهجاء، حيث بالغ الشاعر في وصف مهجوه بالبخل، فلو كان يمتلك إبراً يضيق بها بيته، وجاء أبوه «يوسف» يستعيره إبرة واحدة ما أعطى إياه الإبرة، ومن كان هذا شأنه فهو غارق في البخل، فالشاعر يورى بقميص يوسف للقدود[1].

فقولـه «قدَّ قميصِه» يلائم المعنى القريب الذي ورّى به عن المعنى البعيد الذي أراده، وهو ذم «ابن يوسف» المهجو، والمعاصر له، ولذا كانت التورية مرشحة.

وقال أبو العباس[2]: وقيل للممسك عن الطعام: صائم لثباته على ذلك، ويقال: صام النهارُ: إذا قامت الشمس. قال النابغة:

خيلٌ صِيَامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحت العجاجِ وأُخرى تعلُك اللُّجُما

يقول ابن حجة: «أراد بالصيام ههنا: القيام، ووَرَّى بقوله: «تعلك اللُّجَما» عن الصيام[3].

فبلاغة التورية تعتمد على الإيهام والتعمية، وهذا يستدعى طول التأمل للوصول إلى المعنى المراد، وجدير بمن ينطق بالتورية أن يبتعد عن التكلُّف

---

(١) من قضايا البلاغة والنقد: ١٣٦، وانظر: الصيغ البديعي في اللغة العربية: ٤٨٤، والقدوُد: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ سورة يوسف: ٢٥.

(٢) الكامل ٣/ ٨٩.

(٣) خزانة الأدب ٢/ ٤٢، وانظر، البديع في نقد الشعر ٦٠.

والصنعة، وإلاّ صارت تعمية للمعنى، لا محسّناً بديعياً.

ويقول أبو العباس آخر كتاب «الكامل»:

«ونذكر آيات من القرآن الكريم ربما غلط في مجازها النحويون». ومما قاله[1]:

«وفي القرآن في مخاطبة فرعون: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ فليس معنى «ننجيك» نخلصك، لكن نلقيك على نجوة من الأرض «ببدنك»: بدرعك، يدل على ذلك «لتكون لمن خلفك آية».

هذا القول الكريم من الآيات التي تبين نهاية فرعون وجنوده وما حَلَّ بهم من الغرق، وأنّ فرعون ما كان لينفعه النطق بالتوحيد، وقد نزل بهم البأس، قال تعالى:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[2].

في قوله تعالى: «ننجيك» و «ببدنك» تأويلات كثيرة، وسنبين ذلك.

أولاً: قوله تعالى: «ننجيك»:

المراد بالنجاة: نجاة الجسد فقط، أي يخرج جسد فرعون بعد الغرق سليماً؛ ليراه بنو إسرائيل، فيطمئنوا على هلاكه، وليكون عبرة لمن يأتي بعد من الأمم.

يقول ابن كثير: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي: نرفعك على نشزٍ من الأرض»[3].

---

(١) الكامل: ٤/ ١٢٧، ١٢٨.

(٢) سورة يونس: ٩٠-٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع: ٢٢٨، وانظر: جامع البيان من تأويل آي القرآن: ١١/ ١٦٤، والكشاف: ٢/ ٢٥١.

وفسَّر القرطبي «ننجيك» بأنه احتمل معنيين:

أحدهما: نلقيك على نجوة من الأرض.

والثاني: نُظهر جسدك الذي لا روح فيه[1].

وقال ابن جرير: قال بعضهم[2]: إنَّ التعبير بالتنجية تهكم به، وإنَّ الحكمة بذكر البدن: أنَّه يخرج جسده سالماً، ليعرف.

فالمفسرون على أن المراد بنجاة فرعون: خروج جسده بعد الغرق سليمًا؛ لتحقق العبرة والعظة.

قال: «وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي: نجعلك فوق نجوة من الأرض، فنظهرك، أو نلقيك عليها لِتعرف؛ لأنه قال: «ببدنك» ولم يقل: بروحك.

وقال الزجاج[3]: معناه نلقيك عرياناً لتكون لمن خلفك عبرة.

[وقال] أبو زيد: والنجوة: المكان المرتفع التي تظن أنه نجاؤك»[4].

ثانياً: قوله تعالى: «ببدنك»:

واختلف في المراد بقوله: «بدن» كما اختلف في معنى الباء في «ببدنك».

فابن كثير يقول: «ببدنك»، قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لاروح فيه...» وقال أبو صخر: بدرعك»... وقيل: «ببدنك»: بجسدٍ لا روح فيه.

وقد هون القرطبي من تفسير البدن بالدرع[5].

---

(١) الجامع الأحكام القرآن: ٨/ ٣٨٠.

(٢) انظر، تفسير أبي السعود: ٤/ ١٩٤.

(٣) نقله من معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٣٢.

(٤) اللسان: (نجا).

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٧٩، ٣٨٠.

وفي تفسير المنار[1]: «..وقيل: إنّ المراد بالبدن: الدرّع، فهو من أسمائها في اللغة».

ويقول الزمخشري: «ببدنك» في موضع الحال؛ أي في الحالة التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببدنك سوياً لم ينقص، أو بدرعك... وكانت له درع من ذهب، يعرف بها»[2].

فالبدن على هذا حقيقة، وهو من المشترك اللفظي في كل من الجسد، والدرع، ولهذا التفسير ما يؤيده من اللغة.

ويرى بعض العلماء أن كلمة «بدن» في الآية يُفاد منها مسائل لها دلالاتها وأسرارها البلاغية.

١ - فابن أبي الإصبع المصري جعل هذه الآية من شواهد التورية فقال:

ومن ذلك أيضاً قوله ﷻ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ على رأي من رأى أنّ البدن هنا: الدّرع؛ فإنّ البدن يطلق على الجسد، وعلى الدرع، وهو بهذا التفسير في الظاهر قد استعمله بمعنى الجسم، وأهمل معنى الدرع، ومراده ما أهمل، لا معنى ما استعمل؛ فإنّ نجاة فرعون بعد الغرق بدرعه أعجب آية من خروجه مجرداً»[3].

فالباء على هذا في قوله: «ببدنك للمصاحبة:

قال الخفاجي: «أو المراد بالبدن: الدرع، والباء للمصاحبة كما في: دخل عليه بثياب السفر»[4]. ولكنه لم يقل بالتورية.

٢- ويرى الشيخ ابن عاشور أنّ كلمة «بدن» احتراس[5]. قال:

---

(١) ج ١١: ص ٤٧٧.

(٢) الكشاف: ٢/ ٢٥١.

(٣) بديع القرآن: ١٠٢.

(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير القاضي البيضاوي: ٥/ ٥٨.

(٥) الاحتراس أو التكميل هو: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، ومن أمثلته قول ابن المعتز في الخيل:

«البدن: الجسم بدون روح، وهذا احتراس من أن يظن المراد: الإنجاء من الغرق، والمعنى ننجيك وأنت جسم»؛ ولذا فإنّه جعل الباء في «ببدنك» مزيدة للتأكيد، ويكون مدخولاً بدلاً مطابقاً من الكاف في «ننجيك» وعلل هذا بقوله: «إن كل زيادة في كلام البليغ يقصد منها معنى زائداً»[1].

٣- وأما الشهاب الخفاجي فقد نقل تفسير القاضي لقوله تعالى: «ببدنك» وهو: «في موضع الحال، أي ببدنك عارياً عن الروح إلخ»[2]. ثم علّق بقوله:

«وهو مبنى علي التجريد، وجوز أن يكون بدل بعض، والباء زائدة فيه، ولوحظ فيه: التخصص بالذكر؛ ليكون عارياً. إمّا عن الروح أو اللباس، أو كونه تامًا، وجُعل حالاً بهذين الاعتبارين فليس تأكيداً مثل: تكلم بفيه كما قاله أبو حيان»[3].

فالتجريد الذي عناه الخفاجي تجريد لغوي، لا بلاغي. وهو: «التعرية من الثياب» أو التعرية عن الروح، وهذا أيضا يناسب جعله «ببدنك» بدل بعض، أي من الكاف من: «ننجيك» فالإنسان جسد وروح.

والخلاصة:

أنه إذا فُسر لفظ «بدن» بالدّرع كان حقيقة لغوية، وجعله ابن أبي الإصبع من التورية. وعلى رأيه تكون الباء في قوله تعالي «ببدنك» للمصاحبة.

= صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجل

فاحترس بقوله: «ظالمين» دفعاً لمن يظن أنها بطيئة وتستحق ذلك. انظر الإيضاح: ٢/ ١٤٢.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١١/ ١٧٨.

(٢) تتمة عبارته: «... عن الروح، أو كاملاً سويا، أو عرياناً من غير لباس وهي عبارة الزمخشري بتصرف، انظر الكشاف ٢/ ٢٥١.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٥/ ٥٨ وعبارة أبي حيان في البحر المحيط: ٥/ ١٨٩، و «ببدنك» إذا عني به الجثة تأكيد كما تقول: قال فلان بلسانه، وجاء بنفسه، إذا عنى به الجثة.

وجعله الشيخ ابن عاشور من الاحتراس البلاغي، وهو عند الشهاب الخفاجي من التجريد بمعناه اللغوي، وعلى هذين تكون الباء في «ببدنك» زائدة.

وأقول إنّ كلاً منهم قد وجه لرأيه توجيهاً مناسباً، وبهذه التوجيهات تتضح الآراء، وهي بالتالي تثري الدرس البلاغي.

الجمع

وهو[1] أن يجمع بين شئين أو أشياء في حكم واحد، كقوله تعالي: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

وقد ورد فى «الكامل»[3]: الحديث الشريف: «مَنْ أصبحَ منكم معافىً في جسده، آمناً في سربه، عندهُ قوتُ يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[4].

فقد بيّن الرسول ﷺ «في إيجاز مفهوم السعادة، وجمع بين هذه الثلاثة في شئ واحد، تطمح له الأنظار، وهو حيازة الدنيا بحذافيرها، وتلك سعادة نفسية، وراحة جسدية.

اللف والنشر

وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقةً بأنّ السامع يرده إليه، فقوله «ثم ما لكل واحد» إلخ هو المراد بالنشر، و «من غير تعيين» يخرج التقسيم.

---

(١) الإيضاح: ٤/ ٣٦.

(٢) سورة الكهف: الآية: ٤٦.

(٣) ج١: ص ١٥٨.

(٤) رواه ابن ماجة في سننه: ٢/ ١٣٧٧ بهذا السند« حدثنا زيد بن سعيد ومجاهد بن موسى قالا: ثنا مروان بن معاوية ثنا عبد الرحمن بن أبي شميلة عن سلمة بن عبيد بمحصن الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم معافي...» ورواية المبرّد بها خلاف يسير. وقد أثبتُ رواية ابن ماجة هنا عملاً بمبادئ التحقيق تجاه الحديث الشريف.

واللف ضربان: إما على جهة التفصيل أو الإجمال[1]، هذا هو المراد بهذا المحسن عند علماء البلاغة.

أما محمد بن يزيد فقد بيّنه بالمثال والتوضيح في موضعين:

١ - ففي أول «باب التشبيه»[2]، يذكر استحسان الرواة بيت امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ رطباً ويابساً   لدَى وكرِها العنَّابُ والحشفُ البالي

لأن فيه تشبيهاً - كما سبق - وفي البيت كذلك اللف والنشر المرتب؛ فقوله «العناب» يرجع إلى: «رطبا» وقوله: «الحشف البالي» يرجع إلى «يابسا» وهما بيان لما ذكر أولاً. فالنشر على ترتيب اللف.

ويُدلِّل أبو العباس على مزية الاختصار، فيتبع ما سبق بقوله ﷻ: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[3] علماً بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون، ووقت الاكتساب». فاللف والنشر يعتمد على قرينة حالية، وهي: «علم المخاطبين».

٢ - وعقد بابا[4] لذكر بعض أقوال الحكماء جاء فيه:

«وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. ما أحسن الحسنات في آثار السيئات! وأقبح السيئات في آثار الحسنات! وأقبح من هذا، وأحسن من ذاك: السيئات في آثار السيئات، والحسنات في آثار الحسنات.

والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرها جملة ثقة [بأن] السامع يرد إلى كل خبره» وقال ﷻ: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ

---

(١) انظر: الإيضاح: ٤/ ٣٤، والمطول: ٤٢٦.

(٢) الكامل: ٣/ ٣٢.

(٣) سورة القصص: الآية: ٧٣

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٢٨

﴿ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1].

في قول عبيد الله تعجب ومفاضلة بين الحسن والقبح في الجمع بين الحسنات والسيئات، أو انفراد أحدهما بالفعل، وقد أورد هذا الخبر بطريق اللف والنشر على جهة التفصيل، ولكن النشر ورد على غير ترتيب اللف.

فقد لفّ أولاً بقوله: «ما أحسن الحسنات في آثار السيئات، وأقبح السيئات في آثار الحسنات» ثم أتبع بالنشر، ففسر الثاني في اللف بالأول في النشر، والعكس؛ فقوله: «وأقبح من ذا...» يعود على ما ذكر قبله، وقوله: «وأحسن من ذاك...» يعود على قوله: «ما أحسن الحسنات في آثار السيئات».

وأما الآية الكريمة فإن النشر فيها على ترتيب اللف. وقد أشار إلى هذا أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) بقوله: «مجازه: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا في النهار من فضل الله»[2]. وقد كان المبرد ذا بصيرة في تحديد هذا اللون البديعي، وعنه أخذ العلماء هذا اللون البلاغي وإن لم يشيروا إليه.

يقول باحث معاصر: «وفي ظني أن المبرد (ت ٢٨٥هـ) كان أول من تحدث عن اللف والنشر، بل إنني لا أتجاوز الحق إذا قلت، إن المتأخرين لم يضيفوا إلى ما ذكره المبرد شيئاً مذكوراً»[3]. وقلت: إن أبا عبيدة أشار إلى اللف والنشر ببيان المراد في الآية الكريمة.

ويقول: «ومن يقارن بين ما قاله المبرد، وما ذكره الخطيب يرى أن المبرد كان أكثر إيضاحاً من الخطيب كما هو ظاهر في تعليق كل منهما على الآية»[4].

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٣

(٢) مجاز القرآن: ٢/ ١١٠

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٣٣٦.

(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢١٨.

التقسيم

عرفه أبو هلال بقوله: «أن تقسم الكلام قسمة مستوية»، تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه»[1].

وقال الخطيب: هو ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين»[2].

ولم يذكر المبرد[3]: هذا اللون البلاغي، ولكن ورد في «الكامل» أن رسول الله ﷺ قال: «يقولُ ابن آدم، مالِي مالي، وهل لكَ من مالِكَ إلا ما أكلْت فأمضيْت، أو أكلْتَ فأفنيْت، أو لبسْت فأبليت»[4]. فقد استوفى الرسول ﷺ بأوجز عبارة، وبأسلوب القصر وجوه إنفاق المال التي تعود على ابن آدم بالنفع في الدنيا والآخرة.

وضرب ﷺ الإنفاق في المأكل والملبس مثلاً لوجوه المنافع الطيبة في الدنيا.

وذكر المبرد أن أعرابياً وقف على حلقة الحسن؛ فقال: رحم الله من تصدق من فضلٍ أو آسى من كَفاف أو آثر من قوتٍ. فقال الحسن ما ترك لأحدٍ عذراً[5]. وقد أتبع أبو هلال (ت ٣٩٥هـ) هذا الخبر بقوله: «فانصرف الأعرابي بخير كثير، وهذا يدل على حسن بديهة الأعرابي وفصاحته، فقد استوفى أصناف الناس بهذه الكلمات.

---

(١) الصناعتين: ٣٥٠.

(٢) الإيضاح: ٤/ ٣٨.

(٣) الكامل: ١/ ٣٧٧.

(٤) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا برقم: ٢٤٤٥ بسند: حدثنا محمود بن غيلان، أخبرنا وهب بن جرير أخبرنا شعبة عن قتادة عن مطرف عن أبيه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقول: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال: «يقول ابن آدم...»، ورواه أيضاً في ج ٥، برقم: ٣٣٥٤. وهو في مسند أحمد: ٤/ ٢٤ برواية: «... ومالكَ من مالِك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيْت، وبرواية أخرى ص: ٢٦

(٥) الكامل: ١/ ٣٧٧، وانظر: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. ٢٧٧، وتحرير التحبير: ١٧٦، وخزانة الأدب لابن حجة: ٢/ ٧

التجـريـد

التجريد: تفعيل من جرَّد، ويدور معناه حول النزع، وأخذ شيء من شيء[1].

فهو: إزالة الشيء عن غيره في الاتصال؛ فيقال جردت السيفَ عن غمده، وجردت الرجل عن ثيابه إذا أزلتهما عنهما»[2].

وهو عند البلاغيين: أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها فيه، ففي التعريف ثلاثة أشياء.

١ – المجرد منه: وهو الشيء الذي انتزع منه أمر آخر.

٢ – المجرد: وهو الشيء الذي انتزع مما قبله.

٣ – الصفة: وهي التي يراد بيانها، والمبالغة فيها.

فإذا قيل: لئن سألت محمداً لتسألن به البحر... فالمجرد منه: محمد،والمجرد: البحر، والصفة: الكرم.

وأقسام التجريد كثيرة، ولكنا نشير إلى أهمها[3]:

١ – «من» التجريدية نحو: لي من فلان صديق حميم.

٢ – «باء» التجريد الداخلة على المنتزع منه مثل: لئن سألت محمداً لتسألن به البحر.

أو الداخلة على المنتزع كما في قول الشاعر:

وشوهاءَ تعدُو بي إلى صارخِ الوغَي ... بمستلْمِ مثل الفَنِيقِ المرحَّلِ

٣ – أو بمخاطبة الإنسان نفسه: كقولك تحدث نفسك: لو ذهبت مع فلان. لو كنت فعلت كذا.

وفي كامل المبرد أمثلة للتجريد وتحليل لها بما يتفق مع هذا المفهوم البلاغي،

---

(١) لسان العرب (جرد).

(٢) الطراز: ٣/ ٧٣.

(٣) انظر: الإيضاح: ٤/ ٤٤، وعروس الأفراح: ٤/ ٣٥٧، وعقود الجمان: ٢/ ١١٢

وإن كان لم يسمه، ولكن سماه من جاء بعده، وذلك على هدى من تحليل المبرد لأمثلته، وأول من عقد له باباً مستقلاً هو ابن جني (ت ٣٩٢هـ) عندما رأى أبا عليٍّ (ت ٣٧٧هـ) به «غريًا» معنياً، ولم يفرد له باباً، لكنه وسمه في بعض ألفاظه بهذه السمة»[١]؛ فأبو على اقتصر على دراسة الأمثلة، وتحديد المصطلح، وفي هذا يقول ابن أبي الحديد[٢](ت ٦٥٦هـ):

«فأبـو على – رحمه الله– سماه تجريداً»[٣].

وأما المبرد فقد روى في «الكامل» شعراً لقتّال الكلابي، ومنه قوله:

لا أرْضَعُ الدهر إلا ثدْي واضحةٍ ... لِواضحِ الخَدِّ يَحْمِي حَوْزَةَ الجارِ

وقال في بيانه:

«قوله: «لا أرْضَعُ الدهر إلا ثدي واضحةٍ»

يقول: إنما تُرضِعُني أُمي، وليست غير كريمة، كما قال الأعشى[٤]:

يا خَيرَ مَنْ يركبُ المطيَّ ولاَ ... يشربُ كأسًا بكفِّ منْ بَخِيلاَ

يقول: إنما تشرب بكفك، وليس ببخيل...»، وقوله: واضحة أي خالصة في نسبها، وليست بأمة»[٥].

قولـه: «وليست غير كريمة» يفيد أن أمه كريمة؛ لأن نفي النفي إثبات، فقد

---

(١) الخصائص: ٢/ ٤٧٣.

(٢) هو عز الدين بن عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المعتزلي الشيعي الفقيه الشاعر، (٥٨٦– ٦٥٦هـ) كان من أفاضل العلماء، وعمل في الدواوين السلطانية، ونجا هو وأخوه: موفق الدين من قتل المغول، له كثير من المصنفات منها: شرح نهج البلاغة، وشرح المحصل للإمام فخر الدين، والفلك الدائر على المثل السائر، إلى غير ذلك من المصنفات.

(٣) الفلك الدائر: مطبوع مع «المثل السائر»: ٤/ ٢١٩.

(٤) ديوانه: ٣٥.

(٥) الكامل: ١/ ٥٤– ٥٦.

جرد الشاعر بطريق اللزوم أُما كريمة ترضعه، وهذه ليست سوى أمه، واستشهد على ذلك ببيت الأعشى.

قال الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ): والحاصل أن الشاعر قد جرد كريماً آخر من المخاطب، وكنى عن شربه بكفه المستلزم له بنفي الشرب بكف البخيل، ولا منافاة...»[١]. فالتجريد هنا بطريق الكناية، ولا منافاة بينهما.

ويبدو أن التجريد يفاد أولاً ثم الكناية؛ لأنها من المعاني الثانوية. يقول السيوطي: (ت ٩١١هـ): «لما نفى الشرب بكف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف كريم، ومعلوم أنه يشرب بكف نفسه؛ فهو إذن ذلك الكريم وهذا أدق أمثلة التجريد»[٢].

وتحليل ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) للبيت يدل على هذا المحسن البديعي وإن كان لم يسمه، فقد بين المراد بقوله: «يريد أن كل شارب يشرب بكفه، وهذا ليس ببخيل، فيشرب بكف من بخل، وهو معنى لطيف»[٣].

وفي نفس المقطوعة يقول الشاعر:

يـا ليتني والمُنى ليست بنافِعة ... لِمـالكٍ أو لحصنٍ أو لِسيَّـارِ

طِوالُ أنضيةِ الأعناق لم يجِدُوا ... ريح الإمـاءِ إذا راحت بإزفارِ

يقول المبرد: «قولـه: «بأزفار» فالزُّفر: الجمل، يضرب مثلاً للرجل، فيقال إنه لزُفر. أي: حمَّال للأثقال...». قال أبو قحافة أعشى باهلة:

أخو رغائب يُعطيها ويسألها ... يأبى الظُّلامة منهُ النَّوفل الزفر

وإنما يريده بعينه، كقولك:لئن لقيت فلاناً ليلْقينَّك منه الأسد، وقوله

---

(١) حاشية الدسوقي: ٤/ ٣٥٥، ضمن (شروح التلخيص)، وانظر: المطول: ٤٣٣.

(٢) عقود الجمان: ٢/ ١٢.

(٣) الشعر والشعراء: ١/ ٦٩.

«النوفل» من قوله: إنه لذو فضلٍ ونوافل»(١).

فقد ورد التجريد في بيت الأعشى، وفي المثال الذي بعده على سبيل الاستطراد لبيان معنى «زفر» في بيت «قتال» السابق.

فالأعشى جرد من المرثى سيداً آخر، حمّالاً للأثقال، كما قال أبو العباس، والتجريد بالأداة «من» الداخلة على المنتزع منه، وهي تفيد الابتداء؛ لأن المنتزع منه مبدؤه ونشأته من المنتزع منه الذي هو مدخول «مِن»»(٢).

قال الشيخ عبد القاهر: «المعنى على أنه النّوفل الزفر، وليس النوفلُ الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد، فيقال: إنه شبه الممدوح به، وإنما هو صفة كقولك: هو الشجاع، وهو السيد، وهو النّهاض بأعباء السيادة»(٣).

وقوله «لئن لقيت فلاناً ليلقينك منه الأسد» ادعى أن فلاناً أسدٌ على الحقيقة أولاً، ثم جرد منه أسداً آخر على المبالغة، وهو يوهم أن الممدوح أسدٌ على الحقيقة، وأداة التجريد «مِن» كذلك(٤).

٣- ومن أمثلته ماجاء في قول المبرد(٥):

«وشهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال له معاوية: كذبت؛ فقال الأعرابي: الكاذبُ متزمل في ثيابك، فقال معاوية: هذا جزاء من عجل.

في قول الأعرابي: «الكاذب متزمل في ثيابك» كل من الكناية والتجريد، حيث تلطف في وصف «معاوية» بالكذب دون أن يصرح.

---

(١) الكامل: ١/ ٥٤- ٥٧.

(٢) مواهب الفتاح: ٤/ ٣٤٩، وانظر: حاشية الدسوقي: ٤/ ٣٤٩، ومختارات ابن الشجري: ٢١، والأصمعيات: ٩٠.

(٣) أسرار البلاغة: ٢/ ١٩٦.

(٤) انظر: الخصائص: ٢/ ١٧٤، والإيضاح: ٤/ ٤٤.

(٥) الكامل: ٢/ ٢١١.

وذلك أنه جرّد من معاوية شخصاً آخر متزملاً في ثيابه، ولما كانت الثياب لا يحل فيها إلا صاحبها كان هذا وصفاً لمعاوية بالكذب بالتجريد الذي طريقه «الكناية» عن النسبة[1]. فهو في هذا على حد قول الأعشى السابق.

وتبدو مهارة الأعرابي، وذكاؤه في هذا الرد؛ فقد أصاب غرضه دون أن تثبت عليه تهمة، ففي استطاعته أن يتبرأ من التبعة؛ فيقول إنه عنى شخصاً آخر غير معاوية.

وتبدو هذه الفائدة فيما ذكره ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) **من فائدتي التجريد**. قال[2]:

«وقد تأملته فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى.

فالأولى: طلب التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهره خطابًا لغيرك، وباطنه خطاباً لنفسك؛ فإن ذلك من باب التوسع، وأظن أنه شئ أختصت به اللغة العربية، دون غيرها من اللغات.

والفائدة الثانية: وهي الأبلغ وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه؛ إذ يكون مخاطباً بها غيره؛ ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه.

تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهو ضربان[3]:

أفضلهما: أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقول النابغة[4]:

---

(١) وهي أن يصرح بالموصوف، وبالصفة، ويقصد إثباتها لشئ الكناية عن إثباتها للموصوف بها.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢/ ١٦٣.

(٣) الإيضاح: ٤/ ٥٨، والمطول: ٤٣٩.

(٤) ديوانه: ٤٤، فلول: تكسر وتثلم. واحده: فل.

ولا عيبَ فِيهم غيرَ أن سيوفهُم بهنَّ فلول مِن قِراعِ الكتائبِ

والثاني: أن يثبت لشيء صفة مدح، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى، كقول النبي ﷺ: «أنا أفصحُ العرب بيْد أنيّ من قريش»[1].

وقد ورد قول النابغة في موضعين من «الكامل»:

أولهما: أن المبرد يقول في بيت لبيد:

مُدْمِنٌ يجلوُ بأطرافِ الذُّرَا دنسَ الأسْؤُقِ عن عضْبٍ أفل

.... وجعله «أفل» لكثرة ما يقارع به الحروب، كما قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سُيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتَائبِ

وثانيهما: في قوله[2]:

«ويروى أن عروة بن الزبير سأل عبد الملك أن يرد عليه سيف أخيه عبد الله ابن الزبير، فأخرجه إليه في سيوف منتضاة، فأخذه عروة من بينها، فقال له عبد الملك: بم عرفته؟ فقال: بما قال النابغة: «البيت».

فقد نفى الشاعر عنهم أولاً جميع العيوب ثم أتى بأداة استثناء «غير» وهي توهم السامع أن الشاعر سيذكر عيباً، ولكنه أثبت بعدها صفة مدح، وهي تثلم سيفهم من كثرة مضاربتهم الجيوش، فكان هذا تأكيداً للمدح بما يشبه الذم؛ لأن المستثنى من أدلة الشجاعة والحمية، فكأن في المعنى تعليق على المحال[3].

---

(١) الكامل: ١/ ٥٠-٥١.

(٢) الكامل: ١/ ٣٤٦

(٣) نظر الإيضاح: ٤/ ٥٨

تجاهل العارف

وهو أن يسأل المتكلم عن شيء ما سؤال مَنْ لا يعرفه، لغرض بلاغي[1]، وسماه السكاكي[2]: سوق المعلوم مساق غيره، لنكتة؛ كالتوبيخ في قوله الخارجية:

أيا شجر الخابُورِ مالك مُورقا كأنك لم تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيفِ

وورد في الكامل قول ذي الرمة[3]:

فيا ظبية الوعْسَاءِ بين جُلاجلٍ وبين النقاء أنت أم أمُّ سالمِ

فهو مع إفادته للتشبيه الضمني فيه كذلك تجاهل بأن المرثى «ظبية»؛ لإفادة أن قائله صار لا يفرق بين الظبية، و «أم سالم» وذلك للتحير في الحب.

المبالغة[*]

المبالغة في اللغة مصدر بالغت في الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه.

وهي عند علماء البلاغة: أن يدعى لوصف ما بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً؛ لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف[4].

وأقسامها ثلاثة:

١ - التبليغ: إذا كان الوصف المدعى ممكناً عقلاً وعادة، كقول امرئ القيس:

---

(١) الإيضاح: ٤/ ٦٦

(٢) مفتاح العلوم: ٤٢٧.

(٣) الكامل: ٣/ ٥٥، وانظر العمدة: ٢/ ٦٦، الوعْساء: الرابية اللينة من الرمل: جُلاجل، والنقا: موضعان.

(*) هذه التسمية منسوبة إلى قدامة، ومنهم من سمى هذا النوع: التبليغ، وسماه ابن المعتز: «الإفراط في الصفة»، ولكن أكثر الناس على تسمية قدامة؛ لخفته، خزانة الأدب لابن حجة الحموي: ٢/ ٧، وانظر: البديع لابن المعتز: ٧٥، ونقد الشعر: ١٤٦.

(٤) الإيضاح: ٤/ ٤٧، وانظر: شروح التلخيص: ٤/ ٢٥٨.

فعادي عِدَاءً بين ثورٍ ونعجةٍ دِرَاكاً فلم يُنْضَح بماءٍ فَيُغْسَلِ[1]

ادعى أنه أدرك بفرسه في مضمار واحد ثوراً وبقرة وحشيين ولم يعرق ويجهد، فيغسل بالماء.

٢- الإغراق: إذا كان الوصف المدعى ممكناً عقلاً، لا عادة، كقول امرئ القيس:

تنورتُها من إذْرعَاتٍ وأهلها بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالِ[2]

فرؤيته نارها بيثرب مع أنها في «أذرعات» من بلاد الشام جائزة عقلاً، لكنها ممتنعة عادة.

٣- الغلو: إذا كان الوصف المدعى بلوغه مستحيلاً عقلاً وعادة، ومن أمثلتها قول أبي الطيب:

عقدت سنابِكُها عليها عثيراً لو تبتغي عنقاً عليه لأمكنا

ادعى أن كثرة الغبار المثار من سنابكها صار كالأرض، وأن دابته لو أرادت أن تسير عليه بسرعة لأمكنها، فهذا ممتنع عقلاً وعادة، ولكن «لو» جعلته كالمقبول.

آراء العلماء في المبالغة:

١- من العلماء من ردها مطلقاً[3]، وعدها من عيوب الكلام، وحجتهم أن خير الكلام ما كان صادقاً وطابق الحقيقة، واشتمل على حكمة يقبلها العقل، أو أدب يحض على الفضائل والآداب، واستدلوا بقول عمر ﷺ في زهير: «كان لا يُعاظل في الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه». وأُثر عنهم: «خير الشعر أصدقه».

---

(١) ديوانه: ٢٢.

(٢) ديوانه: ٣١.

(٣) انظر: المصباح في المعاني والبيان والبديع: ٢٢١.

٢- ومنهم من يقبلها مطلقاً[١]، محتجاً بما أثر من أن «خير الشعر أكذبه فالمبالغة سبيل الشاعر إلى الإبداع وتوليد المعاني، واختراع الصور والتخييل فالمبالغة من محاسن هذا الفن عند الجمهور.

٣- ومن العلماء من ذهب إلى التوسط والاعتدال[٢]. فهؤلاء قبلوا: التبليغ، [و] الإغراق، أما الغلو فقد قبلوا منه ما يقربه إلى الصحة: وذلك إذا اقترن بـ «يكاد» أو «لو» أو «لولا»... إلخ.

وقد عقب ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) على هذه الآراء بقوله: فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير مصيب، وخير الأمور أوساطها[٣].

-١-

أما محمد بن يزيد فقد كان له في المبالغة دراسات كثيرة في «الكامل»؛ فقد عرض في غير موضع لأمثلتها اللغوية، واستشهد على ذلك بأمثلة من القرآن الكريم، ومن كلام العرب، وإليك بعض الأمثلة:

فقد أورد بعض صيغ المبالغة فقال: «تقول العرب للرجل رواية، ونسّابة، فتزيد الهاء للمبالغة، وكذلك: علاّمة، فحذف الهاء جائز فيه، ولا تبلغه في المبالغة إلا ما تبلغه الهاء»[٤].

- وقال: «والمصادر تقع على فَعَالة للمبالغة، يقال: عزّ عزاً وعَزازة، كما يقال: الشراسة، والصرامة. قال الله ﷻ: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾[٥] وفي

---

(١) انظر: أسرار البلاغة: ٢/ ٢٧٢، والمصباح: ٢٢١، والإشارات والتنبيهات في علم البلاغة:

(٢) الإيضاح: ٤/ ٤٩، وعقود الجمان: ٢/ ١١٦، وألوان من البديع: ١٥٧.

(٣) تحرير التحبير: ١٥٠.

(٤) الكامل: ١/ ١٩٢، وانظر: ٣/ ١٧٤، ٢٩٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية: ٦٧، وانظر: ١/ ١٦٧، ٣/ ١٧٠.

موضع آخر: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾[1][2]. وقال في موضع ثالث:

وقوله: «لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية»[3].

يكون على وجهين: لنفس طاغية، والآخر للمذكر، وزاد الهاء للتوكيد للمبالغة،كما يقال: رجل رواية، وعلامة، ونسابة، وكلاهما وجه، ويقال جاءت طاغية الروم، تريد الجماعة الطاغية»[4].

فزيادة الهاء في هذه الصيغ أكسبتها المبالغة، وهي صيغ صرفية، تخضع لابنية المبالغة[5]، وأسماء الفاعلين... إلخ، وأغلبها نعوت لا تفيد المبالغة بالمعنى البياني.

وعدّ أبو الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) هذه الصيغ وما شاكلها من المبالغة، وانتصر لها في كتابة «تحرير التحبير»[6].

-٢-

- وأما المبالغة بمعناها البلاغي فإن المبرد لا يحبذها، ولا سيما النوع الثالث منها، وهو «الغلو» فهو يؤثر الحقيقة والصدق مع جودة النظم.

يقول في ذلك: «وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه فيه بفطنته على ما يخفى عن غيره، وساقه برصف قوى،

---

(١) سورة الأعراف: الآية: ٦١.

(٢) الكامل: ١/ ١٦٧.

(٣) صدر بيت لعمران بن حِطّان. وعجزه:

«كنت المقدم في سرّ وإعلان»

(٤) الكامل: ٣/ ١٧٠ - ١٧٤.

(٥) وهي: فعّال، ومفْعال، وفعُول، وفعيل، وفعِل. انظر: المذكر والمؤنث: ١/ ١٢١، وفصيح ثعلب: ٧٥.

(٦) ص: ١٥٠.

واختصار قريب»[1].

ومما يؤكد هذا أن المبرد عقد بابا رَوى فيه الكثير من أمثلة المبالغة، وبدأها بقوله: «قال أبوالعباس: وهذا باب من تكاذيب الأعراب»[2] وأورد فيه فيضاً من الأخبار، ومنها ما يستحيل عادة، ولا يصدقه في ذلك الزمن عقل، وهذه بعض الأمثلة:

قال المبرد:

حدثني سليمان بن عبد الله عن أبي العميثل مولى العباس بن محمد: تكاذب أعرابيان، فقال أحدهما: خرجتُ مرة على فرس لي، فإذا أنا بظلمةٍ شديدة، فيممتُها حتى وصلتُ إليها، فإذا قِطع من الليل لم تنته فمازلت أحمل بفرسي عليها حتى انبهتُها[3]، فانجابت، فقال الآخر:

لقد رميتُ ظبياً مرة بسهم، فعدل الظبي يمنةً، فعدل السهم خلفهُ، فتياسر الظبي، فتياسر السهمُ خلفه، ثم علا الظبي، فعلا السهم خلفه، فانحدر عليه حتى أخذه»[4].

فالكذب ظاهر في هذا الخبر، فالأعرابي الأول أغار على قطع من ظلمة الليل، وحمل عليها بفرسه حتى انتبهت، فاستجابت وزالت عن موضعها.

فقد جعل الظلمة مما يحس ويستجيب ثم استعير ذلك لها، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو «أنبه» مضافاً إلى الضمير، غير أن ما قاله الإعرابي لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

أما الثاني فإنه جعل سهمه صاروخاً موجهاً، أو قنبلةً ذكية كما يقال اليوم

---

(١) الكامل: ١/ ٢٩٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٩٨.

(٣) قال ابن منظور: نبهه وأنبهه من النوم، فتنبه وانتبه، وأنتبه من نومه: «واستيقظ» اللسان: (نبه).

(٤) الكامل: ٢/ ٢٠٠.

بلغة التقدم العلمي، والحرب الإلكترونية في العصر الحديث، فالسهمُ يتبع الظبي أينما توجه: علا أو نزل، أو ذهب يمينة ويسرة حتى أصابه، فلم يفلت منه.

هذا غلو في ذلك الزمن البعيد، أما في العصر الحديث فإنه يجوز أن تكون مثل هذه الأمثلة من الحقيقة وليست من المبالغة في شيء، وصدق الله القائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(1) وليتهم يتعظون ويعتبرون.

وقال المبرد:

- وتزعم الرواة أن عُروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب قال لبنى الجون الكنديين يوم جَبَلَة: إن لى عليكما حقا لرحلتي ووفادتي، فدعوني أنذر قومي من موضعي هذا، فقالوا: شأنك، فصرخ بقومه بعد أن قالا له: شأنك، فاسمعهم على مسيرة ليلة(2).

- ومن ذلك ما يحكون في خبر «لقمان بن عاد» فإنهم يصفون أن جارية له سُئلت ما بقى من بصره، لدخوله في السِّن؟ فقالت: والله لقد ضعف بصره، ولقد بقيت منه بقية، إنه ليفصل بين أثر الأنثى والذّكر من الذر إذا دبَّ على الصّفا في أشياء تُشاكل هذا من الكذب»(3).

فهذا غلو، وكذب من جهات شتى، وهو غنى عن البيان.

ومن أمثلة المبالغة قول مُهلهل بن ربيعة(4):

---

(1) سورة فصلت: الآية: ٥٣.

(٢) الكامل: ٢/ ٢٠٠.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٠٧.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٠٤، والشعر الشعراء: ١/ ٢٩٧، وتحرير التحبير: ٣٢٤، حَجر مدينة باليمامة، الذكور، أجود السيوف وأشهدها وفي أمالي القالي: ١٣٤، قال أبو الحسن: حدثني أبو العباس الأحول قال: أول كذب سمع في الشعر هذا.

فلولا الريحُ أسمع من بحُجر صليلَ البيض تُقرعُ بالذكُورِ

فقد أفرط في المبالغة، فلولا الريح لسمع صليل السيوف باليمامة وقد كانت حربهم بالجزيرة، وبين الموضعين عشرة أيام.

وقال أبو عبيد الله المرزباني (ت ٣٨٤هـ): وقالوا: هذا خطأ وكذب من أجل أن بين موضع الوقعة التي ذكرها، وبين حجر مسافة بعيدة جداً»[1].

ومنها قول أبي الطمحان القيني[2]:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

فإضاءة الأحساب والوجوه على هذه الحال استعارة تصريحية أو مكنية وهذا بعيد في العقل والعادة.

ومنها قول عمران بن حطان الدَّوْسِي[3]:

فكذاكَ مجزاةُ بنُ ثوْ رِ كان أشْجَعَ مِنْ أُسامَهْ

ففي البيت التشبيه الضمني والغلو أيضاً.

ويورد أبو العباس أبياتاً لقيس بن معاذ، ومنها[4]:

ألا إنما غادرتِ يـا أم مالك صدًى أينما تذهبْ به الريحُ يذهبُ

ويقول: «هذا البيت من أعجب ما قيل في النحافة»[5].

جعل جسمه من السقم صدى صوت تذهب به الريح أينما تذهب.

ومن أمثلة الغلو قول كُثَيِّر:

أقول لها يا عَزُّ كلُّ مصيبة إذا وُطنت يوماً لها النفس ذلّتِ

(١) الموشح: ٩٦، وانظر: العمدة: ٢/ ٦٢، وتحرير التحبير: ٣٢٤، وخزانة الأدب: ٢/ ٨

(٢) الكامل: ٤/ ١٢٩، وانظر: الموشح: ٩٦، عيون الأخبار: ٩٦

(٣) الكامل: ٢/ ٢٠٧، وانظر: المصباح لبدر الدين بن مالك: ٣٢١.

(٤) ديوانه: ١٠٧، والوساطة: ٤٢٠، والمعيار في نقد الأشعار: ١٦٢، ومعجم الشعراء: ١٨٩

(٥) الكامل: ١/ ٢٩٣.

يقول المبرد: «وكان عبد الملك بن مروان يقول: لو كان قال هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس»[1].

وفى الموشح[2]. «حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال: أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبّه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره، وساقه برصفٍ قوى، واختصارٍ قريب، وعَدَلَ فيه عن الافراط؛ كقول بعضهم:

فلو أن ما أبقيتِ منى معلّق بعود ثُمامٍ ما تأوّد عودُها[3]

الثمام: نبتٌ ضعيف، واحدته: ثمامة. قال: وهذا متجاوز كقول القائل:

مَرُوحٌ برجْليها إذا هى هجَّرتْ ويمنعُها من أن تطيرَ زمامُها»

فالأول يقول: إن ما بقى من جسمه لو علق بنبت ضعيف ما اعوج أو مال؛ لتناهي جسمه في الخفة.

ويقول الآخر: لولا زمام الناقة لطارت في الهواء من إفراط سرعتها وهذا غلو وإفراط. ففى البيتين غلو وإفراط.

وقد بيّن محمد بن يزيد فى هذا النص معيار جودة الشعر؛ فهى عنده تتحقق بالأمور التى ذكرها، ومنها إصابة الحقيقة، أو المقاربة منها، وليس بالغلو.

ومن شواهد الإغراق ما جاء في قول المبرد:

قال الأخطل[4] يعير جريراً:

قومٌ إذا استنبحَ الأضيافَ كلبَهمُ قالوا لأمهم بوُلِى على النار

فيقال: إن جريراً توجع من هذا البيت، وقال جمع بهذه الكلمة ضروباً من

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٢٤.

(٢) الموشح. مآخذ العلماء على الشعراء: ٣٠٩،والنص فى الكامل: ١/ ٢٩٤، بتصرف واختصار.

(٣) البيت بديوان مجنون ليلى: ١٠٧، والوساطة: ٤٢٠.

(٤) ديوانه: ١٦٦، والبيت الذي بعده أهجى منه.

الهجاء والشتم، منها: البخل الفاحش، ومنها: عقوق الأم في ابتذالها، دون غيرها، ومنها تقدير الفناء، ومنها السوءة التي ذكرها من الوالدة»[1].

وزادنا ضياء الدين بن الأثير من المبالغات: أن هذا التصرف بخلا بالحطب، وأنه يؤذن بأن لا خادم لهم، وفيه إيذان ببخلهم بالماء[2].

ومما يعد من التبلغ ما أورده المبرد من قول ابن الرومي:

لو أن قصرَكَ يا ابن يوُسف ممتلٍ   إبراً يضيق بها فناءُ المنـــزل

وأتـاكَ يوسفُ يستعيــرُكَ إبـرةً   ليخيط قـدَّ قميصهِ لـم تفعـل

والمثال من شواهد التورية أيضاً، ومع أن ابن الرومي بالغ في وصف مهجوه إلى هذا الحد، إذ لا قيمة للإبرة، فهو يضنُّ بها على من؟! فهذا وإن كان مستبعداً إلا أنه ممكن عقلاً وعادة فهو من التبلغ[3].

فالمبالغة باب واسع وشواهدها كثيرة، ولها صلة بمباحث المعاني والبيان والبديع، والأسرار البلاغية لا يزاحم بعضها بعضاً.

والغلو مقبول عند علماء البلاغة[4] إذا أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة مثل: يكاد، ولو، ولولا.. ومما مثلوا به قول أبي الطيب في فرسه:

عقدت سنابكها عليها عثيراً   لو تبتغي عنقاً عليه لأمكنا

فقد ادعى أن الغبار المثار من سنابك فرسه صار فوقها كالأرض في الهواء بحيث لو أرادت فرسه أن تسير عليه لامكنها.

* * *

وأما محمد بن يزيد المبرد فقد قال بالغلو، وبالحقيقة في نص من كتاب الله سبحانه.

---

(١) الكامل: ٤/ ٤٢.

(٢) انظر: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب: ١٠٣.

(٣) انظر الفنون البديعية: ١١٣.

(٤) انظر: الإيضاح: ٤/ ٤٩، والمطول: ٤٣٥.

١ – ففي بيانه لقول الشاعر: «وقد كَرِبت أعناقُها أن تقطَّعا»[1]

يقول: «وكرب في معنى المقاربة، يقال: كاد يفعل ذلك، وجعل يفعل ذلك، وكرب يفعل ذلك، أي: دنا من ذلك، ويقال: جاء والخيل كاربته، أي: قد دنت منه وقربت... ولا تقع بعد واحدة منهما «أن» إلا أن يضطر شاعر، قال الله ﷻ: ﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا ﴾[2]،أي يقرب من رؤيتها، وإيضاحه: لم يرها ولم يكد. وكذلك ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[3][4].

٢ – وفي بيانه لمعنى «راع» يقول: راعني يروعني روْعاً أي: أفزعني... ويكون الرائع الجميل، يقال: جمال رائع، يكون ذلك في الرجل والفرس وغيرهما، وأحسب الأصل فيها واحداً: أنه يفرط حتى يروع، كما قال الله – جل ثناؤه –: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ للإفراط في ضيائه»[5].

في النص الأول يبين المبرد أن «كاد» و «كرب» يدلان على قرب الفعل ودنوه، «وأن الأداتين تشتركان في عدم الاقتران بـ «أن» إلا في ضرورة الشعر، واستشهد بمثالين من القرآن الكريم وبيَّن المراد من الأول بأنه: لم يقرب من رؤيتها، وأن الثاني مثله في القرب.

فالمعنى في الآيتين الكريمتين على مقاربة الحدث[6]، لا على وقوعه فعلاً وهذا لا مبالغة فيه.

---

(١) عجز بيت وصدره: «سقاها ذوْوا الأرحام سجْلاً على الظما»
من مقطوعة بالكامل: ١/ ١٨٨.

(٢) سورة النور: الآية: ٤٠.

(٣) سورة النور: الآية: ٤٣.

(٤) الكامل: ١/ ١٩٥.

(٥) انظر: مجاز القرآن: ٢/ ٦٧.

(٦) انظر: مجالس ثعلب: ١/ ١٤١.

وبيّن أن المعنى في الآية الثانية الإفراط في سنا الضوء؛ فقد حمل المعنى مرة على الحقيقة، وأخرى على الغلو.

وأقول: المبالغة بأقسامها الثلاثة واقعة في كلام البشر، وتعالى الله أن يوصف كلامه بشيء من ذلك، وإذا كانت المبالغة موضع خلاف بين العلماء فما بالك يحمل هذه الآية الكريمة وما ماثلها على الغلو؟! هذا لا يجوز إطلاقاً.

إن هذه الآية وما ماثلها من الحقيقة ومعلوم بالمشاهدة أن أحداً لن يستطيع أن ينظر دقائق إلى البرق الخاطف! فإنه إن لم يُصب بالعمى فسيصاب بضعف البصر والله- سبحانه- قال: (يكاد يذهب)، ولم يقل: «يذهب» فقط؛ فما الداعي إلى القول بالمبالغة؟!.

يقول ابن الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ): والضرب الخامس من المبالغة ما جري مجرى الحقيقة، وهو قسمان: قسم كان مجازاً، فصار بالقرينة حقيقة كقوله تعالي ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ فإن اقتران هذه الجملة بـ «يكاد» يصرفها إلى الحقيقة، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان.

ومما يؤيد هذا أنه يقول في قوله ﷻ: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾[1] معنى الكلام فيها أن علم بذلك بالنسبة إلينا هو متعذر علينا، وسهل بالنسبة إلى علم الله ﷻ، فالمبالغة فيها إذا بالنسبة إلينا، لا إلى الله ﷻ»[2].

ويرى ابن أبي الإصبع هذا في «تحرير التحبير»[3]، فهو يقول في هذه الآية: المبالغة فيها عرفية معناه: أن علم ذلك متعذر عندكم وإلا فهو بالنسبة إلى علم الله – سبحانه – ليس بمبالغة.

---

(١) سورة الرعد: ١٠.

(٢) بديع القرآن: ٥٧.

(٣) ص: ١٥٧.

والمراد: أن المبالغة إنما هي في عرف الناس فقط، لأن طاقتهم وقدرهم، بل وحواسهم محدودة، أما بالنسة إلى علم الله فلا مبالغة.

وقد أشار العلامة الشنقيطي[1] إلى «الغلو» عند علماء البلاغة، وأورد من أمثلتهم قول أبي الطيب.

كفَى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ   لولا مخاطبتي إياكَ لم ترني

ثم نقدهم في إيراد شواهد له من القرآن الكريم، وبين بعد رأيه، ومما قاله: «وقول المعري:

يُذيب الرعبُ منه كلَّ عضْبٍ   فلولا الغمدُ يمسكهُ لسالاَ

فمثل هذا كله جائز عند البلاغيين، بل هو عندهم بديع معنوى، ومعلوم أن مثله لا يجوز في القرآن.

وما زعمه كثير من أهل البلاغة من أن «الغلو» ما جاء في القرآن إلا مقترناً بما يجعله مقبولاً، وهو اقترانه بما يقربه إلى الصحة ممثلين بقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ ﴾[2] فإنه كلام باطل ومنكر من القول وزور – سبحان الله وتعالى علواً كبيراً – عن أن يكون في كلامه ما هو قريب من الصحة، لأن القريب من الصحة ليس بصحيح في نفس الأمر. والله يقول: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ﴾[3]،

---

(١) هو محمد الأمين بن المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي مفسر، ومدرس من علماء شنقيط (موريتانيا). ولد وتعلم بها، وحج سنة ١٣٦٧م، واستقر مدرساً في المدينة المنورة، ثم في الرياض سنة ١٣٧١هـ وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة ١٣٨١هـ وتوفى بمكة المكرمة، ألف كتباً في مقدمتها، أضواء البيان في تفسير القرآن، ومنع جواز المجاز، ومنهج دراسات لآيات الأسماء والصفات، وآداب البحث والمناظرة، ورحلة خروجه من بلاده إلى المدينة المنورة. الأعلام: ٦/ ٤٥

(٢) سورة النور: الآية: ٣٥.

(٣) سورة النساء: الآية: ١٢٢.

ويقول: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[1]، ويقول: ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[2]، ويقول: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾[3]، فهذا الكلام الذي قاله - تعالى - لا شك في أنه صحيح.

وقوله: «يكاد» معناه: يقرب، ولا شك أن ذلك الزيت يقرب من الإضاءة ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ولكنه لم يضيء بالفعل كما هو مدلول الآية الكريمة»[4].

ولما كان الخطيب (ت ٧٣٩هـ) قد استشهد بهذه الآية الكريمة للغلو المقبول، وجاراه بعض شراح التلخيص فإن ابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠هـ) أدرك هذا الخطأ؛ فقال:

«وينبغي لمن مَثّل بالآية أن يقول بدل قوله «يقربه إلى الصحة» لا يظهر معه الامتناع تأدباً وهو كذلك»[5].

* * *

(١) سورة النساء: الآية: ٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٤٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية: ١١٥.

(٤) منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز: ١٧، ١٨.

(٥) مواهب الفتاح: ٤/ ٣٦٢ ضمن (شروح التلخيص) والإيضاح: ٤/ ٤٩

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

الجناس المزدوج أو المكرر

الجناس: «مشتق من حروف الجنس؛ لأن كلا من اللفظين المتجانسين من جنس الآخر، وهو استعمال اصطلاحي يدل عليه أن ابن سِيْدَة قال في المحكم: الجنس: الضرب من كل شيء، وجمعه: أجناس، وجُنُوس»(١).

وعرفه السعد (ت ٩٧١هـ) بقوله: «هو تشابهُهما في اللفظ، أي في التلفظ والنطق؛ فيخرج التشابه في المعنى نحو: أسد وسبع، أو في مجرد العدد نحو: ضرب وعلم، أو في مجرد الوزن نحو ضرب وقتل»(٢).

والجناس قسمان:

١- التام. ٢- الناقص.

١- **فالجناس التام**: أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها مثل: «الساعة» في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾(٣).

٢- **الجناس الناقص**: وهو أن يختلف اللفظان في واحد من الأربعة السابقة فمثال الاختلاف في أعداد الحروف قوله ﷻ: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ

(١) عروس الأفراح: ٤/ ٤١٣.

(٢) مختصر المعاني: ٣/ ١١٥.

(٣) سورة الروم: الآية: ٥٥.

رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[1]. فلفظ «المساق» بزيادة حرف الميم عن لفظ «الساق» ولكل من هذين القسمين فروع[2]، وليس هذا البحث مجال دراستها.

وروى أبو العباس مقطوعة[3] لعُبيد بنِ العرندس الكِلابي يصف قوما نزل بهم، وأولها:

هيْنون ليْنون أيسارٌ ذوُو يسرٍ سوَّاسُ مكرُمةٍ أبناءُ أيسارِ

فبين قوله: «هيْنون» و «لينون» جناس ناقص، ويسمى جناساً لاحقاً؛ لأن الاختلاف بين اللفظين في الحرف الأول فقط، وهما غير متقاربين في المخرج كما في قوله ﷻ: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[4]. ويُسمى أيضاً هذا النوع جناساً مزدوجاً، ومكرراً.

يقول الخطيب (ت٧٣٩هـ): «وإذا ولي أحد المتجانسين الآخر سمي مزدوجاً ومكرراً ومردداً، كقوله تعالى: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[5]. وما جاء في الخبر: (المؤمنون هيْنون ليْنون)[6].

ويبين الزمخشري بلاغة الجناس في هذه الآية الكريمة بقوله: وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ، بشرط أن يجئ مطبوعاً أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحة؛ فحسن وبدع لفظاً ومعنى... »[7].

---

(١) سورة القيامة: الآية: ٢٩– ٣٠.
(٢) انظر: الإيضاح: ٤/ ٧٧ – ٨٤.
(٣) الكامل: ١/ ٧٨.
(٤) سورة الهمزة: الآية: ١.
(٥) سورة النمل: الآية: ٢٢.
(٦) الإيضاح: ٤/ ٨٤.
(٧) الكشاف: ٣/ ١٤٤.

وفائدة الازدواج: سهولة الحفظ، وتناغم الصوت، فيصل إلى سمعك حال وصوله إلى قلبك، وهو يكثر في كلامهم»[1].

فالجناس عموماً يكون بلاغة إذا جاء فيض الخاطر، وعفو البديهة، لا تعمد فيه ولا تكلف، فيزدان به اللفظ، ويطمئن له القلب، ومن ثم يكون محسناً بديعياً.

* * *

السجع

السجع في اللغة: «يقال سجعتِ الحمامةُ من باب نفع: هدَرتْ وصوتت، والسجع في الكلام: شبه بذلك لتقارب فواصله وسجع الرجلُ كلامه كما يقال: نظَمه إذا جعل لكلامه فواصل كقوافي الشعر ولم يكن موزوناً»[2].

وعرّفه الزمخشري بقوله: «هو أن يأتي بالقرينتين فصاعداً على نهج واحد»[3].

وهو عند الخطيب: «تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر»[4].

والسجع يكون محموداً إذا كان مطبوعاً، لا تكلف فيه؛ فالألفاظ فيه تابعة للمعاني، أما السجع المتكلف فإن المعاني فيه تتبع الألفاظ وبذلك تنتفي عنه البلاغة.

وفي كتاب «الكامل» إشارة إلى تعريف السجع، وبيان معناه، وكذلك بعض أمثلته.

١ - قال المبرد: «والسجع من الكلام: أن تأتلِف أواخرهُ على نسق كما تأتلف

(١) الوان من البديع. تحرير وتحليل: ٢٣١.

(٢) المصباح المنير: (سجع).

(٣) الأساس: (سجع).

(٤) الإيضاح ٤/ ٩٢.

القوافي، وهو في البهائم موالاة الصوت. قال ابن الدمينة[١]:

أألن سجعتْ ورقاءُ في ورائقِ الضُّحى ... على فننٍ غضِّ النباتِ من الرّند[٢]

فقد بيّن أن السجع موضعه النثر، وفيه تتفق القرينتان في الرّوى، كما تتفق القوافي في الشعر، كما بين أصله اللغوي واستشهد بقول ابن الدمينة، ففي هديل الحمام ترجيع وتطريب، يقول ابن منظور (ت ٧١١هـ): «وسجعَ الحمام تسجعُ سجْعاً: هدلَ على جهة واحدة... وسجعُ الحمامةِ: موالاة صوتها على طريق واحد»[٣]. وروى المبرد قول ابن الرقيات[٤]:

والذي نغّص ابن دومةَ ما تو ... حِي الشياطينُ والسيوفُ ظِماءُ

فأباح العراقَ يضربهم ... بالسيف صلتا وفي الضرابِ غِلاءُ

وأتبعه بقوله: فإنما يريد بابن دومة: المختار بن أبي عبيد الثقفي[٥]. والذي نغصه مُصعب بن الزبير، وكان المختار لا يوقف له على مذهب. كان خارجياً ثم صار زبيرياً، ثم صار رافضياً في ظاهره.

---

(١) هو عبيد الله بن عبد الله، وهو من خثعم والدمينة أمه ـ الشعر والشعراء: ٣١.

(٢) الكامل ٢/ ٢٣٩.

(٣) انظر: لسان العرب (سجع).

(٤) ديوانه: ٩٠.

(٥) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، وهو من الطائف (١ – ٦٧هـ) من زعماء الخوارج، وفي مقدمة الثائرين على بني أمية، انتقل مع أبيه إلى المدينة المنورة في خلافة ـ عمر ﷺ ـ وظل بها زمناً منقطعاً إلى بني هاشم، ثم سكن البصرة، ولما استشهد الحسن ﷺ ـ سنة ٦١هـ انحرف المختار عن أميرها «عبيد الله بن زياد»، فقبض عليه وحبس ثم نفى إلى الطائف، ولما مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ وقام عبد الله بن الزبير في المدينة بطلب الخليفة ذهب إليه المختار وعاهده ودعا الناس في الكوفة إلى طاعته، وكان أكبر همه منذ دخلها أن يقتل من قتلوا الحسين ﷺ... ودخل المختار معارك كثيرة. وشاعت في الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة، ونزل الوحي عليه وكان ينتقل من نحلة إلى أخرى حسب ما يحب ويهوى.

انظر: أخباره في الكامل: ٣/ ٢٦٤ – ٢٦٩، والأعلام: ٧/ ١٩٢.

وقولـه: «ما توحى الشياطين» فإن المختار كان يدعى أنه يُلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون، ثم يحتالُ فيوقعها، فيقول للناس: هذا من عند الله ﷻ. فمن ذلك قوله: «لتنزلنّ من السماء نارٌ دَهْمَاء، فلتُحرقنّ دارَ أسماء، فذكر ذلك لأسماء بن خارجة، فقال: أقد سجع أبي إسحاق! هو والله محرق داري. فتركه والدار، وهرب من الكوفة.

وقال في بعض سجعه: أمّا والذي شرع الأديان، وجنّب الأوثان، وكره العصيان لأقتلنّ أزدَ عُمان، وجُلّ قيس غيلان، وتميماً أولياء الشيطان، حاشا النجيب ظبيان، فكان النجيب ظبيان يقول: لم أزل في عمر المختار أتقلب آمناً».

هذا كذب وإفتراء من المختار، فقد أقسم بوقوع أشياء لا يملك منها شيئاً.

والتكلف يبدو واضحاً في هذا السجع، فقد اجتلبت كلمة «دهماء» لتوازن كلمة: «أسماء»، وجملة «حاشا النجيب ظبيان» قلقة في مكانها.

والسجع المتكلف بعيد عن البلاغة، وقائله يتخذ منه سبيلاً إلى تعمية المعاني وخفائها، وكذا صرف الانتباه إلى الزخرف اللفظي، وهذا على حساب المعنى. ويكثر هذا بخاصة في سجع السحرة والكهان فقد تفننوا فيه فتنة للسامع، وصرفا عن مضمون كلامهم، وتقييداً لحكمهم، وإلهاء لهم عن تتبع ما يلقون إليهم من أخبار.

فالسجع يكون من البديع «إذا طلبه المعنى، واستدعاه، وساق نحوه، وحتى لا تبتغي به بديلاً، ولا تجد عنه حولاً»[1].

وقد ورد السجع المطبوع في كلام النبي ﷺ فمنه قوله «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنةِ بسلام» كما ورد في كلام الصحابة رضوان الله عليهم فضلاً عن كلام القدماء[2].

---

(١) أسرار البلاغة: ٢/ ١٠٣.

(٢) انظر: البيان والتبيين: ١/ ٣٦، ٢/ ١٦١، والمثل السائر: ١/ ٢٧٣.

وعندما عاب النبي ﷺ السجع فإنما عاب نوعاً منه، وهو السجع المتكلّف الذي يشبه سجع الكهان. ولذا قال ﷺ: «أسجعٌ كسجع الجاهلية»؟ لمن سأله أرأيت من لا شربَ ولا أكل، ولا صاحَ ولا استهل. أليس مثلُ ذلك يُطل»؟ فتشادُق هذا الأعرابي وتكلفه هو الذي جعل سجعَه ممقوتا، ولذا أنكر النبي ﷺ ذلك.

والسبب في كراهة هذا النوع من السجع أن «كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم كانوا يدعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن، فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها في صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم»[١].

لزوم ما لا يلزم

وهو أن يجيئ قبل حرف الروِّي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس يلازم في مذهب السجع[٢].

ولم يذكره المبرد، ولكن ورد في كامله قول الشاعر:

سـأشكرُ عمراً مـا تراخـت منيّتي ... أيـادي لم تُمنـن وإن هـي جـلّتِ

فتىً غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مُظهر الشكوى إذا النعلُ زلّتِ

رأى خلتى مـن حيثُ يخفى مكانها ... فـكانت قذى عينيـه حتـى تجـلّتِ

فقد التزم اللام المشددة المسبوقة بالفتحة قبل الرّوى، وهو لون من التكلف لا داعى إليه، وقد أكثر منه أبو العلاء المعري.

وقد أورد الخطيب هذا المثال فى الإيضاح[٣] لهذا الفن البديعى.

---

(١) دراسات في نقد الأدب العربي: ١٩٦.

(٢) الكامل: ١/ ٢١٤

(٣) ج٤، ص: ١٠٢، وانظر: فى البلاغة العربية، علم البديع: ١٢٥.

ويلحق بعلم البديع

الأخذ أو السرقة الأدبية

الأخذ والسرقة في هذا المقام لفظان بمعنًى، وقد تلطف القدماء في هذا التصرف الأدبي، فعبروا عنه كثيراً بلفظ «الأخذ»، وبينوا أحياناً ما للسابق من فضل في اختراع المعنى، ثم أخذ اللاحق له، إما مع اللفظ، أو بعضه.

ومن التعبير بالسرقة يقول حسان ﷺ:

لا أسرقُ الشعراء ما نطقوا　　　بل لا يوافِق قولهُم قولي

والسرقة لا تكون في المعاني العامة المشتركة بين الناس كالوصف بالجود والحلم والذكاء، فهذه المعاني: «مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي القرشي»[1].

وإن كان الاشتراك في وجه الدلالة على الغرض من حقيقة، أو مجاز أو كناية، أو تصرُّف بذكر هيئات تدل على الصفة، لاختصاصها بمن له الصفة كوصف الرجل حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح مثلاً، أو أن المعنى لا ينال إلا بفكر ولا يصل إليه كل أحد كالتشبيه الضمني... فهذا يجوز أن يدعى فيه الاختصاص، والسبق، وأن يقضى فيه بين القائلين بالتفاضل.

والسرقة نوعان: ظاهرة وغير ظاهرة[2].

أقسام السرقة الظاهرة[3]:

١- **النسخ أو الانتحال**: هو أن يؤخذ المعنى كله، إما مع اللفظ كله، أو بعضه، وإما المعنى وحده، فإن كان المأخوذ اللفظ كله من غير تغيير لنظم فهو

(١) كتاب الحيوان: ٣/ ٤٠.

(٢) انظر: الإيضاح: ٤/ ١٢٤.

(٣) انظر: الإيضاح: ٤/ ١١٠- ١٢٤.

مذموم مردود، لأنه سرقة محضة. ومن أمثلته قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم | يقولون: لا تهْلِك أسىً وتجَمّلِ

وقول طرفة:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم | يقولون: لا تهلك أسىً وتجلّدِ

٢- الإغارة أو المسخ: وهو أن يؤخذ اللفظ مع تغيير نظمه، أو يؤخذ بعض اللفظ.

فإن كان الثاني أبلغ من الأول، لاختصاصه بفضيلة؛ كحُسن السبك أو الاختصار، أو الإيضاح، أو زيادة معنى فهو ممدوح مقبول وإن كان الثاني دون الأول في البلاغة فهو مذموم مردود.

٣- الإلمام أو السلخ: وهو أن يكون المأخوذ المعنى وحده، وهذا المعنى إما أن يكون أبلغ من الأول، أو مثله، أو دونه.

قلت: إن القدماء تلطفوا إزاء هذا التصرف من بعض الأدباء فعبروا عنه بلفظ: الأخذ.

- فابن قتيبة يستعمل هذا اللفظ كثيراً في «الشعر والشعراء» كما عبر عنه قليلاً بلفظ: السلخ. ومن أمثلته قوله:

ومما سبق إليه زهير، فأخذ منه،قوله يمدح هرماً(١):

هو الجوادُ الذي يعطيك نائلَهُ | عفواً ويُظلم أحياناً فيَظّلِم

أي: يسأل ما لا يقدر عليه، فيتحمله، أخذه كُثيِّرٌ، فقال:

رأيتَ ابن ليلى صُلْب ماله | مسائلُ شتى من غَنيٍّ ومُعدمِ

مسائل إن تُوجدْ لديك تجد بها | يداكَ وإن تُظلم بها تتظلَّمِ

وقال ابن قتيبة(٢):

(١) الشعر والشعراء: ١/ ١٤٤، وانظر: أمثلة أخرى: ١/ ١٦١، ٢٦٣، ٤٤٣، ٢/ ٧٥٩.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٣.

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ   وأخرى تداويتُ منها بها

حتى قال أبو نُوَاس:

دعْ عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ   وداوني بالتي كانت هي الداءُ

فسلخه[1] وزاد معنى آخر، اجتمع له من الحسن في صدوره وعجزه فللأعشى فضل السبق إليه، ولأبي نواس فضل الزيادة عليه.

ولعل الجاحظ كان أول من استعمل مصطلح «السلخ» فهو يحدثنا في مقدمة «المحاسن والأضداد»[2] عن محاولة حاسديه في إسقاط كتبه عند من تؤلف لهم تلك الكتب، فإن أمكنهم ذلك فهو الذي إليه قصدوا وأرادوا، ثم يقول: «وإن كان السيد المؤلَّف فيه الكتاب نحريراً نقاباً، ونقريساً بليغاً، وحاذقاً فطناً، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه إلى ملك آخر، ومتُّوا إليه به، وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إليّ، وموسوماً».

وقد استعمل أبو هلال[3] كلاً من السرقة والأخذ، وقسم الأخذ إلى حسن وقبيح وأورد لكل فيضاً من الأمثلة.

ثم شاع بعد مصطلح، السرقة فدُرِستْ بإسهام في الموازنة[4]، والوساطة[5]، والمثل السائر[6]. وجاء الخطيب القزويني[7] فدرس السرقات بعد انتهائه من علم البديع، وبذلك صارت مبحثاً نقديًا وبلاغيًا، له أصوله ومعاييره الدقيقة،

---

(١) السلخ: هو أخذ المعنى وحده، وهو على ثلاثة أقسام لأنه إما أبلغ من المأخوذ منه، أو مثله أو دونه، معاهد التنصيص: ٤/ ٥٧، والمثل السائر: ٣/ ٢٣٤.

(٢) ص: ٢.

(٣) الصناعتين: ٢٠٢ – ٢٤١.

(٤) الموازنة: ١٢٣ – ١٣٣.

(٥) الوساطة: ١٨٣– ٢٨٢.

(٦) ج ٣، ص: ٢١٨– ٢٩٢.

(٧) الإيضاح: ٤/ ١٠٩.

وقد ذكرت هذه اللمحة عن هذا الفن لأنها تلزمنا في هذا الموضوع.

وأما محمد بن يزيد فإنه عبَّر عن هذا المعنى بكل من: الأخذ، والسرقة وكان لروايته للأدب أثر كبير في إيراد كثير في الأمثلة في الموضع الواحد، وإليك نماذج منها.

-١-

يروى المبرد قصيدة[١] لرجل يُكنَّى أبا مخزوم، ومنها قوله:

لو كانَ في الألفِ منا واحدٌ فدعَوْا ... مَنْ فارسٌ خالهم إيَّاهُ يعنُوناَ

ثم يتبعه بقوله:

«مأخوذ من قول طرفة:

إذا القوم قالو مَن فتىً خِلتُ أنني ... عُنيتُ فلـم أكسلْ ولم اتبلَّد

ومن قول متمم بن نويرة:

إذا القوم قالوا من فتىً لعظيمةٍ ... فما كلُّهم يُدعى ولكنه الفتَى

ويقول: «وقوله: «إنا لترخصُ يوم الرَّوعِ أنفُسنا»[٢]

أخذه من قول الهمذاني – وهو الأجدع – أبو مسروق بن الأجدع الفقيه:

لقد علمتْ نسوانُ همـدان أننى ... لهنَّ غداةَ الـرَّوع غير خـذُولِ

وأبذلُ في الهيجاءِ وجهـي وإنَّـني ... له في سِوى الهيجَاءِ غيرُ بذولِ

ومن القتَّال الكلابي حيث يقول:

أنا ابنُ الأكرمين بنى قشيرٍ ... وأخوالي الكرامُ بنُو كـلابِ

نُعرض للطعـانِ إذا التقينـا ... وُجوهاً لا تُعـرَّضُ للسبَابِ

---

(١) الكامل: ١/ ١١١.

(٢) صدر بيت من القصيدة، وعجزه: «ولو نُسامُ بها فى الأمن أغلينا»

-٢-

ومما هو من النسخ والانتحال، وعده العلماء من السرقة المذمومة ما جاء في قول المبرد:

ودخل عبد الله بن الزبير يومًا على معاوية: فقال: اسمع أبياتاً قلتُهنّ – وكان واجداً عليه– فقال معاوية: هاتِ؛ فأنشده[1]:

إذا أنت لـم تُنصِف أخاك وجـدتَهُ   على طرفِ الهجران إن كـان يعقلُ

ويركبُ حدَّ السيف مـن أن تضيمهُ   إذا لم يكن عن شفرة السيف مَزحلُ

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدنا يا أبا بكر: ثم لم ينشب معاوية أن دخل عليه معن بن أوس المُزني؛ فقال له: أقلت بعدنا شيئاً؟ قال: نعم فأنشده:

لعمرُك ما أدري وإني لأوجلُ   على أيِّنا تعـدو المنيةُ أولُ

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير؛ فقال له معاوية: يا أبا بكر، أما ذكرت آنفاً أن هذا الشعر لك؟ قال: أنا أصلحتُ معانيه، وهو ألف الشعر، وهو بعد ظِئري، فما قال من شئ فهو لي، وكان عبد الله بن الزبير مسترضعاً في «مزينة».

فقد اتفق كل من عبد الله، ومعن في إنشاد البيتين مع سبق معن، ولذا كان هذا من عبد الله نسخاً وانتحالاً، وقد استشهد الخطيب القزويني[2] للنسخ بهذه الرواية.

---

(١) الكامل: ٢/ ٢١٢ المزحل: مصدر بمعنى الزُحول، من زحل عن مكانه زُحولاً إذا تنحى وتباعد. والمعنى: أنه لا يبالي أن يركب من الأمور ما يؤثر فيه تأثير السيف مخافة أن يدخل عليه ضيم، أو يلحق هضم، أو احتقار من لم يجد عن ركوبه مبعداً، ولا معدلاً. معاهد التنصيص: ٤/ ٥.

(٢) الإيضاح: ٤/ ١١٠.

-٣-

ويصرح المبرد بلفظ السرقة ويشير إلى خفائها بالتصرف في النظم؛ فهو يورد مقطوعة لأبي العتاهية، ويتبعها بقوله: «وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد يُخلي شعره مما تقدم من الأخبار والآثار، فينظم ذلك الكلام المشهور، ويتناولُه أقربَ متناول، ويسرقُ أخفى سرقة، فقوله:

«وأنت اليومَ أوعظُ منك حيًّا»[1]

إنما أخذه[2] من قول المؤبذ – قاضي قضاتهم – لقُباذ الملك حين مات؛ فإنه قال في ذلك الوقت: كان الملك أمس أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس.

قد لَعمري جلبْتَ لي غُصص المو ... تِ وحركتَني لها وسكنْتَا

وأخذ قوله: من قول نادب الإسكندر؛ فإنه لما مات بكى مَنْ بحضرته، فقال ناد به: حركنا بسكونه.

ويتبع المبرد هذا بمقطوعة طويلة لإسماعيل بن القاسم، ويبين المراد بها؛ فيقول: «أما قوله:

يا عجباً للناس لو فكروا ... وحاسبُوا أنفسهم أبصروُا

فمأخوذ من قولهم: الفكرة مرآة تريك حَسنَك من قبيحك، ومن قول لقمان لابنه: يا بنى لا ينبغي لعاقل أن يخلي نفسه من أربعة أوقات؛ فوقت منها يناجي فيه ربه، ووقت يحاسب فيه نفسه، ووقت يكسب فيه لمعاشه، ووقت يخلي فيه بين نفسه وبين لذتها؛ ليستعين بذلك على سائر الأوقات. وقوله:

وعبرُوا الدنيا إلى غيرِها ... فإنما الدنيا لهم مَعبرُ

---

(١) صدره: «وكانت في حياتك لي عِظاتٌ»، وانظر ديوانه: ٤٩٢

(٢) معاهد التنصيص: ٤/ ١٨٨.

مأخوذ من قول الحسن: اجعل الدنيا كالقنطرة، تجوز عليها ولا تعمُرها، إلى غير ذلك من الأمثلة:

وقال ابن أبي عيينة:

ما راح يوم على حيٍّ ولا ابتكرا ... إلا رأى عبرة فيه إن اعتبرا
ولا أتت ساعةٌ في الدهر فانصرمتْ ... حتى تؤثِّر في قوم لها أثرًا
إن الليالِيَ والأيامَ أنفسها ... عن غيرِ أنفسها لم تكتُم الخبرا

فأخذ هذا المعنى حبيب بن أوس الطائي، وجمعه في ألفاظ يسيرة، فقال:

عمري لقد نصح الزمانُ وإنه ... لمن العجائبِ ناصحٌ لا يشفِقُ

فزاد بقَوله: «ناصح لا يشفق» على قول ابن أبي عيينة شيئاً طريفاً، وهكذا يفعل الحاذق بالكلام.

فالمبرد أورد في هذا الموضع الشواهد الكثيرة للأخذ والسرقة، وأشار إلى مهارة البعض في إخفاء ما سرق بالتصرف. إما في الصياغة أو الإيجاز، أو بالزيادة المفيدة أو بعقد ما نثره الأول، وذلك ما يفعله الماهر بالكلام.

والسرقة داء أدبي قديم، ولذا نبَّه ابن قتيبة والمبرد وغيرهما على الكثير منها في أشعار الجاهلية، ودرسا لها الأمثلة، وذكرا الكثير من مسائلها، ثم غدت بعد مبحثاً هاماً له قوانينه وأصوله على يد الآمدي (ت ٣٧٠هـ) ومن جاء بعده من علماء النقد والبلاغة.

يقول القاضي الجرجاني (ت ٣٦٦هـ): «والسَّرقُ – أيدك الله- داء قديم وعيْب عتيق، وما زال الشاعر يستعينُ بخاطر الآخر. ويستمدُّ من قريحته، ويعتمدُ على معناه ولفظه، وكان أكثره ظاهراً... ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب... »[1].

---

(١) الوساطة: ٢١٤.

ويتصل بالسرقات: الاقتباس والتضمين، والعَقْد، والحَل والتلميح.

أولا: الاقتباس: الاقتباس هو: أن يُضمِّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه[١]، ومثاله قول الحجاج متوعدا أهل العراق في خطبته: «[٢]... فإنكم لكأهل ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾. فقد ضمَّن كلامه معظم آية سورة النحل: ١١٢؛ من قوله تعالى: ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً ...﴾، دون أن ينبه على ذلك.

ثانياً: العقد: وهو أن يُنظم نثر، لا على طريق الاقتباس[٣] وقد وردت له أمثلة منها قول أبي العتاهية:

«وأنتَ اليومَ أوعظُ منكَ حيًّا»

وكذا قوله: «وقد لعمري جلبَت لي غُصص الموت...»، فإنه عقد قول نادب الإسكندر[٤].

وقال المبرد[٥]: وأنا أحسب أن قول القائل:

وأجـرأ من رأيتُ بظهـر غيْـبٍ   على عيب الـرجال ذوُو العيـوبِ

إنما أخذه من كلام المستورد، قال رجل للمستورد: أريد أن أرى رجلاً عيَّابا،

---

(١) الإيضاح: ٤/ ١٣٨، معاهد التنصيص: ٤/ ١٨٢.

(٢) الكامل: ١/ ٣٨١.

(٣) الإيضاح: ٤/ ١٣٨، وانظر: البديع في نقد الشعر: ٢٥٩.

(٤) انظر: معاهد التنصيص: ٤/ ١٨٨.

(٥) الكامل: ٣/ ٢٤١، والمستورد من شعراء الخوارج، وقد خرج على المغيرة بن شعبة والي الكوفة، فوجه إليه معقل بن قيس الرِّياحي، فقضى عليه، ومن أقواله: «لا تفش إلى أحدٍ سرا، وإن كان مخلصاً إلا على جهة المشاورة».

قال: التمسهُ بفضلِ معايب فيه[1]. فقد عقد بنظمه كلام المستورد.

ثالثاً: التلميح: وهو أن يشار إلى قصة، أو شعر من غير ذكره[2].

وقد ورد في الكامل[3]: « قال الفرزدق لابن هبيرة حين نقب له السجن، وهرب؛ فسار تحت الأرض هو وابنه حتى نفذا.

لما رأيتَ الأرضَ قد سُدَّ ظهرُها ... ولم يبقَ إلا بطنُها لك مَخرَجا

دعوتَ الذي ناداهُ يونُس بعدما ... ثوى في ثلاثٍ مظلماتٍ ففرَّجا

فأصبحتَ تحت الأرضِ قد سِرت سيرة ... وما سارَ سارٍ مثلها حين أدْلجا

خرجتَ ولم يمنُن عليك طلاقةً ... سوى ربذِ التقريبِ من نسلِ أعْوَجا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجاني أميراً ومدحني أسيرا.

قوله: «حيث أدلجا». تقول «أدلجتُ، إذا سرتَ في أول الليل، وأدّلجتُ: إذا سرتَ في آخر السحر»

فهذا إشارة إلى قصة يونس عليه السلام عندما ألقى في البحر، فالتقمه الحوت فكان في ثلاث ظلمات: «قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»[4]، ثم فرَّج الله عنه بسبب تسبيحه وهو في بطن الحوت، فألقاه الحوت بأرض ليس بها نبت ولا بناء وهو ضعيف البدن، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين.

– قال الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ

---

(١) انظر: الكامل: ٣/ ٢٣٨، وما بعدها.

(٢) والإيضاح: ٤/ ١٤٢، والإرشادات والتنبيهات: ٣٢٠.

(٣) الكامل: ٣/ ٨٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم: المجلد الخامس ٣٦١، والمجلد السابع: ٣٣، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤/ ٩٦.

فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(1).

- وقال عز شأنه: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾(2).

* * *

---

(1) سورة الأنبياء: الآيات: ٨٧- ٨٨.

(2) سورة الصافات: الآيات: ١٣٩-١٤٧.

الباب الرابع

المبرد بين التأثر والتأثير
في بلاغة الكامل

الفصل الأول

تأثر المبرد بغيره من العلماء

التأثر والتأثير سُنة الله فى الإنسان، ويبدو هذا واضحًا فى الأخلاق والعادات والتقاليد، كما يبدو فى الآداب والعلوم والفنون؛ فتأثر اللاحق بالسابق أمر فطرى، ثم إن اللاحق يبذل من خبرته وعلمه، ليساهم فى صرح البناء والحضارة.

وقد تأثر محمد بن يزيد المبرد بغيره من العلماء؛ فقد كانت له قراءات كثيرة، كما كانت له مجالس ومحادثات مع العلماء والرواة؛ فهو فى مواضع كثيرة من الكامل يقول[1]: «حدثنى أبو عثمان الجاحظ»، ويقول[2] «حدثنى العباس بن الفرج الرياشى»... كما يحدثنا كثيرًا عن لقاءاته العلمية مع النابهين من علماء عصره، وفى مقدمتهم[3]: أبو عبيدة، والأصمعى، وثعلب، والمازنى، والتوزى... إلخ.

ويتردد فى الكامل قوله[4]: «وقال المفسرون»، و «قال أهل العلم»، و «ذكر أهل العلم».

وهذا النشاط العلمى فى التحصيل والتثبت فى الرواية كان له أثره فى الثقة بالمبرد، فهو يخبرنا عن دِراية ورِواية. وسأشير إلى أبرز من تأثر بهم فى ميدان البلاغة:

---

(١) الكامل: ٢/ ٣، وانظر: ١/ ١٩٢، ٢/ ١٥٥، ٣/ ٧٢.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٤.

(٣) انظر: فى أبى عبيدة: ١/ ٢١، ٣١٩، ٣/ ١٧١، ٢٢٣، والأصمعى: ١/ ٤٧، ٦٩، ٣/ ٩٤، وثعلب: ١/ ٣٠، ٧٨، والمازنى: ١/ ٤٧، والتوزى: ١/ ١٤٧، ٢١٥.

(٤) الكامل: ١/ ٢٣٣، ٣٢٨، ٣/ ٦٣.

أولاً: سيبويه (ت ١٨٠هـ):

عقد سيبويه فى الكتاب «باب الحكاية التى لاتغير فيها الأسماء عن حالها فى الكلام»، وذلك قول العرب فى رجل يُسمى «تأبّط شرّا» هذا تأبطَ شرًّا. وقالوا: هذا بَرَق نحرُه... فهذا كله يترك على حاله، وعلى هذا تقول: بدأت بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وقال الشاعر:

وجدنا فى كتابِ بنى تميمٍ ... أحقُّ الخيلِ بالرُّكضِ المعارُ

وذلك لأنه حكى: «أحقُّ الخيْلِ بالركض المعار» فكذلك هذه الضروب إذا كانت أسماء...». وقد أورد المبرد[2] هذا بتصرف واختصار فى «الكامل» مع الاستشهاد بالآية الكريمة والبيت.

ويذهب سيبويه: إلى أن الحذف يكون للاتساع، فيقول: «ومما جاء على الاتساع والاختصار قوله ـ تعالى جدّه ـ: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾[3]. إنما يريد: أهل القرية؛ فاختصر، وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملاً فى الأهل لو كان هاهنا... ومثل ذلك فى كلامهم: «بنو فلان يطؤُهُم الطريقُ «يريد: أهلَ الطريق». وهذه العبارة نجد صداها عند المبرد فى الكامل[4]. وغير ذلك كثير، فقد تردد ذكر سيبويه فى الكامل[5]. كما انتفع محمد بن يزيد بآرائه كثيرًا وإن لم يشر إليه.

---

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) الكتاب: ٣ / ٣٢٥ - ٣٢٧، الكامل: ٢/ ٥٣.

(٣) سورة يوسف: ٨٢.

(٤) الكتاب: ١/ ٢١٢، والكامل: ١/ ١٥١.

(٥) الكامل: ١/ ٣٦٤، ٢/ ٢٠، ٧١، ١٩٢، ٤/ ٣،... إلخ.

ثانياً: الفراء (ت ٢٠٧هـ):

كان لأبى زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفرّاء أثره الواضح عند المبرد؛ فالفراء يقول فى قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾[1]: حدثنى عمرو بن أبى المقدام عن الحكم عن مجاهد قال: «ثناء حسنا»، ويقول المبرد: «قال المفسرون... أريد باللسان: الثناء الحسن؛ فإنه يبقى طويلا، بخلاف اللسان»[2].

ويقول الفراء فى قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[3] يصلح «على» بمعنى «فى» وإنما صلحت «فى»؛ لأنه يرفع فى الخشبة فى طولها، فصلحت «فى» وصلحت «على» لأنه يرفع فيها؛ فيصير «عليها» فيفيد المبرد من هذا التعليل؛ فيقول: «وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض إذا وقع الحرفان فى معنى فى بعض المواضع»[4].

ويذكر الفراء وجوها فى المراد بلفظ «أعناق» من قوله تعالى: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[5] فيكون لهذه الوجوه صدى عند المبرد[6]. والمتأمل فى الكتابين يجد مظاهر تأثر أبى العباس المبرد كثيرًا بالفراء.

ثالثاً: أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ):

وقد تأثر المبرد كثيرًا بأبى عبيدة فى كتابه «مجاز القرآن»؛ فقد صرّح كثيرًا

---

(١) سورة الشعراء: ٨٤.

(٢) معانى القرآن: ٢/ ٨٧، والكامل: ٢/ ٣٨١.

(٣) سورة طه: ٧١.

(٤) معانى القرآن: ٢/ ٨٦، والكامل: ٣/ ٩٧.

(٥) سورة الشعراء: ٤.

(٦) معانى القرآن: ٢/ ١٧٣، والكامل: ٢/ ١٤١.

بالأخذ عنه، كما أشار إليه ضمن علماء اللغة بقوله: «وقال المفسرون» وجاراه كذلك في إطلاق كلمة «مجاز» على معناها اللغوى. وتصرّف المبرد أحياناً في النقل عن أبي عبيدة، وإليك هذه الأمثلة:

في شرح المبرد لقول أبي بكر رضى الله عنه. «ويا طغام الأحلام» يقول: «فمجازُ الطغام عند العرب: من لا عقل له، ولا معرفة عنده»[(١)] ويقول أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾[(٢)] «أى مُقامه الذى ثواه. ومنه قولهم: هى أم مثوى، وهو أبو مثوى إذا كنت ضيفاً عليهم»[(٣)]. فيورده أبو العباس بتصرف يسير.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ يقول أبو عبيدة: «مجازها: المتزمل. أدغمت التاء، فثقلت. المتزمل عند العرب: الملتف بثيابه»، فيقول المبرد: «وهو المتزمل بثيابه. والتاء مدغمة في الزاى»[(٤)].

ويتأثر المبرد بأبي عبيدة في نيابة حروف الخفض بعضها عن بعض غير أنّ المبرد يزيد المعنى وضوحاً وبياناً[(٥)].

وأورد المبرد بيت الأعشى:

نفى الذمَّ عن آل المحلّق جفنه كجابيةِ الشّيخ العراقى تفْهق

وأتبعه بقوله: «هكذا فى رواية أبي عبيدة»[(٦)] وهو يعنى: «الشيخ» بالخاء المعجمة؛ والتأثر هنا فى غير «مجاز القرآن».

---

(١) الكامل: ١ / ٢٦.

(٢) سورة يوسف: ٢١.

(٣) مجاز القرآن: ٢/ ٣٠٤، الكامل: ٣/ ١٠٢.

(٤) مجاز القرآن: ٢/ ٢٧٣، و الكامل: ١/ ٣١٩.

(٥) مجاز القرآن: ١/ ٢٣، و الكامل: ١/ ٣٢٨.

(٦)الكامل: ٣/ ٨٦.

فتأثر أبي العباس المبرد كثيرٌ في الكامل بأبي عبيدة في مجاز القرآن.

رابعاً: الأصمعي (ت ٢١٦ هـ):

وهو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦ هـ). العالم الرّاوية للغة والأدب، والناقد لما خالف منهج العرب. ولإعجاب المبرد بالأصمعي فقد تأثر به في مواضع كثيرة ومن ذلك قوله[1]:

«قال الأصمعي»، «وأنشد الأصمعي» وحدثني الزيادي قال: سمعت الأصمعي، كما نقده المبرد بقوله: «زعم الأصمعي» وبقوله: «زعم الأصمعي وغيره من أهل العلم». وغير ذلك كثير.

وأما عن تأثر أبي العباس بصاحبه بنوع من التفصيل، فحسبك أن الأصمعي سُجلت رواياته في شروح كثيرة لدواوين الشعر، ولما كان المبرد دائب البحث والدرس؛ فقد انتفع بآثار الأصمعي. ويتبين هذا على النحو التالي:

أولاً: رواية الأصمعي لديوان «علقمة الفحل»:

- يقول علقمة:

صَعْلٌ كأنَّ جناحَيهِ وجُؤْجؤَه ... بيتٌ أطافتْ بهِ خرقاءُ مهْجومُ

فالأصمعي يبنيه بقوله «الصّعل: الرقيق العنق، الصغير الرأس من الظلمان.. الخرقاء: المرأة التي لا تحسن العمل، وهي ضد الصّناع... المهجوم: الساقط المهدوم.

ويتناوله المبرد باختصار وتصرُّف؛ فيقول[2]: "الصّعل: الصغير الرأس. الخرقاء: التي لا تُحسن شيئاً.

- والعجيب أن الأصمعي يشرح بيتاً لعلقمة، فينتفع به المبرد في شرح بيتين لذي الرُّمة، ويتبع ذلك ببيان فضل علقمة في هذا المعنى.

---

(١) انظر على الترتيب: الكامل: ٢/ ٢٠٨، ٣/ ١٤٩، ٣٦، ٤/ ٦، ٧٥.

(٢) ديوان علقمة الفحل: ٦٣، والكامل: ٣/ ٣٥.

فبيت علقمة[1]:

فأوردتُها ماءً كأنَّ جِمامهُ ... من الأجْنِ حِنَّاءٌ معاً وصَبيبُ

فالأصمعي يقول: «الأجْن: تغير الماء، والصبيب: شَجر يكون بالحجاز يُختضب به... يصف أن الماء متغير؛ لبعد عهده بالوارِدة؛ إذ كان في فلاة نائية عن الأنيس».

فيقول المبرد: وقوله: (ذو الرُّمة):

فَجاءَتْ بِنسْجِ العنكبوتِ كأنه ... على عَصَويْها سابرِيٌّ مُشَبْرقُ

وتأويله: أنه يصف ماءً قديماً لا عهد له بالورَّاد؛ فقد اصفر واسودّ؛ فقال:

وماءٍ قديمِ العَهدِ بالناسِ آجنٍ ... كأن الدِّبا ماءَ الغَضَا فيه تَبْصُقُ

وقد أجاد علقمة الفحل في وصف الماء الآجن حيث يقول:

إذا وردتْ ماءً كأنَّ جِمامه ... من الأجن حنَّاءٌ معاً وصَبيبُ

ثانيًا: رواية الأصمعي لديوان امرئ القيس: في قوله:

كأن قُلوب الطَّيرِ رطبا ويابسا ... لدَى وكْرِها العنَّابُ والحشفُ البالِي

يقول الأصمعي: «تقدير البيت: كأنّ قلوب الطير رطبا العناب، وكأنها يابسة الحشف البالي؛ فيبين المبرد أن في البيت: «تشبيه شيء في حالتين مختلفتين بشيئين مختلفين»، ويفضله على جعله تشبيهين؛ فيقال «كأنه رطبا العناب، وكأنه يابس الحشف» لما فيه من فضيلة الإيجاز[2].

وفي قول امرئ القيس:

فيالك من ليلٍ كأنَّ نجومَـهُ ... بكلِّ مُغارِ الفتلِ شُدَّت بيذْبل

يقول الأصمعي: «المغار: الشديد الفتل، ويذبل: جبل» فينقله المبرد في

---

(١) ديوان علقمة الفحل: ٤٢، والكامل: ٣/ ٣٤.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٣٨، والكامل: ٣/ ٣٢.

«الكامل»[1].

ثالثًا: رواية الأصمعى لديوان النابغة الذبيانى:

ذكر الأصمعى فى مقدمته أن أكثر من ألفـ فى شروح الأشعار تشاغلوا عن كشف المعانى، وتبيين الأغراض، وصرفوا همهم إلى جلب الروايات مع أن فائدة الشعر معرفة لغته ومعناه، وإلاَّ فالرَّاوى له كالناطق بما لا يفهم، وهذه صفة البهائم، ثم روى قول الشاعر:

زَوامِل للأشعار لا عِلْم عندهُم يجيـدهـا إلاَّ كعلمِ الأبـاعِـر

لعمرُك مـا يدْرِى البعير إذا غَدا بأوْساقِهِ أوْراح ما فى الغرائرِ

فيفيد منه المبرد[2] ببيان المراد بـ «الحمل» فى قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾.

وفى بيان المبرد[3] لقول زهير:

كأنَّ فُتات الْعِهـنِ فى كلِّ منزلٍ نزلْن بهِ حبُّ الْفنا لم يُحطَّم

يقول: «والعهن: الصوف الملوَّن فى قول أكثر أهل اللغة، وأما الأصمعى فقال: كل صوف عهن، وكذلك قال أهل اللغة».

وفى قولـه تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾[4] يذكر المبرد فى تفسير الطلع: أنه شجر يُقال له: الأستن، ويتبعه بقوله: «وزعم الأصمعى أن هذا الشجر يسمى: «الصوم»[5].

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١٩، والكامل: ٣/ ٩٠.

(٢) ديوان النابغة الذبيانى: ١٢، والكامل: ٣/ ١٣٢.

(٣) الكامل: ٣/ ٩٢، وشرح القصائد السبع الطوال: ٢٤٩.

(٤) سورة الصافات: ٦٥.

(٥) الكامل: ٣/ ٩٣، واللسان: (صوم).

خامسًا: الجاحظ (ت ٢٥٥هـ):

كان لشيخ البيان أثره البالغ عند محمد بن يزيد المبرد، فكتاب «البيان والتبيين» دُرَّةٌ من دُرَر البيان العربي، وله أهميته في علوم اللغة والأدب وقد أفاد منه المفكرون والباحثون في شتى العصور. وكان المبرد في مقدمة هؤلاء، فهو يذكر الجاحظ كثيراً وينقل عنه، وأحياناً ينقل عبارته بتصرف، وإليك هذه الأمثلة:

افتتح الجاحظ كتابه بذم التكلف، والعِيِّ والحصَر، ثم تكلم عن البيان، وأثنى عليه، وعلى أصحابه، وقد ألَمَّ أبو العباس بشيء من ذلك في أوائل كتابه ولكن مع اختلاف الطريقة والمنهج[1].

وورد في الكامل: «أن العرب وأهل الحكمة من العجم تجعل كل دليل قولاً». وروى عن بعض الحكماء: «أيتها الأرض: من شقَّ أنهارَكِ، وغرس أشجارَكِ، وجنى ثمارك،...؟، ثم أورد شواهد أخرى دالة على المراد، وإن لم يكن ثمة كلام.

والمبرد يعني بهذا ما ذكره الجاحظ عن بعض الشعراء، وغيرهم من العرب، وكذا ما رواه الجاحظ عن «الفضل بن عيسى الرُّقاشي» في غير موضع من كتابه في هذا المعنى[2].

ونظر الجاحظ[3] للشعراء والخطباء نظرة محايدة، فلم يقلل من شأن المحدثين، ولذا كثر استشهاده بأشعار المطبوعين من المولدين.

وسار المبرد على نهج الجاحظ؛ فذكر أنَّه لا يتعصب لقديم، ويهضم حق

---

(١) البيان والتبيين: ١ / ٣ ـ ١٥، والكامل: ١/ ٤ – ٦.

(٢) انظر: الكامل: ٢/ ٩٠، ٩١، والبيان والتبيين: ١/ ٨١، وما بعدها: ٣٠٨.

(٣) البيان والتبيين: ١ / ٥٠.

محدث[1] ولذا أثنى على كثير من المحدثين، لجودة النظم. وتطبيقاً لهذا المنهج فإنه ذكر في «باب التشبيه» بخاصة أمثلة كثيرة مختارة من أشعارهم.

سادساً: أبو العبّاس ثعلب (ت ٢٩١هـ):

وكان لإمام الكوفيين؛ أحمد بن يحيى (ثعلب) أثر في دراسة التشبيه عند المبرد ففي «مجالس العلماء» للزجاجي مجلسين لثعلب. أحدهما مع المبرد، والآخر مع محمد بن سلام الجمحي.

وفي المجلس الثاني يروى ثعلب أنه ذهب إلى «محمد بن سلام» لما قدم البصرة ليقرأ عليه الأشعار والأخبار التي يرويها؛ فلما عرفه برّه وأكرمه، ثم سأله عن ثلاثة أبيات. منها قول علقمة:

سلاّءة كعصا النّهديّ غُلّ لها ... ذو فيئةٍ من نوى قُرّان معجُومُ

وكانت إجابة «ثعلب» مستفيضة وشافية؛ لأنها تدل على خبرة باللغة والأدب، ودراية بالحياة. وقد انتفع بها العلماء[2]، وفي مقدمتهم «المبرد» وذلك في شرح هذا البيت، وكذا في تعليقه على بيت الشماخ في صفة الفرس:

مُفِجُّ الحوامي عن نُسورٍ كأنها ... نوى القسْبِ تُرّتْ عن جريمٍ مُلَجلجِ

وسأورد ما يعنيني من إجابة «ثعلب» وللقارئ الكريم أن يراجع ما كتبه المبرد[3] في موضعه ليرى مدى التأثر.

يقول ثعلب: قلت: يعني شبهها بشوك النخلة، لإرهاف صدرها، وتمام

---

(١) الكامل: ١ / ٢٧ - ٢٩، ٣ / ٣٢، ١٣٤.

(٢) انظر: الأمالي لأبي علي القالي: ٢/ ٢٥٢، في شرحه لبيت الشماخ:

مُفِجُّ الحوامي عن نُسورٍ كأنها ... نوى القلب القسْبِ تُرّتْ عن جريمٍ مُلَجلجِ

والمفضليات: ٤٠٤، في شرحه لقول علقمة: «سلاءة...». يقول الشارح: السلاءة: شوكة النخل. شبه فرسه بها؛ لإرهاف صدرها، وتمام عجزها، وكذلك خلقة الشوكة...».

(٣) مجالس ثعلب: ٨٤ - ٨٥، والكامل: ٣ / ١١٠ - ١١٢.

عجزها وكذلك خلقة الشوك. يقول: خلقتها خلقة الشوكة. وهذا يستحب فى الإناث. «وعصا النَّهدى» أى: كأنها عصا نبع، لاندماجها وملاستها... وإنما شبه النسور بالنوى لأنها صلاب، وأنها لا تمس الأرض؛... إلخ.

وإذا قورن قول المبرد: «شبهها بالشوكة من شوك النخل؛ لأن الفرس الأنثى يحمد منها أن يدق صدرُها». بما ذكره «ثعلب» تبين مدى هذا التأثر، غير أن «المبرد» نقل عن صاحبه باختصار.

ونقل المبرد بتصرف عن ثعلب[1] تعليقه على قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[2]، وهو: «قال بدرعك. أى نلقيك بنحوه من الأرض. أى بارتفاع»[3].

فقد كان لإمام الكوفيين منزلته العلمية وقد تتلمذ عليه الكثير من أهل العلم، كما كان بينه، وبين «المبرد» الكثير من المناظرات، ولذا تأثر كل منهما بصاحبه غير أن المبرد كان تأثره بثعلب أكثر.

فأبو العباس محمد بن يزيد انتفع بدراسات العلماء والأخذ عنهم، ولكنه بجهوده المخلصة، وفكره الثاقب قدم لنا هذه الدراسات القيمة فى البيان العربى.

* * *

(١) انظر: ص ٣٩، ومجالس ثعلب: ٢/ ٥٨.

(٢) سورة يونس: ٩٢.

(٣) الكامل: ٣/ ٣٩، ومجالس ثعلب: ٢/ ٥٨١.

<u>الفصل الثاني</u>

تأثير المبرد فيمن بعده من العلماء

كان لأبي العباس أثره الواضح فيمن بعده من لغويين وأدباء ومفسرين... إلخ؛ فكثيراً ما صرح هؤلاء العلماء بالنقل عنه، واستشهدوا بآرائه.

فقد وضعوا أمامهم أمثلة المبرد وتحليلاته ، وتأملوا ما أضفاه على بعضها من صفات ومقارنات، ومن ثم كان التطور العلمي بالبيان العربي، فتعددت مباحثه وكثرت مسائله. وقد غدا «للتشبيه» بخاصة على يديه أهميته العلمية في التصوير البياني. وسأعرض لأبرز من تأثروا بالمبرد.

أولاً: الزّجاج (ت ٣١٦هـ):

تأثر الزجاج في كتابه «معاني القرآن وإعرابه» بالمبرد، وأورد هنا عبارة تأثر فيها الزجاج بكل من أبي عبيدة، والمبرد، ففي بيانه لمعنى «إعصار»[1] يقول: «الإعصار: الريح التي تهب من الأرض كالعمود إلى نحو السماء. وهي التي يسميها الناس: الزّوبعة، وهي ريحٌ شديدة لا يقال: إنها إعصار حتى تهب بشدة. قال الشاعر: «إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصاراً»[2]

ثانياً: قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ):

وكان قدامة في طليعة من تأثروا بالمبرد. فما كتبه في «نقد الشعر» عن المراد بوجه الشبه يعد توضيحا وتفسيرا لما كتبه المبرد عن «حد الشعر».

يقول قدامة: «إن الشئ لا يشبّه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات؛ إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما تغاير ألبته اتحدا؛ فصار الاثنان واحدا، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان

---

(١) سورة البقرة: من الآية: ٢٢٦.

(٢) انظر: معاني القرآن: ١/ ٨٢، ومعاني القرآن وإعرابه: ١/ ٣٤٩، والكامل: ١/ ٣١٩.

تعمها، ويوصفان بها». فالتشبيه بين الشيئين يكون في شيء إلى شيء»[1].

وكلام «قدامة» عن تفاوت درجات «حسن التشبيه»، وكذا عن وجوه التصرف فيه، وكذا ذكره للتشبيه «الجيد» هذا كله مستفاد من دراسة المبرد في «باب التشبيه»[2].

ومما يحسب لقدامة أنه بين أسبابا لبعض الأحكام التي أطلقها المبرد؛ فقدامة يورد قول الشمّاخ في ناقته الهزيلة من السير:

فقرَّبتُ مبرَاة كأن ضلوعَها   من الماسِخيّاتِ القِسيُّ الموتَّرا

ثم يقول: «وقد أحسن الشمّاخ في هذا التشبيه من قبل اجتماع الأضلاع، والقِسيُّ الموترة في الشكل، والتوتر في الأعصاب والأوتار، ولم يورد إلا الشكل فقط، وقد أتى على ما فيه»[3]، وقد اقتصر المبرد على وصفه بأنه «من باب التشبيه العجيب». إلى غير ذلك من مظاهر التأثر.

ثالثًا: أبو عبد الله المرزباني (ت ٣٨٤هـ):

كتاب « الموشح » لأبي عبيد الله المرزباني سِجِلٌ وافٍ لما أخذه أهل العلم على الشعراء قديمهم وحديثهم. فقد ذكر في كتابه كثيراً من المآخذ، لكل شاعر على حدة، وكان التأثر فيه بالمبرد واضحاً، فقد صرَّح كثيراً بالنقل عنه، وأغفل الإشارة إليه أحياناً. وهذه بعض الأمثلة:

أخبرني محمد بن الأزهر قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال: أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبَّه بفطنته على ما يخفى على غيره، وساقه برصفٍ قوي، واختصار قريب، وعدل فيه عن الإفراط... »[4].

---

(١) نقد الشعر: ١٢٤، والكامل: ٣/ ٥٤.

(٢) نقد الشعر: ١٢٣، الكامل: ٣/ ٣٢، وما بعدها.

(٣) نقد الشعر: ١٢٦، والكامل: ٣/ ٤١.

(٤) الموشح مآخذ العلماء على الشعراء: ٣٠٩، والكامل: ١/ ٣٩٤.

ويقول: «... حدثنا محمد بن الأزهر قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال: قد يقع الإيماء إلى الشئ فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه كما قيل: لمحة دالة...، فمما وقع كالإيماء قول الفرزدق:

ضربت عليك العنكبوتُ بنسجها　　　وقضى عليك به الكتابُ المُنزلُ

فتأويل هذا: أنّ بيت جرير فى العرب كالبيت الواهى الضعيف»[1].

ويقول: أخبرنى محمد بن الأزهر قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوى قال: حدثنى عُمارة بن عقيل قال: لما بلغ الوليدَ قولُ جرير:

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة　　　لـو شئتُ ساقكم إلـىّ قطينا

قال الوليد: أما والله لو قال: «لو شاء ساقكم» لفعلت ذلك. ولكنه قال: «لو شئت»؛ فجعلنى شرْطيا له»[2].

والمعنى: أنّ جريرا خرج على المألوف فى الحديث عن الخليفة، ولم يراع مقتضى الحال، ولذا أصلح الوليد له عبارته.

رابعاً: ابن السِّيد البطليوسى (ت ٤٤٤هـ):

وتأثر البطليوسى فى كتابه «الاقتضاب فى شرح أدب الكُتّاب» كثيرا بمحمد بن يزيد، وذكره كثيرا عند النقل من الكامل.

وقد أثنى عليه بقولـه: «وأبو العباس من أئمة اللغة بالحفظ والضبط»[3].

يقول البطليوسى: وأنشد أبو العباس المبرد:

أقول لثوْرٍ وهو يحلِق لِمّتى　　　بعـقْفاءَ مردُودٍ عليها نِصَابُها

يعنى «الموْسَى». وهذا البيت أول مقطوعة فى «الكامل» ليزيد بن الطثرية

---

(١) الموشح: ١٣٦، والكامل: ١/ ٢٧.

(٢) الموشح: ١٦٠، والكامل ٣/ ١٦١.

(٣) الاقتضاب، القسم الأول: ٣٧، والكامل: ٢ / ١٧٧. وذكر البطليوسى تعقيبا على خبر رواه بقوله: «وروى أبو العباس المبرد فى «الكامل» أن رجلا من أهل الكتاب ورد على معاوية؛ فقال له معاوية: أتجد نعتى فى شئ من كتب الله؟ فقال: إى والله...».

والسبب أنه كان غزِلاً، وتكرر أخذه من إبل أخيه «ثور» دون علمه. فقال هذه المقطوعة[1].

وفى بيان النسب إلى «اليمن» يقول:

«وقد حكى أبو العباس المبرد، وغيره أن التشديد لغة. وأنشد:

ضربناهُمْ ضربَ الأحامس غُدوَةً بكـل يمانىٍّ إذا هُـزَّ صَمَّماً

وشرح البطليوسى لقول عوف بن عطية:

لها حافِرٌ مثل قعْب الوليدِ يتخذُ الفـأرُ فيه مغـارا

وبيان أن «هذا من الممكن، مستمد من شرح المبرد للبيت، والحديث عن المبرد يطالع القارئ كثيرا فى «الاقتضاب».

خامساً: ابن رشيق القيروانى (٤٦٦ت هـ):

وتأثر الحسن بن رشيق فى كتابه: «العُمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده» بأبى العباس المبرد فى كتابه: «الكامل». وإليك الأمثلة:

يُؤْثِر المبرد الصدق والاعتدال، ولا يحبذ الغلو والإفراط، ولذا استطرد فى «باب التشبيه»؛ فذكر أمثلة من «تكاذيب الأعراب» وختمها بعبارة سجَّل فيها ضوابط لحسن التشبيه.

وجاء «ابن رشيق» فحذا حذوه؛ فقال فى «باب الغلو»:

«وأنشد المبرد للأعشى:

فلو أنَّ ما أبْقيْنَ مِنِّى مُعلَّقٌ بعُود ثُـمامٍ ما تأوَّد عُودُها

فقال: «هذا متجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبَّه، وأحسن منه وأصاب الحقيقة فيه. انقضى كلامه».

ويورد «ابن رشيق» أمثلة لكل من «التشبيه الحسن، والتشبيه المليح، والتشبيه المصيب، والأشد إصابة»، وهذا مع بيان العلل والأسباب. وإذا رجعنا إلى كامل

---

(١) الاقتضاب، القسم الثانى: ٩٩، والكامل: ٢ / ١٧٧.

المبرد وجدنا هذه الأسباب[1].

ويختصر «ابن رشيق» الضرب الثالث من أضرب الكناية، ثم يقول: «قال المبرد وغيره: الكناية على ثلاثة أوجه. هذا الذى ذكرته آنفا أحدها، والثانى...»[2].

ويطالعك فى «العمدة» تأثر ابن رشيق كثيراً بالمبرد فى «الكامل».

سادساً: الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ):

وتأثر عبد القاهر فى كتابه «أسرار البلاغة» كثيراً بأبى العباس المبرد فى كتاب «الكامل»؛ فقد صرح بذلك كما أشار إليه فى بعض المواضع. ويتبين هذا بالأمثلة التالية:

١ – عقد الإمام فصلا «فى التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب»، وبيّن فيه أن بيت امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العُنّابُ والحشفُ البالى

من التشبيه المتعدد، وأن التشبيه المركب يقرن إليه فى الكتب[3]. وذكر أن هذا البيت: «إنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ، وهذا مراد أبى العباس غير أنّ الإمام كان بأسلوبه التحليلى، ودراساته المقارنة أكثر وضوحا، وأبعد غورا وإدراكا لأسرار البيان.

٢ – وعقد عبد القاهر فصلا للموازنة بين التشبيه والتمثيل، وذكر فيه أن التشبيه يكثر فيه جعل الفرع أصلاً، والأصل فرعا، واستشهد بأمثلة يكثر فيها «قلب التشبيه» ثم قال:

«ويشبه الظليم فى حركة جناحيه مع إرسال لهما بالخباء المقوض. أنشد أبو العباس لعلقمة:

---

(١) العمدة: ١/ ٢٩٤ – ٣٠٢، والكامل: ٣/ ٣٢، وما بعدها.

(٢) العمدة: ٢ / ٣١٣، والكامل: ٢/ ٢٩٠.

(٣) أسرار البلاغة: ٢/ ٤٥، الكامل: ٣/ ٣٢.

صعْلٌ كأنَّ جناحيه وجُؤْجؤَهُ		بيتٌ أطافت بهِ خرْقاءُ مهجُومُ

اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء؛ ليكون أشد لتفاوت حركاته، وخروج اضطرابه عن الوزن».

فعبد القاهر يعنى بأبى العباس: محمد بن يزيد فهو الذى أورد هذا البيت فى «باب التشبيه» وعلق بقوله: الصَّعْلُ: الصغير الرأس. الخرقاء: التى لا تُحسن شيئا؛ فهى تفسد ما عرضت له...

٣ – وأورد أمثلة للتشبيهات المركبة التى تصور هيئات الحركة، أو السكون. ومنها قول الشاعر:

كأنهُ عـاشِقٌ قـد مـدَّ صفحتَهُ		يوم الوداعِ إلى توديعِ مُرتحلِ
أوْ قـائمٌ مـن نعاسٍ فيه لُـوثتُهُ		مُواصلٌ لتمطِّيه مـن الكسلِ

ثم قال: «ويشبه التشبيه فى البيت قول الآخر، وهو مذكور معه فى الكتب:

لم أرَ صفًّا مثل صفِّ الزُّط		تسعينَ منهم صُلبُوا فى خط

ثم بين بأسلوبه التحليلى الدقيق ما امتاز به كلٌّ عن الآخر من استقصاء فى الوصف والذى بسببه كان التماثل بين طرفى التشبيه؛ فقولـه: «وهو مذكور معه فى الكتب»[1] يعنى الكتب التى ألفت قبل عبد القاهر وهو بخاصة إشارة إلى «كامل» المبرد.

ومن ذلك حديث «عبد الرحمن» عندما رجع إلى أبيه «حسَّان» – رضى الله عنهما – وهو صبىٌّ، يبكى ويقول: «لسعنى طائر...؛ فقال حسَّان: قال ابنى الشعر ورب الكعبة.

هذا الخبر فى الكامل[2]، ولكن عبد القاهر بيَّن بلاغة الصبى فى دقة وصف الطائر، فكأن قوله شعر.

---

(١) أسرار البلاغة: ٢/ ٣٩، والكامل: ١/ ٢٦٣.

(٢) الكامل: ١/ ٢٦٣، والكامل: ٢/ ٣٩.

٤ - وحديث عبد القاهر عن «استطراف التشبيه وسبب حُسنه...»، ثم استشهاده بقول عدى بن الرّقاع:

تزْجِى أغنُّ كأن إبرةَ روْقهِ   قلمٌ أصابَ من الدَّواة مِدادها

فإن أصل هذه الفكرة قد استمدها من المبرد[1] غير أن مهارة عبد القاهر فى التحليل والتعليل جعلته يبرز ما فى هذا النص من حُسْنٍ وطرافة.

ويقف عبد القاهر طويلاً عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[2]، وقول الشمّاخ:

إذا ما راية رُفعتْ لمجــد   تلقَّاهَـا عرابةُ باليمــين

ليبين أن المعنى فى كل منهما على التمثيل المستفاد من مجموع الكلام، لا من لفظ «يمين» فقط. ثُمَّ يحكى كلام أبى العباس عن أصحاب المعانى بقوله:

«... فأما ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل، دون التصريح حتى ترى كثيراً من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة، ويجريها مجرى اللفظ يقع لمعنيين؛ كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾. تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة، ويصلون إليه قول الشمّاخ:

إذا مـا راية رُفعـتْ لَـمجدٍ   تلقَّـاها عرابةُ باليميـن

كما فعل أبو العباس فى «الكامل»؛ فإنه أنشد البيت ثم قال: «قال أصحاب المعانى: معناه بالقوة، وقالوا مثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[3] وهذا منهم تفسير على الجملة... »[4].

هذا، إلى أن عبد القاهر قد انتفع بما ردده المبرد من إشاراتٍ بلاغيةٍ والتى لقيت الكثير من تأملاته، ودراساته الواسعة.

---

(١) الكامل: ٣/ ١٤١، وأسرار البلاغة: ٢/ ٢٨٠.

(٢) سورة الزمر: الآية: ٦٧.

(٣) انتهى كلام أبى العباس: ١٢٩.

(٤) أسرار البلاغة: ٢/ ٢٢٥، والكامل: ١/ ١٢٨، ١٢٩، انظر ص:

سابعاً: الزمخشرى (ت ٥٢٨ هـ):

وتأثر الإمام محمود بن عمر الزمخشرى كثيراً بالمبرد، فقد نقل عنه خصوصاً فى كتابه: «الفائق فى غريب الحديث». وهذه بعض الأمثلة:

أورد الزمخشرى الحديث الشريف: «ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة...»، ثم قال:

«قال المبرد: قولهم: فلان موطأ الأكناف. أى أن ناحيته يتمكن فيها صاحبه، غير مؤذى، ولا ناب به موضعه»(١).

– وذكر قول أبى بكر الصديق لعبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنهما ـ «أما إنى لشديد الوجع، ولما لقيتُ منكم يا معشرَ المهاجرين أشد علىَّ من وجعى...»، ثم شرح بعض المفردات مسترشداً بالمبرد؛ فقال: «الأذربى: منسوب إلى «أذربيجان»، وروى: الأذرى. البحر: الأمر العظيم. وقال المبرد فيمن رواه: البحر. ضرب ذلك مثلاً لغمزات الدنيا، وتحييرها أهلها»(٢).

وقال الزمخشرى: قال المبرد: الزعانف. أصلها أجنحة السمك؛ فقيل للأدعياء: زعانف؛ لأنهم التصقوا بالصميم، كما التصق تلك الأجنحة بعظم السمك.

وقد ورد هذا فى الكامل عند قول جرير:

«هل أنتُمْ غيرُ أو شابِ زعانفِه»(٣)

– وتأثر الزمخشرى فى تفسيره «الكشاف» بالمبرد كثيراً، ففى قوله تعالى عن السماء والأرض: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾. يقول المبرد: لم يكن كلام، إنما فعل ﷻ ما أراد؛ فوجد. قال الراجز:

قد خنق الحوضُ وقال قطْنِى   مهلاً رويداً قد ملأتُ بطنى

---

(١) الفائق: ٤/ ٦٨، والكامل: ١/ ٤٠.

(٢) الفائق: ١/ ٩٩، والكامل: ١/ ٧ – ١٠.

(٣) الفائق: ١/ ١١١، ١٨١، والكامل: ٢/ ٦٠.

ولم يكن كلام، إنما وجد ذلك فيه».

ويقول الزمخشرى: ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل...».

ويقول الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾[1]: «فإن قلت: كيف صح مجيء «خاضعين» خبراً عن الأعناق؟ قلت: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة. كان الأهل غير مذكور...». وهذه عبارة المبرد[2] مع تصرف يسير. فالزمخشرى يستظهر ثانى الرأيين اللذين وردا بالكامل.

وكانت عبارة المبرد، وبما حوت من لفظ «أقحمت» مع عدم لياقتها فى النظم القرآنى وبيانه المُعجز قد نقلها الزمخشرى، ثم كان لها بعد صدى عند كثير من المفسرين، وأصحاب الحواشى. وقد بيَّنت ذلك.

وبالتأمل يتبين: أن هؤلاء العلماء متأثرون بالمبرد تأثراً غير مباشر إما عن طريق الزمخشرى، أو القاضى البيضاوى والكاتبين عليه.

١ - فأبو حيان (ت ٧٥٤هـ) ينقل فى تفسيره اعتراض الزمخشرى السابق وجوابه منسوباً إليه، وفيه لفظ «أقحمت» الذى ذكره[3] المبرد.

٢ - والسمين الحلبى[4] ينقل عبارة الزمخشرى ولكنه يُخطئه فى المثال الذى

---

(١) سورة الشعراء: ٤.

(٢) تفسير الكشاف: ٣/ ٤٤٥، والكامل: ٢/ ٩٠، ٩١.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٧/ ٥.

(٤) هو الإمام شهاب الدين. أبو العبَّاس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٥٦هـ). ولد بحلب، ونُسب إليها، ولُقِّب شهاب الدين، وهو بحلب قبل رحيله إلى مصر، ولشهاب الدين منزلته العلمية، وله تفسيره: الدر المصون، وشرح على الشاطبية... إلخ.

أورده شاهداً من كلام العرب، فيقول:

قلت: وفى التنظير بقوله: «ذهبت أهل اليمامة» نظر؛ لأن «أهل» ليس مقحماً ألبتة؛ لأنه المقصود بالحكم»[1] فثمة إذاً فرق بين الشئ «أهل»، وبعض الشئ «أعناق». فى كل من الآية الكريمة والمثال.

وينقل العلامة أبو السعود (ت ٩٥١هـ) فى تفسيره عبارة الزمخشرى ثم يذكر زيادة «أعناق» وأنها «لزيادة التقرير ببيان موضع الخشوع»[2].

٣ - ويتأثر الإمام الرازى (ت ٦٠٦هـ) فى تفسير هذه الآية الكريمة بالمبرد، فيقول: «وخاضعين وخاضعة هنا سواء قاله عيسى بن عمر واختاره المبرد؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها » ثُمَّ يذكر أنَّ المعنى: « فظلوا لها خاضعين»[3].

٤ - وينقل الإمام القرطبى (ت ٧٦١هـ) قول الرازى السابق؛ فيكون هو الآخر متأثراً بالمبرد، ولكن بطريق الرازى فى «التفسير الكبير».

٥ - ويتأثر القرطبى أيضاً بالمبرد فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ فيقول[4]: واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك... قال الفراء، والمبرد: اليمين والقدرة، وأنشدا «بيت الشمَّاخ».

٦ - وينقل الألوسى (ت ١٢٧٠هـ) جواب اعتراض الزمخشرى السابق وهو: «أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين؛ فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع » ويعقب بذكر السبب فيقول: «لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع

---

(١) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون: ٥/ ٢٦٧.

(٢) تفسير أبى السعود: ٦/ ٣٣٤.

(٣) التفسير الكبير. المجلد السابع: ١٣/ ٦١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٧٨.

فى العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع، دون صاحبه»[1].

٧ - وينقل القاضى البيضاوى (ت ٦٩١هـ) جواب اعتراض الزمخشرى، فيبين الشهاب الخفاجى (ت ١٠٦٩هـ) سبب جعل «أعناق» مقحمة بقوله: «ولما كان «خاضعة» لجمع من يعقل، والأعناق ليست كذلك جعلها مقحمة»[2].

ويبينه شيخ زادة (ت ٩٥١هـ) بقوله: «وتقرير الجواب: أن الخضوع صفة الأعناق، وأخبر عن الأعناق بقوله: «خاضعين» ولما أقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع كان ينبغى أن يغير الكلام إلى خضعة وخاضعات إلا أنه ترك الخبر على أصله، للدلالة عليه»[3].

ثامنًا: ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ):

ومن أعلام البلاغة فى القرن السابع الهجرى أبو الفتح. نصر الله بن أبى الكرم. محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، المعروف بابن الأثير الجزرى. ومن مؤلفاته: «كفاية الطالب فى نقد كلام الشاعر والكاتب» وسأورد مثالين لتأثر صاحبه فى هذا الكتاب بالمبرد:

١ - يقول ابن الأثير فى «باب الغلو»:

وخير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها، وأنشد المبرد:

فلوْ أنَّ مـا أبقيْتِ منّى معلقٌ   بعُود ثُمام، ما تأوّد عودُها

فقال: «هذا متجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائلُ إذا شبَّه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة»[4].

٢ - ويروى فى «باب الاختراع» أبياتاً لأبى نواس، ومنها قوله:

---

(١) روح المعانى: ١٩/ ٦٠.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضى البيضاوى: ٧/ ٣.

(٣) حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوى: ٣/ ٤٦٥.

(٤) كفاية الطالب: ٢٣٧، والكامل: ١/ ٢٩٤.

كُبِرَ حظّى منها إذا هى دارت   أن أراها وأنْ أشمَّ النَّسيماَ

ثمَّ يتبعها بقوله: «ذكر المبرد أنّه لم يُسبَق إلى هذا المعنى»[1].

تاسعاً: القرطبى المفسر (ت ٦٧١هـ):

وممن تأثر من المفسرين بالمبرد الإمام القرطبى[2] فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن الكريم». فقد نقل عنه كثيرا. وهذه بعض الأمثلة:

١ - فى قول الله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾[3] يقول «أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلاً وخضوعا». والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرد[4]:

وفى قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ يقول القرطبى:

وقال المبرد: «العِطف: أى معرض عن الحق فى جداله، ومولٍّ عن النظر فى كلامه». وهو فى تفسير القرطبى[5].

ومظاهر التأثر بالمبرد تطالعك كثيرًا فى تفسير الإمام القرطبى.

عاشراً: ابن منظور (ت ٧١١هـ):

وكان للمبرد أثره الواضح عند ابن منظور؛ فقد نقل عنه فى «لسان العرب» كثيرا، كما تصرف ـ أحيانا ـ فى عبارته، وسأورد هذه الأمثلة:

١ - من أمثلة التشبيه عند المبرد، قول جميل بن معمر:

---

(١) كفاية الطالب: ١٣١، والكامل: ٣/ ١٤٠.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى(ت٦٧١هـ). كان من الصالحين الورعين المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. من مؤلفاته: تفسير القرطبى، والتذكرة فى أحوال الموتى والآخرة.

(٣) سورة إبراهيم: من الآية: ٤٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم، المجلد الخامس: ٩، والكامل: ٣/ ١٢٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن الكريم: ج ٢/ ٤١٠، والكامل: ١/ ١٠، ٣٠٤.

ما صابَ من نابلٍ قـذفتْ بـه يـدٌ وممرّ المُقـدتين وثيقُ
له من خوافِى النسرِ حُمٌّ نظائرٌ ونصلٌ كنصلِ الزّاعبِىّ فتيقُ

يقول ابن منظور: والزاعِبِيَّةُ: رماحٌ منسوبة إلى «زاعب» رجل، أو بلد...، وقال المبرد: تنسب إلى رجل من الخزرج يقال له: «زاعب» كان يعمل الأسنة، ويقال: سِنان زاعبى. وقال الأصمعى الزاعبىُّ الذى إذا هُزّ كأن كعوبه يجرى بعضها على بعض فى بعض للينه... »[1]، وهى عبارة المبرد، بتصرف يسير.

٢- ويقول: وفى حديث أبى بكر ﷺ «فكلكم ورم أنفه على أن يكون له الأمر من دونه ». أى: امتلأ، وانتفخ من ذلك غضبا... »[2].

وقد تصرف ابن منظور فى هذه العبارة؛ فهو يقول: وقوله «فكلكم ورم أنفه». يقول: امتلأ من ذلك غضبا».

أحد عشر: عبد القادر البغدادى(ت ١٠٩٣ هـ):

ومن أهم مؤلفاته «خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب»، وكان كتاب «الكامل» من الكتب التى رجع البغدادى إليها وأفاد منها فى «خزانة الأدب».

وإليك هذه الأمثلة:

١ – فى بيان نصب خبر «كان» وما عطف عليه فى قول الراجز:

«قادِمةً أو قلمـاً محرّفا»

يقول البغدادى: وقد أجيب عن نصب الخبر بأجوبة... قال المبرد فى الكامل: «حُدثتُ أن العُمانِىَّ الراجز أنشد فى صفة الفرس: «كأن أذنيه...»، والراجز وإن كان لَحن فقد أحسن التشبيه[3].

٢ – وفى قول الراجز:

---

(١) كفاية الطالب: ٢٣٧، والكامل: ١/ ٢٩٤.

(٢) لسان العرب: (ورم)، والكامل: ١/ ١٠، وانظر: مادة (سعد)، و (حسد)، والكامل: ١/ ٨.

(٣) خزانة الأدب، الجزء العاشر: ٢٣٧ – ٢٣٩، والكامل: ٣/ ٤١.

«جاءوا بمذق هل رأيت الذئبَ قطْ»

يبين البغدادى المعنى اللغوى، وكذا التشبيه. ثم يقول:

قال المبرد فى «الكامل»: «العرب تختصر التشبيه، وربما أومأت به إيماء». قال أحد الرجاز:

بِتْنا بحسَّان ومعْزاهُ تئِطْ ... ما زلتُ أسعَى بينهم والْتبطْ

حتى إذا جَنَّ الظلامُ واختلطْ ... جاءُوا بمذق هل رأيتَ الذئبَ قطْ

واللبن إذا اختلط بالماء ضرب إلى الغبرة[1].

ثانى عشر: الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩هـ):

وتأثر الخطيب فى «الإيضاح» بما كتبه محمد بن يزيد، ويبدا ذلك فى حديثه عن: التعقيد اللفظى، وفى باب التشبيه، وكذا فى: اللف والنشر غير أنَّ بيان محمد بن يزيد لهذا المحسن البديعى كان أوضح معنىً، وأسهل مأخذاً. وانتفع الخطيب كثيراً فى «السرقات»[2] بما جاء فى الكامل كما سبق.

واكتفى بهذا القدر من تأثير المبرد بكتابه الكامل، فالكتاب مقصد المفكرين والباحثين فى علوم اللغة العربية وآدابها وبخاصة فى «التشبيه» وقلّ أن تجد أحداً من هؤلاء العلماء لم يرجع إلى «الكامل»؛ ليستضئ من بيانه، ويهتدى بأفكاره، وينتفع بأمثلته، أو ينهل من مواعظه.

* * *

(١) خزانة الأدب: ٢/ ١٠٩، والكامل: ٣/ ١٤٩.

(٢) الإيضاح: ٤/ ١١٠، والكامل: ٢/ ١١، ٣/ ٢١٢.

خاتمة

حمداً لله - تعالى - على ما وفّق. وأعان على إنجاز هذا البحث؛ فقد صحبت أبا العباس «محمد بن يزيد» فى كامله زمناً طويلاً، اقتطف ما تناثر فى هذا الكتاب من دراسات البيان العربى، ثم أقوم بتصنيفها ودراستها دراسةً علمية منهجية على ما آل إليه الحال عند الخطيب القزوينى ومن بعده من علماء البلاغة. وقد جاء فى مقدمة، وقسمين، وخاتمة.

ففى المقدمة ذكرت أن كتاب «الكامل» موسوعة من موسوعات تراثنا العربى، وهو بين مؤلفاته واسطة العقد، وفيه تبدو مسائل البلاغة وقضاياها متناثرة. وهذا ما دعانى إلى جمع شتاتها ودراستها دراسة علمية متأنية وفق مقاييس البلاغة من معانٍ وبيان وبديع.

والقسم الأول: أبو العباس المبرد وكتابه «الكامل»، وهو يتكون من مبحثين:

الأول: «ترجمة أبى العبّاس المُبَرّد» وفيه عرضت للعصر الذى عاش فيه وهو آخر العصر العبّاسي الأول، وأوائل العصرالعباسى الثانى والذى كان فيه ضعف الخلفاء، وتسلُّط الأتراك على الحكم مما أدى إلى ظهور عصر الدويلات. وهذا العصر مع ما كان فيه من ضعف سياسى إلاّ أنه عصر العلوم والترجمة، فقد كتب فيه الكثير من الموسوعات، وترجم الكثير من الكتب إلى العربية، وقد كثُرَ اللحن فى هذا العصر، وأضحى خطراً يُهدد العربية. وهذا ما دفع الغيورين إلى مقاومته، فألفت كتب كثيرة منها «فصيح ثعلب» و «دُرّة الغوّاص فى أوهام الخواص» للحريرى....

ثم ترجمت لأبى العباس المبرد، فذكرت نسبه، ونشأته العلمية، وأنه كان موهوباً فصيحاً، ثقة.... كما ذكرت صفاته، وأخلاقه وأساتذته، وتلاميذه، وآثاره العلمية.

الثانى: منهج المبرد فى كتابه «الكامل»

وهذا المنهج يتكون من: منهج عام، وآخر خاص بالبلاغة، ففى المنهج العام ذكرت أن الكتاب اختيارات أدبية معظمها من الشعر الجاهلى إلى عهد المبرد، وشرحها شرحاً وافياً، ويشيع فى «الكامل» الاستطراد، وكثرة الإحالات، وتبدو فيه الأمانة العلمية، وتوثيق الكثير من النصوص، و «الكامل» من أهم المراجع لدراسة الخوارج.

وأما منهج البلاغة فهو يتكون من المنهج الأدبى، واللغوى، والتعليمى وقلّما يبدو المنهج المنطقى غير أن المنهج الأدبى هو الذى يسيطر على الكتاب.

القسم الثانى: وهو يتكون من أربعة أبواب، وذلك على النحو التالى:

الباب الأول: مسائل علم المعانى. وقد بينت فيه أولاً «المفاهيم البلاغية» وهى: الفصاحة، والبلاغة، والنظم، فقد عاب المبرد: التكلف، والاستعانة، وذكر عيوب النطق، وأشاد بالنحو فى سلامة الفصحى، واستشهد بالكثير من مأثور الفصحاء، وأرانا من خلال بيانه للنصوص ثمرة كل من: النظم الجيد، والنظم الردئ، ونبه على الملاءمة بين اللفظ والمعنى.

ثم درست «مباحث علم المعانى»، فذكرت مباحث الإسناد الخبرى من: المجاز العقلى، والتقديم والتأخير، والحذف... وكذا: صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ومباحث الإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب. وذلك من خلال ما بيّن أبو العباس من أمثلة، وأشار إلى قواعد كان لها بعد أثر فى علم المعانى.

الباب الثانى: «علم البيان» وهو يتكون من ثلاثة فصول:

فى الفصل الأول: درست «التشبيه» وقد كان المبرّد فيه رائداً؛ فهو ـ فيما قرأت ـ كان أول من وضع له باباً مستقلاً، كما بيّن طريقة العرب فى التشبيه، وذكر كثرته فى كلامهم. وأورد المبرد من أمثلة التشبيه ما يزيد على المائة مثال، وهذه الأمثلة وتحليلها كانت ثروة لمن كتب بعده فى هذا الباب.

ودراساتى للتشبيه تُعد إضافة جديدة إلى دراسات التشبيه فى البيان العربى، وهى فى حدود ما رأى المبرّد، وعلى ما آل إليه الحال من معايير البلاغة.

وقد نظر المبرد إلى الأدباء نظرة مُحايدة، فهو لا يتعصب لقديم، ويهضم حق مُحدَث، ولذا فإنه استشهد – ولاسيما – فى التشبيه بالكثير من شعر المحدثين، وقد وصف معظمها بالحسن، والجودة، والملاحة. وهو ما يتفق مع قوله: «وليس لقدم العهد يُفضَّل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحق» وهذه هى النظرة المُثلى فى النقد والبلاغة.

وللتشبيه صلة وثيقة بمباحث النظم فمدار جودته: صحة المعنى، واختيار اللفظ، ودقة التصوير، كما أنَّه يتسم بالإيجاز، وهو كذلك وثيق الصلة بمباحث: البيان والبديع. وهذا يدل على تداخل علوم البلاغة ومباحثها؛ فالأسرار البيانية لا تتزاحم.

وكان المبرد أول من اهتدى إلى ما سماه «التشبيه الجامع» وهو ما عُرِف بعد ب «تشبيه الجمع»، كما كان بيانه للتشبيه البعيد صدى عند المتأخرين فى الاهتداء إلى «التشبيه المردود».

وللتشبيه أثره فى توضيح الصورة « البيانية »، فأبو العباس يستعين فى ذلك بالمعنى اللغوى، وبمنهج العرب وهو كثيراً ما يُضفى على الصورة من فكره وثقافته ما يؤيدها، فمن ذلك أنَّه يرجح التشبيه غير الحسى فى قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ ، ويعلله بأنه الذى يسبق إلى القلب، وهو أبلغ من المعاينة فى التنفير.

والمبرد يلح فى تثبيت الصورة البيانية، وإقناعنا بها، ومن ثم فهو يُورد لها – أحياناً – فيضاً من الأمثلة، ويبينها؛ وذلك لتتضح معالمها. وربما قارن بين صورة وأخرى؛ لتتميز كلٌّ عن الأخرى فى الخصوصيات، والتى بها يكون التفاضل فى النظم.

وفى الفصل الثانى: المجاز اللغوى. وهو يتكون من فصلين، الأول. درست فيه «المجاز المرسل» وعلاقاته كما ورد فى «الكامل». وقد وقفت متأنياً عند علاقة «الجزئية» وذلك لاختلاف المفسرين فى كلمة «أعناق» من قوله تعالى:

﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾.

وأخذت على المبرِّد جعل هذه الكلمة: «مقحمة» في الآية الكريمة، فهذا لا يليق بأى لفظ فى كتاب الله - تعالى - فلكل لفظ موقعه الذى لايسد فيه فى النظم القرآنى.

و الإمام عبد القاهر جارى أبا العبّاس فى جعل هذه الكلمة، ثم إن عددًا من العلماء تأثروا بأبى العباس تأثرًا غير مباشر، إما عن طريق الزمخشرى، أو الإمام الرازى، أو القاضى البيضاوى.

فأبو حيّان، والسمين الحلبى ينقلان عن الزمخشرى. والقرطبى ينقل ذلك عن الرازى، والذى نقل هو الآخر عن أبى العباس المبرد.

ويجيء أصحاب الحواشى؛ فيشرحون ما يعنيهم من عبارة القاضى، ويوردون من الأدلة ما يؤيد آراءهم. ومن ثمّ فقد تأثر هؤلاء بأبى العباس المبرد تأثرًا غير مباشر.

وأما الاستعارة؛ فيلاحظ أنّ تعريف المبرِّد لها غير مانع من «المجاز المرسل». ومما يُحسب له: أنه أشار إلى العلاقة، والقرينة، وبيّن أن الاستعارة جارية على منهج العرب. وأمثلته شاملة للاستعارة التصريحية فى الاسم الجامد، والفعل والحرف. وقد وضع مثالاً للحقيقة بجانب الاستعارة ليرينا الفرق بينهما بقوله: «فلان على الجبل» و «فلان عليه دَيْن» وفى الكامل أمثلة للاستعارة العنادية.

وأما المجاز المركب؛ فقد درست له الأمثلة ووقفت متأنيًا عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ذلك أنّ المبرِّد حكى عن أصحاب المعانى تفسير اليمين بالقوة.

وقد فطن لهذه الإشارة الشيخ عبد القاهر. فجعل هذا منهم تفسيرًا على الجملة. ولذا تصدى لهم، وبيّن فى إسهاب أنّ المعنى إنما هو على «المجاز المركب» المفهوم من مجموع اللفظ.

وقد درست طائفة من الأمثال تبين عناية المبرد بها، فهو تارةً يبين معناها،

وأخرى يذكر المثل توضيحًا للأول. وثمة أمثال يندر تحقيق مضمونها كما فى قولهم: «هو أعزُّ من بيْض الأنوق».

وفى الفصل الثالث: درست الكناية؛ فبيَّنت المراد بها عند كل من علماء اللغة والبلاغة، ولاحظت أنَّ أبا العباس وافق اللغويين فى اتساع مدلولها لتشمل الضمير، وبعض صور الالتفات، كما أطلق على بعض أمثلتها «مجاز» و«تورية» وهى لا تعدو أن تكون بعض أغراضها.

وبيَّنت أقسام الكناية. ففى الكناية عن الصفة لاحظت أنَّ من أمثلتها ما عصف به الزمن، فاندثر كالكناية عن السيد فى قومه بأنه «عظيم البطن... فيه طرَش»، ومنها ما تخطى حواجز الزمن، ولا يزال فى أفئدة الناس ماثلاً، كالكناية عن السرقة بـ «خفة اليد»، وفى الكناية عن الموصوف وقفت عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ لأبيِّن أنَّ القصة حقيقية، والنعاج حقيقة، ولا مجال فى ذلك للرمز أو الكناية، وأوردت من أقوال العلماء ما يؤيد ذلك، وقد عرضت للكناية عن النسبة، وكذا للتعريض.

الباب الثالث: «صورٌ من علم البديع» وعرضت فيه لتطور مصطلح بديع إلى أن صار عَلَمًا على ذلك العلم. وذكرت أنَّ جهود أبى العبَّاس كانت واضحة فى بعض الصور، وأنه روى نصوصًا أدبية انتفع بها العلماء بعد فى دراسة صور بديعية أخرى. وقد بيَّن على ضوء المثال مفهوم «اللف والنشر» وعنه أخذ العلماء هذه الصورة البديعية، وكان لأمثلة التجريد التى رواها المبرِّد، وبيَّن مدلولها أثرٌ عند كلٍّ من: أبى الفتح ابن جنى، وعبد القاهر، والخطيب... إلخ.

وفى الكتاب لمحات عن: الأخذ والسرقة، والحلّ، والعقد، فقد نبَّه المبرِّد على ذلك، وذكر أمثلة كثيرة.

الباب الرابع: المبرد بين التأثر والتأثير فى بلاغة «الكامل»، وجاء فى فصلين:

الفصل الأول: تأثر المبرِّد بغيره من العلماء. فالتأثر والتأثير سُنَّة الله فى الإنسان... فتأثُّر اللاحق بالسابق أمر فطرى وقد تأثر المبرِّد بعدد من العلماء،

وفى مقدمتهم: سيبويه، والفرّاء، وأبو عبيدة، والأصمعى، والجاحظ. وإنّ آثار هؤلاء العلماء نجد لها ظلاً فى كتاب «الكامل».

الفصل الثانى: تأثير المبرّد فيمن بعده من العلماء.

فقد كان له أثره الواضح فيمن بعده من لغويين، وأدباء، ومفسرين... فكثيرًا ما صرح هؤلاء العلماء بذلك وكان فى مقدمتهم: أبو إسحاق الزجّاج، وقُدامة ابن جعفر، وأبو عبد الله المرزبانى، وابن السيد البطليوسى، وابن رشيق القيروانى، وعبد القاهر الجرجانى، والزمخشرى، وضياء الدين بن الأثير، والقرطبى، وابن منظور، وعبد القادر البغدادى... فكتاب «الكامل» كان مقصد المفكرين والباحثين فى علوم اللغة العربية، وقلّ أن نجد أحدًا من هؤلاء لم يرجع إليه.

ومع النهاية أقول: إنّ محمد بن يزيد المُبرّد فى طليعة الأعلام الذين أثروا مباحث البلاغة، وساهموا بجد فى تطورها. ولعلّ الكثير ممن اهتموا بالتأليف فى تاريخ البلاغة لم يعدوه ضمن أعلامها البارزين؛ لأن دراساته فيها - إذا استثنينا «باب التشبيه»، ورسالته فى: «البلاغة» - كانت لمحات خاطفة، ومسائل متناثرة. ولكنى بهذه الدراسة أرى أنّ المبرّد بكاملهِ من علماء البلاغة البارزين، كما أنه بكتاب «المقتضب» من أعلام النحو والصرف المشهورين.

ومع أبى العباس بما ختم به كتابه، فقال: «وهذا آخر الكتاب «الكامل»، والشكر لله، والحمد لله. وصلى الله على رسول الله، ونستغفر الله مما قلناه عن عمدٍ وقصد وزلل»

اللهم استجب له ولنا. آمين.

دكتور

مصطفى السيد جبر

* * *

أهم المراجع

١) أثر النحاة في البحث البلاغي. د/ عبد القادر حسين، طبعة نهضة مصر ١٩٧٥م.
٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري. دار الفكر.
٣) أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة.
٤) أسس النقد الأدبي عند العرب د/ أحمد محمد بدوي. دار نهضة مصر ١٩٦٤م.
٥) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. محمد بن علي الجرجاني. تحقيق: د/ عبد القادر حسين، مكتبة الحسين.
٦) الأصمعيات تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون. دار المعارف، الطبعة الخامسة.
٧) الإعجاز في نظم القرآن. د/ محمد السيد شيخون. مكتبة الكليات الأزهرية، ط. أولى.
٨) الأعلام للزركلي، ط. بيروت.
٩) ألوان من البديع (تحرير وتأصيل) د/ عبد الله عليوه حسن، طبعة دار الأرقم بالزقازيق.
١٠) الأمالي لأبي علي القالي، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت.
١١) أمالي المرتضى تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار احياء الكتب العربية، طبعة أولى، ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م.
١٢) الإيضاح شرح الشيخ عبد المتعال الصعيدي (بغية الإيضاح)، مكتبة الآداب، الطبعة السادسة ١٤١٢هـ.
١٣) البحث البلاغي عند العرب (تأصيل وتقويم) دكتور شفيع السيد، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
١٤) البحر المحيط لأبي حيان، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
١٥) البديع (تأصيل وتجديد) د/ منير سلطان. منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٦م.
١٦) البديع في نقد الشعر. أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوي، ودكتور حامد عبد المجيد. ط مصطفى الحلبي.
١٧) بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: الدكتور حفني شرف، دار نهضة مصر.

١٨) **البرهان في علوم القرآن للزركشي**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث.
١٩) **البلاغة العربية في ثوبها الجديد**. علم البيان، د/ بكري شيخ أمين. دار العلم للملايين. طبعة أولى ١٩٨٢م.
٢٠) **البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية** د/ عبد الله محمد سليمان هنداوي، مطبعة الأمانة، ط١٩٩٦م.
٢١) **البلاغة والفصاحة لغة واصطلاحًا**. د/ محمد جابر فياض. دار المنار، جدة، ط. أولى ١٩٠٤هـ - ١٩٨٩م.
٢٢) **البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر** د/ علي علي صبح. المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢٣) **البيان والتبيين**. الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٢٤) **تأويل مشكل القرآن** لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٢٥) **تحرير التحبير** لابن أبي الإصبع، تحقيق: د/ حفني شرف، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣هـ.
٢٦) **التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني**. د/ عبد الفتاح عثمان - مكتبة الشباب ١٩٩٣م.
٢٧) **تفسير أبي السعود**. دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٨) **تفسير التحرير والتنوير**. للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، تونس الطبعة الأولى.
٢٩) **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير. دار الشعب. القاهرة.
٣٠) **التفسير الكبير** للرازي. دار الكتب العلمية - بيروت.
٣١) **تفسير المنار**، الطبعة الرابعة، مكتبة القاهرة.
٣٢) **جامع البيان**. ابن جرير الطبري. ط. مصطفى البابي الحلبي.
٣٣) **الجامع الصحيح** «سنن الترمذي»، دار الحديث.
٣٤) **الجمان في تشبيهات القرآن**. ابن ناقيا البغدادي.
٣٥) **حاشية الشهاب الخفاجي** وبالهامش (تفسير البيضاوي) مؤسسة التاريخ العربي - بيروت.

٣٦) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٧) خزانة الأدب لابن حجة الحموي، شرح: عصام شعيتو، مكتبة الهلال – بيروت.
٣٨) خزانة الأدب للبغدادي، شرح: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي.
٣٩) الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الثانية.
٤٠) دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. علق عليه: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي – القاهرة.
٤١) رغبة الآمل من كتاب الكامل. سيد بن علي المرصفي، مطبعة النهضة ١٣٤٧هـ ١٩٢٩م.
٤٢) سنن ابن ماجة. دار إحياء الكتب العربية.
٤٣) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. لابن الأنباري. تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الرابعة.
٤٤) شرح المفصل لابن يعيش. مكتبة المتبني بالقاهرة.
٤٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار المعارف.
٤٦) الصيغ البديعي في اللغة العربية. د/ أحمد موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.
٤٧) صحيح البخاري. طبعة دار الشعب.
٤٨) الصناعتين أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي.
٤٩) الطراز. العلوي. دار الكتب العلمية – بيروت.
٥٠) العمدة لابن رشيق. دار الجيل – بيروت.
٥١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني. ط. مصطفى الحلبي ١٩٥٩م.
٥٢) الفنون البديعية في دائرة البحث البلاغي. د/ فوزي السيد عبد ربه مكتبة الحسين الإسلامية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٥٣) الكتاب لسيبويه. تحقيق: عبد السلام هارون. ط. الخانجي.
٥٤) كتاب البديع لابن المعتز. منشورات دار الحكمة، دمشق.
٥٥) كتاب المقتضب. المبرد. تحقيق: الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة. ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٥هـ.
٥٦) الكشاف للزمخشري. ط. دار إحياء الكتب العلمية.

٥٧) **كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب** لابن الأثير. تحقيق: د/ النبوي عبد الواحد شعلان. الزهراء للإعلام العربي. ط. أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٥٨) **لسان العرب** لابن منظور، دار المعارف.
٥٩) **المبرد واضع النواة الأولى لمباحث التشبيه**. الأستاذ أحمد محمد الحجاز، بحث بمجلة كلية اللغة العربية، بالرياض.
٦٠) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة، دار نهضة مصر.
٦١) **مجاز القرآن**. أبو عبيدة. علق عليه: د/ محمد فؤاد سزكين. مكتبة الخانجي.
٦٢) **مجالس ثعلب** شرح عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
٦٣) **مجمع الأمثال** للميداني. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية.
٦٤) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي. دار الكتب العلمية - بيروت.
٦٥) **مسند الإمام أحمد**. المكتب الإسلامي - بيروت.
٦٦) **المطول على التلخيص** طبعة تركيا ١٣٣٠هـ.
٦٧) **معاني القرآن** للفراء تحقيق: عبد الفتاح شلبي. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.
٦٨) **مفتاح العلوم** للسكاكي. علق عليه: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية - بيروت.
٦٩) **منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز**. للشنقيطي. مكتبة ابن تيمية ١٩٨٨م.
٧٠) **الموشح** للمرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط. نهضة مصر.
٧١) **نقد الشعر** لقدامة بن جعفر. تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي. مكتبة الكليات الأزهرية، ط. أولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٧٢) **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية.
٧٣) **الوساطة بين المتنبي وخصومه** للقاضي الجرجاني: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية.

* * *

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثاني : تأثير المبرد ممن بعده من العلماء	(٤٢٩ – ٤٤٢)
• خاتمة	٤٤٣
• أهم المراجع	٤٤٩
• فهرس الموضوعات	٤٥٣

* * *

مكتبة
لسان العرب
أ علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com